جامعة الجزائر 2

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ

مجلة الدراسات التاريخية

مـــجلة دوريـــة مـــحكـــمة

العـــدد الرابـــع عشـــر 14

– السنة: 1433هـ/2012م

إدارة المجلة

الرئيس الشرفي للمجلة:.....الأستاذ الدكتور عبد القادر هني

مديـــــــر المجلـــــة:.....الأستاذ الدكتور عبد المجيد دهوم

رئيس تحرير المجلـــــة:.....الدكتور عيفة الحاج

نائب رئيس التحرير ..... الأستاذ الدكتور مولود عويمر

هيئة التحرير

الدكتور عبد العزيز بوكنة

الدكتور دراج محمد

المراجعة والتدقيق اللغويين: **الأمانـــــــــة:**

د. محمد بلقاسم **أ. هواري موسى**

د. بشير سعدوني

عنوان المجلـــة

مجلة الدراسات التاريخية

قسم التاريخ – كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة الجزائر 2 بوزريعة

شارع جمال الدين الأفغاني –بوزريعة– الجزائر

العنوان الكتروني: dirassatetarikhia@gmail.com

اللجنة العلمية للمجلة

د. أحمد شريفي	أ.د. فلة القشاعي
أ.د. بلقاسم رحماني	أ.د. أرزقي شويتام
أ.د. محمد الأمين بلغيث	أ.د. محمد بن عميرة
أ.د. الغالي غربي	د. مصطفى نويصر
أ.د. شاوش حباسي	أ.د. بوعزة بوضرساية
أ.د. محمد القورصو	د. محمد بلقاسم
د. عبد العزيز بوكنة	أ.د. مختار حساني
أ.د. جمال قنان	د. أحمد رضوان شرف الدين
د. قويدر بشار	د. الحبيب بشاري
أ.د. بن يوسف تلمساني	أ.د. منصف بكاي
د. لطيفة بشاري بن عميرة	د. عبد المجيد بن عدة

قواعد النشر

تقوم المجلة بنشر الدراسات والمقالات العلمية الأصيلة، وتقارير أعمال الندوات والمتلقيات والأيام الدراسية، وعرض لإصدارات تاريخية بشرط أن تتوفر الشروط العلمية والمنهجية في المقال المنشور. وعلى الباحثين الراغبين في نشر إسهاماتهم الالتزام بقواعد النشر العلمية التالية:

- أن يكون المقال جديدا لم يسبق نشره من قبل
- أن يكون المقال في موضوع تاريخي باللغة العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية
- يرفق المقال بملخص بلغة مغايرة للغة المقالة الأصلية
- يقدم المقال في نسختين مطبوعتين وقرص مضغوط قابل للنسخ
- الكتابة على صفحة واحدة من ورقة ذات مقاس A4 بخط arabic 16 Traditional بالنسبة للمقالات المكتوبة بالعربية، وTimes New Roman 12 بالنسبة للمقالات المكتوبة بلغة أجنبية
- يكتب عنوان المقالة في وسط الصفحة بلون داكن، متبوعا باسم ولقب الكاتب ودرجته العلمية والمؤسسة التي ينتمي إليها. وذلك على يسار الصفحة بعد العنوان مباشرة
- ترتب قائمة المصادر والمراجع ترتيبا ألفبائيا وفق الاسم العائلي (اللقب) في قائمة موحدة في آخر المقال في صفحة مستقلة
- يجب أن لا يقل عدد صفحات المقالة عن 10 ولا يزيد عن 20 صفحة. وأن لا يزيد عدد الأشكال والرسوم والملاحق عن 15٪ من حجم المقالة
- يلزم أن تراعى القواعد العلمية المتعارف عليها في التهميش (لقب واسم المؤلف، المصدر أو المرجع، دار النشر، مكان النشر، سنة النشر، الطبعة، الجزء، الصفحة)
- تخضع كل المقالات المرسلة إلى المجلة للتحكيم من قبل خبيرين
- المقالات المرسلة إلى المجلة لا ترد إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر

الفهرس العدد

كلمة العدد.....08

التاريخ القديم

د. محمد الحبيب بشاري

التوسعات الرومانية وانعكاساتها على الزراعة المغاربية.....13

التاريخ الوسيط

أ. موسى هواري

استخدام الحيوانات في الزراعة ببلاد المغرب خلال الفترة الإسلامية.....37

د ة. نشيدة رافعي

ذِكر وصف ومحتوى كتاب "أخبار ملوك بني عبيد" لابن حمّاد الصّنهاجي.....51

د. رشيد تومي

الحوض الغربي للبحر المتوسط في عهد روجر الثاني (1101- 1154م).....67

د. نور الدين غرداوي

كتب الفتاوى مصدراً لكتابة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي للمغرب الأوسط.....97

أة/ زكية كربال

حركة التنصير بإمارة كييف.....123

د. توفيق مزاري

حركة الرباط الساحلي والنشاط البحري في عهد الأغالبة.....139

التاريخ الحديث

يوسف أمير

إسهام الدايات في وقف المساجد بمدينة الجزائر (1671-1830م).....165

أة. مهدية طيبي

نموذج من العائلة الأندلسية في مدينة الجزائر في الفترة العثمانية القرنين (17-18م).....179

أة. يامنة بحيري

الموروث الحضاري الأندلسي في شرشال.....197

أة. ليلى غويني

التواصل الثقافي للرّحّالة الجزائريين مع العلماء المغاربة في العصر الحديث.....213

د. عبد القادر مولاي

الصراع العثماني الأوربي خلال القرن 19م.....233

التاريخ المعاصر

أد. أبو القاسم سعد الله

سليمان باشا الباروني والجزائر.....255

د. محمد لحسن زغيدي

بيان أول نوفمبر 1954 وأبعاده.....271

أ.د. منصف بكاي

دور الجزائر ما بعد الاستقلال في تحرير إفريقيا ومقومات دبلوماسيتها الإفريقية.....311

د. بشير سعدوني
الصحراء الجزائرية بين رغبة الفرنسيين في الاحتفاظ بها وإصرار الجزائريين على عدم التنازل عنها.....343
د.عبد الرحمان أولاد سيدي الشيخ
ثورة مايس العراقية بين اجتثاث فكرها العروبي وساسة بريطانيا المتصهينين...359
أة. سعاد مصطفاوي
دور الحضارة العربية الإسلامية في تطوير الحركة العلمية في غرب إفريقيا.....375
ملحق المجلة 391

كلمة العـــدد

د. الحاج عيفه
رئيس التحرير

لا أستطيع أن أنكر أو أخفي فرحي وأنا أكتب هذه الكلمات للعدد الرابع عشر من مجلة الدراسات التاريخية، لأن صدور هذه المجلة يعني الكثير بالنسبة لي.

يعني أن مرحلة الجهد المصروف في الاتصالات الأولية والإعداد وما استلزم ذلك من صبر قد انتهى إلى نتيجة مرضية، ويعني القضاء على بذور الشك بإمكانية صدور المجلة، كانت تنمو رغم عوامل الذبول والاضمحلال التي تحيط بها، ويعني أيضا بعث أمل في نفوس أساتذة قسم التاريخ الذين كانوا يطمحون إلى إصدار هذه المجلة.

وحينما نضع العدد الرابع عشر من مجلة الدراسات التاريخية في متناول الأساتذة الكرام، لا نزعم أننا وضعنا الأنموذج الذي نتطلع إلى أن تكون عليه المجلة، ولا نزعم أننا سلكنا المنهج القويم الذي نرتضيه لهذه المجلة، ولكننا نستطيع أن نؤكد أننا بذلنا جهدا صادقا كي تبرز هذه المجلة إلى حيز الوجود، وحرصنا أن يكون الخلف على صلة بذاك السلف، ليتقدموا ويأخذوا مكانهم ودورهم حيث يضعون المجلة في مسارها الذي يحقق أهدافها ويبلور شخصيتها.

وإننا إذ نعلن عن طموحات وتطلعات كبيرة في إصدار هذه المجلة، لنؤكد أن تحقيق تلك الطموحات والتطلعات منوط بهمة الأساتذة الباحثين والمهتمين بالبحث العلمي، الغيورين عليه، العارفين أسراره، المدركين لمكانته من تاريخ الأمم .

أولئك الذين يعنيهم الأمر قبل سواهم ويقدرون عليه ويضطلعون بأعبائه. لهم هذا الميدان وهم فرسانه... وإنما نحن أعلنا عن وجود ساحة من ساحاته هنا، ساحة هم فرسانها وحملة راياتها.

وأرى من وجهة نظر خاصة، أن الواجب الوطني يتطلب من الأساتذة الذين لهم اهتمام في البحث العلمي المساهمة في هذه المجلة لتتمكن من تحقيق أهدافها، ولتفلح في سد ثغرة في المكتبة الجزائرية والعربية.

ودعت مجلة الدراسات التاريخية الأساتذة المشاركة بأقلامهم وأفكارهم برؤى جديدة، وطروحات حديثة، التي تهدف إليها المجلة، ولعل قادمات الأيام تحمل إلينا ما يرمم البناء الذي يصل بنا إلى سقف التوقعات التي أردناها. وتظل المجلة تحمل شعار (ما لا يُدرَك كلّه لا يُترك جُلّه)، فلهذا سنقدم في هذا العدد ما وفد عليها من بحوث اصطفت هيئة التحرير أرصتها وأقربها من رسالة المجلة كمجلة محكّمة، وآمل أن تكون المجلة قد حققت بعض ما تصبو إليه من أغراض علمية.

في هذا العدد تكاثرت المقالات علينا، وهي مقالات أكثرها تدور في محور العموميات، وعنصر التجديد وتطوير الفكر كان فيها قليل، ولذلك نأمل ألا يلومنا الأساتذة الذين تتهاطل علينا بحوثهم إذ اصطفينا منها ما ينسجم مع مجلتنا المحكمة، وسَمْتها الفكري، ومنهجها الثقافي الذي سارت عليه منذ نشأتها، ومن هنا نعتذر لبعض الأساتذة الذين تراخى الزمن على وصول بحوثهم إلينا، فاستبعدنا بعضها الذي لم تتحقق فيه شروط النشر التي نكررها في كل عدد، ولا يلتزم بها بعض الأساتذة أو أنها لا تتمشى مع نهج المجلة ومستواها الذي تحافظ عليه، وما عدا ذلك فالمجلة تفتح صفحاتها لكل بحث رصين مهما كان كاتبه، ومهما كانت نزعته الفكرية.

إن مجلة الدراسات التاريخية بصدور عددها الرابع عشر أصبحت حقيقة ملموسة، ويتطلب استمرارها جهد القادرين ومشاركتهم... ويتحقق لها الدعم

المعنوي والمادي اللازمين، كما لمست قناعة لدى كثيرين ممن يعنيهم الأمر بضرورة وجودها.

ويقتضي الواجب أن أسجل بالتقدير، الدعم المادي والرعاية التي لقبتها من طرف الأستاذ الدكتور عبد القادر هني رئيس جامعة الجزائر 2، والأستاذ الدكتور عبد المجيد دهوم عميد كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية.

كما أسجل بالعرفان شكري للأساتذة قسم التاريخ الذين دعموا فكرة إحياء هذه المجلة وشجعوا عليها، وكذلك أسجل شكرا خاصا للذين أسهموا في مواضيع العددين الثالث عشر والرابع عشر. وأعضاء هيئة التحرير الذين بذلوا جهدا كبيرا من أجل إصدار هذين العددين.

أتمنى أن تحقق هذه المجلة أهدافها وأن تسد ثغرة في المكتبة الجزائرية والعربية، والله ولي التوفيق.

البحوث والدراسات

التوسعات الرومانية وانعكاساتها على الزراعة المغاربية

د. محمد الحبيب بشاري
قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2

أحدثت الغزوات الرومانية في حوض البحر المتوسط، ثورة في الاقتصاد الروماني، فقد نقلت روما من الاقتصاد الأسري القائم على الاكتفاء الذاتي والتقشف، إلى اقتصاد الرخاء والبذخ، بفضل ما كان يتدفق عليها من الأراضي التي احتلتها وحولتها إلى مقاطعات رومانية. وقد تمخض عن الوضع تغييرا جذريا في المجتمع الروماني، بعد أن فقدت طبقة الملاك الصغار دورها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية وأصبح عدد كبير من أفرادها يعاني البطالة، وهيمنت طبقة الملاك الكبار على مقاليد الاقتصاد، والحياة السياسية والاجتماعية. بالإضافة إلى ذلك، لم يعد الاقتصاد في يد طبقة النبلاء فقط، إذ برزت فئة الفرسان التي تعد من أكبر المستفيدين من التوسعات التي عرفتها روما.

ومن النتائج التي ترتبت عن تغير أسس النظام الاقتصادي، وتدفق ثروات الأراضي الجديدة التي ضمتها روما، تبني طبقة النبلاء والفرسان نمط معيشة نبلاء الشرق، القائم على البذخ والترف، فظهرت المرافق الاجتماعية والترفيهية الضخمة، مثل المدرجات والمسارح، وبنيت القصور وانتشرت الأطعمة الشرقية. لكن من أهم التغييرات التي كان لها آثار خطيرة على مستقبل الدولة الرومانية، ما شهدته الزراعة من تغير في ملكية الأرض ومساحة الوحدات الزراعية والإنتاج الزراعي، فقد توسعت مزارع الطبقة الارستقراطية، واختفت المزارع الصغيرة وأصبح أصحابها يعتمدون في حياتهم على ما تمنه عليهم الدولة أو الأثرياء من مساعدات غذائية، وتراجعت زراعة الحبوب التي تمثل الغذاء الأساسي للمجتع الروماني بشكل هدد كيان الدولة الرومانية.

الوحدات الزراعية:

كانت الزراعة الرومانية في العصرين الملكي و الجمهوري قوام الحياة الاقتصادية والاجتماعية، كما كان المواطن الروماني يعتز بكونه فلاحا وجنديا في نفس الوقت[1]. وقد تميزت هذه المرحلة بسيادة الملكيات الصغيرة، التي كانت تتراوح مساحتها بين 2,4 و 4,8 يوجرة (0,5 و 1,2 هكتار)[2]، تستغل من طرف أفراد الأسرة مع الاستعانة ببعض العمال الأحرار عند الضرورة. إلى جانب هذه الوحدات، وجدت مزارع متوسطة وكبيرة تراوحت مساحتها بين 200 و 240 يوجرة(50 و 60 هكتار)[3]، تستغل من طرف العبيد، تحت إشراف صاحب المزرعة مباشرة.

نفس الوضع ميز أراضي وسط شبه جزيرة إيطاليا في كمبانيا ومرتفعات الصابينيين وبيكنوم (Picenum) وصامنيوم (Samnium)، وفي الشمال حيث قبائل السلتيين. في حين اختلف الوضع قليلا في منطقة أتروريا، التي سادت فيها الضيعات الواسعة، التي اعتمد في استغلالها على العبيد[4].

لكن الأمور تغيرت بعد أن فرضت روما هيمنتها على كل شبه جزيرة إيطاليا ، و ضمها لأراض شاسعة، واعلانها "ملكية عامة للشعب الروماني" (Ager publicus populi romani) سخرتها لخدمة أغراضها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وذلك باقتطاع جزء منها، أسست فيه مستعمرات رومانية، ومنحت جزءا ثانيا؛ وهو عادة الأكثر خصوبة؛ إلى الطبقة الأرستقراطية، وباعت جزءا ثالثا في المزاد العلني في روما، وقد عاد إلى الطبقة الأرستقراطية وخاصة فئة الفرسان. أما القسم المتبقي من الأراضي التي استولت عليها روما، فقد ترك للأهالي يستغلونه مقابل ضريبة المهزومين (Stipendium). وبالنسبة للأراضي البور، وغير القابلة للاستغلال بسبب عزلتها أو انتشار المستنقعات بها، أو بسبب تعرضها للتخريب بفعل الحروب، فقد وضعت تحت تصرف من يريد استغلالها مقابل ضريبة سنوية، اختلفت من الزراعة الشجرية إلى زراعة الحبوب[5].

وفيما يتعلق بالمستعمرات، التي اختلفت فيها مساحة القطع الموزعة على المستفيدين، من عصر إلى آخر[6]، فكانت مهمة بالنسبة للسلطة الرومانية، إذ ساعدتها على معالجة مشاكل اقتصادية واجتماعية وسياسية وعسكرية كثيرة. فقد سمحت لها بمضاعفة عدد ملاك الأراضي الصغار، وهو ما يتجلى من الإحصائيات التي تبرز أن عددهم ارتفع بين 343 و 264 ق.م. بستين ألف مالك، وبين 264 و 133 ق.م. بمائة ألف[7]، وهذا التطور مهم في حياة روما، لأنه وفر للفلاحين المعدمين أراض يعيشون منها، وبالتالي أغلقت في وجههم أبواب الهجرة نحو المدن، وجنّبت نفسها مشاكل خطيرة. بالإضافة إلى ذلك لعبت المزارع الصغيرة دورا كبيرا في تأمين الغذاء للمواطنين الرومان، خاصة أن معظمها كان متخصصا في انتاج الحبوب وعلى رأسها القمح، الذي يكون الغذاء الأساسي للسكان.

ومن الناحية العسكرية، ساهم ارتفاع عدد الملاك الصغار والمتوسطين في تكوين الجيش الروماني، إذ كانوا يكونون العمود الفقري للقوات الرومانية، فهم الذين تصدوا لكل الأخطار التي هددت روما من جهة، وهم الذين وسعوا أراضيها، حتى أصبحت إمبراطورة مترامية الأطراف، خاصة أن القانون الروماني يحصر التجنيد في المواطنين الرومان، الذين يتوفرون على قدر معين من الثروة، تسمح لهم بتجهيز أنفسهم[8].

كما لعب المزارعون الصغار والمتوسطين دورا سياسيا، عن طريق مشاركتهم في انتخابات مختلف المجالس التي كانت تشرف على المدينة.

ظهور الضيعات الواسعة واختفاء المزارع الصغيرة والمتوسطة:

إلى جانب الوحدات الزراعية الصغيرة والمتوسطة، امتلك النبلاء المزارع الكبرى (Latifundia)، ونظرا لشغف الرومان بامتلاك الأرض التي تعد في نظرهم أهم وأغلى ما يمكن أن يملكه المواطن الروماني، استغل الأرستقراطيون الظروف التي مرت بها روما لتوسيع أملاكهم. فقد بدؤوا بالإستحواذ على جزء كبير من الأملاك العامة، ثم انتقلوا لضم أراضي المزارعين الصغار والمتوسطين مستغلين تغيبهم لسنوات عديدة، بسبب مشاركتهم في الحروب التي كانت تخوضها روما

باستعمال كل الوسائل الشرعية وغير الشرعية. كما استغل الأرستقراطيون عزوف جزء من الجنود العائدين من جبهات الحرب العودة إلى الحياة الريفية الروتينية وعمل الأرض، بعد أن تعودوا على الحياة العسكرية والحرب وإثارتها. كما استولوا على أراضي المزارعين العائدين من الحرب، والذين فشلوا في بعث الحياة في مزارعهم بعد الإهمال الذي عانت منه، إثر غيابهم لعدم توفرهم على الإمكانيات المادية الضرورية لذلك، أو لعدم قدرتهم على منافسة انتاج المزارع الكبرى، أو ذلك المستورد من المقاطعات التي ضمتها روما.

تدل المعطيات أن أول المناطق التي تطورت فيها الضيعات الكبرى كانت تلك التي ثارت قبائلها في شبه جزيرة إيطاليا ضد روما، كأرض الصابينيين واللاتين وأبوليا وصامنيوم وبيكنوم وكمبانيا، فبعد أن هزمتها روما، وأبادت سكانها أو شردتهم، استولت على أراضيهم، كما ضمت الأراضي التي شهدت الخراب والدمار وتشرد سكانها خلال الحرب البونية الثانية. و ابتداء من 146 ق.م. انتشرت الضيعات الواسعة في المقاطعات الإفريقية، ويتجلى ذلك جليا في تلك المساحات الشاسعة التي امتلكتها الطبقة الأرستقراطية وعلى رأسها الإمبراطور في منطقة السهول الكبرى بحوض وادي باغرداس (مجردة) و سهول سطيف ومجانة وغيرها، وهو ما يبرزه قرار الإمبراطور نيرون بمصادرة أملاك ستة ملاك رومان استحوذوا على نصف الأراضي الزراعية بمقاطعة إفريقية.

من كل ما سبق يتضح أن الطبقة الأرستقراطية استغلت الأوضاع السياسية التي مرت بها روما من جهة، والحالة المزرية التي أصبح عليها المزارعون الصغار والمتوسطين لتوسع أملاكها، التي لم يعد لها حدود، إذ تجاوزت مساحتها تلك التي عرفتها روما في بداية تاريخها، حيث تعدت آلاف الهكتارات[9].

وإزاء تهافت أفراد طبقة النبلاء والفرسان على امتلاك الأراضي بكل الطرق، وتوسيع أملاكهم على حساب المزارعين الصغار، الذين يكونون الركيزة الأساسية للمجتمع الروماني شعر المسؤلون الرومان بضرورة وضع حد لهذا الوضع، لأنه يهدد أسس الدولة الرومانية، فاصدر القنصلان ليكنيوس (Licinius) وسكستوس

(Sextus) سنة 367 ق.م. قانونا يحرّم على كل مواطن امتلاك أكثر من 500 يوجرة (125 هكتار)، ومائة رأس من الماشية الكبيرة (أبقار...) و 500 رأس من الماشية الصغيرة (أغنام)[10]، وهذا حتى يمكن الاستجابة لمطالب الفلاحين الذين فقدوا أراضيهم، في الحصول على قطعة أرض يعيشون منها. ويبدو أن هذا القانون طبق في البداية بصرامة، حيث ارتفع عدد الملاك في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد إلى ستين ألف[11]، لكن ذلك كان ظاهريا لأن الكثير من الملاك الكبار تحايلوا على القانون ، بتنازلهم عن أجزاء من ضيعاتهم إلى أقاربهم أو أتباعهم، وهذا ما زاد الأغنياء غننا والفقراء فقرا، حتى قال بلينوس الكبير: "لقد أضاعت الضيعات الكبرى إيطاليا"[12].

وبصفة عامة غيرت التوسعات الرومانية وجه الزراعة الإيطالية، إذ هيمنت عليها الضيعات الواسعة (Latifundia)، فقبل عصر كاتون الكبير، كانت تعتبر ضيعة واسعة ما يتجاوز قدرة عمل أسرة واحدة، لذلك اعتبرت واسعة كل مزرعة تصل أو تزيد مساحتها عن 200 يوجرة (50 هكتار)، لكن في القرن الأول قبل الميلاد زادت مساحة الضيعات توسعا، فأصبحت تعتبر واسعة الضيعة التي تصل مساحتها 1000 يوجرة (250 هكتار)، وفي القرن الأول ميلادي أصبحت هذه المساحة تافهة، إذ ظهرت ضيعات لا يمكن لصاحبها تفقدها وهو يمتطي صهوة حصان في يوم واحد[13].

تراجع الإنتاج الزراعي:

في نفس الوقت الذي زادت فيه الضيعات الكبرى توسعا، عرفت زراعة الحبوب تحديا لم تستطع التغلب عليه، وتمثل ذلك في تدفق قمح المقاطعة الرومانية الجديدة صقلية، والذي كانت تحصل عليه روما على شكل ضريبة عينية، تدفع به إلى السوق بأسعار منخفضة، مقارنة مع أسعار القمح الروماني أو الإيطالي[14] لكسب مساندة الطبقة الفقيرة والعاطلين، مما شكل منافسة غير متكافئة بين المنتوجين، حاول المزارعون الإيطاليون مقاومتها، لكن دون جدوى، ومع مرور

الوقت زادت مصاعبهم تفاقما مع وصول قمح مقاطعات سردينيا واسبانيا وإفريقيا ومصر، وبذلك انهارت زراعة الحبوب في شبه جزيرة إيطاليا.

أمام هذه الأزمة ارتأى المزارعون تبني زراعات أخرى ما تزال مربحة، مثل زراعة الكروم والزيتون، لكن هذا النوع من الزراعة يحتاج إلى مساحات واسعة، ورؤوس أموال مرتفعة، وانتظار سنوات عديدة لجني الأرباح، وهذه الإمكانيات لم تكن متوفرة إلا لدى الملاك الكبار، وأصحاب القوة المالية الهائلة، والأعداد الكبيرة من العبيد، وبذلك دخل الملاك الصغار والمتوسطين، الذين استطاعوا الصمود أمام كل التحديات التي شهدتها الزراعة الإيطالية مرحلة الاحتضار الاقتصادي، انتهت بهم إلى التخلي عن أراضيهم للملاك الكبار، والتحول إلى عمال في مزارعهم، أو الهجرة إلى المدن الكبرى وعلى رأسها روما.

نتيجة للأسباب سالفة الذكر، شهدت إيطاليا بدءا من القرن الثاني قبل الميلادي تمركز الأراضي الزراعية في يد فئة قليلة من الملاك الكبار، ينتمون إلى الطبقة الأرستقراطية، وغيرهم من رجال الأعمال والمال، الذين لم تكن تعنيهم مصلحة الدولة، وتلبية حاجة المجتمع الروماني الأساسية المتمثلة في الحبوب، بل ما تدره عليهم من أرباح[15]، لذلك استغلوا أراضيهم في زراعات نقدية مربحة، مثل الزيتون والكروم وتربية الماشية، معتمدين في ذلك على يد عاملة كثيرة تتكون من العبيد الذين جلبوا من مختلف الأراضي التي استولت عليها روما، حتى أن التربيون ماركيوس فليبوس (L.Marcius Philippus) صرح سنة 104 ق.م. في هذا الشأن: "لا يوجد في المدينة (روما) 2000 مواطن يملكون أرضا، في حين أبرزت إحصائيات جرت في نفس الفترة عن وجود 400 ألف مواطن في سن التجنيد[16].

لقد أدى توسع الوحدات الزراعية على حساب الفلاحين الصغار والمتوسطين وإحالة هؤلاء على البطالة دون إرادتهم، إلى تهديد السلم الروماني والاستقرار الاجتماعي، مما أجبر المسؤولين الرومان؛ خاصة في فترات الانتخابات، إلى الاستفادة من حبوب بعض المقاطعات، لمنح العاطلين الغذاء المجاني، وبذلك

وبرزت ظاهرة شاذة في عالم العلاقات الدولية، وهي تأثير المستعمر على المستعمر، وبعبارة أخرى أصبحت روما تابعة اقتصاديا وغذائيا لمستعمراتها، وخاصة المقاطعات الإفريقية وهي التبعية التي ما فتأت تزداد مع مرور الوقت، حتى أصبح موضوع تعيين حكام هذه المقاطعات يقض مضجع المسؤولين الرومان، بعد أن اتضح لهم أنه بإمكان كل من يتولى حكم هذه المقاطعات، أن يستولي على السلطة ويهدد مدينة روما بالمجاعة، بحجز السفن المحملة بالحبوب في الموانئ الإفريقية، ومنعها من التوجه إلى روما[17]، مما حتم على المسؤولين الرومان اتخاذ إجراءات صارمة، تمنع الطامعين في السلطة من تحقيق مآربهم، أهمها فصل السلطة العسكرية عن السلطة السياسية والإدارية كمرحلة أولى[18].

لقد كان للتطور الذي شهده الريف الروماني آثار اجتماعية عميقة في المزارعين الصغار والمتوسطين، الذين اعتبروا في بداية تاريخ روما، الركيزة الأساسية للمجتمع، لكن فقدان هؤلاء لأراضيهم، وهجرتهم نحو روما بحثا عن ظروف حياة أحسن، لم يكن أمرا هينا، حيث لم يجدوا عملا يقتاتون منه، لأن معظم الأعمال، إن لم نقل كلها، كانت تنجز من طرف العبيد، الذين ارتفع عددهم بعد حروب روما في الشرق، وهذا جعلهم يتحولون إلى عاطلين عن العمل يتسكعون في مدينة روما، يعيشون عالة على الدولة، التي تكفلت بتوفير القوت اليومي لهم. وقد استفادوا من الظروف السياسية لأنهم بعد أن فقدوا مزارعهم وبيوتهم، احتفظوا بورقة أساسية يضغطون بها على المسؤولين وهي حقهم في الانتخاب[19]، خاصة أن روما كانت تعج بالطموحين والمتلهفين للسلطة، وكل واحد يسعى إلى كسب أصوات المواطنين بتقديمه الهدايا والوعود، وتنظيم الألعاب المختلفة، وهو الأمر الذي وجد فيه المواطن الروماني مكسبا للرزق والترفيه. وقد وصف فارون[20] هذا الوضع وهو يتأسف بقوله: "هاجر كل أرباب الأسر تقريبا إلى روما، أين اختاروا استعمال أيديهم للتصفيق في المسرح أو السيرك بدل استعمالها في عمل الأرض"، وأضاف الشاعر جوفنال (Juvenal) أن المواطن الروماني لم يعد يبحث إلا على الخبز و السيرك"(Panem et circenses)[21].

وهنا نلاحظ أن الانتاج الزراعي لم يساير توسع مساحة الأراضي والمراعي المستغلة، بسبب عدم تطور طرق وأدوات العمل، وكذلك تحويل الكثير من النبلاء والفرسان مساحات شاسعة من أراضيهم الزراعية إلى حدائق للنزهة تعج بالنباتات والحيوانات الغريبة التي جلبت من مختلف أصقاع العالم المعروف آنذاك، الأمر الذي جعل روما غير قادرة على توفير احتياط غذائي كاف، وخاصة الحبوب لمجابهة الظروف الطارئة كالكوارث الطبيعية مثل الفيضانات والجفاف والأوبئة، والأزمات الحادة مثل حالات الحروب، وهذا ترك شبه جزيرة إيطاليا بصفة عامة، وروما بصفة خاصة، عرضة لأزمات نقص الغذاء وأحيانا المجاعات، التي لم يخل منها تاريخها.

وما زاد الأمور تعقيدا بالنسبة لروما الإصلاحات العسكرية التي بادر بها القائد ماريوس في نهاية القرن الثاني قبل الميلادي، الذي سن قانونا نص على التخلي عن التطوع في تكوين الجيش الروماني وهذا لمواجهة الصعوبات التي أصبحت تصادفها الحكومة في تجنيد العدد الكافي من الرجال بسبب نقص عدد من يملكون النصاب المالي القانوني المحدد[22]، وبذلك فتح الباب لأعداد كبيرة من العاطلين والمغامرين والفقراء الرومان (Proletarii) للانضمام إلى الجيش، ما دامت السلطة توفر لهم راتبا وتجهزهم بالأسلحة الضرورية. وقد كان لهذا التطور عواقب سياسية خطيرة بعيدة المدى إلى جانب تحميل خزينة الدولة أعباء إضافية.

التوزيع المجاني للغذاء على العاطلين الرومان:

أمام التطورات التي عرفها الريف الروماني والإيطالي، وعجزه عن توفير الغذاء للمواطن الروماني، وهجرة الريفيين نحو المدن وخاصة نحو روما، ورفض الجنود المسرحين العودة إلى مواطنهم واختيارهم التمركز في الحواضر، وجدت السلطة نفسها أمام مهمة جديدة ومعقدة، تتمثل في إرضاء كل طبقات المجتمع الروماني، في نفس الوقت، بهدف المحافظة على السلم الاجتماعي والاستقرار السياسي، وتجنب استغلال الطامعين في السلطة، تردي الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لطبقة العامة (Plèbe)، لتحقيق مآربهم، وكذلك لتفادي احتجاج

طبقة أو فئة معينة، ويمكن تلخيص مطالب مختلف الطبقات الاجتماعية الرومانية فيما يأتي:

ـ توفير الغذاء والترفيه لطبقة العامة، بأسعار منخفضة أو مجانية.

ـ منح حرية الحركة لطبقة النبلاء والفرسان، وعدم تقييد نشاطها الاقتصادي، والمالي لمضاعفة ثرواتها، وتحسين مستواها المعيشي القائم على البذخ والترف، في الأكل، واللباس، والسكن، والترفيه.

وفي هذا الشأن اتخذت السلطة الرومانية مجموعة من الإجراءات، وسنت عدة قوانين، تمثلت في تموين السوق الرومانية، بكل ما هو ضروري لكل طبقة، كالقمح لطبقة العامة والمواد الكمالية المتنوعة للنبلاء والفرسان، بالاضافة إلى منح امتيازات مختلفة إلى المواطنين، كل حسب مستواه. ومن أول الإجراءات المتخذة، نجد تموين السوق الرومانية بالمواد الغذائية الضرورية، وعلى رأسها القمح، للسماح للمواطنين الرومان باقتنائها بأسعار منخفضة، أو مجانية، وهو ما يدخل فيما يعرف بسياسة التموين أو الأنونة (Annona)[23]، الذي جاء في "قانون القمح"[24] (Lex Sempronia frumentum) الذي أصدره جايوس غراكوس (Caius Gracchus) سنة 123 ق.م، والذي نص على أن تشتري الحكومة القمح، وتعيد بيعه للمواطنين الرومان بسعر ثابت كل شهر. وقد استمر هذا التنظيم ساري المفعول حتى قام تربيون العامة كلوديوس (P.Claudius) سنة 58 ق.م. بإصدار قانون جديد هو قانون كلوديا الغذائي (Lex Clodia frumentaria) الذي ينص على منح القمح للعاطلين والفقراء مجانا[25]...

ولما جاء قيصر أدخل إصلاحات على عملية توزيع القمح، بحيث أصدر سنة 45 ق.م. قانون حمل اسم تنظيم البلديات أو الحكم المحلي (Lex Iulia municipalis) وكونه لم يطبق إلا سنة 44 ق.م.من طرف ماركوس أنطونيوس، عرف بقانون أنطونيوس بإقرار أعمال قيصر (Lex Antonia de Actis Caesaris confirmandis)[26]. نص على:

1 ـ تحديد قدر أدنى من الدخل للحصول على القمح مجانا.
2 ـ تحديد قائمة المستفيدين من القمح المجاني، وقد بلغ عددهم مائة وخمسين ألف، بعد أن كان ثلاثمائة وعشرين ألف[27].
3 ـ إلزام المستفيدين من القمح المجاني تقديم إقرار عن مداخيلهم وإبعاد من زاد دخله على قدر محدد، على أن يعوضوا بأشخاص آخرين تتوفر فيهم شروط الاستفادة.

وبغض النظر عن الأهداف السياسية الكامنة وراء هذه العملية، فقد تمخض عن ذلك أعباء مادية و مالية مرتفعة، وجب على خزينة الدولة تحملها.

وقد انحصرت الأنونة في البداية في مادة القمح، لكن مع مرور الوقت، ولأسباب سياسية، أضاف الإمبراطور سبتموس سيفروس (Septime Severe) مادة الزيت[28]. وفي سنة 270 م. عرف التموين المجاني تطورا جديدا، بعد أن عوض الإمبراطور أورليانوس القمح بالخبز، و أضاف لحم الخنزير والخمر وبعض الفواكه الجافة[29].

وتجدر الإشارة إلى أن توزيع القمح من طرف السلطة على المواطنين الرومان ظاهرة قديمة تعود إلى القرن الخامس قبل الميلادي[30]، إذ كلما حدثت أزمة نقص الغذاء، بسبب الظروف الطبيعية أو الحروب، كانت السلطة تتدخل بشراء القمح، من المقاطعات المجاورة، مثل أتروريا وكمبانيا، وفيما بعد من صقلية وأسبانيا، وتعيد بيعه للمواطنين بأسعار منخفضة[31]، تجنبا للمجاعات، لكنها كانت عمليات استثنائية ظرفية، إذ لم تصبح عملية مقننة ومنظمة، إلا ابتداء من الربع الأخير من القرن الثاني قبل الميلادي، على يد كايوس غراكوس. ومنذ ذلك التاريخ، استغلت هذه العملية لأغراض سياسية، فالبعض، ولكسب أصوات طبقة العامة، كان يطالب بخفض أو إلغاء الأسعار، عكس المحافظين الذين كانوا يطالبون بالمحافظة على الأسعار المحددة، أو تخفيض عدد المستفيدين من عملية التوزيع لتخفيف العبء على الخزينة[32].

ولتغطية العجز الذي كانت تعانيه السوق الرومانية، لجأ المسؤولون الرومان، منذ وقت مبكر إلى الاعتماد على المقاطعات التي أخضعوها، لكن الأمور كانت تتعقد كل يوم أكثر، بالنسبة لروما، وأكثر بالنسبة للمقاطعات، لأنه كلما ارتفعت كمية الحبوب المستوردة، كلما تضاعف عدد الفلاحين الرومان المفلسين، لعدم قدرتهم على منافسة حبوب المقاطعات ، فيتوجهون إلى روما ليضافوا إلى قائمة العاطلين الذين يعيشون عالة على الدولة.

ومع مرور الوقت انعكس هذا الوضع سلبا على الولايات، التي وجد فلاحوها أنفسهم ملزمين بتوفير كميات أكبر من الحبوب كل سنة، لذلك لم تأت نهاية القرن الأول قبل الميلاد، حتى أصبحت المواد المستقدمة من الولايات، تفوق بكثير المواد المنتجة محليا، خاصة وأن عدد المستفيدين من مساعدة الدولة كان في تزايد مستمر. ويستنتج مما ذكره ديون كاسيوس[33]، أن بومبي (Pompée) حاول سنة 56 ق.م. وضع حد للفوضى التي كانت تعرفها عملية الاستفادة المجانية من القمح، بعد أن لاحظ تضاعف عدد العبيد الذين أعتقهم أسيادهم، حتى يستفيدوا من التوزيع المجاني للقمح[34]. ويظهر مما قام به يوليوس قيصر (Julius Caesar) فيما بعد، أن بومبي حدد عدد المستفيدين من التوزيع المجاني للغذاء، بحوالي 320000 شخص، فقام سنة 46 ق.م. بتقليص هذا العدد إلى 150000 ألف[35]، لكنه خالف هذه القاعدة، حيث يستنتج من توزيعه أموالا (مائة ديناريوس) على المسجلين في قائمة المستفيدين من التوزيع المجاني للقمح؛ بمناسبة احتفاله بالانتصار على البومبيين والملك النوميدي يوبا الأول سنة 46 ق.م؛ أن عدد هؤلاء ارتفع من جديد إلى 250000، ثم إلى 320000[36]. وقد سار أغسطس (Auguste) على خطاه، إذ كان يوزع من حين إلى آخر أموالا، على عامة الشعب المسجلين في قائمة المستفيدين من مساعدة الدولة، وقد بلغ عددهم سنة 44 ق.م. 250000 شخص[37]. ومنذ ذلك التاريخ لم ينخفض هذا العدد، وبالعكس تجاوز ذلك على يد أغسطس سنة 5 ق.م، حيث وصل إلى 320000 مستفيد[38].

إن ارتفاع عدد المستفيدين من الغذاء المجاني أثقل كاهل خزينة الدولة، لذلك استغل أغسطس مناسبة توزيع مساعدات مالية، كان ينوي القيام بها سنة 2 ق.م. ليقوم بإحصاء جديد، حدد إثره عدد المستفيدين من مساعدات الدولة بمائتي ألف شخص[39]، بعد أن أبعد الذين يستطيعون توفير غذائهم اليومي بأنفسهم.

وبصفة عامة توقف عدد المستفيدين من التوزيع المجاني للمواد الغذائية على شخص الحاكم، والظروف السياسية التي تمر بها روما، فقد تجاوز بعضهم العدد المحدد، مثلما فعل تراجانوس (Trajanus) سنة 99 م. عندما أدرج في القائمة الأطفال الصغار[40]، وكما فعل سبتموس سيفروس عندما وزع مساعدات مالية على مائتي ألف شخص سنة 200 م[41].

من كل هذا نستنتج أن السلطة و المسؤولين الرومان، كانوا يوزعون القمح ثم بقية المواد الغذائية والأموال، في وقت أصبحت فيه شبه جزيرة إيطاليا، تعاني عجزا مزمنا في الإنتاج الزراعي، وخاصة الحبوب والزيت، وكذلك ارتفاع الطلب على المواد الغذائية الأساسية في مدينة روما، بسبب تضخم عدد سكانها، بشكل لم يعد الإنتاج المحلي قادرا على تغطية الطلب.

فمن أين كانت روما توفر المواد الغذائية التي توزعها على مواطنيها ؟

إن مهمة توفير الحبوب، عرفت مرحلتين متباينتين، الأولى قبل تدمير قرطاجة سنة 146 ق.م، استوردت خلالها روما كميات كبيرة من القمح الإفريقي[42]، دون أن نعرف إن كان ذلك يدخل في نطاق الضريبة التي فرضتها علي قرطاجة إثر الحرب البونية الثانية، أو تدخل في إطار النشاط التجاري بين البلدين، بالإضافة إلى تموينها من طرف الملك النوميدي ماسنيسا، بكميات كبيرة من القمح والشعير، سواء لتلبية حاجة جيشها، الذي يحارب في مقدونيا وبلاد الإغريق، أو لتموين مدينة روما فيما بين سنوات 200 و 170 ق.م[43]. بالإضافة إلى استفادتها من انتاج صقلية[44] وإسبانيا[45].

ومع مرور الوقت تراجع إنتاج صقلية وإسبانيا، وأصبحت مصر[46] ودول المغرب القديم، المموني الأساسيين لروما بالحبوب، بحيث غدت المقاطعة الرومانية الجديدة التي قامت محل قرطاجة المدمرّة، تمون السوق الرومانية بالقمح بانتظام، في إطار ضريبة المهزومين (Stipendium) التي تعودت روما فرضها على كل منطقة تحتلها، أو في إطار ضريبة العشر (Decumae)، التي تحصل عليها من الأراضي العامة (Ager publicus populi romani)، التي تركتها للأهالي[47]، أو ما يدفعه المزارعون (Coloni) مقابل استغلال أراضي الطبقة الأرستقراطية، و فيما بعد أراضي الإمبراطور، ومع قضاء يوليوس قيصر على يوبا الأول، وضم مملكته إلى روما سنة 46 ق.م، تضاعف دور المقاطعات الافريقية في تموين روما بالحبوب، حتى أن قيصر تباهى بضمه بلدا يستطيع أن يوفر لروما 1.2 مليون موديوس[*] من القمح[48] ومنذ هذا التاريخ لم يتوقف دورالأراضي الإفريقية في تموين روما عن الارتفاع، حتى أصبحت في بداية العهد الإمبراطوري، الممون الأساسي لها، إلى جانب مصر[49]. ومع تأسيس القسطنطينية، وجعلها عاصمة الإمبراطورية الرومانية في الشرق، تضاعف دور الولايات الأفريقية بعد أن احتكرت العاصمة الجديدة إنتاج مصر[50].

القمح الإفريقي في نجدة روما:

تبرز لنا المصادر الأدبية أن مقاطعات المغرب القديم، دفعت ثمن تراجع الزراعة في شبه جزيرة ايطاليا، بصفة عامة، وروما بصفة خاصة، وكذلك لقربها من روما، وأخيرا تحول بيزنطة إلى عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وتخصيص قمح مصر لها، وبذلك تحولت إفريقية البروقنصلية ونوميديا، وبصورة أقل مقاطعة موريطانيا إلى الممون الأساسي لروما بالموارد الزراعية الضرورية، وفي مقدمتها القمح، ثم الزيت، حتى أصبحت عبارة "إفريقية خزان روما" شائعة الاستعمال.

لكن ما هي الكمية التي تساهم بها المقاطعات الإفريقية في تموين روما بالقمح ؟ و ما أثر ذلك على المقاطعات الافريقية و على سكانها ؟

للإجابة على هذه التساؤلات، ننطلق مما ذكره المؤرخ اليهودي يوسف بن متى المعروف باسمه اللاتيني فلافيوس جوزفوس (Flavius Josephus)[51]، وهو يخاطب اليهود إثر ثورتهم على روما سنة 66 ميلادي: "وهكذا عندما ركعت؛ أمام أسلحة الرومان؛ كل الشعوب التي تشرق عليها الشمس تقريبا، هل تكونون الوحيدين الذين يتحدونهم، بدون أن تأخذوا بعين الاعتبار، كيف انتهى القرطاجيون الذين ينحدرون من أصل شريف، الفخورون بقائدهم الكبير حنبعل، تحت ضربات سكيبيو؟ لم ينجح القورينيون أبناء لاكدمون (Lacedemone)، ولا المارميد، الجنس الذي يمتد وجوده حتى الأرض العطشاء، ولا سواحل السيرت التي يكفي اسمها لإثارة الرعب، ولا الناسمونس، ولا الموريين، ولا الأعداد الكبيرة من النوميديين، في زعزعة قدرة الرومان العسكرية ؟ إن هذه المنطقة من العالم الثالث المأهول، التي ليس من السهل إحصاء شعوبها، التي يحدها المحيط الأطلسي وأعمدة هرقل، تغذي الإعداد الكبيرة من الأثيوبيين المتواجدين حتى البحر الأحمر، إن الرومان أخضعوا كل هذه المنطقة وشعوبها، كل هذه الشعوب تمون روما بإنتاجها السنوي لمدة ثمانية أشهر وتدفع ضرائب أخرى... لكن لماذا البحث بعيدا عن أدلة للقوة الرومانية، عندما أستطيع أن آخذها بالقرب منكم، فحتى مصر توفر للرومان ضريبة يتجاوز ما تدفعونه خلال سنة، فبالإضافة إلى الأموال، ترسل إلى روما ما يكفيها من القمح لمدة أربعة أشهر...".

أثارت هذه الفقرة جدلا بين المؤرخين، فمنهم من يرى أن المؤرخ اليهودي تكلم في الجزء الأول عما توفره منطقة المغرب القديم الممتدة من مذبح الأخوة فيلان إلى المحيط الأطلسي، وبالتالي. أبعدوا منها مصر[52]. بينما ترى مجموعة ثانية، أن فلافيوس جوزفوس قصد كل منطقة شمال إفريقيا من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر[53]. ونحن نميل إلى الرأي الأول، لأننا نلاحظ أن المؤرخ اليهودي عين

حدود المنطقة التي يتكلم عنها بمذبح الإخوة فيلان في الشرق والمحيط الأطلسي في الغرب، كما ذكر كل الشعوب التي تقطن المنطقة الواقعة غرب مذبح الإخوة فيلان، ولم يذكر المصريين، ولا مصر التي خصص لها فقرة خاصة.

أما الرأي الثاني، الذي يرى أن المؤرخ اليهودي تكلم عن المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر، بما فيها مصر، فهو يعتمد على تفسيرات شخصية لا تستند إلى دليل مادي، منها ذكر تيودور مومسن(Mommsen)[54] أنه في عهد أغسطس، كانت إفريقيا الشمالية توفر ثلث القمح المستهلك في روما، ومصر الثلث، بينما توفر صقلية وسردينيا وبتيكا (باسبانيا) الثلث المتبقي، فيما يعتمد روني كانيا (R.Cagnat)[55] على كمية القمح الموجهة إلى روما، ويرى أنه في حالة الأخذ بالرأي الأول، فإن المقاطعات الإفريقية، ترسل إلى روما ضعف ما ترسله مصر، أي أربعين مليون موديوس، وهذا بناء على ما ذكره أورليوس فكتور(Aurelius Victor)[56]، بأن مصر كانت ترسل إلى روما في عهد الأسرة الفلافية، عشرين مليون موديوس*، وهو يعتبر هذه الكمية مرتفعة جدا، تتجاوز قدرات المقاطعات الإفريقية من جهة، وكذلك أن الكميات الموجهة من مصر والمقاطعات الإفريقية، وربما من صقلية واسبانيا وسردينيا نحو العاصمة الرومانية، مرتفعة جدا تتجاوز حاجة السوق الرومانية، من جهة أخرى، بينما اعتمد بيكار (G.Ch.Picard)[57] على معدل استهلاك الفرد من القمح ليرفض الرأي الأول، وفي هذا الصدد نلاحظ أنه فيما يتعلق بإنتاج المقاطعات الإفريقية، يتناقض المؤرخ كانيا مع ما ذكره في موقع آخر، فقد أبرز أن تربة الأراضي الإفريقية خصبة جدا، وذات مردود مرتفع[58].

وبالنسبة لتجاوز الكميات التي ترسلها مصر والمقاطعات الإفريقية، حاجة السوق الرومانية، نلاحظ أن عملية حسابية بسيطة تبرز عكس ذلك. فإذا أخذنا

---

*/ الموديوس(Modius) وحدة قياس رومانية تساوي 6.503 كلغ ، Humbert (G) , op cit, P., 274

رقم مليون نسمة[59]، كمعدل لسكان روما، وهو الرقم الذي يعد أقل بكثير مما يراه بعض المختصين، وأن معدل استهلاك الفرد من القمح سواء تحصل عليه مجانا، أو بأسعار منخفضة، خمسة موديوس في الشهر أي ما يعادل 32.515 كلغ، كما جاء في قانون أوكتافيا (Lex octavia)[60]، فإن معدل استهلاك الفرد في السنة يصل إلى ستين موديوس، أي 390,180 كلغ، وإذا ضربنا هذا الرقم في مليون نسمة نتحصل على 390180000 كلغ أي 390180 طن وفي المقابل إذا اعتبرنا أن المقاطعات الإفريقية ترسل إلى روما أربعين مليون موديوس أي ما يعادل 260120 طن ومصر عشرين مليون موديوس أي ما يعادل 131180 طن، يكون مجموع ما ترسله المنطقتان 390180 طن، وهو ما يحتاجه عدد السكان المقيمين في روما، وهو مليون نسمة.

وفيما يتعلق برأي بعض المؤرخين، وعلى رأسهم المؤرخ بيكار، الذي يرى أن اعتماد كمية ستين موديوس لكل فرد في السنة مرتفع جدا، لأنه يجعل من المواطن الروماني يلتهم الحبوب بشكل غير طبيعي[61]. نرى أن بيكار أهمل جانبا مهما هيمن على حياة الرومان لمدة زمنية طويلة، وهو أن الحبوب ومشتقاتها مثلت الغذاء الأساسي لكل المجتمع الروماني، فقد اعتبر المادة الأساسية لإعداد مختلف الأطباق، ففي الصباح يتناول الروماني خبز وحلويات (Jentaculum)[62]، وفي منتصف النهار يستهلك خبز وجبن (Prandium)[63]، وفي المساء يتناول وجبة متنوعة، لكن لا تخل من أطعمة معدة من مشتقات القمح[64]. وبذلك نرى أن الرومان يتناولون الحبوب في معظم أطعمتهم، وبأشكال مختلفة على شكل عجائن أو خبز أو حلويات جافة، ولإبراز مدى مبالغة المؤرخين في الكمية التي يتحصل عليها المواطن الروماني، يقارن بيكار ذلك بمعدل استهلاك الفرد في بعض الدول الأوروبية، من مادة القمح سنة 1955، ومنها فرنسا التي يذكر أن المعدل السنوي لاستهلاك الفرد بها يقدر 202,88 كلغ.

لكن المؤرخ بيكار نسي أن استهلاك الحبوب ومشتقاتها، يساير مستوى التطور، فكلما زاد تطور الشعوب تنوعت أطعمتها، ومعروف أن أنواع المأكولات، وخاصة لدى طبقة العامة كانت في العصور القديمة محدودة، لذلك لم يكن أمامها إلاّ استهلاك الحبوب ومشتقاتها.

وإذا عدنا إلى المثال الذي قدمه بيكار(G.Picard)، ليبرز مدى مبالغة المصادر الأدبية في الأرقام التي قدموها، وتلك المتعلقة بضعف استهلاك الإنسان الأروبي للقمح، ولو أخذنا كمثال على ذلك تطور استهلاك الفرد الفرنسي، فإننا نجد أن معدل استهلاكه اليومي للخبز في نهاية القرن التاسع عشر، بلغ 750 غرام، وانخفض سنة 1931 م. إلى 500 غرام، وفي سنة 2000 م. لم يتجاوز ذلك 100 غرام[65]، مما يعني أن الانخفاض بلغ 86.66 ٪ في مدة قرن. نفس الانخفاض سجله استهلاك القمح فقد بلغ معدل استهلاك الفرد في سنة 1955 م. 202,.88 كيلوغرام، لكن نسي أن هذا المعدل كان في أواخر القرن التاسع عشر 246 كيلوغرام[66]، مما يعني أنه سجل انخفاضا بلغ 43.12 كيلوغرام في مدة 63 سنة، أي بمعدل 17.52 ٪. لا نعتقد أن هذا التراجع يعود إلى عجز المواطن الفرنسي عن شراء الخبز، إنما إلى تعويضه بمواد أخرى، مثل الخضر، واللحوم والحبوب التي لم تكن معروفة آنذاك مثل الذرة، التي لم يبدأ الانسان الأروبي في استغلالها إلا في القرن التاسع عشر، وتقريبا نفس الظاهرة سجلتها كل الشعوب التي عرفت قدرتها الشرائية تحسنا. بينما يختلف الوضع بالنسبة للشعوب المتخلفة والفقيرة، كما هو الشأن بالنسبة لتلك التي كانت خاضعة للاستعمار، فمعدل استهلاك الفرد بها من مادة الحبوب، يسير سيرا عكسيا لما يحدث في الدول الغنية إذ يرتفع الاستهلاك مع تحسن قدرته الشرائية، ويتضح ذلك جليا من معدل الاستهلاك لدى شعوب شمال إفريقيا، ففي سنة 1905 بلغ استهلاك الفرد 131 كيلوغرام، وبعد الاستقلال، وتحسن قدرته الشرائية ارتفع، حيث وصل إلى 204 كيلوغرام[67].

نتيجة لهذه المعطيات، لا يجب أن نستغرب إذا كان المواطن الروماني يستهلك كمية مرتفعة من الحبوب، لكن في نفس الوقت نعتقد أن هذا الوضع لا ينطبق على أفراد الطبقة الأرستقراطية، لما كانوا يتوفرون عليه من إمكانيات مادية مرتفعة، تسمح لهم بتنويع مأكولاتهم .

وإذا جمعنا مساهمة مصر، و المقاطعات الافريقية و ما كانت ترسله مقاطعة صقلية في عصر شيشرون[68]، والتي تبلغ 6.8 مليون موديوس أي ما يعادل 44220.4 طن[69]، وأقل من ذلك بكثير ما ترسله سردينيا[70]، التي لا يتجاوز إنتاجها ثلث إنتاج صقلية، نصل إلى نتيجة مفادها أن ما تتلقاه روما أكثر من حاجتها، لكن يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن المسؤولين الرومان، كانوا حريصين على تأمين الغذاء للمواطنين الرومان في كل الحالات، وهذا لا يتحقق إلا بأخذهم بعين الاعتبار السنوات العجاف، بسبب الكوارث الطبيعية، كالجفاف والفيضانات وغيرها، وهي ظواهر لم تكن غريبة على منطقة شمال إفريقيا. زد على ذلك الأوبئة التي تؤثر سلبا على عمل المزارعين، أو الأزمات السياسية والعسكرية وما أكثرها، وثورات الأهالي التي كانت تؤثر سلبا على الإنتاج. نتيجة لكل ذلك كانت روما تخزن الكميات الإضافية لاستخراجها عند الضرورة، وهذا ما حدث مرات عديدة، ونستدل على ذلك مما كتبه سبارسيان (Spartien)[71]؛ بنوع من المبالغة؛ بأن سبتموس سيفروس ترك عند وفاته قمحا يكفي لمدة سبع سنوات[72]، والقمح الذي كان كان في مخازن قرطاجة مخصصا لتموين روما، والذي اعتمد عليه حاكم مقاطعة افريقية البروقنصلية، في منتصف القرن الرابع الميلادي، لتموين السوق الإفريقية عند حدوث أزمة غذائية حادة[73]. ولذلك حاول الأباطرة بدءا من فترة حكم تراجانوس، تجنب حدوث المجاعات، وضمان تموين عادي لمدينة روما بالقمح، طوال السنة، وهذا لا يتحقق إلاّ بتكوين احتياطي يستغل عند الضرورة[74].

وهنا نشير إلى أن نسبة مساهمة الضيعات الإمبراطورية، لم تتوقف عن الارتفاع خلال القرنين الأول والثاني الميلاديين، موازاة مع اتساع مساحتها، الناجمة عن المصادرات، انطلاقا من عهد نيرون[75]. كما أن نسبة مساهمة المقاطعات الإفريقية في تموين روما، لم تكن ثابتة، إذ كانت معرضة للارتفاع باستمرار، إذ ارتبطت هذه المساهمة بما ترسله المقاطعات الأخرى وخاصة مصر فكلما تعرضت هذه لأخيرة إلى نقص في الإنتاج، لسبب أو لآخر، تثقل روما كاهل المقاطعات الإفريقية، كما حدث في أواخر عهد الإمبراطور كومودوس (Commode) (180/ 192)، عندما تراجع الإنتاج المصري، وبالتالي قامت روما برفع نصيب المقاطعات الإفريقية في تموينها لتعويض النقص المسجل في الانتاج المصري[76]. وما زاد من تعقيد المشكلة بالنسبة للمقاطعات الإفريقية، قربها من شبه جزيرة إيطاليا، وقصر المدة اللازمة لوصول السفن إلى الموانئ الإيطالية، فهي أقل من نصف المدة التي تقطعها السفن القادمة من مصر.

من كل هذا نستنتج أن الولايات الإفريقية تحملت عبئا ثقيلا، إذا ما قارناه بقدراتها الإنتاجية الطبيعية والبشرية، خاصة بعد انقسام الامبراطورية الرومانية إلى شطرين، وأصبح القمح المصري مخصص لتموين بيزنطة، وهي المهمة التي انعكست سلبا على الواقع المعيشي للأهالي، الذين أصبحوا يكتفون بالحبوب الثانوية كالشعير. كما أصبح الرومان مع مرور الوقت يتوجهون بأبصارهم إلى السواحل الإفريقية، وما ترسله لهم من سفن محملة بالحبوب، وهو ما يتجلى في القصيدة التي نظمها كلوديان[77] في نهاية القرن الرابع الميلادي، إثر تمرد جيلدون. وحجزه السفن المحملة بالحبوب والمتوجهة إلى روما فقد جاء فيها:

لقد أعطوني ليبيا ومصر
حتى يموّن الشعب السيّد
بمجلس شيوخه سيّد الحرب
بحرا في كل صيف

ويرى خزائنه مملوءة قمحا
من طرف هذا البلد أو ذاك
كانت إذا الحياة مؤمنة
إذا غابت ممفيس
يعوّض قمح الجيتول
حصة مصر
الأساطيل تتنافس
لتأتيني حمولتها من الحبوب
وسفن قرطاجة
تنافس سفن النيل
لكن قامت روما ثانية
ومستقبلا
يحول انتاج مصر
إلى الإمبراطورية الجديدة
بقيت ليبيا
كانت الأمل الوحيد
و ها هو غيلدون
حرمني من هذا المورد.

الهوامش:

[1]) Salles (C) , L'antiquité romaine des origines à la chute de l'empire, edit. Larousse , France , 1993, P., 170

[2]) Latouche (R), Les origines de l'économie occidentale IV/XI° siècle, edit., Albin Michel , Paris,1956, P., 7

[3]) Caton le censeur , Agriculture , I ; II, 1,7 ; XII ; XIII ; Martin (R), Recherche sur les agronomes latins et leur conceptions économiques et sociales , Paris, 1971, P., 343 ; Mosse (C),Le travail en Grèce et à Rome, Paris, 1966 , P., 72

[4]) Clérici (A) ,Olivesi(A) ,La république romaine ,edit. P.U.F., Paris, 1974 , P., 101

[5]) Grimal (P) , La civilisation romaine , edit., Arthaud, Paris, 1984, P., 187

[6]) Rostovtzeff (M.I.) , Histoire économique et sociale de l'empire romain ,trad.Demange (O), edit.R.Laffont, Paris, , PP., 23/24

[7]) Frank (T), An economic survey of ancient roman ,t,VII, Baltimore,1938, P., 638 ; Bloch (G) , Carcopino (J) , La république romaine de 133av.J.C. à la mort de Cesar , Paris, 1919, P., 149 .

7) كان الحد الأدنى الذي يجب توفره لدى المواطن الروماني ليجند في بداية عصر الجمهورية يقدر بإحدى عشر ألف سيسترس ، و في القرن الثاني قبل الميلادي ، و مع انخفاض عدد الملاك ، تراجع الحد الأدنى إلى أربعة آلاف سيسترس Homo (L) , Nouvelle histoire romaine , edit, Marabout, Paris, 1969, P., 137 403، نصحي(ابراهيم) ، تاريخ الرومان ، جمهورية مصر العربية ،1978، الجزء الأول ، ص ، 204

[9]) شجع قانون كلوديا لسنة 218 ق.م. النبلاء على استثمار أموالهم في العقارات الزراعية بعد أن منع عليهم امتلاك سفن تفوق حمولتها 300 أمفورة ، Tite Live ,Histoire romaine, traduction nouvelle, Danielle de Clercq, 2001, XXXI , 63

[10]) Rostovtzeff (M. I.) , op cit, P., 24

[11]) نصحي (إبراهيم) ، المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص، 205

[12])Histoire naturelle,trad.Hubert Zehnaker, edit., Gallimard, France, 1999, XVIII, 35

[13]) Columelle ,De l'agriculture , texte etabli , traduit et commenté par Jacques André, 1988,Praef. ; Salvioli (G) Le capitalisme dans le monde antique, Paris, 1906, P., 62

[14]) Homo (L) , op cit, P., 140

[15]) Rostovtzeff (M.I.) , op cit, P.,29

[16]) Homo (L) , op cit, P., 136 .

[17]) Tacite, Histoire, texte etabli et traduit par Henri Goelzer, Paris, 1863 , I, 73 ; cagnat (R), L'armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs , Paris, 1913, PP., 30 et s. ; Cagnat (R), L'annone d'Afrique , Mémoires des inscriptions et belles lettres , t. XL, PP., 25-51

و في هذا الشأن نسجل تمرد كلوديوس ماكر(Clodius Macer) سنة 68 م. و محاولة وصوله إلى السلطة في روما أو الانفصال بالمقاطعات الإفريقية بحجزه السفن المحملة بالمؤونة و المتوجهة إلى روما ، و نفس المحاولة قام بها بيزو(Piso) سنتين بعد ذلك ، و هي المحاولة التي أعادها تاكتوس إلى عوامل مناخية ، Histoire , IV, 38. كما تمرد نيجر (Niger) ، مما أثار مخاوف سبتموس سيفروس فأسرع بإرسال فرقة عسكرية إلى إفريقية لمنع غريمه من تجويع روما ، Vie de Septime Severe , 8 ، نفس المحاولة قام بها دومسيوس ألكسندر (Domitius Alexandre) Daguet Goget (A), Septime Sévère l'Afrique et l'orient , édition Payot , Paris, 2000, P., 365 .

[18]) شنيتي (محمد البشير) ، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني ، ص، 106 .

[19]) Homo (L) , op cit, P., 136

[20]) De l'agriculture, texte etabli , traduit et commenté par Charles Guiraud , Paris, 1985 , II, 3

[21] Juvenal , Satires , texte etabli et traduit par F. Villeneuve , edit.Les Belles lettres , Paris, 1961, X, 81

[22])أحمد علي (عبد اللطيف) ، التاريخ الروماني ، عصر الثورة (من تيبريوس جراكوس إلى أوكتافيانوس ، بيروت ، 1973 ، ص، 54

[23]) يحمل مصطلح الأنونة (Annona) عند الرومان عدة معاني ، منها المحصول الزراعي السنوي (Annus) ، Humbert (G) , Annona, D.A.G.R.,Ch. Daremberg et Ed Saglio , Paris, 1875 t., I, vol , 1 , P., 273 و كذلك مجموع التموينات و خاصة الحبوب ، لضمان توزيعها مجانيا على سكان مدينة روما ، بصفة منتظمة ، أو استثنائية . كما تعني شراء الحبوب بأسعار منخفضة (Annona civica) Cagnat (R), L'annone d'Afrique , C.R.A.I. , t., XL, P., 247، و تشمل كل المواد الغذائية المتواجدة في المخازن العامة و الخاصة ، و التي تعتبر كمخزون احتياطي (Cura annonae , Horreum,) و خاصة القمح لتموين مدينة روما (Humbert (G) , loc cit . وقد شملت هذه التسمية في العصر الإمبرطوري، كل المواد الغذائية التي كانت توضع تحت تصرف الادارة العسكرية ، أو التي تقدم إلى الموظفين، إضافة إلى رواتبهم النقدية (Annona militaris) ، كما يدخل تحت هذه التسمية، الضريبة التي كانت تدفعها بعض المقاطعات في العصر الجمهوري، و المعروفة باسم ضريبة العشر (Decumae) ، لتوزّع على الجيش(Annona functiones)، بغض النظر عن المواد الغذائية المسخرة .Cagnat (R) , loc cit

[24]) Plutarque , Vie des hommes illustres , edité , etabli et annoté par Gerard Walter , etdi ,La Pleiade , Paris, 1977, G. Gracchus , V-VI ; Appien , Guerre civile , trad. Combes –Dounous , Imprimerie des freres mame , Paris, 1808.. I, 21 ; Diodore de Sicile ,Histoire universelle , trad.Abbé Terrasson , edit., Hachette , Paris, 1865 XXXV, 25 ; Velleius Paterculus, Histoire romaine , trad. P. Hansselin , H.Watelet , Paris, 1932, II , 6,3 ; Paul Orose , Contre les paiens , trad. P. de Labriole , Paris, 1889, V, 12 ; Ciceron , De officiis , trad.Charles Appuhn, Paris1933, II,21,72;Ciceron,Pro sestio,trad.M. Cabaret-Dupaty , edit. Classique Garnier, Paris, 1919, XL,103 ; Homo(L), Nouvelle histoire romaine, P.,149

[25]) Humbert (G),op cit ,p, 275

[26]) Ibid

[27]) Suetone , Vie des douze Cesar ,texte etabli et traduit par Henri Ailloud ,Les Belles lettres ,Paris, 1954 XLI , Cesar , 3

[28])Aelius Lambridius, Histoire auguste , trad. Lass d'Aguen (M) , C.L.F.,Panckoucké , Paris, 1847 , Vie de Septime Severe., 18 ; Vie d'Alexandre Sévère , 22

[29]) Flavius Vopiscus ,Histoire auguste , trad. Laas d'Aguen (M) , C.L.F.Panckoucké , Paris, 1947 ,Vie d'Aurélien, 35,48 ; Cagnat (R), loc cit

[30]) Van Bershem (Denis) ,La distribution du blé et d'argent à la plèbe romaine sous l'empire ,Genève ,1939 , P., 84

[31]) Ibid

[32]) Ibid, P., 16
[33]) XXXIX, 24, 1
[34]) Van Bershem (D) , op cit, P., 20
[35]) Suetone , Vie des douze cesars, t., 1 , Cesar, 41
[36]) Dion Cassius, XLIII, 21, 3
[37]) Appien , Guerre civile , II , 143
[38]) Van Bershem (D) , op cit, P., 27
[39]) Suetone , auguste , 40 ; Dion Cassius , LV, 10, 1
[40]) Pline le jeune , Panégyrique de Trajan , 26 , texte établi et trad. par Marcel Durru , Les belles lettres , Paris, 1947
[41]) Dion Cassius , LXXVI, 1, 1
[42]) Tite Live , Histoire romaine ,XXXI, 50
[43]) Ibid , XXXI, 19, 4 ; XXXII, 27 , 2 ; XXXVI, 3, 1 – 4-8 ; XLIII, 6
[44]) Ibid , XXXIII, 42
[45]) Ibid , XXX, 26
[46]) Flavius Josephus , Guerre des juifs, II , 16, 4, trad. R.Harmand, révisé et annoté par Theodore Reinach et J.Weill , E.Leroux, Paris, 1932
[47]) Cagnat (R) , op cit, P., 252
[48]) Plutarque , Cesar
[49]) Aurelius Victor , epit , 1 ; Tacite , Annales, texte etabli et traduit par Henri Golzer, Les belles lettres , Paris, 1924, XAI , 43 ; Josephus Flavius , loc cit
[50]) Claudien , Guerre de Gildon ,Œuvres complètes , trad.M.Nisard , edit., Dubochet , Paris 1837 , 52, 60
[51]) Flavius Josephus , loc cit
[52]) Marquardt (J) , L'organisation financière chez les romains , Paris , 1888, P., 159, Waltzing(J .P) , op cit , t., II , P., 36 ; Homo (L) , Rome impériale et l'urbanisme dans. l'antiquité, Paris, 1951, P., 222
[53]) Mommsen (T), Histoire romaine , livre XI,trad. C.A.Alexandre, edit.,Robert Lafont,Paris, 1985, P., 296 ; Cagnat (R),L'annone d'Afrique, P., 254
[54]) Mommsen (T), loc cit
[55]) Cagnat (R) , loc cit
[56]) Epitome , trad. M.N.A.Dubois, C.L.F.Panckoucké ,Paris, 1846, I 6
[57]) Neron et le blé d'Afrique , Cahier de Tunisie, t., IV, 1956 , P., 166
[58]) Cagnat (R) , L'annone d'Afrique , PP., 248/49
[59]) Carcopino (J) , La vie quotidienne à Rome , Paris, 1939 p,30 ; Oates (W.J) , The population of Rome , Classical philology , XXIX, 1934, P., 101 ، إن هذا الرقم أقل مما حدده الكثير من المؤرخين
[60]) Appien , Guerre civile , II , 20 ; Dionys d'Hallicarnasse , IV, 24

اختلفت المصادر حول الكمية المستهلكة كل شهر من طرف المواطن الروماني ، فقد ذكر كاتو الكبير (Caton l'ancien , de l'agriculture ,trad.sous la direction de M.Nisard, edit.Firmin Didot, Paris, 1877, 56) وسناك (Seneque, Epistolae, 80) أنها تقدر بحوالي4.4 و ربع موديوس، بينما ذكر بولبيوس(Polybe, VI, 39) 4 موديوس، في حين ذكر صالوستيوس(Salluste, Histoire,trad.Ch.Duroson, revue par J.P.Charpentier et F.Lemaistre,Paris, 1865 III) هذه الكمية بثلاث موديوس ، و هذا بالاعتماد على ما ذكرته بعض المصادر (Histoire auguste , vie de Septime Severe, VIII, XXIII, 2)، على أن هذا الإمبراطور ترك عند وفاته كمية من القمح تكفي لمدة سبع سنوات ، على أساس أن عدد سكان روما لا يتجاوز كمية 5 موديوس ، بينما حددت المؤرخة دوازي (H.P.E.Doisy)

Pavis d'Escurac Doisy (H,) , La préfecture de l'annone, Rome, 1976, 450 ألف نسمة P., 174

[61]) Pavis d'Escura Doisy (H..), op cit, p., 166

[62]) Fredouille (J.C), Dictionnaire de la civilisation romaine ,edit.Larousse ,Evreux, France , 1976, P., 208 ; Rich(A), Dictionnaire des antiquités , Paris, 1995,P., 339

[63]) Rich (A) , op cit, P., 509

[64]) Fredouille (J.C), op cit, P., 56

[65]) Blé, Encyclopédie Hachette multimédia , 2005

[66]) Ministére du commerce de l'industrie des postes et des telegraphs , Exposition universelle internationale de 1900 à Paris, Paris, 1905, P., 40

[67]) Encyclopédie hachette multimédia , loc cit

[68]) Ciceron , Verres, trad., Gueroult , Paris, sans date , III, 70

[69]) D'Escurac Doisy (H.P.) , op cit , P., 181

[70]) Rickman (G) ,The corn supply of an ancient Rome ,Oxford, 1980, P., 101 ;Marasco(G) , Africa Romana , Actes du congrés annuel de Sassari , t., VIII, Berlin, 1988, P., 401

[71]) Humbert (G) , Annona, D.A.G.R., P., 277

[72]) Aelius Spartien, Histoire auguste , trad. Theophile Beaudement , edit.M.Nisard, Paris, 1845,Severus, 23

[73]) Ammien Marcellin, Histoire,trad. sous la direction de M. Nisard, Paris,1860, XXVIII,1, 17

[74]) Aelius Lampridius, Histoire auguste , 27, Helogabal , trad . Laas d'Aguen , Paris, 1847

[75]) Pline l'ancien, H.N. texte etabli et trad. et commenté par Henri le Bonniec ,Les belles lettres , Paris, 1972, XVIII, 35 ; Picard (G.Ch), Neron et le blé africain, P ., 167

[76]) Pavisd'Escurac Doisy (H..), op cit, P., 175 ; Rostovtzeff(M.I.), H.E.S.E.R., P., 286 , op cit, Guerre de Gildon ,XV

[77]) Claudien.

استخدام الحيوانات في الزراعة ببلاد المغرب خلال الفترة الإسلامية

هـــواري موسى
قسم التاريخ جامعة
الجزائر 2 بوزريعة

مارس سكان المغرب الزراعة منذ القديم، واشتهرت بلادهم بإنتاج بعض المحاصيل وخاصةً القمح، حتى لُقبت بمطمورة روما[1]، ولكنَّ المعلومات عن الزراعة في الفترة الإسلامية قليلةٌ، والدراسات التي تناولت الموضوع أقل، رغم أهمية هذا النّشاط، خاصةً في تلك الفترة التي كانت فيها الزراعة "... هي العمران، ومنها العيش كُلُّه، والصلاح جُلّه، ..."[2]، وارتبط نشاط الزراعة ببعض الأنشطة الاقتصادية الأخرى مثل الصناعة وتربية الحيوانات، حيث استُخدمت هذه الأخيرة في الزراعة بشكلٍ واسعٍ، دون أن تحظى بأي اهتمام من قبل الباحثين، وستحاول هذه الدراسة أن تبين أوجه استخدام الحيوانات في مراحل العملية الزراعية[3]، وأولى المراحل هي التَّسميد.

I – استخدام الحيوانات في التَّسميد:

تسميدُ الأَرض هو أن يُجْعَل فيها السَّمادُ؛ وهو ما يُطرح في أُصول الزَّرع والخُضَر من العذرة والزِّبْلِ ليَجود نَباتُه[4]، وهو مهمٌ جداً في العملية الزِّراعية فـ"... تعمير الأرض بالزِّبل والتِّبن يُصلحها،... والزِّبل يفتح مسام الأرض ويُجوِّدها لولوج العروق..."[5].

وقد وَضَع أهل البصر بالفلاحة معايير لتزبيل الأرض، وتحديد أصناف الزُّبول وخصائص السِّرْقِين[6]، فاختلفت أهميَّة زبل كلٍّ بهيمةٍ عن غيره، وكان أجوده "... زَرْقُ الحمام، ثم زبل النّاس، ثم زبل الحمير ثم المعز ثم الضَّأن ثم البقر ثم الخيل، والبغال أخسُّها، إلاَّ أن يُخلط بغيره"[7]، كما خصَّصوا كلَّ صنفٍ منها، بنوعٍ معينٍ من النَّباتات والأشجار والزُّروع[8].

وكانوا يشترطون في زبِل البهائم أن يُترك مدةً حتى ينضج وتموت البذور التي فيه، لأنَّ الدَّواب تأكل الحشائش وبذورها لا تَتْلف في بطونها، ممَّا قد يؤدِّي إلى نمو هذه الحشائش في الأرض المزروعة والإضرار بالنبات[9]، وتختلف الفترة التي يحتاجها الزِّبل ليصبح سماداً صالحاً باختلاف النبات الذي يستعمل له، فالمستعمَل منه للحبوب والبقول، يتطلب فترةً أطول من تلك التي يحتاجها المستعمل للشجر، بحيث "لا يُستعمل الزِّبل... إلاَّ معتَّقاً، وكلَّما عتق كان أحسن ليذهب نَتَنُ رائحته وطراوته، لأنَّ الطري يتولَّد منه الهوام المفسدة للبقول،..."[10].

وقد يكون للإفراط في تزبيل الأرض نتائجٌ عكسيةٌ، لأنَّ الأرض: "... إذا زبِّلت فوق الحاجة احترقت واحترق ما فيها"[11]، وليست كل النَّباتات تنتفع بالزِّبل، فمنها ما لا تحتمله، مثل الرَّيحان والياسمين والأترج والنارنج والموز، ومنها ما يهلكها، مثل السَّفرجل والقراصيا والتُّفاح والورد والصَّنوبر والمشمش والنعع والموز والفجل واللفت والجزر، ومنها ما لا يحتاج إليه، كالجوز والبندق[12].

وكانت قيمة زبل البهائم ببلاد المغرب، تُحسب في المعاملات بين المزارعين، من شراكةٍ ومزارعةٍ وغيرها[13]، لذلك استُعملت طرقٌ مختلفةٌ للحصول عليه، فبينما كان الفلاحون الذين يملكون مواشي كثيرةً يحصلون على الزِّبل عن طريق جمعه من إسطبلاتهم، كان بعض أصحاب الأراضي يجمعون مع مواشيهم القليلة، مواشي غيرهم، ويُبيِّتونها في الأرض التي يريدون تْزبيلَهَا، حيث تُلقي فضلاتها، ويتداولون تَبْييتَهَا، بحيث يكون نصيب كلِّ واحدٍ منهم على قدر غنمه[14]، وقد لاحظ الحسن الوزان أنَّ أهل منطقة "تيكورارين" الواقعة في الصَّحراء، كانوا يحرصون على استضافة الغرباء ليحصلوا على فضلات دوابهم[15]، مِمَّا يدفع إلى الاعتقاد بانتشار هذه العادة في بعض المناطق من بلاد المغرب.

وانتشرت ظاهرة شراء فضلات الماشية للاستفادة منها في تسميد الأرض[16]، واعتبرها فقهاء المذهب المالكي من النَّجاسات التي تدعو الضَّرورة إلى استعمالها[17]، والتي أشار ابن رشد (ت.595هـ/ 1199م) إلى خلاف الفقهاء حول

بيعها، بين من قال بمنعها مطلقاً، ومن قال بإجازتها مطلقاً، ومن فرَّق بين العَذِرَةِ والزبل، بمعنى إباحة الزبل ومنع العَذِرَةِ[18]، مع أنَّ الإمام مالك (ت.179هـ/ 795م)، لم يكن يرى في بيع الزبل بأساً، وكان يُشترى له بعر الإبل[19]، وكذلك أجاز تلميذه الفقيه ابن القاسم (ت.191هـ/ 807م) بيع زِبل البقر والغنم والماعز، وكرَّه زِبل الخيل والبغال[20].

ويبدو أنَّ الزِّبْل لم يكن يُباع لغرض استعماله في تسميد الأرض فقط، فقد لاحظ الحسن الوزان أنَّ غلماناً وبغَّالين كانوا يجوبون أرجاء مدينة فاس، ليشتروا الزِّبْل من الإسطبلات وينقلونه خارج المدينة فيجعلوه أكداساً ويتركوه ليجفَّ مدَّة شهرين أو ثلاثة أشهر، ثم يبيعونه لأصحاب الحمامات التي تُسَّخن بإشعال الزِّبْل[21]، لكنَّ الرماد الناتج عن هذه الحمامات كان يُستَخدَم أيضاً كسمادٍ، إمَّا مباشرةً، أو عن طريق خلطه لتصنيع نوعٍ جديدٍ من السَّماد يعرف بـ"السَّمادُ المولد"، ويتمُّ تحضيره بأن يُخلط العشب والتِّبن في حفرةٍ، ويُلقى عليه رماد الحمامات أو الأفران، ثمَّ يصبُّ عليه الماء أو يُعَرَّض للمطر ويُقلَّب مراتٍ عديدةً[22]، وقد أثبتت الدراسات الحديثة اليوم أن استعمال رماد فضلات الحيوانات بعد حرقها، كسمادٍ، يعطي نتائج أفضل، من استعماله مباشرة، كما أنَّ هذه الطريقة تسمح بالاستفادة من الروث كوقودٍ، إلى جانب استخدامه كسماد[23].

2- **استخدام الحيوانات في الحـــرث:**

يعني الحَرْثُ العَمل في الأَرض، زَرْعاً كان أَو غَرْساً، وقد يطلق الحَرْثُ على الزَّرْع، كما قد يعني قلبَ الأرض للزَّرْع[24]، وهذا المعنى الأخير هو الغالب، ويكون بأخذ "... ما كان على وجه الأرض من ترابها الذي أثَّرت فيه الشَّمس والهواء، فيجعل أسفل الأرض المحفورة، ليظهر أثره الجميل ممَّا اكتسب من الشَّمس والهواء في أصول الأشجار المغروسة، وعروقها، فيُربي حملها وينميه بحرارته ورطوبته"[25]، والحرث ضروريٌ للزراعة، فبعض المحاصيل لا يَجُود إلا في الأرض المحروثة، لذلك كان الفلاحون يشترطونه في بعض المعاملات الزراعية كالشركة في

الأرض، أو الكراء، أو المُزارعة[26]، وليس هناك أي مقياسٍ لعدد مرات الحرث في الموسم، فقد تتكرَّر العملية من مرتين إلى أربعٍ، حسب نوع الأرض، ونوع الزَّرع أو الغرس، وهو يبدأ عادةً في يناير ويستمر إلى يونيو حيث تترك الأرض للحرِّ المفرط[27].

وقد يستخدم الفأس لحرث الأرض، كما كان الحال بمدينة أودغشت الواقعة في الصحراء، التي كان أهلها يزرعون القمح بالحفر بالفؤوس[28]، لكن المحراث يبقى الوسيلة الأساسية لهذه العملية وهو معروف لدى سكان بلاد المغرب منذ القديم[29]، ويذكر بعض الباحثين أنهم كانوا يُسندون إليه من جهةٍ حماراً حروناً، ومن الجهة الأخرى امرأةً[30]، وهذا الأمر -على غرابته- كان معروفاً في بعض مناطق المغرب خلال الفترة المدروسة، فقد ذكر عبد الرحمن ابن خلدون، أنَّ العرب المستقرين قرب برقة، وهم من ذباب بن سليم، كانوا يثيرون الأرض "...بالعوامل من الجِمال والحمير وبالنساء، إذا ضاق كسبهم عن العوامل وارتكبوا ضرورة المعاش"[31]، بمعنى أنهم كانوا يعوضون الحيوانات التي تجر المحراث في حال فقدها، لفَقْرٍ أو غيره، بالنساء، ولكنَّ هذه الحالة تبقى نادرةً، لأنَّ الشائع في بلاد المغرب هو استخدام الحيوانات في هذه العملية، وتختلف هذه الأخيرة حسب المناطق، فمُزارِعو منطقة "حاحا" في المغرب الأقصى، مثلاً، كانوا يحرثون بالحمير والخيل[32]، بينما كان أهل الصَّحراء يحرثون الأرض بزوجٍ من فرسٍ وجملٍ لأنَّهم لا يملكون البقر[33]، في حين كان سكان الجبال يستخدمون نوعاً من البقر قصير القامة للحرث[34].

والظاهر أنَّ البقر هي أكثر الحيوانات استعمالاً في الحرث ببلاد المغرب؛ ذكورها وإناثها في ذلك سواءٌ[35]، لذا كان الحرص على كثرتها يُعدُّ من الحرص على ازدهار الزِّراعة، حتى أنَّ المحتسبين شدَّدوا الرَّقابة على الجزارين في الأسواق، لكي لا يُذبَح منها ما يصلح للحرث، وأوجبوا أن يتولَّى هذه المهمة "... أمينٌ ثقةٌ لا يرتشي، يخرج إلى موضع الذبح كل يومٍ"[36].

وتورد المصادر إشاراتٍ كثيرةٍ عن استخدام البقر في الحرث، حيث جاء في كتب الطبقات أنَّ الفقيه سُحنون بن سعيد التنوخي (ت.240هـ/ 854م) كان يملك من البقر ثورين للحراثة تبيت بداره[37]، وأنَّ الشيخ أبا العباس عبد الله بن أحمد بن طالب (ت.275هـ/ 888م)، عندما أراد أن يتصدَّق على شيخٍ فقيرٍ، اشترى له زوجاً من البقر يحرث به، وزريعةً وغلاماً ليحرث له[38].

ويذكر المالكي أنَّ الأمير عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب (ت.201هـ/ 817م)، جعل "على كلِّ زوجٍ تحرث ثمانية دنانيرٍ"[39]، بمعنى أنه فرض ضريبةً على الفلاحين، قدَّرَها بثمانية دنانير على كلِّ بقرتان أو ثوران[40]، ومن امتلك أكثر من ذلك غُرِّم بعدد بقره، ممَّا يوحي بأنَّ كثرة البقر كانت تدلُّ على ثراء الفلاح، ونفس الأمر تقريباً ذكره صاحب "الدُّرر المكنونة في نوازل مازونة"، حين أشار إلى مستول على قبيلةٍ "... طالت يده عليهم بغرم الأزواج الحارثة، واستمرَّ على ذلك أعواماً"[41]، حيث فرض هذا الأخير أيضاً ضريبة على البقر بدل الأرض لأهميته في الزراعة.

ومن الإشارات الواردة في المصادر والتي تؤكد على الدور الكبير الذي لعبه هذا النوع من الحيوانات في الزراعة بالمنطقة، ما ذكره الحسن الوزان عندما تحدَّث عن جبل "زَلاغ" الذي يبتدئ من نهر "سبو" شرقاً وينتهي غرباً، على بعد نحو أربعة عشر ميلاً منه، أنَّ مساحة الأراضي الفلاحية به تساوي ما يستطيع أن يحرثه مائتا زوجٍ من الثيران[42]، ويُستنتج من هذا أن مساحة الأرض كانت تُقدَّر بعدد أزواج البقر التي تستطيع حرثها.

وحرص الفلاحون في بلاد المغرب على شراء البقر الجيّد لاستخدامه في الحرث، ولكن بعضه كان "جاهلاً لا يحرث"[43]، وهو الأمر الذي اختلف فيه الفقهاء، فرأى سحنون أنَّ عدم حرث الثور أو البقرة ليس بعيبٍ إلاّ أن يُشتَرَط، ولو اشتراه في إبَّان الحرث[44]، وأفتى غيره أنَّ من اشترى بقراً في إبَّان الحرث ولم يجده حرَّاثاً فله الرُّجوع إلاَّ أن يَشتَرِط البائع أنَّه غير حرَّاثٍ[45]، وقال بعض

الفقهاء بردَّ الذُّكور إذا كانت تحرث بأعناقها (بربط المحراث في عنق الثور)، ولا تحرث برؤوسها (بربط المحراث في رأس الثور)، ولم يروا ردَّ الإناث لأنَّ المعروف فيها حرثها بأعناقها عكس الذكور[46].

ولم يكن شراء البقر الوسيلة الوحيدة لاستخدامها في الحرث، إذ كان بعض الفلاحين يحصلون عليها عن طريق الشّراكة، فيشترك من يملك بقرةً واحدةً، أو ثوراً واحداً، ولا يستطيع أن يحرث به منفرداً، مع غيره، فيقدِّم كلّ واحدٍ منهما ثوراً ويختلف نصيب كلٍّ منهما في وسائل الإنتاج الأخرى[47]، وربَّما يتساوى بعضهم في البقر والآلة والزَّريعة والعمل[48].

وكان أصحاب الأراضي الذين لا يملكون أبقاراً يحرثون بها، يشتركون مع غيرهم من مُلَّاك البقر الذين لا أرض لهم، فيقدم صاحب الأرض أرضه والثاني بقره ويكون البذر والعمل بينهما، وقد جاء في المدوَّنة جواز هذا النَّوع من الشّركة، شريطة أن يكون ثمن كِرَاءُ الأرضِ وثمن كِرَاء البقر سواءً[49].

وانتشرت ببلاد المغرب ظاهرة استئجار البقر للحرث، فكان بعض المستأجرِين يشترطون لبنها[50]، وكان البعض الآخر يؤجِّر بقراً يحرث عليه بجزءٍ من الزَّرع مُتَّفقٍ عليه، خمسٍ أو ربعٍ أو غير ذلك، لكنَّ الفقهاء لم يُجِيزوا هذه الأجرة لأنَّها أجرةٌ بقدرٍ مجهولٍ[51]، وقد يَستأجِر صاحب الأرض بقراً مع صاحبها ليعمل عليها، وفي مثل هذه الحالة يحقُّ لصاحب البقر أن يشترط عليه، في عقد الاستئجار، سقي بقره، وعلفها، وتبييتها، وغير ذلك من مؤنتها[52].

ولجأ بعض الفلاحين إلى استعارة البقر بدل كرائه[53]، لكنَّ البقر كان يتعرَّض أحيانا للضَّياع أو التَّلف، الأمر الذي يجعل أصحابها يحتكمون إلى الفقهاء لتغريم المُسْتَعِيرين[54].

3- استخدام الحيوانات في السقـــي:

أفاد أبو عبيد البكري (ق.5هـ/ 11م) أنَّ النَّخيل والزَّرع بمدينة زويلة كان "يسقى بالإبل"[55]، دون أن يبيِّن الطريقة التي تتمُّ بها هذه العملية، لكنَّ الإدريسي

(ق.6هـ/ 12م) ذكر مدينتين بأرض فزان هما: "جرمة" و"تساوة"، "... مياههم من الآبار وعندهم نخيلات ويزرعون الذّرة والشعير ويسقونهما بآلاتٍ يسمونها أنجقة، وتسمى ببلاد المغرب هذه الآلة بالخطارة"[56]، وقد استنتج محمد بن عميرة أنَّ هذه الآلة تدار بالإبل، وأنَّ الإبل التي ذكر البكري أنها تسقي الزَّرع في مدينة زويلة كانت تحرك هذه الآلة"[57].

وانتشرت في بلاد المغرب العجلة التي تحرِّكها الدَّواب في مدارٍ"[58]، والتي اختلفت تسميتها بين الدولاب أو الناعورة أو السَّانية"[59]، ومن المفيد الإشارة إلى اختلاف مدلولات كلمة "سانية" في المصادر المختلفة، فهي في لسان العرب ما يُسقى عليه الزَّرع والحيوان من بعير وغيره"[60]، بمعنى أنها تطلق على الحيوان، بينما كان هذا اللفظ في اصطلاح الأندلسيين يُطلَق على الدَّواليب نفسها"[61]، حيث قالوا في أمثالهم بالعامِّيَة:"بْحَالْ حْمَارْ السَّانْيَة يَمْشِي فَارَغْ ويْجِي فَارَغْ"[62]، فقصدوا بالسَّانية، الآلة، وليس الدَّابة التي تُحرِّكها، ومهما كان معنى السَّانية في الإشارات السابقة، سواءٌ قصد بها أصحابها الآلة التي تُحرِّكها الدَّواب، أو الدَّابة نفسها، فهو يؤكد استعمال الحيوانات في الرَّي بشكلٍ واسعٍ.

وقد أشارت المصادر إلى انتشار السَّواني في بلاد المغرب خلال الفترة المدروسة، دون أن تُحدِّد إذا كان المقصود منها الحيوان أو الآلة، فذكر ابن حوقل (ق.4هـ/ 10م) أنَّ لأهل بني واريفن الواقعة قرب تنس وهي على نهر شلف، "... كرومٌ وسوانٍ كثيرةٌ..."[63]، وكذلك حصن "سوق كران" الواقع قرب مليانة على نهر شلف أيضاً،"... له مزارع وسوانٍ"[64]، وأخبر الإدريسي (ت.548هـ/ 1154م)، أنَّ قصر اليهودية الواقع في منطقة طرابلس فيه زراعاتٌ على مياهٍ تُستخرج بالسَّواني من الآبار"[65]، ويفيد نفس المؤلف أنَّ قصر "توكرة" الواقع غرب طلميثة، أحاطت به أرضٌ عامرةٌ، "... وسوانٍ يُزرع عليها القطاني والشعراء محيطةٌ بها"[66]، أمّا مدينتا أجدابية وبرقة، اللَّتان لم يكن بهما ماءٌ جارٍ، فكانت "... مياههم من المواجل والسَّواني التي يزرعون عليها قليل الحنطة والأكثر الشعير وضروب من القطاني

والحبوب"[67]، وفي المعيار ذكر لـ"زرع سواني" بالقيروان، "يحرسه قومٌ يأخذون عن كلِّ سانيةٍ ديناراً"[68].

ولفتَ انتباهَ ابن حوقل (ق.4هـ/ 10م) في سجلماسة، أنَّ أهلها يزرعون بنهرها الذي يزيد في الصَّيف كزيادة النيل"[69]، وهو نفس ما ذكره الحميري (ت.727هـ/ 1327م)[70]، ولم يُبيِّن هذان الجغرافيان طريقة استعمال مياه النَّهر في السَّقي، لكنَّ الحسن الوزان الذي جاء بعدهما بفترةٍ (ق.10هـ/ 16م)، يقول: إنَّ ماء سجلماسة يُجلب "... من النَّهر، تأخذه الناعورات من "واد زيز" وتقذف به في قنوات تحمله إلى المدينة"[71]، وهذا يحمل على الاعتقاد بأنَّ مياه نهر سجلماسة في زمن كلّ من ابن حوقل والحميري، كانت تُحوَّل إلى المزارع والبساتين، عن طريق نواعيرٍ تديرها حيواناتٌ، لأنَّ القوَّة المحرّكة لهذه العجلات المائية ظلَّت في معظمها حيوانيةً"[72].

وقد تعدَّدت الحيوانات التي استُعملت في عملية الـرَّي، حيث كان أهـل مدينة زويلة -حسب البكري-"يسقون النَّخيل والزَّرع بالإبل"[73]، بينما كان أهل تونس يستعملون البغال والإبل[74]، واستنتج الطاهيري محمد من مَثَلِ أهل الأندلس المذكور سابقاً "بحال حمار السَّانية ..."، أنَّ الحمار كان الحيوان الأكثر استخداماً في تحريك دواليب السَّقي هناك[75]، لكنَّ البقر ظلَّ أكثر الحيوانات استخداماً في هذه العملية ببلاد المغرب[76].

4-استخدام الحيوانات في الدِّراس:

الدِّراسُ أو الدِّياسُ، بلغة أَهل الشام، يعني دَرْس الحِنْطَة وغيرها من الحبوب، أو دياسها[77]، بغرض استخراج حبِّ السُّنبل من غلافه بعد حصاده[78]، والدِّراس آخر مرحلةٍ في زراعة الحبوب، حيث تنتهي به العملية الزِّراعية التي استمرت سنةً كاملةً، وهو كغيره من الأعمال الفلاحية التي لا يستطيع الفلاح فيها الاستغناء عن الحيوانات، حيث استخدم أهل المغرب الحيوانات في الدِّراس مند القديم[79]، واستمرَّ الاعتماد عليها خلال الفترة التي يغطيها البحث، فقد أفاد

ابن عذاري أنَّ الداعية الفاطمي أبا عبد الله الشِّيعي، عندما أراد اللَّحاق بحُجَّاج قبيلة "كُتامة" بعد أن فارقهم في القيروان، مرَّ في طريقه إليهم بأندرٍ والبقر فيه تدرس الزَّرع[80]، وقد ذكر أبو زكرياء الإباضي في حديثه عن الافتراق الخامس الذي وقع في مذهب الإباضية، فقيهاً اسمه "الشَّكَّاس"، خَالَف من سماهم أبو زكرياء بـ" أهل العدل من المذهب"، في سبع مسائل؛ منها "... أن الأندر إذا بالت فيها الدَّواب، لا يطهر القمح الذي تدرسه إلا بالغسل"[81]، كما جاء في إحدى نوازل المعيار، ذكرٌ لرجلٍ له أندرٌ مجاورٌ لأرض رجلٍ آخر، وكان بقر صاحب الأندر وقت الدّراس، يهرب من أندره فيمر في أرض جاره، فأراد هذا الأخير منعه[82]، ورجلٌ آخر استعار بقراً ليدرس بها زرعه، فدرس بها يومه فلما أمسى خلاها في السرح ولم يدخلها داره ولا دار صاحبها فهلكت[83]، والمتأمل لهذه الإشارات يستطيع أن يستنتج الدور الأساسي الذي تلعبه الحيوانات في هذه العملية، كما يتضح مما سبق أنَّ البقر كان أكثر الحيوانات استعمالاً في الدِّراس، رغم ما ذكرته كتب التراجم عن الفقيه أبي زكرياء الهرفلي الذي ربط حمار شريكه في الزَّرع، الفقيه سعدون الصّواف، على الأندر ليأكل منها[84]، وهو الأمر الذي يوحي باستعمال الحمير في الدِّراس في بعض المناطق.

يتَّضح في الأخير اعتماد النشاط الزراعي ببلاد المغرب خلال الفترة الإسلامية على الحيوانات بشكلٍ كبيرٍ، حتى أصبح ثراء المزارعين يرتبط ارتباطاً وثيقاً بما يمتلكونه من رؤوس البقر، أو غيرها من الماشية، فقد وفرت الحيوانات السَّماد الذي يُجَوِّد الأرض، والذي تصبح الزراعة دونه -في بعض المناطق- غير مضمونة النتائج، كما وفرت الآلة التي لا تستقيم الزراعة إلاّ بها، فالحيوانات هي التي تجر المحراث، فتهيئ الأرض للبذر، وبها تُدار دواليب السَّقي ويُنْقل الماء من الأنهار والآبار، إلى الحقول والبساتين، كما أنها تدوس السنبل بعد حصاده لتخرج حبه، هذا، إضافةً إلى أعمالٍ أخرى، كنقل البذور والمحاصيل وغيرها.

الهوامش:

(1) حول زراعة الحبوب ببلاد المغرب في القديم أنظر: بشاري محمد الحبيب: **روما والقمح الإفريقي**، أشغال الملتقى الوطني دراسات تاريخية تخليدا لروحي الأستاذ الدكتور موسى لقبال وطالبته الأستاذة سامية سليماني بوزريعة 29-30 أفريل 2009، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، بوزريعة، الجزائر، 2010، ص. 129 وما بعدها.

(2) ابن عبدون محمد بن أحمد التجيبي: **رسالة ابن عبدون**، نشرها ليفي بروفنسال، في كتاب بعنوان ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، طبعة 1955م،ص.5.

(3) حدّد ابن خلدون مراحل العملية الزِّراعية، فذكر أنَّها "... القيام على إثارة الأرض للأقوات والحبوب وازدراعها، وعلاج نباتها، وتعهده بالسَّقي والتنمية إلى بلوغ غايته، ثمَّ حصاد سنبله واستخراج حبِّه من غلافه ... "(ابن خلدون عبد الرحمن: **المقدمـــة** ، تحقيق الجويدي درويش، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2002م، ص.376.)

(4) ابن منظور محمد بن مكرم بن على جمال الدين:**لسان العرب المحيط**، تصنيف يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت، لبنان، د.ت.ط.، مج.2، ص.199.

(5) النابلسي عبد الغني النقشبندي القادري: **كتاب علم الملاحة في علم الفلاحة**، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، الطيعة الأولى، 1979م، ص.18.

(6) الطاهيري أحمد: **الفلاحة والعمران القروي بالأندلس خلال عصر بني عباد**، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر، طبعة2004م، ص.196 ؛ والسَّرقين ما تُدْمَلُ به الأَرضُ ويقال سِرْجين.(ابن منظور:**المصدر السابق**، مج.2، ص.138.)

(7) النابلسي: **المصدر السابق**، ص.18 ؛ وزَرْقُ الطائر، ذَرْقُه، وهي فضلاته. (أنظـــر ابن منظور:**المصدر السابق**، مج.1، ص.1065 ؛ مج.2، ص.22).

(8) الطاهيري: **المرجع السابق**، ص.203.

(9) النابلسي:**المصدر السابق**، ص.18 ؛ حركات إبراهيم: **النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط**، مطابع إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، د.ت.ط، ص.74-75.

(10)النابلسي:**المصدر السابق**، ص.18.

(11) **نفسه** .

(12) **نفس المصدر**، ص.20 (كلمة نعنع وردت هكذا في المصدر والصحيح نعناع)

(13) البرزلي أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي: **فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام**، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2002م، مج.3، ص.422-423 ؛ المراكشي عبد الواحد:**وثائق المرابطين والموحدين**، تحقيق حسين مؤنس، الطبعة الأولى،1997م، ص.545-546.

(14)الونشريسي أحمد بن يحيى: **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب**، تحقيق محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، طبعة 1401هـ/1981م، ج.8، ص.337.

(15) **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، 1983م، ج2، ص.133-134 ؛ منطقة "تيكورارين" ذكرها الوزان في حديثه عن إقليم سجلماسة ممَّا يدلّ أنَّها من المناطق الواقعة جنوب سجلماسة.

(16) الونشريسي: **المصدر السابق**، ج.6، ص.314-315.

(17) ابن رشد أبو الوليد محمد الشهير بابن رشد الحفيد: **بداية المجتهد ونهاية المقتصد**، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة التاسعة، 1409هـ/1988م، ج.2.ص.103.

(18) نفسه؛ والعَذِرةُ؛ الغائط (ابن منظور:**المصدر السابق**: مج.2، ص.720) ذكر ابن رشد العَذِرَة في هذا الموضع، لأنّ بعض المناطق من بلاد المغرب عرفت استعمال فضلات الآدمي لتسميد الأشجار والزروع والخضر، ومن أمثلة ذلك ما ذكره الحميري عن أهل "توزر" الذين كانوا "... يبيعون زبل مراحيضهم، وهم يُعيَّرُون بذلك، وذلك لتدمين أرضهم لأنَّها جافةٌ لقربها من الصحراء" (الحميري محمد بن عبد المنعم:**الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، مطابع دار السراج، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، 1980م، 145.)، وقد أجاز الفقهاء أكل ما ينتج عن الأرض التي استعملت فيها فضلات الآدمي كسماد(البرزلي: **المصدر السابق**: مج.3، ص.176.)

(19) سحنون بن سعيد التنوخي:**المدوَّنة الكبرى**: مذيلةٌ بكتاب **مقدمات ابن رشد لبيان ما اقتضته المدوَّنة من الأحكام**، لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت لبنان، طبعة1406هـ/1986م، مج.3، ص.218.

(20) المراكشي: **المصدر السابق**، ص.546.

(21) **المصدر لسابق**، ج.1، ص.229.

(22) حركات: **المرجع السابق**، ص.74-75 ؛ الطاهيري: **المرجع السابق**، ص.203.

(23) سعودي محمد عبد الغني:**الوطن العربي**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، د.ت.ط، ص.60-61.

(24) ابن منظور:**المصدر السابق**: مج.1، ص.598 ؛ البرزلي: **المصدر السابق**، ج.3، ص.403.

(25) النابلسي: **المصدر السابق**، ص.13.

(26) أحمد موسى عز الدين: **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، دار الشروق،القاهرة، بيروت، الطبعة الأولى1413هـ/1983م، ص.189.

(27) **نفسه**.

(28) مراكشي مجهول:**كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**،نشره مع ترجمة فرنسية لقسم منه وعلق عليه سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية1958م، أعاد نشره: فؤاد سيزكين ضمن **سلسلة الجغرافية الإسلامية**،منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، في إطار جامعة فرانكفورت، جمهورية ألمانيا1418هـ/1997م، مج.266، ص.215.)

(29) عن هذا الموضوع أنظر: جوليان شارل أندري: **تاريخ إفريقية الشمالية**، ترجمة محمد مزالي وبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الثالثة، د.ت.ط، ج.I، ص.207 ؛ حارش محمد الهادي: **التطور السياسي والاقتصادي في نوميديا منذ اعتلاء ماسينيسا العرش إلى وفاة يوبا الأول203-46ق.م**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، بوزريعة الجزائر، د.ت.ط، ص.101-102.

(30) جوليان: **المرجع السابق**، ج.I، ص.207.

(31) **تاريخ ابن خلدون** المسمى **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الفكر، بيروت، لبنان، طبعة1421هـ/2000م، ج.6، ص.114.

(32) الوزان: **المصدر السابق**، ج.I، ص.97.

(33) **نفس المصدر**، ج2، ص.116.

(34) **نفس المصدر**، ج.2، ص264.

(35) الونشريسي: **المصدر السابق**، ج.6، ص.55 ؛ ج.9، ص.560.

(36) ابن عبدون: **المصدر السابق**، ص.44.

(37) المالكي أبو بكر: **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم** ، تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، 1414هـ/1994م، ج.I، ص224-225.

(38) الدباغ عبد الرحمن بن محمد: **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، أكمله وعلق عليه: أبو القاسم بن عيسى بن ناجي، تحقيق إبراهيم شبوح وآخرون، مكتبة الخانجي مصر، المكتبة العتيقة تونس، الطبعة الثانية، 1388هـ/1968م، ج.2، ص.168.

(39) **المصدر السابق**، ج.I، ص.331-332.

(40) الزوج: بقرتان أو ثوران يُتخذان للحرث. (**نفسه**، هامش 2.)

(41) المازوني أبو زكرياء يحيى بن موسى المغيلي: **الدرر المكنونة في نوازل مازونة**، تحقيق مختار حساني، جامعة الجزائر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، مخبر المخطوطات، بوزريعة، الجزائر، الطبعة الأولى2004م، مج.3، ص130.

(42) **نفس المصدر**، ج.I، ص.293-294.

(43) الونشريسي: **المصدر السابق**، ج.6، ص.55.

(44) **نفس المصدر**، ج.6، ص.55.؛ إبَّانُ كلِّ شيء بالكسر والتشديد وقْتُه وحِينُه الذي يكون فيه (ابن منظور: **المصدر السابق**، مج.I، ص.10.)

(45) الونشريسي: **المصدر السابق**، ج.6، ص.190.

(46) **نفس المصدر**، ج.6، ص.55.

(47) **نفس المصدر**، ج.8، ص.164.

(48) **نفس المصدر**، ج.8، ص.147.

(49) سحنون : **المصدر السابق**، مج.4، ص.29.

(50) الونشريسي: **المصدر السابق**، ج.5، ص.252.

(51) أنظـــر: البرزلي: **المصدر السابق**، ج.3، ص.408.

(52) المراكشي: **وثـــــائق**، ص.494.

(53) الونشريسي: **المصدر السابق**، ج.8، ص.353.

(54) **نفس المصدر**، ج.9، ص.108.

(55) **المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، و هو جزء من كتاب المسالك و الممالك**، نشره البارون دوسلان، الجزائر 1857، ص.10.

(56) **كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مطبوعات عالم الكتب، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 1409هـ/1989م، مج.1، ص.112.

(57) **الموارد المائية وطرق استغلالها ببلاد المغرب من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين**، رسالة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي، غير مطبوعة، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2005/2004، ص.225.

(58) لا يُعرف متى ظهر هذا النَّوع من آلات السَّقي ببلاد المغرب، لكنَّ أول إشارة إليها في الفترة المدروسة، أوردها البكري حين ذكر أنَّ عبيد الله المهدي جلب الماء في القرن الرابع الهجري(10م)، إلى المهدية من قرية "منانش" القريبة منها، في أقداسٍ، وكان هذا الماء يُصبُّ في صهريجٍ عند جامعها ويُرفع من الصهريج إلى القصر بالدَّواليب.(البكري: **المصدر السابق**، ص.29-30).

(59) بن عميرة: **المرجع السابق**، ص.226.

(60) ابن منظور: **المصدر السابق**، مج.2، ص.225.

(61) الزجالي أبو يحيى عبد الله بن أحمد: **أمثال العوام في الأندلس**، مستخرج من كتابه:**ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام**، تحقيق محمد بن شريفة، مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية، المملكة المغربية، طبعة 1391هـ/1971م، ج.2، ص.152، هامش 680.

(62) **نفس المصدر**، ج.2، ص.152.

(63) **كتاب صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، طبعة1979، ص.89.

(64) ابن حوقل: **المصدر السابق**، ص.89.

(65) **المصدر السابق**، مج.1، ص.314.

(66)**المصدر نفسه**، مج.1، ص.315.

(67)**المصدر نفسه**، مج.1، ص.311.

(68) **المصدر السابق**، ج.8، ص.229.

(69) **المصدر السابق**، ص.90.

(70) **المصدر السابق**، ص.306

(71) **المصدر السابق**، ج.2، ص.127.
(72) الطاهيري: **المرجع السابق**، ص.191.
(73) **المصدر السابق**، ص.10.
(74) الوزان: **المصدر السابق**، ج2، ص.75.
(75) **المرجع السابق**، ص.195.
(76) الونشريسي: **المصدر السابق** ، ج.9، ص.560. بن عميرة: **المرجع السابق**، ص.227.
(77) ابن منظور : **المصدر السابق**، مج.1، ص.968..
(78) **المقدمـــة**، ص.509.
(79) جوليان: **المرجع السابق**، ج.1، ص.207.
(80) المراكشي ابن عذاري:**البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ومراجعة،ج.س.كولان و إ.ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية1983، مج.1، ص.126 ؛ الأَنْدَرُ؛ البَيْدَرُ، وهو الموضع الذي يداس فيه الطعام (ابن منظور: **المصدر السابق**، مج.1، ص.174) ؛ وتعني أيضاً الموضع الذي يجمع فيه الزرع بعد حصاده وهي كلمة شامية نقلها أهل الشام إلى الأندلس، وأهل العراق أيضاً يقولون البيدر، ومازالت كلمة الأندر مستعملة في المغرب بصيغة الجمع.(الزجالي:**المصدر السابق**، ج.2، ص.51، هامش رقم200.)
(81) **كتاب "سير الأئمة وأخبارهم" المعروف بـــ"تاريخ أبي زكرياء"**، تحقيق إسماعيل العربي، المكتبة الوطنية، الجزائر، طبعة 1399هـــ/1979م، ص.134.
(82) الونشريسي: **المصدر السابق** ، ج.5، ص.158.
(83) **نفس المصدر**، ج.9، ص.110.
(84) أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي:**كتاب طبقات علماء إفريقية**، نشره محمد بن شنب مع كتاب طبقات علماء إفريقية لمحمد بن الحارث الخشني وكتاب طبقات علماء تونس لأبي العرب تميم ،دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، د.ت.ط، ص.73 ؛ المالكي: **المصدر السابق**، ج.1، ص.416.

ذِكر وصف ومحتوى كتاب "أخبار ملوك بني عبيد" لابن حمّاد الصّنهاجي

(ت 628 هـ/1231م)[*]

د ة. نشيدة رافعي
قسم التاريخ جامعة الجزائر 2

وصف نُسخ المخطوط:

بين يدّيّ الآن، خمس نسخ من مخطوط "أخبار ملوك بني عبيد"[1]، نسخة المكتبة الوطنيّة بالجزائر، وتحمل رقم 1588، وأربع نسخ من المكتبة الوطنيّة بباريس اكتشفتها بعد البحث والتّنقيب والمراسلة مع المكتبات العربيّة والأجنبيّة[2].

أثناء دراسة فوندرهايدن لكتاب "أخبار ملوك بني عبيد"، اعتمد على نسختين فقط: نسخة الجزائر، ونسخة في المكتبة الوطنيّة بباريس، وهي التي تحمل رقم 1888،2456) (Supplément Arabe، وقال: "بأنّه بحث على النّسخ التي كان يملكها شربونو[3]، لكنّه لم يعثر عليها"[4].

أمّا الآن، وبعد البحث والمراسلة دائما، فأنا أعرف بأنّ شربونو باعها إلى المكتبة الوطنيّة بباريس[5]، وعليه استطعتُ أن أستفيد منها كلّها.

إذًا، فبقية النّسخ الأخرى هي أيضا من المكتبة الوطنيّة بباريس وهي:

- نسخة تحمل رقم: 4617 (Supplément Arabe 2457).
- نسخة تحمل رقم: 4615 (Supplément Arabe 2480).
- نسخة تحمل رقم: 4625 (Supplément Arabe 2458).

وقد أخذتُ صورة على الورق لنسخة المكتبة الوطنيّة بالجزائر في عين المكان، أمّا النّسخ الأخرى، فقد تحصلت على صورها أيضا بعد المراسلة والاتّصال، وتمّ ذلك بعد جهد جهيد.

أوّلا: نسخة المكتبة الوطنيّة بالجزائر:

هذه النّسخة التي توجد تحت رقم 1588، ضمن مجموع في مجلّد صغير مغلّف بورق مقوّى قسطليّ اللّون، تضمّن نصّ ابن حمّاد 94 ورقة، تشتمل كلّ ورقة منها على ثمانية عشر سطرا، ما عدا الورقة الأخيرة ففيها أربعة عشر سطرا فقط، ويبدأ النّص من ورقة 10 ضمن هذا المجموع، استعمل في كتابته الصّمغ الأسود وكتب بخطّ مغربيّ نسخيّ؛ مسطرته: 17,9سم × 11,4سم. ومظهر الكتابة طبيعيّ، ليس فيه أيّ تلوين أو زخرفة، كلّ باب جديد يبدأ بكتابة بارزة ظاهرة لاسم الخليفة.

وأبواب الكتاب أربعة عشر بابا، حسب عدد الخلفاء الفاطميّين، وهي تختلف من حيث القِصر والطّول ومن حيث الأهمّيّة، مع مقدّمة وجيزة وخاتمة؛ وقد خُتِمَتْ هذه المخطوطة بالعبارة التّالية: "وكان الفراغ من نسختها يوم الجمعة أوائل ذي الحجّة عام 1265هـ/ 1848م"، (أي بعد وفاة المُؤلّف بحوالي 637 سنة). ويلاحظ:

- أنّ ناسخ المخطوط لم يذكر اسمه، كما لم يذكر مكان النّسخ أيضا ولا توجد تعاليق في الجوانب، لكن هناك تصحيحات في الهوامش، مثلا في الورقتين 10 و16... لأنّ النّاسخ صرّح بقوله: « وفي الأصل تحريف كثير لأنّ ناسخها وجد بالأصل تحريفا كثيرا ونبّه عليه...

- ورمزتُ لهذه النّسخة بحرف -أ- وهي التي اعتبرتُها أصلا، وباشرت التّحقيق اعتمادا عليها للأسباب التّالية:

1- لأنّها أقدم نَسْخا من غيرها، إذ نُسِخَت سنة 1265هـ/ 1848م.

2- وتميّزت أيضا بأنّها أكمل صُور المخطوط نسبيّا.

3- وكُتِبَت بخطّ واضح وجميل، وهذا على الرّغم من أنّها لم تتضمّن اسم النّاسخ ولا مكان النّسخ كما أشرت؛ ويتضمّن المجموع فضلا عن كتاب: "أخبار ملوك بني عبيد":

- نصّا عن حنظلة بن صفوان، وخالد بن سنان العبسي من كتاب الدّيار(ورقات 2- 6).

- وقائمة لبني جلاّب أمراء توڤرت منذ عهد سليمان إلى الشّيخ علي (ورقات 7- 9).

- ونصّا آخر من كتاب أعمال الأعلام، لابن الخطيب السّليماني، عن ملوك بني حمّاد الصّنهاجيّين، (ورقات 105- 112).

وقد نشر رابح بونار هذا النّصّ فقال: "هذا النبذة من تاريخ بني حمّاد، اقتطعت من كتاب لابن الخطيب لا نعرف ما هو، وهو يقع ضمن مخطوطة تحمل رقم 1588 من ورقة 106"[6].

وأُلاحظ، أنّ رابح بونار قد شكّك في مصدر النّصّ، وفي أن يكون من كتاب "أعمال الأعلام"، أو غيره، لكنّه وبكلّ تأكيد وبسبب ما وضّحه فانيان[7]، ونتيجة لمقارنته بكتاب "أعمال الأعلام" ظهر أنّه منه؛ فقد وجدت في نفس المجلّة، وبنفس العدد، أنّ باحثا آخر قد اقتطف نبذا عن بجاية من المصادر، ومنها كتاب "أعمال الأعلام"، وبمقارنته بما جاء في نصّ المخطوط، مع ما في المقتطفات حول "دولة المنصور بن علناس"[8] مثلا، اتّضح أنّهما نصّ واحد من مصدر واحد هو كتاب "أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلّق بذلك من الكلام"[9].

ثانيا: نسخ المكتبة الوطنيّة بباريس:

I. نسخة (ب):

هذه المخطوطة توجد تحت رقم 4614 (Supplément Arabe 2457) كما سبق، وتتضمّن 100 ورقة، وهي ضمن مجموع[10] عدد أوراقه: 138 ورقة، كلّ ورقة من

المخطوط تشتمل على ثمانية عشر سطرا، إلاّ الورقة الأخيرة ففيها أربعة عشر سطرا فقط، استعمل في كتابتها الصّمغ الأسود، وكُتِبت بخطّ مغربي نسخي واضح يشبه خطّ نسخة الجزائر. ومسطرتها 10,6سم× 7,2سم، ومظهر الكتابة طبيعي ليس فيه أي تلوين أو زخرفة، إلاّ أنّ هناك تمييزا للأبواب بخطّ بارز ومُلوّن، مع بادية أخبار كلّ خليفة فاطميّ، أمّا أبواب الكتاب، فهي أربعة عشر بابا، تختلف من حيث القِصر والطّول، مع مقدّمة وجيزة وخاتمة.

ابتدأ المخطوط بالعبارة التّالية، بعد البسملة: "قال الشّيخ الفقيه الأعلم الأعرف الأوحد القاضي أبو عبد الله محمّد بن علي بن حمّاد، رضي الله عنه"، وكان هذا بخطّ بارز وكبير، وبنفس الخطّ خُتِم المخطوط بالعبارة التّالية: "هذا تأليف في أخبار بني عبيد وسيرتهم"، بحيث لم يذكر هنا لا مكان النّسخ، ولا اسم النّاسخ، لكن تاريخ النّسخ جاء في ورقة منفردة، وهو 13 أكتوبر 1884م (1302هـ)، أي بعد وفاة المُؤلّف بحوالي 674 سنة، وقد رمزتُ إلى هذه النّسخة بحرف (ب)[11].

2. نسخة (ج):

وهذه الأخرى نسخة من المخطوط توجد في المكتبة الوطنيّة تحت 2458462 (Supplément Arabe)، وقد كانت من بين مخلّفات شربونو، لأنّ عليها إمضاءه الشّخصي، وتضمّنت 26 ورقة، وهي ضمن مجموع[12]، عدد أوراقه 91 ورقة (Volume de 91 feuillets)؛ ومسطرة كلّ ورقة 21,4× 15,8سم، وتشتمل كلّ ورقة على 18 سطرا ما عدا الأولى، ففيها 17 سطرا، والأخيرة منها فيها 9 سطور فقط؛ استعمل في كتابتها الصّمغ الأسود، وكُتِبت بخطّ مغربي نسخي أيضا، لكنّه يختلف عن الخطوط التي كُتِبت بها نسخة (أ) و(ب).

يعتبر هذا الخطّ جميلا وإن كان دقيقا جدّا لا تكاد تُميّز حروفه، ومظهر الكتابة طبيعي لا يظهر فيه أي تلوين أو زخرفة، إلاّ في بعض الأحيان، حيث نجد خطا بارزا وغليظا وملوّنا، ويعني الانتقال إلى باب جديد، أي إلى أخبار خليفة فاطمي

آخر، وأبواب الكتاب 14 بابا، تختلف من حيث القِصر والطّول، مع مقدّمة وجيزة وخاتمة، وقد ابتدأ المخطوط بالعبارة التي بُدئ بها في النّسخ الأخرى السّابقة، لكنّه لم ينته كما انتهت النّسخ السّابقة لأنّ النّاسخ لم يذكر تاريخ النّسخ في الأخير، وإنّما قال: «تمّ الكتاب بحمد الله وحُسن عونه وتوفيقه الجميل»، أمّا تاريخ النّسخ فجاء في ورقة منفردة، وهو: أربعة وسبعون ومائتان وألف، أي (1274هـ/ 1857م)؛ كما تضمّن المخطوط تاريخ دخوله إلى حيازة المكتبة الوطنيّة بباريس، وهو 13 أكتوبر 1884م، ويبدو أنّه نُسِخ بعد وفاة المُؤلّف بحوالي 646 سنة، وقد رمزتُ إلى هذه النّسخة بحرف (ج).

3. نسخة (د):

هذه الأخرى مصدرها المكتبة الوطنيّة بباريس، تحمل رقم 1888 .(Suppl. Arabe 2456)، وهي التي اعتمدها فوندرهايدن أثناء عمله كما سبق الكلام، وتتضمّن 33 ورقة تشتمل كلّ ورقة على 36 سطرا، إلاّ الورقة الأولى فتشتمل على 32 سطرا فقط، والأخيرة على 8 سطور، استعمل في كتابتها الصّمغ الأسود وكُتِبَت بخطّ مغربي نسخي جميل، لكنّه دقيق، ومسطرة كلّ ورقة 19,2× 13,6 سم، ومظهر الكتابة طبيعي ليس فيه أي زخرفة ولا تلوين ولا تمييز للأبواب بأسطر أو عناوين ظاهرة أو كتابة بارزة، أمّا عن أبوابه فهي نفس ما جاءت في المخطوطات السّابقة، وبداية المخطوط هي:

بعد البسملة كانت بعبارة: "قال الشّيخ الفقيه الأعلم الأوحد... رحمه الله تعالى"، مثلما كان ذلك في النّسخ الأخرى، وانتهى بهذه العبارة: "انتهت كتابته يوم التّاسع عشر من شهر جوان سنة ألف وثمانماية وثمانية وستّين، وفي الأصل المنسوخ منه تصحيف كثير كما ذكر النّاقل"، ثمّ جاء بعنوان الكتاب آخر المخطوط، إذ لم يذكر السّنة الهجريّة، وهي 1285هـ/ 19 جوان 1869م، وهو بذلك قد كتب بعد وفاة المؤلّف بحوالي 654 سنة، وألاحظ أنّ اسم النّاسخ ومكان النّسخ غير موجودين،

لكنّ المخطوط دخل في حوزة المكتبة الوطنيّة بباريس، بتاريخ 13 أكتوبر 1884م، ورمزت إلى هذه النّسخة بحرف (د).

4. نسخة (هـ):

وهذه النّسخة الأخيرة من نسخ المخطوط، مصدرها أيضا المكتبة الوطنيّة بباريس، تحمل رقم 4615، (Supplément Arabe 2480)، وتتضمّن حسب ما هو مكتوب أوّل المخطوط 55 ورقة (Volume de55 Feuillets)، وهي في مجلّد مستقل، ويبدو لأنّها النّسخة الثّالثة التي كانت في حوزة المستشرق شاربونو نقلت له عن أصل كان يوجد في الجزائر. تشتمل كلّ ورقة على 28 سطرا، إلاّ الأخيرة ففيها 10 سطور فقط، استعمل في كتابتها الصّمغ الأسود وكُتبت بخطّ مغربي نسخي كبير وجميل. ومسطرتها 26,3سم× 20,4سم، أمّا عناوين الأبواب فمميّزة في هذا المخطوط، فيذكر اسم كلّ خليفة بكتابة بارزة ملوّنة كما يلاحظ محو بعض الكلمات.

وأبواب الكتاب هي نفس ما جاءت في النّسخ السّابقة، ويبدأ المخطوط بالعبارة التي جاءت في المخطوطات الأخرى، وينتهي بهذه العبارة: نُقل من النّظير بمدينة الجزائر وتمّ كتبه يوم الأربعاء الذي هو الحادي والعشرين من صفر سنة 1299 هجريّة الموافق لليوم الحادي عشر من جانفي 1882 مسيحيّة. ومكان النّسخ هنا مذكور، وإن لم يذكر اسم النّاسخ، إذ كُتبت هذه النّسخة بعد وفاة المؤلّف بحوالي 671 سنة، أي أنها أحدث النّسخ الموجودة تحت حوزتي، ورمزت إليها بحرف (هـ).

وننتقل الآن إلى التساؤل: ما هو محتوى "أخبار ملوك بني عبيد"؟.

ب. محتوى مخطوط أخبار ملوك بني عبيد:

I. عنوانه ولماذا؟

اختلف المؤرّخون حول صورة عنوان الكتاب، فهناك جماعة منهم اكتفت بالقول بأنّ لابن حمّاد: "تاريخا لبني عبيد" (Une histoire des Obeidides)، وكتب

العنوان على هذه الصّورة: المستشرق ليفي بروفنسال[13]، والمؤرّخ روجي إدريس[14]، وفي تاريخ الأدب لكارل بروكلمان[15].

أمّا الزّركلي[16] ومحقّق كتاب "عنوان الدّراية"[17]، فكتبا العنوان على الصّورة: "أخبار ملوك بني عبيد".

أمّا عبد الرّحمن الجيلالي، فقد أضاف للعنوان، وهذا بين شرطتين كلمة – الفاطميّين–[18]، أمّا فنيان فكتب "أخبار ملوك بني عبيد"[19]، واكتفى جلّول بدوي بعنوان "أخبار بني عبيد"[20].

ولاحظتُ، أنّ عنوان الكتاب لم يُرسم على صورة واحدة، حتّى في المخطوطات الخمس التي حصلت عليها.

– جاء عنوان مخطوط المكتبة الوطنيّة بالجزائر على هذا الشّكل: "هذه جملة من [أخبار] ملوك بني عبيد"[21].

وهو نفس ما جاء في مخطوط المكتبة الوطنيّة بباريس، لكنّه ترجم للّغة الفرنسيّة هكذا: "تاريخ حول أسرة بني عبيد لابن حمّاد"، (Histoire sur la dynastie des Obeidites sur Ibn Hammad).

وحسب الإمضاء، يظهر أنّ هذا كان من طرف المستشرق شربونو[22].

ويمكنني أن أُضيف، أنّ شربونو لّما لاحظ بأنّه يملك نُسختين من هذا المخطوط، لم يذكر عنوانه الكامل، حتّى في ترجمة النّصّين الذين قام بهما اقتباسا من هاتين النّسختين، واكتفى بقوله: «هذا مترجم من أخبار ابن حمّاد»، ثمّ أضاف باللّغة العربيّة: "تاريخ ابن حمّاد"[23]، وهذا هو نفس ما سلكه عند ترجمته لنصّ عن ثورة أبي يزيد من نفس المخطوط[24].

أمّا الصّورة الثّانية التي عثرت عليها لعنوان الكتاب، فهي: "هذا التّأليف، في أخبار بني عبيد وسيرتهم ومدتهم"[25]، وهذا يشبه العنوان الذي جاء به

فوندرهايدن: "أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم"[26]، وأخيرا، عثرت على هذه الصّورة: "سيرة ملوك بني عبيد"[27]، وبدوري، استعملتُ في بحثي العنوان الذي تضمّنه مخطوط المكتبة الوطنيّة بالجزائر، الذي ميّزته عن غيره، واعتبرتُه أصلا صحّحت به بقيّة المخطوطات.

أمّا الآن، فإنّني أتساءل أيضا: لماذا استقرّ ابن حمّاد على هذا العنوان لكتابه الذي تضمّن تسمية الفاطميّين بالملوك التي قد تُشير إلى الاستبداد والطّغيان والماديّة، بدلا من الخلفاء الفاطميّين، أو الأئمّة التي تشير إلى المعاني الدّينيّة والرّوحيّة.

كما أنّ كلمة عبيد بالتّصغير، قد تُشير إلى التّحقير أيضا، هذا فضلا عمّا قد تُشير إليه نسبتهم إلى أوّل خليفة فيهم، وهو عبيد الله، وليس إلى فاطمة الزّهراء التي يحلو للفاطميّين التّعلّق بالانتساب إليها، فهم على حسب العنوان: بنو عبيد، ودولتهم عبيديّة كما تُسمّى عند مؤرّخي المغرب الإسلامي، أغلب الظّنّ أنّ ذلك كلّه كان من ابن حمّاد انسياقا وراء التّسمية التي جرى بها العرف عند جمهور المؤرّخين المغاربة، دون شعور بالتّحقير أو إنكار للنّسب العلوي للعبيديّين الفاطميّين.

ويبقى أن نعرف متى وأين ألّف هذا المخطوط؟

2. تاريخ تأليف الكتاب ومكانه:

عن هذا الموضوع، يمكنني أن أشير إلى ملاحظة جلبت انتباهي وهي: أنّ الغبريني في كتابه "عنوان الدّراية"، وفي ترجمة ابن حمّاد[28]، نراه يذكر كلّ مؤلّفاته ما عدا "أخبار ملوك بني عبيد"، رغم أهميّته واشتهاره، ويمكننا أن نلتمس له العذر لأنّ الكتاب لم يشتهر عند الغبريني، لأنّ مؤلّفه ابن حمّاد لم يكتبه وهو في بجاية فيما يبدو، وإنّما كتبه أثناء وجوده في الأندلس أو المغرب الأقصى[29].

علاوة على هذا لاحظتُ سابقا بأنّ فانيان أضاف إلى عنوان الكتاب سنة 617هـ/ 1220م، وهو تاريخ ذكره ابن حمّاد نفسه في آخر كتابه بقوله: "وتتبع بني

عبيد ممّن عثر عليه سجنوه بدار القاهرة وبقيّتهم فيها إلى اليوم، وهو سنة 617 هـ/ 1220م"[30].

لذلك يحقّ لنا أن نتساءل متى، وأين ألّف ابن حمّاد كتابه "أخبار ملوك بني عبيد"؟

يمكنني أن أُلاحظ أنّ هذه السّنة، وهي 617هـ/ 1220م، ربّما لا تُشير فقط إلى تاريخ تأليف الكتاب، وإنّما إلى مكانه أيضا، لقد عثرت على حقائق تاريخيّة أشرت إليها سابقا[31]، وبرهنت على أنّ ابن حمّاد قد تولّى سنة 616هـ/ 1219م آخر وظيفة في حياته وهي قضاء مدينة أزمّور بأرض المغرب الأقصى، لذلك فالشّيء المحتمل هو أنّ ابن حمّاد سواء أثناء قضائه أو بعد أن تخلّص من الوظيفة الإداريّة، كان يجمع معلومات لكتابه "أخبار ملوك بني عبيد"، وقد ابتدأ جمعه وتأليفه في السّنة المذكورة 617هـ/ 1220م، سواء في أزمور -مركز قضائه- أو في مدينة مراكش التي استقر فيها بعد تخلّصه من قيود الوظيفة الإداريّة، وقد يرجّح ذلك أن عادة العلماء والعظماء أن يتفرّغوا لتدوين مذكّراتهم وملاحظاتهم وجمع قصاصاتهم وكتاباتهم عمّا عاشوه بعد خروجهم من الخدمة الحكوميّة، أي في جو الهدوء وعدم الالتزام، هذا هو الغالب، وقد يزدهرون أثناء ذلك فكريّا وعلميّا، ويُثرون الحياة الثّقافيّة والعلميّة مثل ابن حمّاد، وابن خلدون كذلك الذي ألّف مقدّمته المشهورة أثناء تفرّغه وعزلته في قلعة ابن سلامة بجوار فرندة ولاية تيارت الآن.

فهل اعتمد ابن حمّاد على خطّة مميّزة في هذا التّأليف؟

3. خطّة الكتاب:

لا يمكنني أن أستخرج خطّة واضحة ودقيقة من هذا الكتاب، فهو جملة من أخبار بني عبيد، كما سمّاه المُؤلّف، يتضمّن مقدّمة مختصرة جدّا، يعلّق شاربونو عنها قائلا: "إنّ المقدّمة الصّغيرة التي تتصدّر الكتاب لا تحدّد شيئا دقيقا، معينا سواء فيما يخصّ المؤلّف أو فيما يخصّ المصادر التي اعتمدها، بل إنه اقتصر على ذكر: أنّ

حقائق هذا الكتاب بعضها اقتبس من الكتب، أمّا البعض الآخر منها فرواها له بعض المؤرّخين"[32].

وكذلك الأمر بالنّسبة للدّوافع التي حفزته على جمع أخبار الخلفاء الفاطميّين، إذ اكتفى في هذا الاتّجاه بقوله: "وقد دعاني إلى هذا التّأليف ما دعا المُؤلّفين المؤرّخين إلى أمثاله"[33].

4. موضوع المخطوط وأقسامه:

أمّا موضوع المخطوط، فهو جملة من أخبار الخلفاء الفاطميّين مرتبين ترتيبا زمنيّا، كلّ خليفة خصّه ابن حمّاد بباب مستقل، وأظنّ أنّه من الممكن أن أقسِّم المخطوط موضوعيّا إلى قسمين رئيسيين:

I). **القسم الأوّل منه** : وهو تاريخ مجمل لأحداث الدّور المغربي للخلافة الفاطميّة، لأنّه يحتوي على أخبار الخلفاء الفاطميّين في المغرب، وهمّ:

- عبيد الله المهدي (297-323هـ/ 909-934م).
- محمّد القائم (323-335هـ/ 934-946م).
- إسماعيل المنصور (335-342هـ/ 946-953م).
- وأبو تميم المعزّ لدين الله (342-365هـ/ 953-975م)، وهذا قبل انتقاله إلى القاهرة.

ويظهر أنّ ابن حمّاد، قد أعطى لهذا القسم أهميّة كبيرة إذ اعتنى به كثيرا، فمعلوماته عنه كانت غزيرة وأكثر دقّة من القسم الثّاني، كما لاحظتُ بأنّه في هذا القسم لم يشر إلى أي مصدر، سواء كان في شكل روايات شفهية أو مكتوبة مسجّلة.

وفي هذا القسم أيضا، نلاحظ أنّ أطول باب فيه هو:

* الباب الأوّل:

وهو الخاص بالخليفة المؤسّس، وفي إطاره: تحدّث ابن حمّاد عن عبيد الله، وهو في "دور السّتر"، وأشار إلى مشكلة النّسب، وإلى رحلته من المشرق إلى المغرب، وإلى الدّور الذي قام به داعيه أبو عبد الله الشّيعي في رحلته عندما ضمّ كتابه إلى جانبه وقضى على الأغالبة في رقادة.

أمّا الحديث عن عبيد الله، وهو في "دور الظّهور"، فأهمّ شيء جاء به في هذا القسم هو الدّور الذي قام به ابنه محمّد القائم من أجل فتح مصر، ثمّ من أجل إخماد الثّورات التي أشعلتها زناتة في النّواحي الغربيّة، وصنهاجة وكتامة في النّواحي الشّرقيّة من المغرب الإسلامي.

ومن الأخبار الهامّة التي حفل بها هذا الباب، خبر انقطاع الحجّ في عهد الخليفة عبيد الله المهدي، بسبب حملات سليمان بن الحسن القرمطي المعروف بأبي طاهر، والذي نزع الحجر الأسود من الكعبة، وهدّد الحجّاج وزرع الرّعب والهلع في النّفوس.

ومن أهمّ ما تطرّق إليه ابن حمّاد من مشاكل الفاطميّين في هذا الباب، استخرجت: مشكلة النّسب الفاطميّ، ومشكلة ثورات زناته وكتانة، ثمّ مشكلة الانشقاق المذهبي الذي وقع في الصّفّ الإسماعيلي.

* الباب الثّاني:

فهو لا يقلّ أهميّة عن الأوّل رغم قصره النّسبي، بسبب أنّ المؤلّف أدمج قسما من أخبار الخليفة القائم في الباب الأوّل الخاصّ بعبيد الله.

وأهمّ ما جاء في هذا الباب، وصف لحياة أبي يزيد مخلد بن كيداد، وبداية استعداده للثّورة ضدّ الفاطميّين، حيث كوّن أتباعا وبدأ الدّعاية ضدّ بني عبيد.

* **الباب الثّالث:**

وهذا الباب هو الآخر كان طويلا، إذ جاء ابن حمّاد بوصف مفصّل وطويل جدّا لثورة أبي يزيد، وروى نصّ الخطبة التي عاهد فيها المنصور نفسه على مقاومة منافسه أبي يزيد مخلد بن كيداد، حتّى الانتصار النّهائي.

كما أتى بوصف دقيق للمعركة بكلّ جوانبها، ولكلّ المراحل التي مرّ بها الخليفة المنصور حتّى الانتصار الحاسم على عدوّه والتّمثيل به؛ وقد أعقبه الاحتفال بالنّصر.

2). **القسم الثّاني من المخطوط:**

وهذا القسم خاصّ بباقي الخلفاء الفاطميّين في مصر، أي منذ انتقال الخليفة المغربي المعز لدين الله إلى القاهرة سنة 362هـ/ 972م[34]، إلى عهد الخليفة العاضد سنة (555-567هـ/ 1160-1171م)، آخر الخلفاء الفاطميّين بمصر.

فهو محاولة للتّأريخ للدّور المصري للدّولة الفاطميّة، وأطول باب في هذا القسم هو الخاصّ بأخبار المعز لدين الله، وأهمّ ما تضمّنه:

- خبر إخماد ثورة هوّارة بقايا أتباع أبي يزيد بجبل أوراس، وخبر فتح مصر على يد جوهر الصّقلّي، وأمان المعزّ لدين الله لأهل مصر في الرّيف والصّعيد، ووقعة القوم الأحمر ضدّ القرامطة، وحادث امتداد الحكم الفاطمي إلى بلاد الشّام، وهذا بواسطة القائد الكتامي جعفر بن فلاح نائب جوهر الصّقلّي.

- أخبار الحاكم:

أمّا الباب الخاصّ بأخبار الخليفة الحاكم (386-411هـ/ 996-1021م)، فهو آخر كان طويلا نسبيّا، إذ تضمّن جملة من الوقائع والأحداث، منها: وصف شخصيّة الحاكم، ومعاملته للجرجرائي، وبناءاته المعماريّة مثل مسجد راشدة،

وطوافه المعتاد ليلا، وذهابه إلى جبل المقطم، ووفاته الغامضة وما نتج عنها من اعتقادات برجعته، وأخيرا خبر عن ثورة الخلافة في عهده.

- أمّا الأخبار التي تضمنها كتاب ابن حمّاد عن باقي الخلفاء الفاطميّين في مصر، فيظهر لي أنّها كانت سطحيّة، أمّا مصادر معلوماته كما ذكرها في القسم الثّاني من الكتاب، والتي أشرت إليها سابقا فهي مؤلّفات وأعمال:

- ابن الرّقيق (القرن 5هـ/ 11م) [35]، خاصّة في كتابه "تاريخ إفريقيّة والمغرب"، والقضاعي (ت 454هـ/ 1062م) [36]، مؤلّف "الشّهاب في تاريخه"، والشّيخ الفقيه أبو الحسن علي بن محمّد بن عثمان التّميمي القلعي[37]، وابن حيّان (ت 469هـ/ 1076م) [38]، وأبي المكارم محمّد هبة الله المصري (ت639 هـ/ 1241م)[39]، الذي اعتمده ابن حمّاد في أخبار الخلفاء الآمر والحافظ[40] والظّافر[41]، وأبي حزم، الذي اعتمده ابن حمّاد في أخبار الظّاهر[42].

ويهمّني من كلّ ما سبق أنّ ابن حمّاد قد حفظ لنا من روايات ابن الرّقيق عن تاريخ إفريقيّة والمغرب في عصر الفاطميّين، قدرا مهمّا يمكن الاطمئنان إليه، ومن دون شكّ يكون قد اطلع على هذا الإنتاج الهامّ وأفاد منه أمثال ابن عذاري[43]، وابن خلدون[44].

الهوامش :

(*) هذا المقال مقتبس من رسالة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة (DEA) في التاريخ الإسلامي قدمتها الطالبة: نشيدة سليماني (رافعي) بعنوان: ابن حماد الصنهاجي وأخبار ملوك بني عبيد دراسة نقدية وتحقيق جديد، تحت إشراف الأستاذ الدكتور، موسى لقبال، جامعة الجزائر، مارس 1979.

1. إنّه موضوع رسالة دكتوراه الدّرجة الثّالثة، نوقشت بجامعة السّربون، 1986م، عنوانها:
Nachida RAFAÏ: « Les Fatimides d'après Ibn Hammàd-as-Sanhàĝi. Etude du texte et traduction commentée d'Akhbàr mulûk banu Ubayd »

2. ينظر إلى عرض كامل للرّسالة قد قدّم في مقال سابق.

3. أشار شربونو بأنّه يملك نسختين من كتاب أخبار ملوك بني عبيد أهداهما إليه طالب من قسنطينة، انظر إلى:

Cherbonneau (M), Sur l'hérétique d'Abou- yazid Mokhaled Ibn Kidad de Tadenket, Y. A, Décembre, 1852, p471.

4. Vonderheyden (M), les Obaididies, Alger, 1927, p 8.

5. لقد توصّلت إلى حقيقة بيع شربونو لنسخ المخطوط التي كانت في حوزته إلى المكتبة الوطنيّة بباريس في مراسلة تمت بيني وبين المكتبة المذكورة بتاريخ 19 ديسمبر 1977م.

6. رابح بونار، "مخطوطة تنشر لأوّل مرّة، تاريخ بني حمّاد لسان الدّين ابن الخطيب"، **الأصالة**، عدد 19، مارس- أفريل 1974، ص 89، هامش (1).

7. Fagnan (E), Catalogue général des manuscrits des bibliothèques de France, recueil, 1617 (586), p 449.

8. رابح بونار، "تاريخ بني حمّاد للسان الدّين الخطيب"، **الأصالة**، ص 94، نصّ رقم (5).

9. بلحميسي مولاي، "بجاية في حدائق الكتب"، **الأصالة**، ص 110، نصّ: "دولة المنصور بن النّاصر بن علناس بن حمّاد "لسان الدّين بن الخطيب، أعمال الأعلام"، ص 97.

10. و المجموع يشتمل على:

أ- ابن حمّاد من 1 إلى 100.

ب- توشيح الدّيباج في حلية الابتهاج للقرّافي، وهو عبارة عن تراجم أوّلها ترجمة ابن عاصم الأندلسي من ورقة 102 إلى 127.

ج- نبذة من تاريخ الجزائر لأبي راس محمّد بن أحمد بن عبد القادر الغريسي من ورقة 128 إلى 138.

11. و يبدو أنّها كانت من بين مخلّفات شربونو، رغم أنّني لم أعثر على إمضاءه الشّخصي، مثلما هو موجود في نسختي "ج" تحت رقم 4625، و"هـ" تحت رقم 4615.

12. و المجموع تضمّن:

- قصّة خالد بن سنان العبسي من ورقة 3 إلى ورقة 11.
- تاريخ بني حفص لابن الشّمّاع من ورقة 42 إلى 91.
- ابن حمّاد، يبدأ من ورقة 12 إلى 38.

13. leir Provençal (E), Arabica, Yanuer, 1954, p 26.

14. Idris (H.R), la Berberie orientale sous les Zirides, Paris, 1959, t 1, p 19.

15. Brokelmann (C), Geschichte des Arabischer litteratur, sufflement band, Loiden, 1938, t2, p 342.

16. الزّركلي (خير الدّين)، الأعلام، ط 1956، ج7، ص 169.

17. أبو العبّاس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني، **عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية**، تحقيق: عادل نويهض، بيروت، 1969، وطبعة الجزائر، 1970، تحقيق: رابح بونار، ص 218.

18. عبد الرّحمن بن أحمد الجيلالي، **تاريخ الجزائر العامّ**، الجزائر، 1953، ج1، ص 398.

19. Fagnan (E), Catalogue général des manuscrits des bibliothèques de Frances, recueil, 1588 (9), p 439.

20. جلّول بدوي، "ابن حمّاد الصّنهاجي"، **الأصالة**، مارس 1971، العدد الأوّل، ص 102.
21. ابن حمّاد، خ (أ)، رقم 1588، ورقة 1.
22. نفسه، خ (خ)، رقم 4625، ورقة 12.
23. Cherbonneau (M), J. A, 1855, extrait n° 7, p 1.
24. Cherbonneau (M), J.A, 1852, p 470.
25. ابن حمّاد، المصدر السّابق، خ (د)، رقم 1888، ورقة 34.
26. انظر: Vonderheydeu (M), histoire des Obeidides, p1.
27. ابن حمّاد، المصدر السّابق، خ (هـ)، رقم 4615، ورقة 1.
28. الغبريني، **عنوان الدّراية**، ط 1969، ص 218.
29. حسب الغبريني، في ترجمة لابن حمّاد، فرحل الرّجل من المغرب الأوسط إلى الجزيرة الخضراء ودخل إلى المغرب الأقصى ليتولّى قضاء مدينة سلا سنة (613 هـ/ 1216م)، ثمّ مدينة أزمّور بعد (616 هـ/ 1219م). أنظر: الغبريني، **عنوان**، ط 1969، ص 218.
RED, Idn Hammàd, EI, Paris, 1972, t3, p 805.
30. ابن حمّاد،المصدر السّابق، رقم 1588، ورقة 94.
31. و ذلك أثناء دراسة شخصيّة ابن حمّاد الصّنهاجي.
32. Cherbonneau (M), J.A, année, 1855, extrait, n° 7, p 1, 2.
33. ابن حمّاد، المصدر السّابق، ورقة 1. وأنظر أيضا:
المجيلدي، **الحسبة المذهبيّة**، ص 37، 38، بخصوص الدّوافع على التّأليف.
34. تقي الدّين أحمد بن علي المقريزي، **اتّعاظ الحنفاء بأخبار الأئمّة الفاطميّين الخلفاء**، تحقيق: جمال الدّين الشيال، القاهرة، 1948، وط 1967، ج1، ص 133.
35. ابن حمّاد، المصدر السّابق، خ (أ)، ورقة 70، أخبار العزيز.
36. نفسه، خ (أ)، ورقة 71.
37. نفسه، خ (أ)، ورقة 72.
38. نفسه، خ (أ)، ورقة 87.
39. نفسه، خ (أ)، ورقة 87.
40. نفسه، خ (أ)، ورقة 88.
41. نفسه، خ (أ)، ورقة 89.
42. نفسه، خ (أ)، ورقة 85.
43. ابن عذاري المرّاكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، نشر وتحقيق: أ- ليفي بروفنسال، هولندة، 1948، ج1، ص 43، 56.

44. عبد الرّحمن ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر**، لبنان، 1959،ج 7، ص 81، 82، وعنوان النّصّ: ملوك طرابلس من بني خزرون بني فلفل... (من زناته).

الحوض الغربي للبحر المتوسط في عهد روجر الثاني (1101ـ1154م)
"بين أطماع النورمان وضعف القوى الإسلامية"

د. رشيد تومي
قسم التاريخ جامعة الجزائر 2

لا شكّ أنّ استقرار النورمان* في القرن الحادي عشر بجنوب إيطاليا، يُعدّ محطّة فارقة في تاريخ أوربا العصور الوسطى. وكان لهذا الحدث انعكاساته المتشبّعة والعميقة على عالم البحر الأبيض المتوسّط، إذ لم يكد النّورمان يثبّتون أقدامهم في إيطاليا، حتى اشرأبت أعناقهم إلى جزيرة صقلية المحاذية لها. وفي غضون ثلاثين سنة، أحكم النورمان السيطرة عليها بعد أن سقطت مدينة نوطو Noto آخر معقل إسلامي بها عام 484هـ/ 1091م، ودانت لهم في نفس السنة، جزيرة مالطة الواقعة إلى الجنوب من صقلية.

ويرجع الفضل في تحقيق هذا الانجاز، إلى الكونت روجر الأول دي هوتفيل Roger de Hauteville، الذي أدرك بدافع حساسية الموقف، وصائب نظره، وجوب اعتماد سياسة مرنة وحكيمة تجاه مسلمي الجزيرتين، كما التزم بنهج المسالمة وحسن الجوار مع الضفة الجنوبية للمتوسط ممّا سمح باستمرار الواقع الجيوسياسي السائد في المنطقة.

روجر الثاني ودواعي تطلّعاته تجاه شمال افريقيا:

وبعد وفاة الكونت روجر الأول عام 1101م، دخل الحوض الغربي للمتوسط مرحلة جديدة، سُجلت خلالها تطورات سياسية وعسكرية حاسمة، ميّزت بشكل ملحوظ، تاريخ العلاقات بين الضفتين لهذا البحر. وكان مهندس هذا التغيير، هو الكونت روجر الثاني[1]، الذي حمل كل آمال أسرة هوتفيل واختزل في وجدانه، ما اشتهر به أجداده الشماليون "الفيكنج" من روح المغامرة والشجاعة والإقدام. فاق

أباه روجر الأول، بطموحاته الجامحة والمفرطة التي لا تُشبعها المكاسب قط، كما اشتهر بحنكة سياسية رفيعة، تجنّبه خوض المغامرات غير المحسوبة، وعُرف أيضا بدرايته الدقيقة بالأوضاع السياسية للأقاليم المحيطة بعرشه وخاصّة إفريقية* التي يُمارس معها نشاطا تجاريا حثيثا ومربحا[2].

ولا شك أن روجر الثاني، على خلاف أبيه، قد أدرك منذ وقت مبكر، الأهمية الإستراتيجية التي يحظى بها البحر المتوسط، في المجالين الاقتصادي والأمني، وأيقن في ذات الحين، أن احتواء هذا البحر، لن يتم إلا بإحكام السيطرة على سواحله الجنوبية ومن ذلك، شكل هذا المشروع، أحد المظاهر البارزة للسياسة الخارجية النورماندية في المنطقة. وفي إطار هذا المنظور، بات من الضروري إلحاق "بلاد افريقية" بعرشه، لما تمثله من امتداد طبيعي وعمق أمني واقتصادي لتاجه. ومُبرّرُ رُوجر في هذا العدوان، سعيه إلى تجفيف منابع الخطر العسكري الصادر عن الزيريين** بافريقية والذين ما فتؤوا يغيرون على أراضي صقلية وجنوب إيطاليا وكذا حرصه على استئصال شأفة نشاط القراصنة الذي غدت مدينتا طرابلس وجزيرة جربة، منطلقين له مما أثر سلبا على النشاط التجاري والوضع الأمني للمتوسط. وتأتي أيضا تطلعات روجر الثاني تجاه سواحل شمال افريقيا بشكل عام، ضمن توقه الشديد إلى فرض هيمنته على المقدرات الاقتصادية للمتوسط من خلال إحكام القبضة على تجارة الصحراء وتحويل أراضيه إلى مركز ثقل لتجارة البحر المتوسط برمتها وذلك عن طريق فرض سيطرة تامة ومحكمة على خطوط الحركة التجارية الشمالية والجنوبية للمتوسط على حد سواء.[3] وينبغي الإشارة إلى أن صقلية، منذ أن استولى عليها النورمان، أضحت موطئ توقف واستراحة للسفن التجارية الرابطة بين حوضي المتوسط. وشكل مضيق مسينا، معبرا رئيسيا لتجارة المدن الإيطالية، لما يوفره لها من أمن ووقاية من مخاطر القرصنة التي تعجّ بها أعالي ودواخل البحر. ولكن تبقى خارج هذا الخط، كل التجارة المصرية والإسبانية، التي تجد في سواحل بلاد المغرب، محطات طبيعية تفي بأغراضها وحاجتها المنشودة[4]. ويُفيد الباحث الفرنسي شالندن، بأن العلاقة النشيطة

والمستمرة بين ضفتي المتوسط، الشمالية والجنوبية، تفسّر الأهمية القصوى التي يوليها روجر الثاني لمشروع احتلال سواحل شمال افريقيا[5].

علاقة روجر الثاني بإفريقية بعد وفاة أبيه:

الواقع أنّ تصوّرات روجر الثاني حول مستقبل عالم المتوسط، تُنبئ بما ستؤول إليه الأوضاع في هذا الفضاء الاستراتيجي الحساس. غير أنّ روجر، لم يُفصح عن نواياه التّوسعية تجاه افريقية بُعيْد وفاة أبيه، وإنّما ظلّ مُحافظا على جسور العلاقة مع الزيريين، لكن في ذات الحين بات يتربّص بأحوال افريقية ويتحيّن الفرصة لاجتياح أراضيها. وكشف ابن الأثير[6] عن هذا النّفاق والخداع الذين شابا موقف روجر الثاني، وفي ذلك يقول "واقام رجار الفرنجي مظهرا للحسن –الأمير الزيري- انه مهادنة وموافقة وهو مع ذلك يُعمر الشوانيء ويكثر عددها وآلاتها...". وإبّان هذه المرحلة، تميّزت العلاقة الزيرية النورماندية بالتقلب وعدم الاستقرار، جيّدة أحيانا ومتأزّمة تارة أخرى، حيث وصفها آماري[7] بأنّها "دون حرب أو سلم".

محاولات روجر لفرض وجوده في ميدان المتوسط:

على أنّ روجر الثاني في الحقيقة، لم يُفوّت على نفسه الفرصة لاستظهار قوّته العسكرية في ساحة المتوسّط، كلّما وجد سبيلا إلى ذلك، سعيا منه إلى فرض وجوده باعتباره لاعبا جديدا يُحسب له حسابه. وقد عبّر روجر عن هذا السلوك، من خلال تدخّله السافر في الشؤون الدّاخلية للإمارة الزيرية وذلك عندما دبّ الخلاف بين الأمير الزيري، عليّ بن يحي بن تميم (509- 515هـ/ 1116- 1121م) وصاحب مدينة قابس، المسمى رافع، حيث استنجد هذا الأخير بروجر الثاني الذي سيّر أسطوله إلى قابس لفكّ الحصار عليه، لكن هذه النّجدة لم تفلح في تحقيق النّصر لرافع بفضل القوّة التي أعدّها الأمير عليّ فعاد النورمان أدراجهم إلى صقلية خائبين. وعلى كلّ، فإنّ هذه المحاولة العسكرية النورماندية، قد أحدثت توتّرا شديدا في العلاقة بين روجر وعليّ، أبدى كلاهما موقفا متصلّبا حال دون انفراج الأزمة. واعتمد روجر أثناء هذه الأزمة، على خطاب ينمّ عن الغلو

والمكابرة ممّا أثار غيظ عليّ الذي أبى إلاّ أن يُعلن حالة التعبئة، ويُبادر بعرض مشروع الهجوم المشترك على صقلية مع المرابطين -حكام المغرب الأقصى والأوسط- إلاّ أنّه لم يكتُب له إنجاز هذه الأمنية، بسبب المرض الذي ألمّ به، أودى بحياته في يوم الأحد الموافق لـ 22 ربيع الآخر سنة 515 هـ/ 10 جويلية 1121م[8]. على أنّ هذه الهبة الزيرية في الحقيقة، إن لم تسفر عن استئصال أطماع النورمان تجاه افريقية، إلاّ أنّها أبعدت غائلة خطر النورمان عن هذه الأخيرة ردحا من الزمن[9].

وثمّة موقف آخر، برهن خلاله روجر الثاني، على ثقله السياسي في المتوسط، حيث يفيد الراوي اللاتيني، بطرس الشماس، أنّ ثلّة من الرّهبان الكنسيين البندكتيين*، وقعت في أسر قراصنة من إفريقية، فطلب من روجر تحريرهم. وكان أن سعى روجر لدى صاحب بجاية، فنال سراحهم بيسر وسهولة[10]. وهناك محطة ثالثة، شكّلت فرصة لروجر لإبراز وزنه العسكري في هذا البحر وكذا قدرته على فرض الحسم لصالحه. وترجع هذه المناسبة إلى سنة 529هـ/1134- 1135م، حينما استقوى به الحسن الزيري ضدّ بني عمومته الحماديين، حيث تحرّك روجر الثاني بقواته، فأجبر الأسطول الحمادي على الانسحاب من عرض مدينة المهدية، وكاد هذا الأخير أن يتعرّض لدمار ما حق، لولا تدخّل الحسن الذي حال دون ذلك، حقنا لدماء المسلمين[11].

حملة روجر الثاني على مدينة المهدية عام 517هـ/ 1123م:

على أنّ الفرصة التي بات روجر الثاني يتربّص بها بلهف شديد للإجهاز على أراضي الزيريين بافريقية، لم يلبث أن حانت، وذلك عندما تعرّضت مدينة نقوطرة Nicotera بمقاطعة قلورية -جنوب إيطاليا- عام 516هـ/1122م، لهجوم عسكري دبّره جيش المرابطين بقيادة أبي عبد الله ميمون، "فلم يشكّ -روجر- أنّ المحرّك لذلك والمسبب له هو امير افريقية الحسن بن علي لما تقدم بينه وبين ابيه من الوحشة[12]. وقد أوجدت هذه الحملة لروجر، مبرّرا قاطعا لغزو افريقية دون

رجعة، ومن ثمّ قرّر تحريك آلته العسكرية لضرب الحسن في صميم امارته وذلك باحتلال مدينة المهدية الواقعة جنوب مدينة تونس، على الساحل الشّرقي لافريقية.

وتنفيذا لهذا المشروع، بادر روجر بقطع كلّ أنواع الاتّصالات بافريقية والمغرب[13]، ثمّ سيّر أسطوله البحري بقيادة أمير البحر الشهير جورج الأنطاكي* نحو مدينة المهدية، وذلك في شهر جمادى الأولى عام 517هـ/ 1123م. وقدّرت المصادر الإسلامية قوام هذا الأسطول، بحوالي ثلاثمائة مركب وألف فارس[14]. وأمّا من جانب الحسن الزيري الذي بلغته نوايا روجر، فإنّه لم يَرْكن لهذا التحدي، حيث انكبّ على إعداد العدة العسكرية لمواجهته بكلّ شجاعة ومروءة[15]. وقد أثمرت هذه الجهود، إذ تمكّن الجيش الزيري من إنزال هزيمة ساحقة بالقوات النورماندية في جزيرة الأحاسي القريبة من المهدية، عند شمالها "ولم يرجع منها الى صقلية الاّ قدر ماية مركب ولم ينج من الخيل الاّ فرسين"[16]. ولم يجن الأنطاكي من هذه الحملة، سوى ظفره بجزيرة قوصرة، المعروفة أيضا باسم بانتيليريا Pantelleria، الواقعة بجنوب غرب صقلية[17].

لا شكّ أنّ هذه الهزيمة، قد تركت جرحا غائرا في نفس روجر الثاني[18]، ولعلّها أيقنته بأنّ تحرّكه ضدّ البرّ الإفريقي، لن يكون مُهمّة هيّنة، تندرج ضمن رحلة نزهة مشوّقة. وحاول المؤرّخ ميشال آماري، تبرير هذا الإخفاق الأليم، بكون هذه الحملة، هي مجرّد اندفاع جامح وانتقام فوري، تفتقر إلى خطّة ناضجة تحوي شروط عملية الغزو المنظّمة[19]. وإلى جانب ما أفرزته هذه الهزيمة من اتّساع هوة الجفاء بين النورمان والزيريين وكذا تنامي روح الانتقام لدى روجر تجاه الحسن[20]، تواصل هجوم المرابطين على أراضي النّورمان، حيث غزا القائد محمد بن ميمون، في عام 521هـ/ صيف 1127م، مدينتي باتي Patti وسرقوسة بصقلية. وذكر التيجاني، أنّه "عاث في بلاد لجار وقتل وحمل نساءه سبيا إلى بلاده"[21].

تحالف روجر الثاني مع برشلونة وسافونا:

وفي ظلّ استفزازات المرابطين، وبعد أن أعاد احتلال جزيرة مالطة في هذه السنة[22]، سعى روجر إلى تعزيز مركزه، وذلك بالتقرّب من القوى المسيحية الأوربية الأخرى، ومن تمّ أبرم في جانفي عام 1128م، معاهدة تحالف مع كونت برشلونة Barcelone بإسبانيا، ريموند الثالث Raymond III، تعهّد روجر بموجبها، بإمداد هذا الأخير أثناء صيف عام 1129م، بقوة عسكرية قوامها خمسون مركبا، لمساعدته على محاربة مسلمي الأندلس وذلك انتقاما لهجوم المرابطين على أراضيه. واتّفاق مماثل، عقده روجر مع أمير مدينة سافونا Savone الواقعة بشمال إيطاليا، في يوم 11 مايو من نفس العام[23]. وليس هناك من شكّ، أن هذه السياسة الإئتلافية التي انتهجها روجر، قد أدّت إلى تدعيم جانبه وتعزيز سلطانه، وبلغت هذه المكانة ذروتها، حينما توّج روجر الثاني، ملكا دون منازع على صقلية وجنوب إيطاليا، في 25 ديسمبر عام 1130م[24].

عودة الوفاق بين روجر الثاني والحسن الزيري:

وعلى الرغم مما ناله روجر الثاني من سؤدد، إلاّ أنّه لم يكن في وضع يسمح له بالتفرّغ لمشروعه الإفريقي المتوسّطي، فيما أضحى الحسن في حالة، تعجزه عن ردّ غائلة الخطر النّورماندي الدّاهم، وعليه، آثر الطّرفان الجنوح إلى الهدنة والمسالمة، توّج بعقد اتّفاق صلح بينهما[25]، احتلّ الشّق الاقتصادي ضمّنه موقعا ملحوظا. فمن جانب الحسن الذي يُعدّ المحرّك الأوّل لهذه المبادرة، فقد كان شديد الحرص على اقتناء قمح صقلية كما احتاج إلى صداقة روجر كي يتفرّغ لمواجهة خطر بني عمومته الحماديين. وأمّا روجر من جهته، فإنّه أصبح في أمسّ الحاجة إلى تصدير حبوب المملكة إلى إفريقية، للحصول على المال الضّروري، يُمكّنه من استكمال بناء دولته النّاشئة. وما حثّه أيضا على تأييد فكرة الهدنة، انشغاله بإخماد ثورات الأسياد المحلية، وهو ما حال دون اهتمامه بمشروع غزو افريقية[26].

وهكذا، فإنّ الضّرورة المادية والظّروف الدّاخلية العصيبة التي عاشتها المملكة، هي التي أملت على روجر، سياسة الاعتدال والاتّزان تجاه الزيريين، ممّا يدفع إلى استبعاد طابع المبالغة الذي تميّز به نص ابن أبي دينار والذي يوحي بأنّ الحسن انصاع رغما وكرها لرأي روجر، وقد ورد فيه: "ووقعت بينهما مهادنة وكان ذلك انّ الحسن ارسل اليه بهديّة وصالحه مخافة من شرّه فتمّ الصلح وشرط اللّعين عليه شروطا فقبلها"[27]. وفي رواية أخرى، ذهب المؤلّف بالقول، إلى أن الحسن، أعلن انضواءه تحت لواء التاج النّورماندي كاعتراف بما أسداه له روجر من مساعدة ضدّ الحماديين عام 529هـ/ 1135م، كما سبق ذكره. وقد عبّر ابن أبي دينار[28] عن هذا الحدث، فقال: "رجع الاسطول -النّورماندي- الى صقلية وكتب الحسن كتابا الى الملك رجار يشكره على صنعه وانّه داخل تحت امره ونهيه فتاكدت بينهما المخالصة واستقامت عند ذلك أمور الحسن".

حملات روجر الثاني العسكرية على سواحل إفريقية:

تحسّنت العلاقة بشكل ملموس بين الحسن الزيري والملك روجر الثاني، إلاّ أنّ هذه الصداقة، لم تثن هذا الأخير عن المضيّ قدما لتحقيق مآربه الافريقية، إذ لم تُغمض أجفانه في سبيل التّعجيل بإعداد الآلة الحربية قصد الشّروع في غزو الأراضي الزّيرية[29].

احتلال جزيرة جربة وأبعاده:

ولّما اكتملت التّحضيرات العسكرية وتوطّد سلطانه في إيطاليا، قرّر البدء في تنفيذ حملاته العدوانية. وكانت وجهتها الأولى جزيرة جربة، الواقعة بخليج قابس. وقد نعمت الجزيرة قبل احتلالها، بوضع متميّز ورد ذكره بوضوح عند ابن الأثير[30]، حيث يقول عنها: "كانت جزيرة جربة من بلاد افريقية قد استوت في كثرة عمارتها وخيراتها غير انّ اهلها طغوا فلا يدخلون تحت طاعة سلطان ويعرفون بالفساد وقطع الطّريق". ويُؤكّد الشّريف الإدريسي[31] هذا الواقع بقوله أن: "الشرّ والنّفاق موجودان في جبلتهم وهم أهل فتنة وخروج عن الطاعة".

وفي سنة 529 بداية 530هـ/ ربّما خريف 1135م، سيّر الملك روجر أسطولا عتيدا نحو جربة، تشارك فيه فرق من الجنود المسلمين من أهل صقلية[32]. وبعد معارك ضارية، استبسل خلالها مسلمو الجزيرة استبسالا عظيما، سقطت الجزيرة في قبضة النّورمان. وقد فصّل ابن أبي دينار في وقائع هذه الحملة وما آل إليه مصير هذه الجزيرة، وفي ذلك قال: "ونازل جزيرة جربة وأخذها عنوة بالسّيف وقتل رجالها وسبا حريمها وباعهم في صقلية ورجع اليها من سلم ودخل تحت طاعة رجار وولّى عليها عاملا من قبله وكتب لهم امانا من عنده وجعلهم خَوَلاً له"[33] ثمّ اقرّهم على الجزية[34].

وهكذا، بسط روجر الثاني سيطرته على هذه الجزيرة، دون أن يتحرّك الحسن الزّيري لنجدتها، هذا على الرّغم من تبعيّتها له[35]، وكأنّ احتلالها، بات أمرا مشروعا حتى في نظر المسلمين، جزاء بما يصنعه أهلها من غي وشطط[36].

لا شكّ أنّ إلحاق جربة بتاج النّورمان، يكتسي قيمة ملحوظة لدى روجر الثاني، إذ يعبّر عن إدراكه الحصيف لأهمّية الجزيرة الإستراتيجية ودورها الفعّال في سياسته الإفريقية. ذلك أنّ هذا الفوز في الواقع، لا ينطوي على نية في إخماد جذوة القرصنة فقط، بل يستجيب لرغبة في تحقيق الثّأر لهزيمة الأحاسي عام 517هـ/ 1223م، كما أنّه يُلقي رواسي لقاعدة أمامية، تكفل الحماية لظهر المملكة وتساعد الحملات العسكرية المزمع توجيهها ضدّ افريقية من جهة، كما تسمح بفرض رقابة نورماندية على الحركة التّجارية الرّابطة بين افريقية ومصر والتي سجّلت انتعاشا ملموسا منذ اجتياح الهلاليين على بلاد المغرب من جهة أخرى[37].

وعقب احتلال الجزيرة، بعث روجر الثاني برسالة إلى خليفة مصر الفاطمي، الحافظ لدين الله، (524-544هـ/ 1130-1149م) يُطلعه بما آلت إليه الجزيرة. وكان أن أجابهُ الخليفة بخطاب، يحوي مضمونه، مشاعر الودّ وآيات الاستحسان والتبرير لما صَنَعَهُ روجر، بعد أن اتّخذ سكانها سبيل "العدوان والعدول عن طرق

الخيرات وسبلها واجترائهم في الطغيان على أسباب لا يجوز التغافل عن مثلها واستعمالهم الظّلم تمرّدا وتماديهم في الغيِّ تباهيًا في الباطل وغُلوّا..."، ثمّ برّر الحافظ هذه الحملة بقوله: "فإنّ من كانت هذه حالته حقيق أن تكونَ الرحمة عنه نائية، وخليق أن يأخذه الله من مأمنه أخذة رابية..."[38].

على أنّ هذه الرّسالة، تكشف بجلاء، عن تأييد الحفاظ المطلق لاحتلال روجر جزيرة جربة، غير أنّ المؤرّخ ماريوس كنار M. Canard، يشكّ في صدق موقف الحافظ[39]، لأنّ العلاقة في هذه الفترة، بين آل زيري والفاطميين بمصر، كانت جيّدة. ولعلّ جواب الحافظ، إنّما ينمّ عن حرص هذا الأخير على مسالمة روجر الثاني الذي أخذت سطوته تنمو بشكل مُطّرد في عالم المتوسط، وخاصة أنّ الحافظ، بات مشغولا من جانبه، بدرء الخطر الصليبي عن عرشه، هذا وأضحى حريصا أيضا على ضمان استمرار علاقته الإيجابية بالملك النورماندي، روجر الثاني[40].

غزو روجر الثاني مدينة المهدية عام 536هـ/ 1140-1141م:

الواقع أنّ الحملة على جربة، تعد إيذانا خفيّا بشروع الملك روجر في تحقيق أطماعه بإفريقية، إذ لم يُفصِح صراحة عن نيّته العدوانية تجاه الحسن الزيري، بسبب اتّفاق الصلح الذي يربطه به، لكن لم يتوان في خرق هذه المعاهدة والتّحرّش بالزّيريين كلّما وجد سبيلا إلى ذلك، مثلما فعل مع جزيرة جربة. وتلبية لهذه السياسة الاستفزازية، سيّر روجر أسطوله العسكري سنة 536هـ/1140-1141م للإجهاز على مدينة المهدية، بدعوى استخلاص حقوقه من الحسن الذي تأخّر عن تسديد الدّيون التي أقرضها إيّاه. وجاء تحريك هذا الأسطول بقيادة جورج الأنطاكي، بعد أن علم روجر من جواسيسه بالمهدية "انّ بمرساها مراكب قد استوفت وسقها". وتوّجت هذه الحملة الخاطفة، "بان اخذ منه – اي المرسى- مركبا كان الحسن قد احتفل فيه وشحنه بذخائر ملوكية ليتوجّه بها إلى الحفيظ العبيديّ صاحب مصر وكان ذلك المركب يسمّى نصف الدّنيا"[41].

تصاعد النشاط العسكري النورماندي على سواحل افريقية:

تركت هذه العملية النورماندية الجريئة والمفاجئة، أثرا واخزا في نفس الحسن، ومع ذلك فلم يجنح إلى معاداة روجر لعدم استعداده لأيّة مواجهة عسكرية معه، بل سعى إلى تلطيف أجواء العلاقة بينهما. وفي ذلك، أشار ابن الأثير[42] إلى أنّ الحسن راسل روجر الثاني "وجدّد الهدنة لأجل حمل الغلات من صقلية الى افريقية لان الغلاء كان شديدا والموت كثيرا".

أبرمت الهدنة بين روجر الثاني والحسن الزيري، لكنّها لم تُفلح في صرف التّهديد النّورماندي على سواحل افريقية، حيث وجّه روجر الثاني أسطوله العسكري إلى مدينة طرابلس* في عام 537هـ/ 1142-1143م فضرب الحصار عليها في شهر ذي الحجة/ فصل الصيف. ولم يُرفع عنها إلاّ بعد وصول نجدة إليها. وفي نفس العام، غزا الجيش النورماندي مدينة جيجل بشرق الجزائر، وعاث فيها فسادا ودمارا كما أحرق القصر الذي ابتناه يحي بن العزيز الحمادي للنزهة، ثمّ غادر المدينة وفي قبضته سرب من الأسرى المسلمين.

وبعد هذه السنة، سجّل الغزو النورماندي على هذه السواحل، تصاعدا خطيرا، حيث عاود الأسطول النورماندي عام 539هـ/ 1144-1145م، الكرّة على مدينة طرابلس، فأعملوا فيها وضواحيها قتلا ونهبا. وتعرّضت مدينة برشك -بين مدينتي شرشال وتنس- وجزيرة قرقنة-مقابلة لمدينة سفاقس- لهجوم مماثل، وأوسع فيهما الغزاة النورمان قتلا وفسادا، وسيق الأطفال والنساء في الأسر المهين وبيعوا عبيدا في أسواق صقلية[43].

وقد بعثت هذه الاعتداءات النورماندية السافرة، استنكارا واستياء كبيرين لدى الحسن الزيري، فأرسل... إلى رجار الفرنجي ملك صقلية يذكره العهود التي بينهم فاعتذر بأنّهم غير مطيعين له"[44]، ومن ثمَّ، لم ير في اعتقاده، مانعا لضرب هذه المواقع وتأديب سكانها.

احتلال روجر الثاني مدينة طرابلس عام 541هـ/ 1146م:

على أنّ اللّين والتودّد الذين أبداهما الحسن تجاه الملك النورمادي، وهما يعكسان حقا الوهن الذي ينخر دولته، قد شجع في الحقيقة روجر على التّمادي في عدوانه وكذا إصراره على تقويض أركان العرش الزيري، دون أن يعبأ بالعهود. وعليه لم يلبث أن عقد العزم على معاودة الهجوم على مدينة طرابلس التي لم يغفر لها مقاومتها له عام 537هـ/ 1142م. الواقع أنّه ظلّ يتربّص بأحوالها الدوائر إلى أن حلّت سنة 540هـ/ 1145م، حيث أصاب افريقية قحط شديد، فعرفت جرّاءه مجاعة فظيعة[45]. وقد صوّر صاحب المؤنس[46] هذا المشهد المؤلم، فقال: "وفي هذه السنة -احدى واربعين وخمسماية- كان القحط بافريقية حتى فرّت غالب الناس الى صقلية"، وذكر أبو الفداء[47] أنّه "حصل بافريقية غلاء شديد حتى اكل الناس بعضهم ودام من سنة سبع وثلاثين وخمسماية الى هذه السنة -أي 543هـ- ففارق الناس القرى ودخل اكثرهم الى جزيرة صقلية".

شكّل هذا الوضع العصيب، فرصة ثمينة بالنسبة لروجر، لتوجيه ضربة قاسية لمدينة طرابلس، ومن ذلك، سيّر إليها أسطوله العسكري بقيادة جورج الأنطاكي، قوامه مائتا مركبة. وفي اليوم الثالث من شهر محرم سنة 541هـ/ 15 جوان 1146م، ضرب الحصار على المدينة، وكان باستطاعة أهلها الصمود طويلا، لولا وقوع خلل في عملية الدفاع، بسبب فتنة دبّت بين طائفتين بالمدينة، واستغلّ الجيش النورماندي هذه الفجوة، فنجح في اقتحام أسوار المدينة واحتلالها بعد ثلاثة أيام، أي في يوم الثلاثاء السادس من نفس الشهر/ 18 جوان. وقد أشار التيجاني إلى مشاركة عناصر من مسلمي صقلية في هذه الحملة. وعقب هذا التمكين، تعاطى النورمان لألوان التّنكيل والتخريب داخل المدينة، لكن لم يلبث جورج الأنطاكي أن أمر بإيقاف كلّ أشكال العنف، ثمّ أمّن سكّانها على أموالهم وأنفسهم، فعاد الهاربون حينئذ إلى ديارهم آمنين مطمئنّين[48].

مكث النورمان ستة أشهر بمدينة طرابلس، انكبّ خلالها قائد الحلمة، على تعزيز استحكامات المدينة وتثبيت نفوذ النورمان بها وكذا تنظيم شؤونها الدّاخلية، حيث "أقرّ الجزية على أهلها" "وولّى على البلد الشّيخ ابا يحي بن مطروح التميمي وجعل قاضيهم رجلا منهم يعرف بابي الحجاج يوسف بن زيري وهو صاحب التأليف المعروف بالكافي في الوثائق". ولحماية المسلمين من تجاوزات الطائفة المسيحية، جعل "احكام المسلمين كلّها مصروفة الى قاضيهم ووواليهم ولم يكن النّصراني يتعرّض بشيء من احكامهم".

وبعد أن استتب الأمن والاستقرار بالمدينة واطمأنّ النورمان لولاء سكانها لهم، انسحبوا من المدينة ومعهم رهائن ينتمي أغلبهم إلى بني مطروح. لكن لم يلبث بعد مرور ردح من الوقت، أن أعادوا هؤلاء الرّهائن والتمسوا آخرين من والي المدينة، دون التّدخل في اختيارهم(49). وعلى الرّغم من وجود هذه المدينة تحت الاحتلال النّورماندي، إلاّ أنّ أحوالها الاقتصادية والاجتماعية سجّلت أثناءه، ازدهارا ملحوظا، بفضل العلاقة المتميّزة التي ربطتها بصقلية خاصة وأوربا عامة. وقد عبّر ابن الأثير عن هذا الوضع البديع، بقوله: "واستقامت امور المدينة والزم اهل صقلية والروم بالسفر إليها فانعمرت سريعا وحسن حالها"(50).

حملة روجر الثاني على مدينة المهدية عام 543هـ/ 1148م، ظروفها ونتائجها:

لا شكّ أنّ توالي هذه الحملات النّورماندية على أراضي شمال افريقيا وما انجرّ عنه من تثبيت نفوذ الملك روجر في بعض مواقعها، قد كشف النّقاب عن حقيقة نوايا هذا الأخير التّوسّعية وإصراره على إقرار الاستيطان النّورماندي في غرب المتوسّط. وهكذا، وفي ظلّ غياب قوّة إسلامية تُلجمه وتحبط هذه الأطماع، أزمع روجر مواصلة هذا الاجتياح، واشرأب عنقه هذه المرّة، إلى مدينة المهدية. ولا شكّ أنّ هذه الأخيرة، تشكّل هدفا استراتيجيا في هذه الحركة التوسّعية، لكونها

حاضرة للإمارة الزيرية كما أنّها تحظى بقدرات دفاعية حصينة تحول دون سهولة اختراقها. وقد عبّر عنها المراكشي[51] بقوله: "وهي من معاقل المغرب المنيعة لانّ بنيانها في غاية الاحكام والوثاقة بلغني انّ عرض حائط صورها ممشى ستة افراس في صف واحد ولا طريق لها من البرّ، الاّ على باب واحد والبحر في قبضة من في البلد يدخل الشيني كما هو بمقابلته الى داخل دار الصناعة لا يقدر أحد ممن في البرّ على منعه".

اتّخذ روجر الثاني هذا القرار، في أعقاب الأزمة الدّاخلية التي شبّت بين الحسن الزيري وعامله، يوسف، حاكم مدينة قابس. ذلك ان هذا الاخير، لم يلبث ان استقوى بروجر "وكتب اليه... بتضرّع وبتلطّف وسلّم له ما تحت يده ورضي ان يكون عاملا له". واستحسن روجر هذا العرض لأنّه يكسبه مدينة هامة دون أي عناء أو كُلفة، وبادر الحسن عندئذ، بقتل يوسف واسترجاع مدينة قابس، ممّا جعل روجر يتأثّر ويغتاظ كثيرا، وعن هذا الموقف، قال ابن أبي دينار[52]: "فانف اللعين من ذلك لكون كلّ منهما تحت طاعته فعوّل على غزو المهديّة فحشد جيشا عظيماً، بعد أن حاول دون جدوى الاستيلاء، على مدينة قابس[53].

الواقع أنّ الحملة على المهدية، تنعم بطابع خاص، لأنّها ستضرب قلب الإمارة النابض، كما أنّها ستجري في ظروف متميّزة على الصّعيدين، الأوروبي والافريقي على حدّ سواء، وهي تصبّ كلّها في مصلحة الملك روجر الثاني. فمن جانب أوروبا اللاتينية، فإنّها باتت تعيش تحت تأثير الدّعوة إلى الحملة الصليبية الثانية إثر سقوط إمارة الرها الصليبية -شمال العراق- بيد المسلمين، عام 539هـ/ 1144م. وشكّلت هذه الحملة، فرصة ثمينة لروجر، لتعزيز مركزه في العالم المسيحي، وذلك بالمشاركة في محاربة المسلمين عن طريق الإجهاز على أحد معاقلهم بافريقية، هذا دون أن يحيد قيد أنملة عن مشروعه التّوسعي بالساحل الجنوبي للمتوسط[54]. وأمّا في افريقية فمازلت تحيا تبعات مسغبة شديدة طال أمدها، حيث انطلقت عام 537هـ/ 1141-1142م وبلغت ذروتها عام 542هـ/ 1146-1147م[55].

ويُعبّر ابن الأثير[56]، عن هذه الكارثة التي طالت المغرب كلّه فيقول: "وكانت الشّدة دوام الغلاء في جميع المغرب من سنة سبع وثلاثين إلى هذه السنة - 543هـ/ 1148م- وكانت اشدّ من ذلك سنة اثنين وأربعين1147م. وممّا زاد تفاقما للوضع الاجتماعي والاقتصادي لافريقية، إقبال روجر الثاني تحضيرا لغزو المهدية، على قطع تصدير الحبوب إليها، باعتباره المزوّد الأول للزّيريين بهذه المادة الأساسية[57]، "واكل الناس بعضهم بعضا وكثر الموت في الناس". كما أشار إلى ذلك أبو الفداء[58].

وهكذا، كان اختيار روجر لهذا التّوقيت لاحتلال المهدية، مناسبا وموفّقا، مُهتبلا فرصة الأوضاع الحالكة التي تواجهها الإمارة الزّيرية حيث اختلّ فيها توازن الدّولة واضطربت شؤونها كما ساد الحرمان وانعدام الأمن واستبدّ اليأس والقلق بنفوس الأهالي عبر أرجاء الإمارة. وعَن هذا المشهد المأسوي، قال ابن الأثير[59]. "وعظم الأمر على أهل البلد... وكان أهل البيت لا يبقى منهم أحد... ولقوا أمرا عظيما... فاغتنم رجار هذه الشّدة".

ولم يلبث روجر الثاني، في عام 543هـ/ ربيع 1148م، "أن عمّر الأسطول وأكثر منه فبلغ نحو مايتين وخمسين شينيا مملوءة رجالا وسلاحا وقوّة وسار الأسطول عن صقلية"[60] قاصدا مدينة المهدية. وفي يوم الاثنين من شهر صفر/ 22 جوان، وصل الأسطول النّورماندي إلى عرض المدينة. ولإضفاء طابع التّمويه على هذه الحملة، راسل جورج الأنطاكي، قائد الحملة، الحسن الزيري، يلتمس منه مساعدة عسكرية، لاسترجاع مدينة قابس وتأديب قتلة يوسف، حليف النورمان، وذلك بموجب اتّفاق الصلح المبرم بينهما والذي تدوم صلاحيته عشر سنوات.

وقبل الإجابة عن هذا الطلب، استشار الحسن نصحاءه من الفقهاء وأعيان المدينة، فيما ينبغي اتّخاذه من موقف ملائم حيال التماس الأنطاكي، فأجمعوا أمرهم على ضرورة قتال النورمان، واثقين ممّا تملكه المدينة من قدرات لتحقيق النّصر[61]. لكن نظرة الحسن، اختلفت عن هذا الموقف، فبناء على رؤيته

الموضوعية لأوضاع الإمارة الاقتصادية والعسكرية، أدرك يقينا، عجز المدينة عن مقاومة مثل هذه الحملة العسكرية الكاسحة، ومن ثمّ آثر الحسن مغادرة المدينة بمعيّة أفراد عائلته وحمل من أمتعته، ما خفّ وزنه. وقد أدّى فرار الحسن، إلى اضطراب أوضاع المدينة، بسبب انتشار الهول والفزع وهجرة الكثير من الأهالي خارج المدينة. وفي ظلّ هذا المشهد الرّهيب دخل جورج الأنطاكي المدينة في يوم الاثنين، ثاني صفر سنة 543هـ/ 22 جوان 1148م، واستولى عليها "بغير مانع ولا مدافع". واشتهر هذا الحدث في المصادر الإسلامية باسم "الكائنة الشنعاء"[62].

دخل جورج الأنطاكي مدينة المهدية غازيا، لكن لم يعامل سكانها بمنطق العنف والانتقام أو بعقلية المحتل الغاشم التي لا تبقي ولا تذر، القائمة على السطو والنّهب وانتهاك الأعراض. ذلك انّ هذا القائد، سلك تّجاه الأهالي، سياسة انطوت على كثير من الحكمة والتّبصر وبعد النّظر، تعكس دون شك، درايته العميقة بأحوال العرب وطبائعهم. وعلى أساس هذا النّهج، سهر الأنطاكي على توفير كلّ أسباب الأمن والعدل والاستقرار وكذا كلّ الشروط للنّهوض بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمدينة[63]. وعبّر التيجاني[64] بوضوح عن هذه السياسة النورماندية، فقال: "فانّ الفارّين لقوا من المشقّة وعدم الماء ما اهلك اكثرهم الى ان تداركهم جرجير فبعث لهم خيلا يعلمونهم بالأمان فرجعوا إلى بلدهم وفرق عليهم مالا وطعاما اقرضهم ايّاه فصلحت أحوالهم واغتبط النّاس بالمهديّة لما رأوا من عدل النصارى فعمرت أحسن عماره". ولخّص ابن أبي دينار[65] هذه المعاملة البنّاءة أيضا، فقال: "لما دخل المهديّة امر بالكفّ عن القتل والنّهب ونادى في النّاس بالامان ومن له منزل رجع اليه وهدن اهل البلد واحسن لمن رجع واحتوى على دخاير الحسن واثاثه ممّا لا يوصف ولقي بعض اولاده واهله وامّهات اولاده فاحسن اليهم وارسلهم الى صقلية وعمّر عدو الله المدينتين زويلة* والمهدية ودفع للتّجار رؤوس اموال واحسن لفقرائهم وقدم قاضيا راضيا يحكم بين الناس ومهّد قواعد البلدين". ويُفيد ابن الأثير[66]، بأنّ جورج الأنطاكي قد "احسن اليهم –

الاهالي- واعطاهم أموالا جزيلة..."، فيما يؤكّد ابن خلدون، انّه أقرّ سكان المهدية على الجزية[67] دون الضّرائب السائدة الاخرى[68].

يعتبر احتلال النّورمان لمدينة المهدية، ضربة قاصمة للحسن الذي هرب بجلده وانتهى به المقام عند خليفة الموحّدين، عبد المؤمن بن علي الكومي، بمراكش[69]، حيث يعكس انهيار عرش آل زيري الذي أخذ يترنّح منذ أكثر من عقدين، كما يمثّل أيضا، خطوة نوعية نحو تحقيق مشروع الهيمنة النورماندية على غرب المتوسط، ثمّ يشكّل دافعا معنويا قويّا للاستمرار في مدّ النّفوذ النورماندي إلى ما تبقى من مدن افريقية الإسلامية.

دخول مدينتي سوسة وسفاقس تحت حكم النورمان:

وبعد مُضي أسبوع كامل من سقوط المهدية[70]، غزا الجيش النورماندي مدينة سوسة في يوم 12 صفر عام 543هـ/ 2 جويلية 1148م، وفي نفس اليوم، استولى النّورمان عليها دون أن يبدي صاحبها، على بن الحسن، أية مقاومة، حيث آثر الفرار والالتحاق بأبيه ممّا جعل الأهالي يقتدون به، فتركت المدينة طعمة سائغة بيد الغزاة[71]. وفي نفس الشهر، وجّه جورج الأنطاكي حملة ثانية إلى مدينة سفاقس، وعلى خلاف سوسة، فإنّ "اهلها دافعوا بقدر طاقتهم"[72]، ومع ذلك فقد اقتحمها النورمان عنوة في يوم 23 صفر/ 13 جويلية من نفس العام. وعقب أعمال العنف التي اقترفها الجيش النّورماندي، "نودي بالأمان فعاد اهلها فافتكّوا حرمهم واولادهم ورفق بهم وباهل سوسة والمهدية وبعد ذلك وصلت كتب من رجار لجميع اهل افريقية بالامان والمواعيد الحسنة"[73]. ويؤكّد ابن عذاري[74] خضوع المدينة بقوله: "ودخلت في عمل رجار صاحب صقلية"، كما أفاد ابن خلدون[75] أنّ روجر أقرّ أهلها على الجزية.

وعلى غرار ما نفّذه روجر الثاني في طرابلس، أسند إدارة سفاقس لأحد أعيان وعلماء المدينة وفضلائها، ألا وهو الشّيخ أبو الحسن الفرياني*، هذا على الرغم من استقرار فرقة من جنود النّورمان بها[76]، غير أنّ هذا الأخير، تنصّل من هذا

التّكليف، متذرّعا بعدم قدرته على الإيفاء بواجبه بسبب عجزه وكبر سنه، وعندئذ عوّض بابنه، عمر[77]، ثمّ حُمل الشيخ أبو الحسن، رهينة إلى صقلية. وقبل مغادرته المدينة، "قال له بنيا إنّي قد كبرت وأشرفت على الموت وقد صدقت نفسي على المسلمين فانّ أمكنتك الفرصة في هؤلاء النّصارى الذين عندك فانتهزها"[78].

حملة النورمان على إقليبية:

ولمّا استقرّت الأوضاع داخل المدن التي فتحها النّورمان، وتوطّد حكمهم بها، حرّك جورج الأنطاكي أسطوله لاحتلال قلعة إقليبية، وهي قلعة حصينة من سواحل إفريقية، "فلمّا وصل إليها سمعت العرب فاجتمعوا إليها ونزل إليهم الفرنج فاقتتلوا فانهزم الفرنج وقتل منهم خلق كثير فرجعوا خاسرين إلى المهديّة"[79].

فتور النشاط النورماندي في المتوسط:

على أنّ وثيرة النّشاط العسكري للنورمان في غرب المتوسط، لم يلبث أن اعتراها الفتور منذ عام 544هـ/ 1149- 1150م، وانقشع بذلك، التهديد النورماندي على سواحل إفريقية ردحا من الوقت. ويعود سبب هذا الرّكود، إلى انهماك روجر في حروبه ضدّ الإمبراطورية البيزنطية، ممّا استرعى منه، تجنيد معظم قواته البحرية في هذا الصراع. وما أثّر سلبا على سير هذه الحملات الإفريقية أيضا، وفاة القائد جورج الأنطاكي عام 546هـ/ 1151-1152م، والذي ضمن للعرش النورماندي كلّ انتصاراته في إفريقية. ولم يُفلح روجر في ملء الفراغ الذي تركه هذا الأمير، على الرّغم من استخلافه بالقائد فيليب المهداوي وهو من مدينة المهدية، الذي لم يبلغ ما بلغه الأنطاكي من حنكة ودهاء وولاء للعرش[80]. وقد أورد ابن الأثير[81] بوعي وإدراك، سرّ هذه الأحداث، فقال: "وجرى بينهما - النورمان وبيزنطة- حروب كثيرة دامت سنين فاشتغل بعضهم ببعض عن المسلمين ولولا ذلك لملك رجار جميع إفريقية". وعن الأنطاكي، قال عنه بعد وفاته: "فسكنت الفتنة واستراح النّاس من شرّه وفساده ولم يكن لصاحب صقلية من يقوم مقامه".

روجر الثاني يُعيد احتلال جزيرة جربة عام 548هـ/ 1153م:

ولعلّ هذه الظّروف، شجّعت سكان جزيرة جربة لإعلان العصيان، محاولة منهم لكسر نير الاحتلال النورماندي عليهم، واضطرّ روجر إلى قمع هذه الثورة بكلّ عنف وشراسة. وقد وقفت المصادر الإسلامية عند هذه المحطّة الحساسة فورد عن الإدريسي[82]: "ثمّ نافقوا وخرجوا عن طاعة الملك المعظم رجار فغزاهم في هذه السنة -548هـ/ 1153م- بالأسطول فاستفتحها ثانية ورفع جميع سبيها إلى المدينة" -لعلّها بالرمو-. وذكر التّيجاني[83]، أنّ النّورمان "تغلّبوا على الجزيرة ثانية فنقلوا أكثر أهلها سبايا إلى بلادهم ولم يبقوا بها إلاّ من لا بال له".

فتح روجر الثاني مدينة بونة –عنابة– في نفس السنة. "ظروفه وتداعياته":

لا شكّ أنّ تمرّد سكان جربة، قد لفت انتباه روجر الثاني إلى ضرورة الاهتمام مُجدّدا بسياسته الإفريقية[84]، وخاصة إثر الانتصارات العسكرية التي سجّلها الموحّدون في المغرب الأوسط[85] ممّا يعرض لا محالة مكتسبات النورمان الإفريقية للتّهديد والخطر. الواقع أنّ روجر، لم يغفل عن هذه التّطوّرات، حيث ظلّ يترقّب بانتباه وقلق شديدين زحف الموحّدين نحو الشّرق. ولإعاقته، سعى إلى استغلال معارضة أمراء القبائل العربية* للموحّدين، منهم محرز بن زياد وجبارة بن كامل وحسن بن تغلب، فعرض عليهم مساعدته، لكنّهم رفضوها، "وقالوا ما بنا حاجة الى نجدته ولا نستعين بغير المسلمين"[86]. وفي ظلّ تنامي تهديد الموحدين، قرّر روجر احتلال مدينة بونة -عنابة- ليتّخذها قاعدة أمامية يصدّ بها تقدّم الموحّدين نحو افريقية[87].

وفي هذه السنة أي 548هـ/ 1153م، سيّر إليها الملك، أسطولا حربيا تحت قيادة فيليب المهداوي الذي عُرف بارتداده عن الإسلام. وبعد حصار شديد وبمساعدة العرب، استولى على المدينة في شهر رجب/ 22 سبتمبر 21 أكتوبر من نفس العام. وذكر ابن الأثير[88] أنّه "سبا اهلها وملك ما فيها غير انه اغضى عن جماعة من جماعة من العلماء والصالحين حتى خرجوا باهليهم واموالهم الى القرى".

مكث فليب المهداوي بالمدينة، عشرة أيام، ثمّ توجّه إلى المهدية ومعه بعض أسرى المدينة ومنها عاد إلى صقلية لكن، ما إن وصل إليها، حتى قبض عليه الملك، وأمر بمقاضاته أمام محكمة كنسية، فحكم عليه بالإعدام حرقا ونُفّذ فيه العقاب في شهر رمضان/ 20 نوفمبر- 19 ديسمبر[89].

ويعزو ابن الأثير[90] هذا العقاب القاسي الذي أنزل بفليب، إلى سببين أساسيين، أحدهما سياسي، "لما اعتمده من الرفق بالمسلمين في بونة"، والثاني ديني، إذ "يقال أنّه وجميع فتيانه مسلمون ويكتمونه وشهدوا عليه أنّه لا يصوم مع الملك وأنّه مسلم". ويعتبر ابن الأثير هذا التّصرّف، منعرجا في سياسة روجر الإسلامية ومقدمة للنّكبة التي ستحيق بالمسلمين في المملكة، وجاء في روايته[91]: "وهذا -أي إعدام فليب المهداوي- أوّل وهن دخل على المسلمين بصقلية". ويتّفق تفسير ابن الأثير حول سبب إعدام الأدميرال، مع ما ورد في نصّ الكاتب اللاّتيني رموالد السالرني Romuald de Salerne والذي يبرز حرص روجر على حماية الكنيسة وتدعيم أركانها[92]. وأمّا المؤرّخ الفرنسي، شالندن Chalandon[93]، فإنّه يُفنّد هذا الرّأي تماما ويستبعد العامل الدّيني فيما أصاب فليب من جزاء مؤلم، مؤكّدا على روح التّسامح الدّيني التي امتاز بها روجر، وتصرّفه تجاه هذا القائد، إنّما صدر نتيجة لتخاذله ولينه الذين أبداهما عند احتلاله مدينة بونة. وعلى الرّغم من هذا التّباين في الموقفين، فإنّ لروجر ربّما، ما يَدرأ عنه هذا الحكم وهذا يُستشفّ من خلال الموقع الذي يحتلّه المسلمون في جسم الدّولة النّورماندية، وتُعبّر عن هذه الحُظوة أحسن تعبير، المنزلة الرّفيعة التي ينعم بها الشّريف الإدريسي في بلاط الملك.

ولعلّ القساوة والبَطشَ اللذين أراد روجر الثاني إظهارهما تجاه سكان بوبة، على خلاف سياسة اللين والاتزان التي انتهجها مع المدن الإفريقية الأخرى، إنّما تاق جرّاءهما، إلى توجيه إنذار شديد لمن تسوّل له نفسه التّمرّد على التاج النورماندي وكذا إلى إبلاغ اهالي افريقية بتحذيره من مغبة التعامل مع الجيش

الموحدي الزاحف وخاصة أنّه ينوي تحويل مدينة بونة إلى خطّ دفاعي، تقي مكاسبه الافريقية من هذا الغزو الدّاهم من الغرب. ووفق رواية الإدريسي[94]، فإنّ مدينة بونة "هي الآن-سنة 548هـ- في ضعف وقلّة عمارة وبها عامل من قبل الملك رجار من آل حماد"، وهو الحارث بن العزيز أخو يحي الحمادي[95].

إعادة احتلال جزر قرقنة ونهب مدينة تنيس:

وبعد هذا الفوز، اتّجهت حملة نورماندية إلى جزر قرقنة، فأعادت احتلالها[96]، ممّا يوحي إلى أنّ هذه الجزر التي احتلّها جورج الأنطاكي عام 540 هـ/ 1144-1145م كما سبق ذكره، قد خرجت عن طاعة النّورمان، لكن لا يعرف كيف ومتى وقع هذا الحدث[97].

وقد ورد عن ابن الأثير[98]، أنّ "في هذه السنة 548هـ/ 1153م وصلت مراكب من صقلية فيها جمع من الفرنج فنهبوا مدينة تنيس بالديار المصرية". وأشار إلى هذه الحملة أيضا، أبو الفداء[99]، لكن آماري[100]، يعتقد أنّ المدينة المقصودة في هذين النّصين، هي تينس Ténès بدل تنيس Tinnis وهي تقع غرب مدينة الجزائر العاصمة، والخطأ وقع على أساس الخلط بين الاسمين من قبل الناسخين، كما أن آماري، يستبعد سعي روجر إلى فتح جبهة أخرى على نفسه في الشرق في ظلّ صراعه مع بيزنطة، فضلا عن كونه تربطه علاقة ودّية مع الخلافة الفاطمية بمصر.

روجر الثاني يثبّت الأمن النورماندي في الحوض الغربي للمتوسط:

وهكذا حقّق الملك روجر الثاني مبتغاه في افريقية، اذ تمّت له السّيطرة الكاملة على معظم مواقعها السّاحلية، وعبّر ابن الأثير[101] عن سعة هذه الفتوحات، فقال: "وصار الفرنج من طرابلس الغرب الى قريب تونس ومن المغرب الى دون القيروان". وفي بعض قرارته، لقّب روجر نفسه، "ملك صقلية وجنوب إيطاليا وافريقية"[102]. وعلى حدّ قول المراكشي[103]، فإنّ مدينة تونس، انضوت هي الأخرى تحت طاعة روجر الثاني وحكمها باسمه، ابن خرسان، "ولم يزل عاملا

عليها حتى اخرجه الموحّدون". وقد أوجد روجر جرّاء هذا الواقع، وضعا جيوسياسيا جديدا، تحول الحوض الغربي للمتوسط بموجبه، إلى بحيرة نورماندية، لا يعلو فيها إلاّ صوت الأسطول النّورماندي وأمنه. وبيّن ابن أبي دينار[104] هذا المشهد بقوله: "خافته -أي الملك روجر- جميع البلاد الإفريقية". ويفيد ابن عذاري[105] أيضا في نصّه: "فخاف اهل تونس من اهل هذه السواحل من النصارى". وشكّلت مدينة المهدية رمزا لهذه السيطرة، حيث جعل منها قاعدة أمامية في العمق الإسلامي، عزّزها بحامية عسكرية قوامها ثلاثة آلاف محارب[106]، لتكون قوّة ضاربة تضمن الحماية والاستمرار لهذا النّفوذ الذي مكّن الملك، من فرض رقابة تامة على الحركة التّجارية الرّابطة بين غرب المتوسط وشرقه[107].

وعلى كلّ، فإنّ ما حقّقه النّورمان من نجاح في تغيير الخريطة السياسية في هذا الحوض من المتوسط، إنّما يرجع سببه بالدّرجة الأولى إلى حالة القوى الإسلامية في بلاد المغرب التي افتقرت إلى تلاحم أوصالها وتماسك صفوفها، فضلا عن الأوضاع الاقتصادية المزرية التي شلّت قدرات المسلمين ممّا ألجأ روجر إلى إشهار سلاح الغذاء للتّضييق على إفريقية. وقد أفلح إلى حدّ بعيد في تحقيق هذه الخطة، حيث أخلّ بالتّوازن الدّاخلي للإمارة وأعجز سكانها على التّعامل بنجاعة وفعالية مع التّهديد النّورماندي الجاثم.

الهوامش:

*- يعني هذا المصطلح، رجال الشمال. ينتمي هذا العنصر أصلا إلى شبه جزيرة اسكندناوه، ولكن المقصود بهؤلاء النورمان، العناصر الوافدة من إقليم نورماندیا Normandie -شمال غرب فرنسا- التي استقرّت فيها في إطار غزوات الفيكنج Vikings خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين. وقد نال النورمان هذه المنطقة التي أخذت اسمهم، بموجب اتّفاقية سان كلير على الأبت St Clair –Sur- Epte التي أبرمت عام 911م، بين زعيم هذه الجماعة الشمالية، رولو Rollon وملك فرنسا الغربية، شارل البسيط Charles le Simple (893- 922م). لمزيد من التفاصيل، أرجع إلى: آماري ميكيلي: "تاريخ مسلمي صقلية، إعداد، د. محب سعد إبراهيم، لي مونييه، فلورنسا (إيطاليا)، المجلد الثالث. وانظر أيضا:

Guillaume de Jumièges, Historia Normanorum, Traduction Guizot (F. P. G.), dans collection des Mémoires relatifs à l'histoire de France, Paris. 1826; Orderic Vital, Historia Ecclésiastica, traduction Guizot, dans collection des Mémoires, Paris. 1825, T. II; Guillaume de Pouille, La Geste de Robert Guiscard, Traduction et commentaire Par Marguerite Matthieu, Palermo, 1961; Delarc (O.), Les Normands en Italie, Ernest Leroux, Editeur Libraire de la Société Asiatique, Paris. 1883, PP. 36- 41; Chalandon (F.), Histoire de la Domination Normande en Italie et en Sicile, Libraire Picard et Fils, Paris. 1907, T. I; Laprimaudaie (M. F. Elie de), Les Arabes en Sicile et en Italie, Les Normands en Sicile et en Italie, Challamel Siné, Libraire Edition, Paris. 1868; Gautier d'arc, Histoire des Conquêtes des Normants en Italie, en Sicile, et en Grèce, Paris. 1830.

1- ترك الكونت روجر الأوّل، ولدين، سيمون Simon وروجر. مات سيمون عام 1105م وغدًا روجر الوريث الشّرعي الوحيد للعرش. تولّت أمّه إدليد Adelaide، الوصاية عليه إلى سنة 1112م وعمره سبع عشرة سنة. وبعد وفاة دوق أبوليا وقلورية، وليم بن روجر بورصا، عام 1127م دون وريث، ضمّ روجر الثاني أملاكه إلى حوزته وتوّج في يوم 25 ديسمبر عام 1130م ملكا على النورمان في جنوب إيطاليا وصقلية دون منازع. ارجع إلى: الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، في آماري ميكيلي: المكتبة العربية الصقلية، ليبسك، 1857، ص. 15، 27؛ أحمد عزيز: تاريخ صقلية الإسلامية، نقله إلى العربية وقدم له مع إضافة حواش وتعليقات مناسبة، الدكتور أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب 1389هـ/1980م، ص. 64؛ آماري: تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث، ص. 340- 341. وانظر أيضا: Chalandon, Op. Cit., T. I, PP. 325- 326, 355-60; Neveux (F.), Le Royaume Normand, dans Actes du Colloque de Cerisy- La Salle, 24-27 Sept. 1992, PP. 26-27; Orderic vital, Op. Cit., T. II, PP. 405, 449-50 ; Guillaume de Jumièges, Op. Cit., P. 239; Bresc (H.), Le Royaume Normand de Sicile, Cycle de Conférences Historiques, 2005- 2006, Thème: Souvenirs de Royaumes disparus, Editions ville de Carqueiranne, France, 2006, P. 7.

*- ينتمي الزيريون، إلى قبيلة صنهاجة البربرية المغربية. سُمّي هؤلاء بهذا الاسم، نسبة إلى زيري بن مناد الصنهاجي، (المتوفي عام 360هـ/ 971م) مؤسس دولة بني زيري بالمغرب الأوسط. عن تفاصيل قيام دولة بني زيري، إرجع إلى: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ج. 5، القاهرة، 1922، ص. 124- 125؛ حسن حسني (عبد الوهاب): خلاصة تاريخ تونس، تونس، 1983، ص. 105- 114؛ دائرة المعارف الإسلامية، ج. 11، ص. 21- 22.

2- أنظر: Chalandon, Op. Cit., T. I, PP. 367- 368.

قدم الشريف الإدريسي وصفا عن روجر الثاني الذي عُرف أنّه هو الذي استحضره إلى بلاطه ببالرمو. المكتبة الصقلية، ص. 15- 16.

**- تمثل على وجه التقريب، "المغرب الأدنى"، وقد جاء في تعريف ياقوت الحموي "انّ حد افريقية من طرابلس الغرب من جهة برقة والاسكندرية الى بجاية، وقيل الى مليانة". معجم البلدان، المجلد الأول، بيروت، 1955، ص. 228. وعن النشاط العسكري للزّيريين على الأراضي النورماندية في عهد تميم بن المعز، ارجع إلى: المكتبة الصقلية، الكامل، ص. 277؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ص. 447- 448. وانظر أيضا:

Hady (I. R.), La Berberie Orientale sous les Zirides, X- XII^{e} Siècles, Librairie d'Amérique et d'Orient, Adrien- Maisonneuve, Paris, 1962, T. I, PP. 283- 286; Chalandon, Op. Cit., T. I, PP. 202, 205, 209; Deuve Jean, les seigneurs de

l'ombre, les services secrets normands au 12e siécle, Editions Charles colet, 1995, p. 174.

3- ابن الأثير: المصدر السابق، في المكتبة الصقلية، ص. 286؛ آماري: تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث، ص. 393. وانظر أيضا:

Deuve, Op. Cit., PP. 173-74; Perrin (Ed. Ch.), L'Allemagne, L'Italie et la Papauté de 1125 à 1250, Paris, PP. 78- 79; Chalandon, Op. Cit., T.I, PP. 367- 368.

أشار الكاتبان، الهادي إدريس روجر ودوف Deuve، إلى الموقع الاستراتيجي لجزيرة جربة والدور الذي قد تلعبه في التحكم والسيطرة على الحركة التجارية بين غرب وشرق المتوسط. أنظر: Hady (I. R.), Op. Cit., T. I, P. 346; Deuve, Op. Cit., P. 177.

4- أنظر:. Chalandon, Op. Cit., T. I, P. 368.

5- أنظر: Ibidem.

6- الكامل في التاريخ، الجزء 8، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983م، ص. 350.

7- تاريخ مسلمي صقلية، م. الثالث، ص. 366.

8- عن تفاصيل هذه الصفحة من العلاقة النورماندية الزيرية، ارجع إلى المكتبة الصقلية: ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار افريقية وتونس، ص. 535؛ ابن الثير: الكامل في التاريخ، ص. 280- 281؛ ابن خلدون: العبر، ص. 486، 488- 489؛ التيجاني: رحلته، ص. 382- 383، 392- 393؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ص. 454-455.

9- أنظر: Hady (R. I.), op. Cit., T. I, P. 324.

*- نسبة إلى بندكت (480- 547م)، مؤسس النظام الديري Monachisme بغرب أوروبا.

10- آماري: تاريخ مسلمي صقلية، م. الثالث، ص. 363. وانظر أيضا:

Pierre Diacre, Chronica Casinensis, dans Monumenta Germaniae Historica, T. VII, IV, 50, P. 843; Chalandon, Op. cit., T. I, PP. 369- 370.

11- عن هذا الحدث، إرجع إلى المكتبة الصقلية: المؤنس، ص. 536- 537؛ الكامل، ص. 284- 285؛ العبر، ص. 487- 488؛ رحلة التيجاني، ص. 398. وانظر أيضا: آماري (م.)، تاريخ مسلمي صقلية، م. الثالث، ص. 392- 393. وانظر أيضا: Mercier (E.), Histoire de l'Afrique Septentrionale depuis les Temps les plus reculés jusqu'à la conquête Française, Paris, 1888, Tome II, P. 84; Deuve, Op. Cit., P. 177; Hady (I. R.), Op. Cit., T. I, PP. 342- 344.

12- أنظر المصادر في المكتبة الصقلية: البيان، ص. 371؛ الكامل، ص. 282؛ العبر، ص. 487؛ رحلة التيجاني، ص. 393- 394.

13- الكامل، في المكتبة الصقلية، ص. 282؛ رحلة التيجاني، في المكتبة الصقلية، ص. 394- 396.

*- ذكره التيجاني، باسم جرجير بن فلان الأنطاكي، نشأ في بيئة الشام وبالضبط في أنطاكيا. كان عريفا بلسان العرب، التحق ببلاط تميم الزيري بالمهدية فولاه مشرفا على الشؤون المالية للإمارة. ولّما مات تميم، لجأ خلسة إلى صقلية حيث أنزله روجر الثاني منزلة عالية، فغدا إحدى أهم الشخصيات التي اعتمد عليها هذا الأخير في إدارة المملكة. لمزيد من التفاصيل عن هذا القائد، ارجع إلى: رحلة التيجاني، في المكتبة الصقلية، ص. 392؛ العبر، في المكتبة الصقلية، ص. 487؛ آماري، تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث، ص. 354-

355؛ الباجي المسعودي (ت. 1297هـ/ 1879- 1880م): الخلاصة النّقية في أمراء إفريقية، تونس، 1283هـ/ 1866م،ص. 51. وانظر أيضا: Chalandon, Op. Cit. T. I, PP. 374 275. -375

14- عن حجم القوة النورماندية، ارجع إلى المكتبة الصقلية: البيان، ص. 372؛ المؤنس، ص. 536؛ الكامل، ص. 282؛ العبر، ص. 487؛ رحلة التيجاني، ص. 395- 396.

ورد عن المؤرخ اللاتيني وليم الصوري، خبر إرسال روجر الثاني هذا الأسطول إلى المهدية لكن أدرجه ضمن سنة 1127م، وقدّر حجمهُ بأربعين مركبة. أنظر: Guillaume de tyr, Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum, Traduction Guizot (f. P. G.), dans Collection des Mémoires Relatifs à l'histoire de France depuis la Fondation de la Monarchie Française jusqu'au 13e Siecle, Paris, 1824, T. II, P. 297.

15- عن استعدادات الحسن، ارجع إلى المكتبة الصقلية: المؤنس، ص. 536؛ الكامل، ص. 283؛ البيان المغرب، ص. 371؛ رحلة التيجاني، ص. 394.

أورد ابن مُيسر رواية تفيد بأن الحسن، راسل الخليفة الفاطمي، يلتمس وساطه لحمل روجر الثاني على العدول عن نيته في العدوان على أراضيه. وحكم الراوي على هذا المسعى الدبلوماسي، بأنّه توّج بالنجاح، فتمّ الصلح بين روجر والحسن. الواقع أنّ هذه المساعي، إذا كانت قد جرت في هذا التاريخ، فإنّها لم تثمر قط في إقرار السلم بين النورمان والزيريين، ويدلّ على ذلك الاصطدام المسلح الذي وقع في جزيرة الأحاسي قرب مدينة المهدية. والذي لم يشر إليه ابن مُيسر تماما، ومن ثمّ، يرجّح أن يكون هذا الحراك الدبلوماسي، قد حدث قبل سنة 1223م. ارجع إلى: ابن مُيسّر: أخبار مصر، في Recuiel des Historiens des croisades, (Hist. Or.), Tome III, Paris, 1884, P. 468. وانظر أيضا: Hady (I. R.), Op. Cit., T. I, PP. 337-338.

16- عن تفاصيل هذه الحملة النورماندية وفشلها، ارجع إلى المكتبة الصقلية: المؤنس، ص. 536؛ البيان، ص. 371- 372؛ الكامل، ص. 283-284؛ رحلة التيجاني، ص. 394- 397؛ العبر، ص. 487. وانظر أيضا: Chalandon, Op. Cit., T. I, PP. 376- 377; Hady (I. R.), Op. Cit., PP. 335-337. -135

17- أنظر المصادر في المكتبة الصقلية: الكامل، ص. 282- 283؛ العبر، ص. 487؛ المؤنس، ص. 536؛ رحلة التيجاني، ص. 396.

18- رحلة التيجاني، في المكتبة الصقلية، ص.398. وانظر أيضا: Hady (I. R.), Op. Cit., T. I, P. 338.

19- تاريخ مسلمي صقلية، م. الثالث، ص. 374.

20- أنظر: Hady (I. R.), op.cit., T.I, P.338.

21- رحلته، في المكتبة الصقلية، ص.398. وانظر أيضا: Guill.de Tyr, op.cit., T.II, p.298; Chalandon, op.cit., T.I, p.377, Hady (I. R.), op.cit., T.I, P.338.

22- أمارى: تاريخ مسلمي صقلية، م. الثالث، ص. 382. وانظر أيضا: Chalandon, op.cit., T.I, P. 377; Hady (I. R.), Op. Cit., T. I, P. 338.

23- أمارى: تاريخ مسلمي صقلية، م. الثالث، ص. 382-384. وانظر أيضا: Chalandon, op.cit., T.I, PP. 378- 79; Hady (I. R.), Ibidem.

24- أنظر: Orderic vital, Op. Cit., T.II, Paris, 1825, P. 450; Chalandon, op.cit., T.II, PP. 1-2; Hady (I. R.); op.cit., T.I, P.338.

25- ذكر هذا الصلح، كل من ابن أبي دينار والتيجاني. أنظر المكتبة الصقلية: المؤنس، ص.536؛ رحلة التيجاني، ص. 398.

26- آمارى: تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث. وانظر أيضا: Chalandon, op.cit., T.II, PP.157-158; Hady (I. R.), op.cit., T.I, P.343.

27- المؤنس، في المكتبة الصقلية، ص. 536.

28- المصدر نفسه، ص. 537.

29- أنظر: Hady (I. R.), op.cit., T.I, P.344.

30- الكامل، في المكتبة الصقلية، ص.286. وانظر أيضا: رحلة التيجاني، في المكتبة الصقلية، ص. 456.

31- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نقلا عن توفيق الطيبي أمين: العلاقات بين جزيرتي جربة وصقلية في أواخر القرون الوسطى (1100- 1500م)، ضمن مجلة البحوث التاريخية (مركز دراسة جهاد الليبيين ضدّ الغزو الإيطالي)، العدد الأول، يناير، 1984، ص. 143.

32- ابن أبي دينار: المؤنس، في المكتبة الصقلية، ص.537. ذكر الإدريسي آخر عام 529هـ، وأشار كل من ابن أبي دينار وأبي الفداء والنويري والتيجاني، إلى سنة 529هـ، فيما أورد ابن عذاري وابن خلدون، سنة 530هـ.

33- المؤنس، ص. 537.

عن هذه الحملة، ارجع أيضا إلى المكتبة الصقلية: نزهة المشتاق، ص.73؛ الكامل، ص.286؛ البيان، ص.372؛ نهاية الارب، ص. 456- 457؛ المختصر، ص. 415؛ رحلة التيجاني، ص.384؛ العبر، ص. 496، 498. وانظر أيضا: آمارى: تاريخ مسلمي صقلية، م. الثالث، ص. 394-395. وكذلك: Chalandon, op.cit., T.II, P.159; Hady (I. R.), op.cit., T. I, PP. 345-46; Mercier, op.cit., T.II, PP.84-85; Deuve, Op. Cit., P. 177.

34- ابن خلدون: العبر، في المكتبة الصقلية، ص. 498.

35- أمين الطيبي: المرجع السابق، ص. 144.

36- آماري: تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث، ص. 393.

37- أمين الطيبي: المرجع السابق، ص. 144- 146. وانظر أيضا: Deuve, Op. Cit., P. 177; Hady (I. R.), Op. Cit., T. I, P. 346.

38- الرسالة كاملة عند القلقشندي أبي العباس أحمد بن علي (ت 821هـ/ 1418م): صبح الأعشا في صناعة الانشا، الجزء السادس، القاهرة، 1922، ص. 458- 461.

39- تناول هذا الباحث، هذه الرسالة بالدراسة والتحليل. ارجع إلى:

Canard (M.), Une lettre du Calife Fatimide Al Hafiz (524- 544 H./ 1130-1149) à Roger II, Dans Atti del Convegno Internazionale di studi Ruggeriani, 21-25 Aprile 1954, Vol. I, PP. 125-146.

40- أمين الطيبي: المرجع السابق، ص. 145. وانظر أيضا: Hady (I. R.), Op. Cit., T. I, P. 346.

41- التيجاني: رحلته، في المكتبة الصقلية، ص. 398- 399.

عن هذه الأزمة بين روجر الثاني والحسن الزيري، ارجع إلى المصادر الإسلامية في المكتبة الصقلية: البيان، ص. 372- 373؛ المؤنس، ص. 537؛ الكامل، ص. 286؛ وانظر أيضا: الباجي المسعودي: الخلاصة النقية، ص. 51- 52. وارجع أيضا إلى: Chalandon, Op. cit., T. II, PP. 159- 160; Hady (I. R.), Op. cit., T. I, PP. 347- 348.

42- الكامل، في المكتبة الصقلية، ص. 286.

*- يبدو أنّها خرجت عن طاعة الحسن الزيري، إذ يشير ابن الأثير، إلى أنّها كانت تحت نفوذ قبيلة بني مطروح العربية، بينما يذكر التيجاني، أنّها ظلّت تحت سيطرة بني خزرون الزناتيين حتى سنة 540هـ/ 1145م. أنظر: المكتبة الصقلية: الكامل، ص. 287؛ رحلة التيجاني، ص. 388. 43- عن هذا النشاط العسكري النورماندي في سواحل شمال افريقيا، ارجع إلى مصادر المكتبة الصقلية: نزهة المشتاق، ص. 71- 73؛ المؤنس، ص. 538؛ المختصر، ص. 415؛ الكامل، ص. 287- 288؛ العبر، ص. 498- 499؛ البيان، ص. 373. وانظر أيضا: آماري: تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث، ص. 399- 401. وطالع أيضا: Hady (I. R.), Op. cit., T. I, PP. 349- 350; Chalandon, Op. cit., T. II, P. 160; Mercier, Op. cit., T. II, P. 85; Golvin (L.), Le Magrib Central à l'Epoque des Zirides, Paris 1957, P. 147.

44- ابن الأثير: المصدر السابق، في المكتبة الصقلية، ص. 288- 289. وانظر أيضا: Hady (R. I.), Op. cit., T. I., P. 350.

45- أنظر: Hady (R. I.), Op. cit., T. I, P. 350.

46- في المكتبة الصقلية، ص. 538. وانظر أيضا: رحلة التيجاني، ص. 388؛ العبر، ص. 500.

47- المختصر، في المكتبة الصقلية، ص. 416.

48- عن هذه الحملة، ارجع إلى المصادر الإسلامية الواردة في المكتبة الصقلية: نزهة المشتاق، ص. 73؛ المؤنس، ص. 538؛ المختصر، ص. 415- 416؛ الكامل، ص. 289؛ العبر، ص. 499؛ رحلة التيجاني، ص. 388- 389؛ نهاية الأرب، ص. 457؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ص. 642. وانظر أيضا: آماري: تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث، ص. 401- 402.راجع أيضا إلى: Chalandon, Op. cit., T. II, PP. 160- 161; Hady (R. I.), Op. cit., T. I, P. 351; Mercier, Op. cit., T. II, P. 86; Golvin, Op. cit., P. 147.

يعتقد التيجاني، أن الملك روجر احتلّ طرابلس بعد استيلائه على مدينتي المهدية وسفاقس. ويرى الهادي روجر Hady (R. I.)، أن ابن خلدون شاركه في هذا الخطأ، لكن يظهر أن ابن خلدون حافظ على التسلسل الزمني للأحداث، وأما إشارته إلى سقوط المهدية وسفاقس قبل المهدية، فإنه ذكرها في سياق الحديث للتذكير والتأكيد فقط. ارجع إلى المكتبة الصقلية: رحلة التيجاني، في المكتبة ص. 388؛ العبر، ص. 488، 499. وانظر أيضا:

Hady (I. R.), Op., Cit., PP. 350-351, Note 272.

49- عن سياسة النورمان الداخلية بطرابلس، ارجع إلى المكتبة الصقلية: الكامل، ص. 289- 290؛ رحلة التيجاني، ص. 389- 390؛ العبر، ص. 499؛ نهاية الارب، ص. 457- 458. وانظر أيضا:
Chalandon, Op. cit., T. II, P. 161; Hady (R. I.), Op. cit., T. I, P. 352.

50- الكامل، في المكتبة الصقلية، ص. 290. ونفس الشهادة وردت لدى النويري، نهاية الأرب، وأبي الفداء: المختصر، في المكتبة الصقلية، ص. 458 وص. 416.

51- المعجب في تخليص أخبار المغرب، في المكتبة الصقلية، ص. 319.

52- المؤنس، في المكتبة الصقلية، ص. 538- 539. وانظر أيضا: Hady (I. R.), Op. cit., T. I, P. 353؛ وعن تفاصيل هذا الخلاف الإسلامي وتبعاته، ارجع إلى مصادر المكتبة الصقلية: الكامل، ص. 290- 292؛ العبر، ص. 489، 499- 500؛ رحلة التيجاني، ص. 384. وارجع أيضا إلى: آماري: تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث، ص. 403- 405. وطالع كذلك: Hady (R. I.), Op. cit., T.I, PP. 353- 355; Chalandon, Op. cit., T. I, PP. 162- 163; Mercier, Op. cit., PP. 86- 87.

53- لعلّ فشل الأسطول النورماندي في اقتحام قابس، إنّما يرجع سببه، إلى انشغال معظم قطعه في الحرب ضدّ بيزنطة ببلاد اليونان. إرجع إلى: Chalandon, Op. cit., T. II, P. 163; Hady (R. I.), Op. cit., T. I, P. 355.

54- أنظر: Hady (R. I.), Op. cit., T. I, P. 355.

55- أنظر: Loc. Cit.

56- الكامل، في المكتبة الصقلية، ص. 292.

57- أنظر:. Hady (R. I.), Op. cit., T. I, P. 355.

58- المختصر، في المكتبة الصقلية، ص. 416.

أشار إلى هذه الأوضاع الاقتصادية المزرية للمغرب، كل من ابن الأثير، الكامل، ص. 292؛ ابن خلدون: العبر، ص. 500 والتيجاني، رحلته، ص. 399، في المكتبة الصقلية.

59- الكامل، ص. 292، في المكتبة الصقلية.

أشار في المكتبة الصقلية، كلّ من أبي الفداء: المختصر، ص. 416؛ وابن خلدون، العبر، ص. 500، إلى اغتنام الملك روجر هذه الشدة.

60- ابن الأثير: الكامل، في المكتبة الصقلية، ص. 292- 293.

اختلفت المصادر في تقدير حجم هذا الأسطول، إذ يتّفق أبو الفداء مع ابن الأثير وذكر ابن خلدون 250 من الشواني ثم 300 مركب، فيما أشار التيجاني، إلى 300 مركب، واكتفى ابن أبي دينار بقوله: "فحشد جيشا عظيما وبعث في مراكب مشحونة بالسلاح وآلات الحرب".

61- على خلاف ابن الأثير وابن خلدون، والنويري فإنّ أبا الفداء، ذكر أنّ الحسن "جمع كبراء البلد واستشارهم فرأوا ضعف حالهم وقلة المؤونة عندهم". ارجع إلى المكتبة الصقلية: الكامل، ص. 293- 294؛ العبر، ص. 501؛ المختصر، ص. 416؛ النويري: نهاية الارب، تحقيق الأستاذ عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج. 24، ص. 137.

62- عن تفاصيل هذا الحدث ارجع إلى المصادر الإسلامية الواردة في المكتبة الصقلية، المؤنس، ص. 539؛ المختصر، ص. 416؛ الكامل، ص. 292- 295؛ رحلة التيجاني، ص. 399؛ العبر، ص. 488، 501؛ أبي زرع الفاسي، كتاب الأنيس المطرّب، ص. 403؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ص. 657؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ص. 642. وانظر أيضا: النويري: نهاية الارب، تحقيق عبد المجيد ترجيني، ج. 24، ص. 137؛ آماري: تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث، ص. 407- 408؛ الباجي المسعودي، الخلاة النقية، ص. 52؛ سرهنك (اسماعيل): من حقائق الأخبار من دول البحار، الجزء الأول، القاهرة، 1312هـ/ 1894م، ص. 409.

ذكر سهرنك "أن الحسن طلب المساعدة من ملوك الإسلام ولما لم يجيبوه رحل عن المهدية". ويُعد المرجع الوحيد الذي أورد هذه الفكرة. المرجع نفسه.

63- آماري: تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث، ص. 409- 411.

64- رحلته، في المكتبة الصقلية، ص. 400.

65- المؤنس، في المكتبة الصقلية، ص. 539.

*- ورد عن ياقوت الحموي، أنّ المسافة الفاصلة بين المهدية وزويلة لا تتجاوز رمية سهم أو طول ميدان. معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجُندي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج. الثالث، ص. 180.

66- الكامل، في المكتبة الصقلية، ص. 294- 295.

67- العبر، في المكتبة الصقلية، ص. 501.

68- آماري، تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث، ص. 410.

69- عن رحلة الحسن الزيري بعد مغادرته المهدية، ارجع إلى مصادر المكتبة الصقلية: الكامل، ص. 295- 296؛ رحلة التيجاني، ص. 400؛ القرطاس، ص. 403.

70- ابن الأثير: الكامل، في المكتبة الصقلية، ص. 296.

71- ارجع إلى مصادر المكتبة الصقلية: المؤنس، ص. 539؛ البيان، ص. 373؛ الكامل، ص. 296؛ العبر، ص. 488، 501- 502؛ نهاية الأرب، ص. 458.

72- ابن أبي دينار: المؤنس، في المكتبة الصقلية، ص. 539.

73- ابن الأثير: الكامل، في المكتبة الصقلية، ص. 296.

74- البيان، في المكتبة الصقلية، ص. 373.

75- العبر، في المكتبة الصقلية، ص. 490، 502.

عن فتح النورمان لمدينة سفاقس، ارجع إلى مصادر المكتبة الصقلية، نزهة المشتاق، ص. 72؛ رحلة التيجاني، ص. 381.

*- هو من فريانة، الواقعة بين قفصة وتبسّة.

76- أنظر في المكتبة الصقلية: الكامل، ص. 301؛ العبر، ص. 503؛ رحلةل التيجاني، ص. 381.

77- أنظر المصادر الإسلامية في المكتبة الصقلية: الكامل، ص.301؛ العبر، ص490، 503؛ رحلة التيجاني، ص.381.

جاء في رواية الادريسي: "ولها عامل من قبل الملك رجار." وقال ابن أبي دينار: "وولى عليهم ولاة من قبله وجاءته وفود العرب وأكابرهم فدخلوا في طاعته". أنظر المكتبة الصقلية: نزهة المشتاق، ص. 73؛ المؤنس، ص.539.

78- التيجاني: نفسه. وانظر أيضا: الكامل، نفسه؛ العبر، نفسه.

التزم عمر بوصية أبيه، حيث نفّذها سنة 551هـ/1156-1157م، عندما "دعا اهل المدينة الى الخلاف" ونجح في تقويض الحكم النورماندي بالمدينة. ارجع إلى نفس المصادر.

79- ابن الأثير: الكامل، في المكتبة الصقلية، ص.296-297. وانظر أيضا في المكتبة: العبر، ص. 502؛ المؤنس، ص.540.

80- أنظر: Chalandon, op.cit., T.II, P.165; Hady (I. R.), op.cit., T.I, P.361.

عن حياة الأدميرال فليب المهداوي، ارجع إلى: آماري: تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث، ص. 427.

81- الكامل، في المكتبة الصقلية، ص.297. وردت نفس الفكرة عند ابن خلدون: العبر، في المكتبة الصقلية، ص.502.

82- نزهة المشتاق، في المكتبة الصقلية، ص. 74.

83- رحلته، في المكتبة الصقلية، ص.384-385. وردت نفس الفكرة لدى ابن خلدون: العبر، في المكتبة الصقلية، ص.496.

84- أنظر: Hady (R.I.), op.cit., T.I, P.375.

85- عن فتوحات الموحدّين في المغرب الأوسط، ارجع إلى المكتبة الصقلية: الكامل، ص.297-298؛ العبر،.490-491. وانظر أيضا: أمارى: تاريخ مسلمي صقلية، م. الثالث، ص.414. وطالع أيضا: Hady (R.I.), op.cit., T.I, PP.365-371; Mercier, op.cit., T.II, PP.92-94.

*- اشتهر منها، بنو هلال، الاثبج، عدي ورياح. ابن الأثير: الكامل، في المكتبة الصقلية، ص.298.

86- ابن الأثير: الكامل، في المكتبة الصقلية، ص.298-299. وانظر أيضا: Hady (R.I.), op.cit., T.I, PP.371-373; Chalandon, op.cit., T.II, PP.165-166.

87- آماري: تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث، ص. 416. وانظر أيضا: Hady (R.I.), op.cit., T.I, P.375.

88- ابن الأثير: الكامل، في المكتبة الصقلية، ص.299. عن فتح بونة، أرجع أيضا إلى المكتبة الصقلية: نزهة المشتاق، ص.73. البيان، ص. 373؛ العبر، ص.502-503.

89- الكامل، ص.299-300؛ العبر، ص.500، في المكتبة الصقلية. وانظر أيضا: Chalandon, op.cit., T.II, PP.104,166.

90- ابن الأثير: الكامل، في المكتبة الصقلية، ص.299. يشاركه في هذا الرأي، ابن خلدون: العبر، في المكتبة الصقلية، ص. 503.

91- الكامل، في المكتبة الصقلية، ص. 300.

92- عن تفاصيل هذه القضية، ارجع إلى: آماري: تاريخ مسلمي صقلية، مج. الثالث، ص. 427- 431.

93- أنظر: Op. Cit., T. II, P. 104.(Chalandon) Chalandon

94- نزهة المشتاق، في المكتبة الصقلية، ص.73.

95- أنظر: Hady (I. R.), Op. Cit., T. I, P. 376; Chalandon, op.cit., T.II, PP.166.

96- نزهة المشتاق، في المكتبة الصقلية، ص.73.

97- أنظر: Hady (R.I.), op.cit., T.I, P.376

98- الكامل، في المكتبة الصقلية، ص. 300.

99- المختصر، في المكتبة الصقلية، ص.417.

100- تاريخ مسلمي صقلية، م. الثالث، ص. 418-419.

101- الكامل، في المكتبة الصقلية، ص.297.

ورد في نص القلقشندى: "وغلبه النصارى- أي الحسن- على المهدية وبلاد الساحل كلها". المصدر السابق، ج.5، ص.125. وأشار ابن العبرى إلى هذه الفتوحات بقوله: "وتطرقوا إلى اطراف افريقية فملكوا منها شيئا." تاريخ مختصر الدول، بيروت، لبنان 1958، ص.196.

102- أنظر: Mas LATRIE, Traités de paix et de commerce, paris1866, P. 44.

103- كتاب المعجب، في المكتبة الصقلية، ص. 319.

104- المؤنس، في المكتبة الصقلية، ص.538.

105- البيان، في المكتبة الصقلية، ص.373.

106- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، في ذيل المكتبة الصقلية، ص.63.

107- Chalandon, Op. Cit., T. II, P. 162.

كتب الفتاوى مصدراً لكتابة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي للمغرب الأوسط
نوازل المازوني نموذجاً

د. نور الدين غرداوي
قسم التاريخ جامعة الجزائر 2

تحظى كتب الفتاوى والنوازل في الكتابات التاريخية المغاربية المعاصرة باهتمام متزايد لما توفره من إمكانات لسد بعض الثغرات أو إزاحة شيء من الغموض الذي يَلُفُّ معرفتنا بتاريخ المجتمع المغاربي، فضلاً عما تقدمه أحياناً من إفادات على مستوى الأخبار وجزئيات الوقائع.

ولا تحتوي هذه الكتب على نصوص الفقه النظرية فحسب، بل إنها تحتوي قيمة تاريخية أساسية تكمن في أنها تقدم حصيلة المفتي أو القاضي النظرية المنقولة إلى مواقع العمل في المجتمع تطبيقاً وتنفيذاً في مختلف مناحي الحياة اليومية. ففي هذه النوازل يُعالج الفقهاء المشاكل ويقدمون لها الحلول، وهكذا يشعر الباحث،وهو يتصفح كتب النوازل أنه يرى الفقيه المفتي يستعرض الأحوال ويحاول أن يستخرج منها عناصر التركيبة التي يقدمها بنفسه للسائل أو يقدمها للقاضي علاجاً ناجعاً للمشاكل وقطعا لدابر الشكوى ،وحسماً لداء النزاع.

يعتبر ديوان "الدرر المكنونة في نوازل مازونة" من الكتب التراثية ذات الاتجاه الشرعي التي تعالج موضوعاً واحداً وهو الفتاوى والمسائل الفقهية الخاصة ببلاد المغرب الإسلامي في أواخر العصر الوسيط، وهو من المصادر الفقهية التي تنسب إلى الفقه المالكي رفقة المعيار للونشريسي، وجامع مسائل الأحكام للبرزلي، خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وهو ما جعله من المصادر الأساسية للفقه خلال هذه الفترة، فنجده يحتوي على مجموعة كبيرة من النوازل والفتاوى في مجلدين، وهي مفيدة في مجال البحوث والدراسات التاريخية، وهذا لتوفره على

مادة متنوعة في مختلف مجلات الحياة، الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي ارتأينا أن تكون موضوع دراستنا هذه.

وتعتبر النوازل الخطية والمطبوعة من الوثائق الهامة التي برهنت على توفر موارد تاريخ العرب بصفة عامة، وتاريخ المغرب الأوسط بصفة خاصة وفي جميع مظاهر الحضارة الإسلامية، وقد نوه بحاثة كبار بأهمية كتب النوازل، وكتب الفقه، وبرامج العلماء منذ فترة طويلة وأهميتها المصدرية حيث ينعتها المؤرخ محمد المنوني بالمصادر الدفينة[1].

وتتناول هذه المصادر العديد من جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية، والفكرية والدينية وتتعرض لمختلف مظاهر الحضارة، كما أنها تتميز بتجسيدها لواقع الحياة اليومية بكل دقة وتفصيل ووضوح، ولا شك أن دراسة تلك النوازل والفتاوى وتحليلها يكشف لنا عن نواحي مُهمّة من حياة المجتمع، ودور الطبقات الاجتماعية فيه والتي يندر العثور على معلومات عنها في المصادر التاريخية.

وقد كانت القضايا التي تحدث عنها الفقيه القاضي المازوني معبّرة عن رُوح العصر، فالنوازل تدور حول مشاكل اجتماعية واقتصادية وفكرية وعقدية خطيرة كان مجتمع المغرب الأوسط يعاني منها، ومن ذلك اللُّصوصية والظلم، والغصب والتعدي، والضرار، وتهريب السلاح، والمصادمات الجماعية، والأوبئة، والمجاعات وغيرها، وهي الدوافع التي أرغمت الناس على مغادرة منازلهم وأوطانهم، فالحروب والغارات لم تسمح للفلاحين بالقيام بزراعة الأرض، وتوفير الإنتاج، وانعدام الأمن، وتراخي قبضة السلطان، جعلت الناس يفقدون العدل في الحكم، ويعتمدون على أنفسهم في نيل حقوقهم، وهكذا أصبح العلماء والقضاة حسب نوازل المازوني، هم الذين يقومون على تنفيذ القانون؛ ويجد المتفحص المتمعن عدداً كبيراً من الفتاوى على شكل أسئلة وأجوبة، وفي أسلوب رسائل وصيغة خطابات بين السائل والمجيب.

فالمسائل موضوعات ووقائع شغلت بال مجتمعات بلاد المغرب، وردت على الفقهاء والعلماء والقضاة والمشاورين، تأتيهم من عامة المسلمين، وحتى من الأمراء وأعوانهم، ومن العلماء أنفسهم وطلبتهم، وهي تحمل أسماء المستفتين وصفاتهم، والمسائل التي وردت في ديوان "**الدرر**" كانت تأتي من ربوع المغرب الإسلامي وحملت عبارات تقديرية واحتراماً بين السائل والمجيب.

وكانت تعبر عن واقع مجتمع المغرب الأوسط، فهي تقدم لنا حصيلة المفتي أو القاضي، اللذين كانا يطبقان أحكامهما الشرعية، والتي هي عبارة عن نظرية كانت تنقل إلى مواقع العمل في المجتمع ويتم تطبيقها وتنفيذها في البيوت والأسواق والطرقات، وبيوت المال، وفي قضايا التجارة، والصناعة، والزراعة، والتربية والتعليم، والمراكز العلمية، والعلماء، وبعض مظاهر الحياة الدينية، وغيرها من مناحي الحياة اليومية الأخرى.

فنجد ديوان "الدرر" يجمع بين دفتيه عدداً هاماً من الفتاوى تُثِير قضايا تَهُّم مختلف مجالات الحياة بِكُلِّ حيويتها وتنوعها وتشابكها، إضافة إلى اشتماله على العديد من فقهاء المذهب المالكي وآثارهم، يمكن لها أن تساعدنا في إعطاء صورة دقيقة لمختلف مجالات حياة المغرب الأوسط؛ فما هي المادة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الواردة في نوازل المازوني؟ وما هي أهميتها في كتابة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي للمغرب الأوسط؟ وهل يمكن الوصول إلى استنتاجات صحيحة تمكننا من إعادة كتابة تاريخ المغرب الأوسط من زاوية أخرى غير التي سلكها الباحثون السابقون؟

أ – التعريف بالمؤلف:

هو يحيى بن موسى بن عيسى المغيلي المازوني، يكنّى: أبو زكريا. هذا هو الاسم الذي عرف به في كتب التراجم والتي تداولته على قلّتها[2] وهو الاسم الذي

وجدناه على وجه الورقة الأولى في كل نسخ المخطوطات التي وصلتنا بدون نقصان أو زيادة. من علماء القرن التاسع الهجري. مغيلي القبيلة مازوني الموطن.

لُقِبَ مؤلف "الدرر" بالعديد من الألقاب، أشهرها:

- **الفقيه**: كل من ترجم له لقّبه بالفقيه، وهذا نتيجة لاشتغاله بالإفتاء، وعاش في بيئة متشبّعة بالفقه، حتى سُمِّيَ بالفقيه المالكي الضَلِيع، والمتصفح لمسائل ديوان "الدرر" يجد العديد من المسائل كانت تعرض عليه من أجل البت فيها وفق الحكم الشرعي إن توفرت له الحجة الدامغة، أو يراسل بَعْضُ فقهاء عصره إن وجد فيها لبسا أو استشكل عليه أمر مسألة ما.

- **القاضي:** وهو اللقب الذي اشتهر به كثيراً وورثه أباً عن جد، وابْتُلِيَ بخطة القضاء وهو في ريعان الشباب، كما صرح بذلك في مقدمة تأليفه واستمر على خطة القضاء إلى آخر حياته عندما استدعاه السلطان الزياني المتوكل إلى تلمسان.

- **المقرئ والمدرس:** لم تَذْكُرْهُ كتب التراجم بهذا اللّقب، ولكن المتصفح لمسائل ديوان "الدرر" يستنتج بأنه كان صاحب مجلس إقراء وتدريس، وأشار إلى ذلك في مقدمة تأليفه، وصرّح بذلك علانية تلميذه أحمد بن يحيى الونشريسي في التقريظ الذي احتفظت لنا به نسخة الشيخ العلاّمة المهدي البوعبدلي عندما بيّن لنا سبب انتقاله من مازونة إلى تلمسان بطلب من السلطان الزياني السالف الذكر.

وأضاف أحمد بن يحيى الونشريسي ألقاب أخرى له في تقريظه على ديوان "الدرر"، بقوله: "هو سليل العلماء الأكابر، ومن بيت العلم المعروف العلاَّمة الحُجة، والفقيه المالكي الضليع، الأصولي المتمكن، المحدث المفسر، المطلع البحاثة، مفيد الطالبين، ومرجع القضاة والمفتين، وشيخ كبار العلماء في الديار المغربية خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.."[3] وكتب ناسخ نسخة الرباط على

أول ورقتها: هو من تأليف العلاّمة الحبر، الفهّامة، صاحب الأبحاث العجيبة والأنظار الغريبة أبي زكريا سيدي بن موسى بن عيسى المغيلي المازوني[4].

جده عيسى بن مخلوف بن عيسى المغيلي، من فضلاء المالكية وأعيانهم، حُمدت سيرته في القضاء، توفى سنة 746هـ/ 1345م[5].

لا نعرف لميلاد المازوني تاريخاً باتفاق أصحاب كل من ترجم له، وإن كنا نعرف أنه توفي سنة 883هـ/ 1478م ويُسْتشف من خلال كتب التراجم أنه ولد بمازونة، لذا يقال له المازوني، وبها أخذ تعليمه على يد أبيه الذي كان مدرساً وفقيهاً وقاضياً بهذه البلدة، توصلنا في دراستنا لهذه الشخصية في أطروحة الدكتوراه أنه ولد ما بين أواخر القرن الثامن وبداية القرن التاسع الهجريين[6].

تربّى وترعرع في أحضان أسرة علمية عريقة توارثت العلم أباً عن جد[7] من قبيلة مغيلة، عُرفت بمكانة اجتماعية عالية، ذات وجاهة واحترام، اصطبغت حياتها بالصبغة الدينية، عُرِفت بالصلاح وحسن التدين والسيرة الحميدة، فنال حظه من التربية والتعليم في سن مبكرة، كانت سبباً في تَفَتُّقِ مواهبه وقدراته الذهنية، وتوجيهه التوجّه السليم نحو المبتغى[8] الذي كانت تريده أسرته وسطرته منذ عقود زمنية طويلة، فاشتغلت بمنصب القضاء والشورى والتدريس بمازونة وضواحيها، فهو من بيت علم متعدد المعارف العلمية.

أخذ فقه القضاء على والده الذي كان قاضياً فقيهاً يشار إليه بالبنان في بلدة مازونة وحتى خارجها[9]، وكان والده يُتْقِنُ هذه العلوم إتقاناً تاماً بحكم منصب القضاء والتدريس اللذين كان يمارسهما في مازونة، كما أننا نعلم على وجه التحقيق أن بعض الشيوخ الذين درس وأخذ عنهم المازوني، هُم شيوخ تتلمذ عليهم بالمجالسة، وذلك حسب ما ورد في مقدمة تأليفه، وما ذكرته المصادر التي تتحدث عن نوازله، وما احتوته بعض المسائل التي وردت في نوازله، ومن هؤلاء الشيوخ نذكر:

* والده أبو عمران موسى بن يحيى بن عيسى (ت 833هـ/ 1478م)[10].
* أبو العباس أحمد بن محمد بن زاغو المغراوي التلمساني (ت 833هـ/ 1430م)[11].
* أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق الحفيد العجيسي التلمساني (ت 842هـ/ 1439م)[12].
* أبو الفضل قاسم بن سعيد بن محمد العقباني التلمساني (ت 854هـ/ 1450م)[13] وغيرهم من الشيوخ[14].

ابتلي الفقيه القاضي أبو زكريا المازوني بمنصب القضاء في ريعان الشباب، حسبما جاء في مقدمة تأليفه بقوله: "فإني لما امتحنت بخطة الفصل في عنفوان الشباب، وقادني إليها ما يعلمه الله من الأمور الصعاب، وكثرت عليَّ نوازل الخصوم، وتوالت لديَّ شكليات المعلوم..."[15].

ذكر أحمد بن يحيى الونشريسي في تقريظه على "الدرر" بأن الفقيه المازوني انتقل في آخر أيامه إلى تلمسان -بعدما ذاع صيته في المغرب الإسلامي- يطَلِبْ من السلطان الزياني المتوكل على الله، حيث قال: "... حين أورد هذا الشيخ المذكور حضرته العلية، وجعله أحد مشيخته الأعلام المشاورين بقطره..."[16].

واستقر بها إلى أن وافته المنية سنة 883هـ/ 1478م، ودفن بها، وخلد اسمه بحارة الرحيبة قرب باب الجياد المشهور في عصرنا بمدينة تلمسان[17].

ب - التعريف بالتأليف: "الدرر المكنونة في نوازل مازونة"

وقفت إلى حد الآن على 23 نسخة لهذا المخطوط موزعة ما بين المكتبات الحكومية ولدى الأسر والزوايا. داخل الوطن وخارجه. أقدمها النسخة الموجودة في المكتبة الوطنية بالرباط، المنسوخة 1075هـ.

أمّا النسخة الأم المكتوبة بخط المؤلف والتي عليها تقريظ الونشريسي، التي كانت بقلعة بني راشد بغليزان، ضاعت وهو ما أشار إليه العلّامة الشيخ المهدي البوعبدلي.

هذه النوازل والفتاوى موجودة في ديوان ضخم يشمل 4 أجزاء، نجدها إمَّا في مجلد أو مجلدين.

أول من نَبَّه إلى أهمية هذا المخطوط المستشرق االفرنسي جاك بيرك في مقالين:

- Berque (J),"En lisant les mazouna",in studia islamica, Paris, 1970, pp31-39.
- Berque (J), l'intérieur du Maghreb, Paris, 1970, pp19-64.

واحتفظ الشيخ المهدي البوعبدلي بنسخة من هذا المخطوط في مكتبته الخاصة ببطيوة.

أمّا من كان السباق في استعماله في الدراسات الأكاديمية المعاصرة بالمدرسة الجزائرية على ما يبدوا لي فهو الأستاذ الدكتور مختار حساني، في إعداد أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه، والذي اعتمد على العديد من النوازل والفتاوى في تصنيف ملكيات الأراضي الخاصة بالعهد الزياني، والتنظيم الزراعي، وتأثير الأمن والاستقرار على الجانبين الاجتماعي والاقتصادي، وغيرها من المجالات الأخرى، لأن دراسته كانت غير بعيدة عن فترة المازوني، وكذلك وجود بعض الدراسات الأخرى التي اعتمدت على نوازل المازوني، كأطروحة محمد الأمين بلغيث في دراسة الحياة الفكرية في المغرب والأندلس في عصر المرابطين، خاصة عند حديثه عن الآراء الجديدة والعقدية التي احتوتها نوازل العصر.

كما بذل أستاذنا جهداً كبيراً في نشر هذا المخطوط، وكان يحثّنا ويوجهنا على توظيف مادته في الدراسات التاريخية، ونحن ندرس السنة النظرية للماجستير. ممّا دفعني إلى القيام بدراسة اقتصادية وفكرية للمغرب الإسلامي من خلال هذا

المخطوط في مرحلة الماجستير، وواصلت البحث والدراسة في مرحلة الدكتوراه وذلك بتحقيق الجزء الرابع الخاص بكتاب الجامع.

ج – أهميته في كتابة تاريخ المغرب الأوسط:

ديوان "الدرر المكنونة في نوازل مازونة" يُعَدُّ مصدراً هاماً وأساسياً لكتابة تاريخ المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين، لاحتوائه على مادة متنوّعة لِأَحداث وقعت بين أفراد المجتمع أو نزلت عليهم، فكان الفقهاء شاهدون عليها من خلال رفعها إليهم لِلْبَتِّ فيها وفق الحكم الشرعي.

فهو من الكتب التراثية ذات الاتجاه الشرعي التي تعالج موضوعاً واحداً وهو الفتاوى والمسائل الفقهية الخاصة ببلاد المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، وهو من المصادر الفقهية التي تنسب إلى الفقه المالكي رفقة المعيار للونشريسي خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وهو ما جعله من المصادر الأساسية للفقه خلال هذه الفترة، ويحتوي على مجموعة كبيرة وضخمة من النوازل والفتاوى، وهي مفيدة في مجال البحوث والدراسات التاريخية، والإسلامية لكن دراستها وتحليلها يتـطلب وقتـاً طـويلاً، ونفسا أطول لغير المختصين في الفقه، والتعمق في المدارس الفقهية.

أمّا المعلومات التاريخية التي تضمنها ديوان "الدرر"، فهي محدودة بالنسبة للأحداث السياسية لكنها غنية ومتنوعة فيما يخص الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، فيم تكمن هذه الأهمية؟

د – نوازل المازوني وقيمتها الاجتماعية:

يجب أن نُنَبِّه في بداية هذا المجال أننا اعتمدنا السفر الأول والثاني من نوازل المازوني، الحاملين لرقمي I335، I336، المتواجدين بالمكتبة الوطنية(الجزائر).

فالمتصفح بكل إمعان للسفر الأول يجده يحتوى على معلومات متنوعة تخص الحياة الاجتماعية، فهناك إشارات متنوعة تخصُّ العديد من المظاهر الاجتماعية، تتعلّق بالحياة الأسرية وأهم المشكلات التي تعترضها، كالزواج والطلاق والعادات والتقاليد والأعراف والزي والأطعمة وغيرها.

فهناك إشارات عديدة عن الأسرة وأهم المشكلات الأسرية، فنجد العديد من مسائل النكاح احتوت على العديد من الحقائق والإشارات المتعلّقة بالزواج والحياة الأسرية التي عرفها مجتمع المغرب الأوسط.

جرى العرف ببَعض البوادي بالمغرب الأوسط تزويج البنت التي ليس لها ولي يَعْقِدُ نكاحها، فزوجت من طرف القاضي، وهو ما أشارت إليه إحدى الفتاوى، بشرط أن يشهد بذلك من يُقبل، وتُبتَ رِضَاهَا بالزوج وقدم لها مهراً، فزوّجوها له بأمر القاضي[18].

وفي بعض الأحيان نجد البنت تُزَوَّج بدون رِضَاهَا ومُكَرَّهة، فجاء في إحدى الفتاوى تزويج يتيمة خاف عليها من قوم الفساد، أن يهرب بها بعض المفسدين طوعاً منها أو كرهاً، لكونهم ببلاد السابيت أو معناه السابيت لضعف أحكام القضاة، فاتفق رأيهم أن زوَّجُوها وهي كارهة معلّقة بالكراهة[19].

ومن المشاكل التي كانت تعاني منها الأسرة بالمغرب الأوسط، الخلافات الزوجية التي كانت تصل إلى حَدِّ الوُقُوف أمام القضاة للفصل فيها، فسئل الفقيه أبو الفضل العقباني: "عن رجل كان يشاجر زوجته المرة بعد المرة ويؤذيها ويسيء عشرتها فتشك به مغاضبة، وتمشي لدار أوليائها، فترد لبيتها بعد أن ينهى عن مشاجرتها ويتوب من ذلك بزعمه، فإن قامت معه يومين أو ثلاثة أذاها أيضاً بالضرب والسب، فتفر منه، هكذا أبقيا إلى أن فرت منه يوماً ورغبها في الرجوع لبيتها فأبت منه، وطلبت فراقه فاستشفع لها بعض من يكرم عليها فرغبوها، فاشتكت لهم فعله معها وضَرْبِهِ إياها، فحلف بالأيمان تلزمه لا ضربها، فرجعت

لبيتها وبقيت فيه يومين أو ثلاثة، فضربها وجرحها، فرفع الأمر إلى القاضي، فعزلها عنه لثبوت حلفه عنده بما ذكر وضربه إياها وأعذر إليه في ذلك، فأنكر ذلك وقال على تقدير: أنني حلفت فما نويت إلاّ أنني حلفت ما نضربها اليوم أو الليلة، وأمّا الأبر فلا، فلم ينوه في ذلك، فأتى ببَيِّنَة شهدت أنه كان قبل حلفه هذا بنحو من خمسة أشهر حلف بالطلاق على بنت له ما تت لا كفنت إلاّ في ملحفتها التي كانت تلبسها ثم كفنت..."[20].

يستشف من هذه النازلة معاناة المرأة ببعض بوادي المغرب الأوسط، وما كانت تتعرض إليه من عنف واضطهاد وتجبر وتسلط من طرف الرجل، وكأنها مازالت في عهد الجاهلية.

كما يتضح لنا من إحدى مسائل النكاح الفساد والطغيان والتجبر الذي كان يتصف به بعض أشياخ القبائل، حتى ولو ادعى ذلك إلى مصاهرة أهل العلم، والتقرب منهم من أجل بسط النفوذ على العامة، وغيرهم من الطبقات الاجتماعية، حيث ورد فيها:"..وسئل أيضا في مسألة نكاح امرأة من ذرية أهل العلم من شيخ من أشياخ الرعية، وحال الأشياخ لا يخافكم ما هم عليه من خُبْثِ المكسب، وكثرة الأيمان، والتعرض للمغارم المخزنية، وقبض الوظائف المحدثة..."[21].

وأفادتنا إحدى الفتاوى أيضاً عن الظلم والقهر الذي تَفَشّى ببعض البوادي والقرى بالمغرب الأوسط، حيث جاء فيها :"..سئل شيخنا وسيدنا أبو الفضل العقباني عن ظالم حبس رجل وطالبه بتعيين مطمورة غايب (غائب) يريد أخذها، قال المحبوس: لا أعرفها فضربه وعذَّبه كثيراً وأخذ منه مالاً قهراً وعدواناً، وحلف لا أطلقه إلا أن يريني المطمورة أو يعطيه فلاناً لرجل معين يضمنه، فقام رجل آخر فقال له: أضمنه للظالم كما طلب منك وأنا ضامن لك أن أنزله بخيمته عليك، ويكون جارك لتطمئن نفسك فضمنه للظالم..."[22].

وأضافت لنا إحدى النوازل شدة هذا الظلم والقهر والغصب لدي بعض الرجال الذي كان يَتَّصِفُ بِكُلِّ الصفات القبيحة، والخبيثة، حيث تذكر: "..رجل زوّج ابنته البكر من رجل غاصب قليل الدين، مُتَعَدٍّ على الأموال، سَفَّاك للدماء، مشهور بالفتن، كثير الأيمان بالطلاق والأيمان اللازمة، ثم إن بال البنت المذكورة لم يرض ذلك، ولم يوافق عليه، وأراد فسخ النكاح..."[23].

ومن الآثار السلبية المترتبة عن هذا الظلم والقهر والتجبر هو عدم جريان الأحكام الشرعية، وصعوبة تطبيقها داخل المجتمع، فجاء في مسألة سُئل عنها شيخ المازوني أبو الفضل العقباني، سأله عنها بعض تلامذته، "يا سيدي إن حال بلادنا كما عملت من كثرة فسادها وعدم جريان الأحكام الشرعية فيها تقع بالرجل نازلة يقتضي الحكم الشرعي فيها الحنث في المشهور في المذهب كالحنث بالأيمان اللازمة مثلا، فإذا حكم القاضي فيه بالتحريم قولا يعتد بحكمه، ويمضي الحانث لصاحبه من أمراء العرب، ويشتكي له أن القاضي حكم بتحريم زوجته، فيأمره صاحبه المذكور برجوع زوجته وعدم الانقياد لحكم القاضي..."[24].

نستنتج من هذه النازلة أن القاضي والمفتي لم يسلما من الفساد والفوضى التي أصبح يَعَمُّ بها المجتمع، وتجلَّى ذلك من خلال عدم الامتثال للأحكام الشرعية والانقياد لحكم القاضي.

ومن الآثار السلبية أيضاً التي عُرِفَت بها بوادي المغرب الأوسط في أواخر العصر الوسيط هو تفشي ظاهرة اللُّصوصية وحالة الغصب والتعدي على الممتلكات والأشخاص والشرف والحرمات، فجاء في إحدى الفتاوى التي سئل عنها أبو الفضل العقباني:" عن رجل غصب امرأة وهرب بها، فبقيت عنده نحو الجمعة، يستمتع بها على سبيل الإكراه، ثم بعد ذلك يردها إلى أهلها..."[25].

وفي مسألة أخرى مُمَاثلة لهذه استشكلت على الفقيه القاضي المازوني، سأل عنها شَيْخَيْهِ الفقيهين محمد بن العباس ومحمد الحفيد العقباني بما نصه: " ما تقولان

-رضي الله عنكم- في رجل أتى هو ولصوص معه وهرب بامرأة على عادة أهل البوادي، ومكثت عنده أياما يبيت معها في هذا الدوار، وتارة دوار آخر إلى أن انتزعت منه ورُدت إلى أهلها...وأنها تطالب بصداقها لتمتّعه بها في هذه الأيام، فأنكر الهارب أن يكون غصبها على ذلك، بل هربت باختيارها ورضاها لا قهراً..."[26]؛ وغيرها من المسائل التي احتوت على عدد كبير من التفاصيل الدقيقة التي تخص المظاهر الاجتماعية.

هـــ. نوازل المازوني وقيمتها الاقتصادية:

يَسْتَشِفُّ الباحث من خلال نوازل وفتاوى ديوان "الدرر" على الكثير من المعلومات الدقيقة التي تخصُّ النظم الاقتصادية، كملكية الأراضي، ونظام السقي والمغارسة والمزارعة، وأصول المعاملات والبيوع التي كانت تجري بالمغرب الأوسط، منها شروط البيع والعيوب في المادة المباعة وتوثيق البيع بحضور اختصاصيين... إلخ

يتضح من خلال النوازل والفتاوى الفقهية أن الأراضي الزراعية ببلاد المغرب كانت تنقسم إلى ما يلي:

- **أراضي الإقطاع:**

تشير العديد من النوازل إلى الأخطار التي تعرضت لها بعض أراضي الأهالي، من مصادرة لصالح كبار شيوخ القبائل، وقادة الدولة، والملكية لم تكن محترمة في هذه الفترة المتأخرة من العصر الوسيط[27] بحيث عرفت استبداد القبائل، وضعف السلطة السياسية المركزية بحيث تكاد تكون شبه منعدمة في البوادي[28].

ويذكر المازوني أن الإقطاع ببلاد المغرب كان إمّا إقطاع تمليك أو إقطاع منفعة[29].

- **أراضي المخزن:**

وهي أراضي الدولة التي تخضع مباشرة للسلاطين، حيث كانوا يتصرفون فيها كيفما شاءوا، وذلك بمنحها لبعض الأشخاص المقربين من رؤساء القبائل[30].

ويذكر المازوني في إحدى نوازله في سؤال موجه إلى شيخه أبي الفضل العقباني:"... عن قوم بأيديهم أرض بأوامر السلاطين المتقدمين ومن بعدهم يغتالونها بأنواع الغلال زمن الحرث وغيره، والأرض التي للأئمة إنما يعطونها في العادة إمتاعاً لا تمليكاً..."[31].

كما يتضح من إحدى الفتاوى كيفية الانتفاع من أراضي المخزن واستغلالها، حيث جاء فيها:"..سئل حمو الشريف عن أرض المخزن، يقطعها السلطان لبعض أجناده إمتاعا، فيأتي قوم ويغرسون فيها، وما يقطعون عن الجنات يسمى بنصف الأثمنا (كذا)، والعادة الجارية أن السلطان يحب من يعمر الأرض بالغراسة، ولا ينكر ذلك على من يفعله، فيبقى الغارس ينتفع بجنانه، ويبيعها إن أراد، ويهيبها (كذا)، ويتصرف فيها تصرف المالك، فهل للمقطوع له أن ينتزع الجنة من يد من اغترسها ويملكها؟..."[32].

وتفيدنا هذه النازلة بأن السلاطين كانوا يُخَصِّصُون مساحة من الأرض للجنود العاملين تحت لوائهم، لكي ينتفعوا بها عن طريق حرثها، أو كرائها، أو استغلالها بالشركة مع بعض الفلاحين الذين لا يملكون أراضي زراعية.

- **أراضي الظهير:**

وهي الأراضي التي كان يقطعها سلاطين وملوك بني زيان لمن يؤدي خدمات للدولة، وكان إقطاع هذه الأرض إقطاع منفعة لا إقطاع رقبة.

وتشير إحدى النوازل الموجه إلى الفقيه أبو الفضل العقباني: "... عن رجل مات وعليه دين وترك أرضاً من بلاد السلطان التي أخذها العرب كما علمتم، وهذا ظهير من قبل السلطان بتلك الأرض.."[33].

فكان نص الجواب "... أن الأرض التي تعطى من قبل الإمام للجند من عرب وغيرهم، إنما الإعطاء فيها انتفاع ينقطع بنقل الإمام..."[34]؛ وهو ما أشارت إليه إحدى النوازل بأن الأرض التي يقدمها السلطان لشيوخ القبائل، تكون بمرسوم، وهو المعروف بالظهير[35].

ويتضح من إحدى النوازل أن السلطان يمكنه أن يقطع الأراضي التي لا يعرف مالكها والأراضي غير المستغلة لجنده، مقابل أن يقوم الجند بمحاربة الكفار أعداء الدين، والدفاع عن الأراضي الإسلامية[36].

ويذكر المازوني أن سلاطين الدولة كانوا يقطعون أراضي لأعيان الدولة الذين لهم علاقة بشيوخ القبائل، وكانت تستغلهم الدولة لوقوفهم إلى جانبها، وفي المقابل تقدم لهم أراضي ينتفعون بها، لكن عندما يتوقفون عن خدمة الدولة تنزع الأرض منهم[37].

- **أراضي الأحباس**[38]:

وهي الأراضي التي انتقلت ملكيتها من الملكية الخاصة إلى الملكية العامة، حيث أن الفترة التي عاشها المازوني، والتي سبقته تميزت بانتشار الزوايا في المغرب الإسلامي لدى دويلاته (الحفصيين، الزيانيين، المرينيين) وتأثير شيوخ الطرق والزوايا في أمراء هذه الدول، ورعاياها، مِمَّا جعل هؤلاء يُحَوِّلُون مساحة من أملاكهم لصالح هذه الزوايا، حتى أن بعض الزوايا كانت تسيطر على مقاطعة بكاملها، مثل زاوية سينا[39].

وتشير العديد من النوازل والفتاوى التي احتواها ديوان "الدرر" إلى أن مصدر أراضي الأحباس هو الملكيات الخاصة، إضافة إلى أراضي أمراء الدولة الذين حَبَّسُوا جزءاً من أراضيهم على المساجد والمدارس والزوايا.

كما أوضحت مجموعة من النوازل والفتاوى الفقهية أن السلاطين كانوا يعتمدون إقطاع أراضي الدولة إلى المرابطين لتأثيرهم على المجتمع، وحتى لأبنائهم بعد وفاتهم، اعترافاً لما قَدَمُّوه من خدمات للدولة[40].

وتفيد الأحكام الفقهية السائدة في ذلك العصر على عدم تحويل أراضي الأحباس عمّا وضعت له[41]، وتشديد المراقبة على مُوَظِّفِي الأحباس، وعلى رأسهم ناظر الأحباس.

كما أفادتنا إحدى النوازل عن ناظر الأحباس، حيث جاء فيها: "... عادة أن مقدمه لم يأذن له في التصرف في أموال الأحباس، إلاّ بعد مطالعته في قليل ذلك (كذا)، وكان يأخذ ثلاث (ثلث) الجنات صيفاً وخريفاً، ويعطى رُبْعاً للأحباس عوضاً عن ذلك..."[42].

وكان نص الجواب: "... من عادة سلطانه، على ناظر الأحباس أنه كان يأخذ من يد جباتها، والناظر لا يستطيع مخالفته إن لم يكن على الناظر ضمان، فلا يلزمه غرم ما أخذ منه، وما أعطاه، وأخذ الجباية من الربع عوضاً لأرباب المراقبات، أن يعينوا له ما يسوقون منه مرتباتهم، أن ليس للربع يوقف وهو مأخوذ من جيرانهم فأمتهم ذلك أن يقبضوا حقوقهم منه..."[43].

من خلال هذه النازلة يَتَّضح لنا أن المشرف على الأحباس لم تكن له في بعض الحالات حرية التصرف في أملاك الأحباس إلا بعد مراجعة القاضي، أو حاكم الإقليم أو السلطان، وإجابة المفتي تبيّن لنا بأن سلاطين الدولة كانوا يأخذون الجباية من العقارات التابعة للأحباس، وهذا لم يكن معمولاً به في العصور

السابقة، رُبَّمَا عُمِل به في هذه الفترة الأخيرة من العصر الوسيط، لأن أخذ الجباية يكون من ريع الغلة.

والجدير بالملاحظة أن المغرب الأوسط في عصر المازوني أو قبله بقليل، كان يعاني من انعدام المراقبة على العقارات التابعة للأحباس[44].

كما أن الفقهاء قد رضخوا للأمر الواقع وأجازوا اقتسام الأرض المحبسة مع الغارس، وبمثل هذا صدرت الفتوى من شيوخ تلمسان في أرض أم العلوم المحبسة على المدرسة اليعقوبية[45].

وتشير إحدى النوازل إلى النزاعات التي كانت تحدث حول أراضي الحبس، وعدم دفع المستنفع كِرَاء الأرض المحبسة، وهذا راجع لأن المكتري أفلس ولم يحصل على الغِلَّة من الأرض، ويعود ذلك إلى الظروف الطبيعية كالجفاف، والصقيع وغيرهما، وهو ما يؤدي إلى إتلاف المحصول[46].

- أراضي الموات :

وهي الأراضي التي كانت لا تزال مهملة وغير مستغلة، والتي يقطعها السلطان أو ولي الأمر لمن يحييها ويزرعها، وتسمى بالبور.

وجدير بالملاحظة أنه وردت إشارة في إحدى النوازل تفيد أن هناك بعض الأراضي لم تكن مستغلة من قبل، فيأتي قوم ويغرسون فيها، بعد أن يستصلحوها، ويخضعون جزءاً منها للحرث، والجزء الآخر لغرس الأشجار، وعندما تُعطي ثمارها يقدمون ضريبة للجهات المعنية القائمة على جباية الضرائب[47].

ب- النظام الزراعي:

نستنتج من خلال بعض النوازل والفتاوى الفقهية التي ساقها المازوني، أن النظم المتعلقة بالزراعة في المغرب الإسلامي، تشتمل على ثلاثة عناصر أساسية

للإنتاج : الطاقة الحيوانية والأدوات، والفلاح، وفي غالب الأحيان كان اقتران ملكية الأرض بملكية بقية وسائل الإنتاج ضرورة حتمية لا يمكن الاستغناء عن أحد عناصرها، إلاّ أن النظام الزراعي لا يخلو من عدة مشاكل حالت دون تحقيق إنتاجية وفيرة، وأدت في بعض الأحيان إلى إتلاف المزروعات والمحاصيل المتنوعة، حيث تشير إحدى النوازل إلى الزرع الذي أصابه الريح[48].

وفي إحدى مسائل الكراء يذكر أن رجلاً اكترى أرضاً من أراضي الحبس وتعرض محصوله للجفاف مما أدى إلى فساده[49].

نكتفي بهذه العيّنات، ونلاحظ من خلالها أن الحالة السياسية والاجتماعية المضطربة التي كان يعيشها إقليم المغرب الأوسط في عهد الدولة الزيانية، وغياب الرقابة الأمنية الكافية بأرجائها وعدم التحكم التام في زمام الأمور من طرف الهيئات المعنية، وبعض العوامل الطبيعية، كلّها انعكست سلباً على الحياة الاقتصادية التي كانت تتراجع في بعض الأحيان وتنكمش، وتجلى ذلك في حالات الغصب، والتعدي، والفوضى العارمة، في غياب كُلِّي للسلطة الحاكمة التي كان عليها أن تفرض نفسها أمام القبائل المتمرّدة، وحماية أهل البوادي والقرى، وتأمين المسالك التجارية، مِمّا جعل الفلاحين يتركون أراضيهم، ويمتنعون عن ممارسة نشاطاتهم الفلاحية والتجارية خوفاً على أرواحهم وممتلكاتهم، وعدم المغامرة إلى نتائج مجهولة يصعب الوصول إليها.

ولقد عكست فتاوى المازوني الأضرار الجسيمة التي ألحقتها الاضطرابات التي كانت تعيشها بلاد المغرب بصفة عامة والمغرب الأوسط بصفة خاصة، بحقوق الملكية للأراضي، فلم تكن المزارع تعرف الأمن اللازم لقيام الزراعة وعبور القوافل التجارية، وهو ما تجسد في انكماش التجارة في بعض الأحيان، وقد أثار اغتصاب الأعراب، وغيرهم من المعتدين في إحداث الاضطراب والبلبلة في البوادي والمراكز التجارية، وقد أدى تشدد سلاطين دويلات المغرب الإسلامي مع الرعية وخضوعهم للأعراب، ممهداً لاستحواذهم على كثير من الأراضي، ويصعب التثبت في حسن نواياهم، ويبدو أن الإقطاع قد شمل أساساً أراضى الموات، والمصلحة الخاصة على حساب المصلحة العامة.

و. نوازل المازوني وقيمتها الفكرية:

يتَّضح من بعض النوازل والفتاوى الفقهية التي ساقها المازوني في ديوانه أن المرحلة الأولى من التعليم بالمغرب الأوسط هي التي يتلقى فيها الصبي العِلْم على أحد المؤدبين في الكتاتيب، وكان واجب المؤدبين ودورهم يقتصر على التعليم الديني، ويحصلون على أجرة مقابل تحفيظ الصبيان القرآن الكريم[50]، وهو ما لمسناه في العديد من الفتاوى نذكر منها:

- "... سئل شيخنا وسيدنا أبو الفضل العقباني، عن قوم أخذوا معلما يقرئ عندهم في البادية أولادهم العام، فاشترط عليهم، فقال لهم إن افترقتم قبل انقضاء الأجل فإني آخذ أجرتي تامة..."[51].

- "... سئل بعض فقاء بلادنا عن أناس اتفقوا مع مُعَلِّم لأولادهم بأربعين شاة..."[52].

- "... وسئل سيدي أحمد بن عيسى(53) عن المؤدب يقرئ الأولاد بأجرة لكنه لم يشترط الحذاقات[54] على الآباء ولا ذكروها هم أيضا فوقع السكت(السكوت) من الفريقين، فدفع بعض الأطفال لسورة يس أو غيرها من الحذاقات، فطلبها المعلم من والد الطفل، وقال لم يقع بيننا عليها شرط، وقال المعلم وأنت لم تشترط علي سقوطها..."[55] وغيرها.

نستنتج من خلال هذه الأمثلة أن فئة المؤدبين كانت كثيرة العدد داخل المجتمعات المغربية، خاصة في البوادي والقرى، ونلاحظ في نظام إنشاء الكتاتيب أنه لم تكن للدولة يد عليها، بل كانت دُورَ عِلْم شعبية بحتة يقوم برعايتها الأهالي لمصلحة أطفالهم، وكان يقوم بالتدريس في تلك الكتاتيب مُعَلِّمُون يأخذون أجراً مُقابل ما يبذلون من جهد في تعليم الأطفال الصغار.

وإذا كان موضوع أجر المُعَلِّم مجال اختلاف بين فقهاء المشرق في مدى شرعية علاقته الوطيدة بجوهر التعليم وهو القرآن، فيبدو أن تناول المعلِّمين ببلاد المغرب

أجراً مقابل تعليمهم أمر لا غبار عليه لدي المغاربة لاعتمادهم على إجازة الإمام مالك بأخذ الأجرة على تعليم القرآن والكتابة.[56].

يتَّضح من خلال فتاوى ديوان "الدرر" أن التعليم الأوّلي كان منتشراً بكثرة في المدن والقرى بالمغرب الأوسط، وهو إن لم يكن يخضع لقوانين رسمية، فكان يخضع للعادات والتقاليد.

كما تشير العديد من النوازل والفتاوى التي ساقها المازوني في ديوانه إلى المؤسسات التعليمية، حيث بيّنت لنا الدور الكبير الذي لعبته تلك المؤسسات في الإشعاع الفكري بالمغرب الأوسط، بدءاً بالكتاتيب، المساجد، المدرسة، الزوايا، الربط.

فكانت المساجد منتشرة بكثرة في مدن وقرى المغرب الأوسط، بحيث لعبت دورا كبيرا وهاماً في الحياة اليومية، وهو ما أدى إلى تطور الحركة التعليمية والفكرية، كما كان لاهتمام السلاطين دور كبير في إنشائها رفقة المدارس[57]. حيث أشارت العديد من الفتاوى إلى دور المساجد الدينية والعلمية، وفي مختلف مناحي الحياة اليومية، لمختلف الشرائح الاجتماعية، إذ كانت الملجأ لحل الخلافات والنزاعات، وإصدار الفتوى لبعض المسائل المستشكلة، حيث تذكر إحدى النوازل: "... سئل بعض فقهاء بلادنا عن هؤلاء السؤال الذين يتعرضون للسؤال في المساجد، هل يباح لهم ذلك أم يمنعون؟، فإن قلتم بإباحة هل للإمام المسجد أو غيره من الأفاضل، أن يأمر المؤذن أو غيره من الناس أن يتمشى به؟، وهل يقدح في الفاضل السؤال له بنفسه أم لا؟..."[58].

وكان جواب المفتي بأن كثرة السؤال في المساجد مكروه، وتحق في قليله[59].

نستنتج من هذه النازلة أن دور المسجد لم يكن يقتصرً على تعليم المسلمين وتفقيههم في شؤون الدين، بل كان له أدوار أخرى، مثل الإجابة على أسئلة السائلين التي كانت لها علاقة بالحياة اليومية في المجتمع المغربي، وهذا من خلال ما

يتبادر لهم من قضايا ومسائل تعترض علاقاتهم في جميع جوانب الحياة، فكانوا يلجئون للاستفسار عنها عند الأئمة في المساجد[60].

أمّا المدرسة فكان الطلبة يزاولون فيها الدراسة في المرحلة الثانية بعدما يكونوا قد أكملوا الدراسة في المرحلة الأولى بالكتاتيب عند المؤدبين كما ذكرنا سابقاً.

وكانت موجودة بكثرة بالقرب من المساجد وفي الحواضر الكبرى، ومعظمها كانت تشتمل على غرف لسكن الطلاب الغرباء والبعيدين عنها. حيث جاء في إحدى المسائل: "... وسئل سيدي علي بن عثمان[61] عن فقيه بنى مدرسة سكنها طلبة العلم وإقراء العلم، ونجب من طلبته نجيبان، فلما توفي الفقيه اختص بمدرسته أحد النجيبين ويقرأ فيها الطلبة، ثم إن الطلبة ربما أحدهم ثوى (كذا) بين هذين النجيبين مناقشة فيما يظهر والله تعالى أعلم بالباطن، فعمد الذي لم ينزل المدرسة منها إلى إحداث مدرسة أخرى استقل في إنشائها، وتصرف فيها أبواباً والله تعالى أعلم بحقيقتها وذلك أنه عمد إلى دار قد تهدمت، وكانت مشتملة على بيوت من مساجد بلده وسمَّاها من ارباجا (كذا) وصرح أنه يشتريها برسم بناء مدرسة فيها، فقالوا له كيف تخضع بيت الحبس الذي فيها.."[62].

وتمدنا إحدى المصادر التي عاصرت المازوني بأهمية هذه المؤسسة في التربية والتعليم، حيث تذكر أن المسجد هو النواة الأولى للمدرسة، يتلقى فيه المتعلم القراءة، والكتابة، والعلوم الدينية، واللّغة، والعلوم المختلفة[63]؛ وغيرها من المسائل التي احتوت على معلومات متنوعة ودقيقة تتعلّق بالحياة الفكرية ومظاهرها بالمغرب الأوسط.

تلك بعض الأمثلة استقيناها من ديوان "الدرر" فهي نماذج من معلومات كثيرة ومتنوعة، هامة في كتابة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي للمغرب الأوسط.

والثروة المعلوماتية الكبيرة الموجودة في نوازل المازوني تسمح لنا بمعرفة العديد من المعلومات المبهمة واستكشاف المجهول لتاريخ المغرب الأوسط.

لذا يجب على طلبة الماجستير والدكتوراه أن يقوموا بتحقيق بعض مسائل ديوان "الدرر" التي لم تحقق بعد، من أجل تقديم يد العون للباحثين والدارسين المهتمين بكتابة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والفكري للمغرب الأوسط، فلا يمكن للباحث قراءة مئات الورقات المخطوطة للتفتيش عن بعض الجزئيات الهامة في هذا الديوان الضخم الذي يحتوي على مادة متنوعة وهامة لتاريخ المغرب الإسلامي بصفة عامة والمغرب الأوسط بصفة خاصة.

– الهوامش:

(1) محمد المنوني، **الكتابة التاريخية عند العرب**، مجلة الفكر العربي ، ع2، بيروت، 1978م، ص59.

(2) زاد التنبكتي اسم ابن أبي عمران : يحي بن أبي عمران موسى بن عيسى المغيلي المازوني، يكنى: أبو زكريا. انظر/ أحمد بابا التنبكتي، **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج**، ضبط النص وعلّق عليه أبو يحي عبد الله الكندي، دار ابن حزم، 2002م، ص509. أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهدامة وآخرون، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1989م، ص637. أبو القاسم الحفناوي، **تعريف الخلف برجال السلف**، تحقيق محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ، القسم I، المكتبة العتيقية، تونس، 1982م، ص189.خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج8، ط2، دار العلم للملايين، مصر، 1992م، ص 175.

(3) تقريظ الونشريسي على كتاب الدرر، نسخة وهران، ورقة 355 وجه.

(4) المازوني، الدرر، نسخة المكتبة الوكنية بالرباط، تحت رقم: د 3699، ورقة01وجه.

(5) أحمد بابا التنبكتي، **كفاية المحتاج**، ص215.

(6) انظر دراستنا لتحقيق الجزء الرابع المتعلق بكتاب الجامع من ديوان الدرر، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2011م، ص61.

(7) جده عيسى بن مخلوف بن عيسى المغيلي، من فضلاء المالكية وأعيانهم، وخُمدت سيرته في القضاء.توفى سنة 746هـ/ 1345م. انظر/ أحمد بابا التنبكتي، **كفاية المحتاج**، ص215.

(8) شرفي (زهرة)، **دراسة وتحقيق مسائل البيوع من ديوان الدرر المكنونة في نوازل مازونة**، رسالة ماجستير في العلوم الإسلامية، تخصص(أصول الفقه)، جامعة الجزائر، 2006م، ص59.

(9) أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص605. الحفناوي، **مرجع سابق**، القسم I، ص189.

(10) أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص605، 606. نفس المؤلف، **كفاية المحتاج**، ص482.

(11) أنظر ترجمته/ ابن مريم، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، تحقيق محمد بن أبي شنب، قدم له عبد الرحمن طاب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م، ص41-43. أحمد بابا التنبكتي، **نيل الإبتهاج**، ص118.

ابن القاضي، **درة الحجال في أسماء الرجال**، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، ج1، دار التراث، 1970م، ص63.

(12) السخاوي، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، ج7، نشر مكتبة القدسي، القاهرة، 1353هـ/1934م، ص50. أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص293.

(13) السخاوي، **الضوء اللامع**، ج6، ص181. أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص365. الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس و المغرب**، أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، ج6، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1981م، ص05.

(14) لمعرفة شيوخه بالمجاسة والمراسلة انظر دراستنا لتحقيق الجزء الرابع من ديوان الدرر، ص 63- 66.

(15) انظر/ مقدمة ديوان الدرر.

(16) تقريض الونشريسي على كتاب الدرر، نسخة وهران، ورقة 355 وجه.

(17) الحاج محمد بن رمضان شاوش، **باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان**، تقديم الغوتي بن أحمدان، ط3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م، ص437.

(18) المازوني، **الدرر المكنونة في نوازل مازونة**، ج1،نسخة المكتبة الوطنية بالحامة،الجزائر،رقم 1335،ورقة 260 وجه

(19) **المصدر نفسه**، ج1، ورقة 259ظهر

(20) **المصدر نفسه**، ج1، ورقة 203 وجه

(21) **المصدر نفسه**، ج1، ورقة243ظهر.

(22) **المصدر نفسه**، ج2، ورقة 20 وجه.

(23) **المصدر نفسه**، ج1، ورقة239وجه.

(24) **المصدر نفسه**، ج1، ورقة206 ظهر.

(25) **المصدر نفسه**، ج1، ورقة 264ظهر

(26) **المصدر نفسه**، ج1، ورقة 265وجه

(27) **المصدر نفسه**، ج2، ورقة44 وجه.

(28) حيث أن بعض الفلاحين كانت أراضيهم تتعرض للمصادرة من قبل القبائل المغيرة. انظر/ المازوني، **مصدر سابق**، ج1، ورقة322وجه.

(29) إقطاع التمليك هو أن تصبح الأرض المقطعة ملكا للمقطع إليه، أمّا إقطاع المنفعة فهو أن للمقتطع له حق الانتفاع بالأرض وغلتها دون أن يتملكها. ويشير المازوني في إحدى نوازله إلى الإقطاع الذي كان يمنحه

السلطان لبعض جنوده مثل إقطاع المنفعة. انظر/ الدرر، **مصدر سابق**، ج2، ورقة44وجه. الونشريسي، **مصدر سابق**، ج9، ص73.

(30) مختار حساني، **الدولة الزيانية من بداية الانحطاط إلي السقوط**، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2000م، ص131.

(31) المازوني، **مصدر سابق**، ج2، ورقة 48 ظهر.

(32) **المصدر نفسه**، ج2، ورقة44 وجه. وعن ترجمة حمو الشريف انظر/ ابن مريم، **مصدر سابق**، ص126.

(33) المازوني، **مصدر سابق**، ج2، ورقة 57 وجه.

(34) **نفسه**.

(35) **المصدر نفسه**، ج2، ورقة 30وجه.

(36) **المصدر نفسه**، ج2، ورقة 46 وجه.

(37) **المصدر نفسه**، ج2، ورقة47 ظهر، ورقة 48ظهر، ورقة 117وجه.

(38) هو تحبيس الأصل فلا يُورّث، ولا يباع، ولا يوهب، وتسبيل الثمرة لمن حبست عليهم، انظر/ أبو بكر جابر الجزائري، **منهاج المسلم**، ط3، بدون مكان النشر، 1981م، ص423.

(39) لمعرفة المزيد عن هذه الزاوية. انظر/ حسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م، ص28-29.

(40) المازوني، **مصدر سابق**، ج2، ورقة161وجه وظهر، ورقة159وجه وظهر، ورقة147وجه، ورقة137وجه .

(41) حيث يذكر المازوني عند حديثه عن الجنات المغروسة في أراضي الحبس وكيفية التزام الغارس لقواعد الانتفاع. انظر/ **المصدر نفسه**، ورقة43ظهر، ورقة54وجه.

(42) **المصدر نفسه**، ج2، ورقة44ظهر.

(43) **المصدر نفسه**، ج2، ورقة44ظهر.

(44) **المصدر نفسه**، ج2، ورقة 160 وجه.

(45) **نفسه**.

(46) **المصدر نفسه**، ج2، ورقة 44 ظهر

(47) **المصدر نفسه**، ج2، ورقة 44 وجه. يذكر الونشريسي في إحدى نوازله أن رجلا من أهل تلمسان استصلح أرضا بورا قرب العمران وغرسها ثم باعها لرجل آخر . انظر/ المعيار، **مصدر سابق**، ج5، ص117، 116.

(48) المازوني، **مصدر سابق**، ج2، ورقة45وجه. ولمعرفة آثار مناخ بلاد المغرب على النشاط الفلاحي، والدور الذي يلعبه في وفرة المحاصيل. انظر/ محمد بن عميرة، **الموارد المائية وطرق استغلالها ببلاد المغرب من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين**، دكتوراه في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2005م، ص90.

(49) المازوني، **مصدر سابق**، ج1، ورقة496وجه.

(50) ومن المهام الأخرى التي وكلت للمؤدب، تعليم الصبيان تجويد تلاوة القرآن، وحتى الألفاظ في القراءة، والخط الحسن والهجاء، وغيرها.انظر/ ابن عبدون، **رسالة أندلسية في القضاء والحسبة**، نشر ليفي بروفنسال، القاهرة، 1955م، ص25.

(51) المازوني، **مصدر سابق**، ج2، ورقة 48وجه.

(52) **المصدر نفسه**، ج2، ورقة 49وجه.

(53) في المعيار: وأجاب الفقيه أو العباس أحمد بن عيسى البجائي.

هو أبو العباس **أحمد بن عيسى** بن عبد الرحمن الغماري، رحل إلى المشرق وقرأ هناك وجدّ واجتهد. ولقي جملة من المشائخ كعز الدين بن عبد السلام. وكان ممن يستفاد بالنظر إليه والمثول بين يديه، كان يبدأ دروسه بقراءة الرقائق أولا وبعد ذلك الفقه وأصوله....الخ. ذكر بأنه ولي منصب القضاء ببجاية مرتين. توفى سنة 682هـ/ 1273م. انظر/ أبو العباس الغبريني، **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق رابح بونار، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص112، 113.

هناك فقيه ثاني ذكره التنبكتي بهذا الاسم: هو أحمد بن عيسى البجائي، علاّمتها وفقيهها وصالحها، في طبقة ابن إدريس، أخذ عنه الوغليسي وأبو القاسم المشدالي وأبو الحسن المانجلاتي وغيرهم، وله فتاى، قال: لم أقف على ولادته ووفاته. انظر/ أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص100.

(54) المقصود **بالحذاقات** هنا، هو ما يعطي للمعلم أو المؤدب عند ختم الصبي للقرآن أو جزء منه، كالربع، والنصف، حيث قال عنها عبد الملك بن حبيب : "..يقضي بالحذقة بالنظر والظاهر بقدر ما يرى من مال الأب ويسره وقوة حال الولد من حفظه وتجويده لأنها مكارمة جرى عرف الناس عليها، فإن أخرج الأب الحذقة لزمته الحذقة، وإن بقي منها ما له قدر وبال كالسدس ونحوه سقط، وليس عليه حساب ما مضي منها، وإن شرط المعلم الحذقة لم يجز دون تسمية، وإن أخرج الأب ابنه قبل بلوغها لزمه بحساب ما مضي ولو قل.."انظر/ عبد الواحد ذ نون طه، **كتب الفتاوى مصدر للتاريخ الأندلسي**، المجلة العربية للثقافة، س14، ع27، تصدرها إدارة الثقافة، بدون مكان النشر، 1994م، ص108.

(55) المازوني، **مصدر سابق**، ج2، ورقة 50وجه.

(56) تذكر إحدى المصادر جواز أخذ الأجر على المتعلم، بحيث التعليم على ثلاثة أوجه، أحدهما للحسبة ولا يأخذ به عوضا، والثالث أن يعلم بغير شرط فإذا أهدي إليه قبل. انظر/ بدر الدين بن عبد الله الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج2، دار الجيل، بيروت، 1988م، ص357، 457.

(57) محمد بن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1981م، ص405-410.

(58) المازوني، **مصدر سابق**، ج2، ورقة137ظهر

(59) **نفسه**. وهناك إشارة إلى مسألة حول السؤال في المسجد، بأنه مكروه كراهية تنزيه وإعطاء السائل فيه قربه يثاب عليها، وليس بمكروه فضلا عن أن يكون حراما هذا هو المنقول والذي دلت عليه الأحاديث.أنظر/- جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، **الحاوي للفتاوى**، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ، ص77.

(60) وهذا ما نجده في عهد الصحابة الأوائل (رضي الله عنهم)، فقد كان الصحابي عبد الله بن عباس يجلس بفناء الكعبة، وقد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن، كما أن المسلمين كانوا يقصدونه من أقصي البلاد يسألونه في المشكلات الدينية. انظر/ حسين أمين، **المسجد وأثره في تطوير التعليم**، مجلة دراسات تاريخية، ع05، دمشق، 1981م، ص07.

(61) هو أبو الحسن وأبو علي منصور بن علي بن عثمان الزواوي المنقلاتي البجائي، فقيه بجاية ومفتيها وعالمها خلال القرن التاسع الهجري، أخذ عن الشيخ عبد الرحمن الوغليسي وغيره، وهو والد العلامة أبي منصور مفتي بجاية. قال عبد الرحمن الثعالبي في حقه: شيخنا أبو الحسن الإمام الحافظ وعليه كانت عمدة قراءتي ببجاية. وله فتاوى نُقل بعضها في المازونية والمعيار. نقل له المازوني فتاوى كثيرة، فضلا عن مراسلاته له. توفي بعد 850هـ/ 1446م. انظر/ أحمد بابا التنبكتي، **نيل الإبتهاج**، ص332. الحفناوي، **مرجع سابق**، القسم 1، ص77.

(62) المازوني، **مصدر سابق**، ج2، ورقة55ظهر.

(63) الرصاع،)، **فهرست الرصاع**، تحقيق وتعليق، محمد العناني، المكتبة العتيقية، تونس، 1967م، ص132.

حركة التنصير بإمارة كييف

أة/ زكية كربال
قسـم التاريـخ جامعة الجزائر 2

شهدت أوروبا بجزئيها الغربي والشرقي، خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، حركة اجتياح واسعة، انطلقت من شبه جزيرة اسكندنافية، "السويد، النرويج، والدانمارك"، سميت في التاريخ الأوروبي بغزوات الفيكنج Vikings.

والفيكنج، مصطلح يعني سكان الفيوردات أو الخلجان، كما سمي هؤلاء الغزاة بالنورمان أي رجال الشمال Normands، North-men.

وفي الوقت الذي اتجه فيه العنصران الدالي والنرويجي، لغزو الأجزاء الشمالية والغربية من أوروبا، منها جزيرة انجلترا، إرلندا والإمبراطورية الكارولنجية*، فإن وجهة العنصر السويدي كانت روسيا، ولعل الدواعي التجارية قد شكلت المحرك الرئيسي لهذه الهجرة.

يشكل استقرار العنصر الشمالي أو السويدي جنبا إلى جنب مع سلاف الشرق أو الروس، بداية لعصر جديد لعب فيه العنصران دورا فعالا في منطقة روسيا. وإن أهم عامل تولد عن هذا الاحتكاك مساهمة العنصر الشمالي إلى جانب السلاف المحليين في بعث أول كيان سياسي في روسيا، وتمثل ذلك في بناء إمارة كييف Kief، على نهر الدنيبر Dniepr، الذي يربط بين السلاف شمالا والإمبراطورية البيزنطية، أو ما كان يسمى الجزء الشرقي للإمبراطورية الرومانية، جنوبا، وهذا المجرى النهري يعتبر من أبرز المسالك التجارية، الذي اتبعه السويديون في تجارتهم مع ذات الإمبراطورية.

ويذكر المؤرخون أن أتباع القائد النورماندي روريك Rurik، الذي اتخذ من امارة نفجورود العظمى Novgorod Grand الواقعة شمالي كييف مقرا له، خلال النصف الأول من القرن التاسع الميلادي، هم مؤسسو إمارة كييف، و التي ارتبط

تاريخها بأحداث بارزة بالنسبة لتاريخ روسيا بشكل خاص، وشرق أوروبا بشكل عام.

وفي الواقع، أثارت مسألة تشكيل و بناء أول كيان سياسي في روسيا، وعاصمته كييف، جدلا تاريخيا كبيرا، يكمن جوهره في مدى مساهمة العنصر النورماندي في بناء هذا الكيان السياسي، من عدمه، و قد تولد عن هذا الخلاف الحاد ظهور مدرستين تاريخيتين بارزتين، الأولى تسمى بالمدرسة النورماندية Ecole Normanniste، وأشهر دعاتها كونيك Kunik ومولر Müller، وقد أشار هذان المؤرخان وأولئك الذين يوافقانهما الرأي، إلى الدور الريادي للعنصر السويدي الشمالي، في بعث أول كيان سياسي في روسيا واستنادا إليهم فإن الشماليين كانوا يتمتعون يتفوق على السلاف وذلك في مختلف المجالات السياسية، الحضارية والاقتصادية وغيرها، عكس العنصر السلافي الذي يفتقد إلى النضج السياسي والحضاري اللازمين لبناء "دولة"، وهو الحكم الذي أثار استياء واستنكار أنصار المدرسة السلافية Ecole Slavophile ممثلة في عدد كبير من المؤرخين والمتخصصين في جوانب أخرى خاصة الاقتصادية والأنتروبولوجية، ومن هؤلاء لمونسوف Lomonossov وزيبلين Zabeylin، وقد ذهب هذان المؤرخان ممثلين آخريين لهذه المدرسة، إلى نفي أغلب الأفكار التي نادى بها النورمانديون، وحجتهم في ذلك أن السكان السلاف الشرقيين بلغوا من التطور السياسي والحضاري درجة تجعلهم يفكرون في توحيد جهودهم لوضع بناء سياسي يقيهم شر الأخطار الخارجية من جهة، وكذلك بلوغ مستوى الرقي الذي وصلت إليه تلك الأمم التي كانت محيطة بروسيا، وأقصد بذلك بلغاريا الدانوبية، والقوة السياسية التي تمثلها الإمبراطورية البيزنطية، كما كان لاحتكاك سلاف الشرق بالمستعمرات الإغريقية الواقعة على طول الساحل الشمالي للبحر الأسود وخاصة مستعمرة تيودوسيا Theodosia، الواقعة في أوكرانيا اليوم، أثره البالغ في حركة النمو هذه.

أما مساهمة الطرف النورماندي فكانت ظاهرية فحسب، ولا يتعدى الجانب العسكري، ذلك أن هؤلاء الوافدين الجدد دخلوا روسيا بصفتهم مرتزقة في جيوش الأمراء المحليين السلاف، ولم تمر فترة طويلة عن وصولهم إلى المنطقة، حتى انصهروا في "موطنهم الجديد".

ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف، فإن لا أحد ينكر اليوم، أن قدوم السويديين إلى روسيا قد غير خارطة المنطقة، ونقصد بذلك أنهم أصبحوا في النصف الثاني من القرن الثامن للميلاد أو النصف الأول من القرن التاسع الميلادي، استنادا إلى بعض الدراسات، طرفا في التركيبة الاجتماعية والسياسية لروسيا، وتبقى نسبة إسهاماتهم في المنطقة أمرا مفتوحا للباحثين وخاصة علماء الآثار الذين ينتظر منهم الكثير لتسليط الضوء والإجابة الدقيقة على الجدل التاريخي المطروح أعلاه[1]:

الأوضاع الدينية في روسيا قبل حركة التنصير بها:

بعد مرور فترة من الزمن، عن بعث هذا الكيان السياسي في روسيا، ومساهمة الأمراء الأوائل الذين تعاقبوا على عرش إمارة كييف، في تثبيت الدعائم السياسية له، خاصة حكام القرن العاشر الميلادي، فإن بعضهم قد تفطن إلى ضرورة تحديد الانتماء الديني لهذه الإمارة الفتية، فالعقيدة الوثنية التي درج عليها السلاف لقرون عديدة، أضحت بالية، وبات هذا العنصر محاصرا بديانات من مختلف الجهات، المسيحية على المذهب الكاثوليكي غربا، والأرثودكسية جنوبا، والإسلام شرقا، وكلها تتقاسم عاملا مشتركا ألا وهو محاربة الوثنية بكل أشكالها.

وإذا نحن ألقينا نظرة خاطفة على الوضع الديني في روسيا قبل حركة التنصير بها، وجدنا أن الروس كغيرهم من الشعوب الأخرى، كانوا يدينون بالوثنية ويعبدون أصناما، كما أمنوا بحياة الإنسان بعد موته، وكانوا يضعون مع الميت في قبره، سلاحه وأدواته المنزلية.

ومن أبرز الآلهة التي اشتهروا بعبادتها، الاله بيرون Péroun، الذي يرمز إلى الرعد والبرق وهو حامي المحاربيين، يتميز بأنه مصنوع من الخشب برأس من الفضة وشوارب من ذهب، وقد عرفت عبادته انتشارا كبيرا عند الروس، ولا تقل أهمية عبادتهم للإله فلوس Volos أو Veles، الذي يعتقدون بأنه حامي الماشية أو التجارة، وهو محل عبادة التجار، أما صنمه فإنه منصوب في موقع يعرف باسم المدينة السفلى أو البودول Podol، حيث يقيم التجار و الحرفيون.

بالإضافة إلى هذين الإلهين الشهيرين، عبد الروس ألهة ثانوية منها، داجبوج Dajboj، الإله الواهب الذي ينبت الزرع، وستريبوج Stribog إله الريح، ومكوس Mokoch إله الحب والخصب، أما الثور فإنه يرمز عندهم إلى القوة والإنتاج، وكانوا يقدمون لهذه الآلهة قرابين من حيوانات وذهب[2] وأحيانا من البشر أيضا[3]، وإن ما يثير الإنتباه للوهلة الأولى هو ارتباط العبادة عند الروس بشكل وثيق بحياتهم الاجتماعية وخاصة الزراعية.

كما أن عبادتهم، امتدت لتشمل الصور أيضا، حيث كانوا يتضرعون إليها، ويقدمون لها القرابين، وفي هذا الصدد، رسم لنا الرحالة ابن فضلان صورة معبرة عن وضعهم هذا قائلا: "إذا وافت سفنهم إلى هذا المرسى، يخرج كل واحد منهم ومعه خبز ولحم وبصل ولبن ونبيذ، حيث يوافي خشبة طويلة منصوبة، لها وجه يشبه وجه إنسان، وحولها صور صغار، وخلفها خشب طوال منصوبة في الأرض، فيسجد للصورة الكبيرة، ثم يقول: "يا رب قد جئت من بلد بعيد ومعي من الجواري كذا وكذا، ومن السمور كذا وكذا، ويعدد كل ما جلب معه من تجارة ثم يقول: وجئتك بهذه الهدية، ويتركها على الخشبة، ويقول: أريد أن ترزقني تاجرا معه دنانير ودراهم كثيرة فيشتري مني كل ما أريد ولا يخالفني فيما أقول، ثم ينصرف"[4].

ويواصل ابن فضلان حديثه عن عبادة الصور فيقول: "بأن التاجر الروسي، إذا لم يوفق في بيع بضاعته خلال أيام وتعسر عليه بيعها، عاد بهدية ثانية وثالثة إلى إله

الصور الكبيرة، فإذا لازمه الحظ السيء بعد تقديم تلك الهدايا ولم يصرف تجارته فإنه يحمل الهدايا إلى الصور الصغيرة، والتي تتمثل في نساء أو أولاد وبنات الرب، فيتضرع إليها ويسأل الشفاعة، فإذا سهل عليه البيع، وباع فيقول: "قد قضي ربي حاجتي، وأحتاج أن أكافيه، وتكون المكافأة عظيمة فيقدم قربانا كبيرا عبارة عن عدد من الأغنام والبقر المذبوحة فيتصدق ببعضها ويقدم البعض الآخر قربانا للآلهة، ويعلق رؤوس البقر والغنم على ذلك الخشب المنصوب على الأرض خلف تلك الصور، فإذا جاء الليل وجدت الكلاب الضالة هذا اللحم المطروح وليمة فاخرة فلتهمته، فيعتقد التاجر أن ربه قد رضي عنه"[5].

وعرف الروس بالإضافة إلى عبادة الصور، بظاهرة حرق الموتى وفي هذا الصدد أورد ابن فضلان، أيضا، رواية مفادها: "إذا مات الرئيس منهم، فال أهله لجواريه وغلمانه من منكم يموت معه، فيقول بعضهم أنا... وأكثر من يفعل هذا الجواري،..."[6].

والملاحظ أن هذه الظاهرة لقيت إجماع الجغرافيين المسلمين الذين يوافقون ابن فضلان فيما ذهب إليه، ويضيف ابن حوقل من جهته بأن مصدر هذه العبادة "نواحي بلاد الهند"[7] لكن يبدو أن ظاهرة حرق الموتى، لم تكن واسعة الانتشار بل إنها اقتصرت على قبائل دون أخرى، ذلك أن المصادر الروسية المعاصرة تحدثت في ثناياها عن عملية الدفن أيضا.

لكن بالرغم من انتشار هذه العبادات الوثنية، التي باتت جذورها عميقة في المجتمع الروسي، فإن الشيء الذي يثير الانتباه، أنه وابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، فإن دلائل في المصادر المعاصرة قد أشارت إلى وجود عدد من المسيحيين في روسيا، و هذا قبل حركة التنصير التي مست هذا المجتمع في الربع الأخير من القرن العاشر الميلادي، ومن بين أهم هذه النصوص التاريخية ما أشار إليه بطريرك كنيسة القسطنطنية فوتيوس photius (ق 9م) في رسالة له بعث بها إلى عدد من البطريركيين الشرقيين، بتاريخ عام 867م، أشار فيها إلى أن "الروس قد

تركوا ديانتهم الهللينية. -أي الوثنية- و اعتنقوا العقيدة المسيحية الصحيحة، ووضعوا أنفسهم تحت حماية الامبراطورية، وأصبحوا أصدقاءها...[8].

وإن ما يؤكد أيضا، على وجود عدد من المسيحيين في روسيا قبل حركة التنصير بها، هو ما أشارت إليه بنود المعاهدة التجارية التي تم إبرامها عام 911م بين أمير كييف إيغور والسلطات البيزنطية، والتي تشكل البداية الفعلية لعلاقات تجارية وديبلوماسية بين الطرفين، ومما جاء فيها: "نحن الروس المسيحيين قمنا بتأدية اليمين على الصليب المقدس، في حين أن الوثنيين منا قد أقسموا على دروعهم وسيوفهم"[9]؛ إنها تعتبر بحق الخطوات الأولى للالتحاق بركب الأمم المسيحية، والتي ستدفع بها الأميرة أولغا Ol'ga إلى الأمام.

تعتبر أولغا أول امرأة تولت عرش إمارة كييف، خلفت زوجها أولج Oleg، الذي قتل على يد أحد عناصر قبيلة دريفليان Drevlianes، واحدة من القبائل الروسية، وكان ذلك عام 945م، تولت أولغا الحكم بصفتها وصية على ابنها سفياتوسلاف Sviatoslav (964–972م)، كان شغلها الشاغل عند تولي الحكم، الانتقام من قتلة زوجها دون رحمة بهم ولا شفقة، كما عملت دون كلل أو ملل على تثبيت أركان إمـارة كييف الفتية، قبل أن تحول نظرها إلى الإمبراطورية البيزنطية، لإحياء علاقات كانت قائمة في الواقع قبل توليها العرش. ولإعطاء دفع حقيقي لها، فإنها نزلت عام 957م ضيفة على القسطنطنية[10] وهي الزيارة التي اثارت اختلافا كبيرا بين المؤرخين وهذا لتحديد السبب الحقيقي لها، فالبعض يرى بأن الهدف من ورائها هو السعي لإعادة النظر في بعض البنود التي جاءت في معاهدة عام 945م والتي تم توقيعها في عهد زوجها إيغور، ذلك أن السلطات البيزنطية قلّصت من حجم الامتيازات التي كانت قد منحتها للروس في حينها[11]، وذكر البعض الآخر أن هدف الزيارة كان لعقد حلف مصاهرة، ويتمثل في زواج ابنها سفياتوسلاف بأميرة بيزنطية[12] وهو الارتباط الذي من شأنه إعطاء وزن سياسي للكيان الروسي الفتي، ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف فإن زيارتها

للقسطنطنية وحفاوة الاستقبال الذي حظيت به، مع الوفد المرافق لها، ينم بما لا يترك مجالا للشك، عن الأهمية القصوى التي توليها بيزنطية لعلاقاتها مع الروس وهذا على المستويين التجاري، بسبب نوعية السلع التي كانوا يحملونها إلى أسواق القسطنطنية منها، الفراء والشمع والعسل والعبيد السلاف، ضف إلى الأهمية العسكرية ذلك أن روسيا كانت مصدرا لنوافد مرتزقة، كانت الإمبراطورية في حاجة ماسة و دائمة لسواعدهم.

وهناك إشكالا آخرا طرحته هذه الزيارة، وهو ذو صبغة دينية هذه المرة، ويتمثل فيما إذا كانت أولغا قد عمدت في القسطنطنية[13] ذلك أنها عند ما عادت إلى كييف، دون أن تتوصل إلى تحقيق ما ذهبت إليه، أخذت تدعو المقربين إليها لاعتناق المسيحية لكنها واجهت معارضة شديدة من لدنهم، ولعل أبرز من مثل الحزب المعارض، ابنها سفياتوسلاف Sviatoslav (969-972م)[14] وهو ما يكشف لنا عن قوة التيار الوثني، وتأثيره في الدوائر الحاكمة في كييف آنذاك. ومهما يكن من أمر، فإن مساعي أولغا، لم تذهب أدراج الرياح، ذلك أن حفيدها فلاديمير الأول سفياتوسلافش Vladimir I Sviatoslavich (980-1015م)، كان في مستوى طموحاتها[15].

فلا ديمير الأول سفياتوسلافش: المؤسس الحقيقي لكنيسة روسيا

يعتبر فلا ديمير المؤسس الحقيقي لإمارة كييف، ولا نبالغ في شيء، إذا قلنا بأنها شهدت عصر ا ذهبيا في عهده، إذا استثنينا بطبيعة الحال بداية توليه الحكم، والذي ميزته حرب أهلية دامية، مع إخوته والتي هلك بعض منهم جراءها منهم أولج OLEG وياروبلك YAROPOLK الذي كان والده سفياتوسلاف قد عينه على إمارة كييف، قبل أن يعود إلى البلقان لمواصلة غزوه للمنطقة[16].

ولا يسع المجال هنا للحديث عن النشاطات السياسية للأمير الأكبر فلا ديمير خلال فترة حكمه، ولكن الحديث، عن ظروف تعميده وكافة قومه. ومرة أخرى يعود الغموض ليخيم على هذه المرحلة الهامة من تاريخ روسيا، ولنقترب أكثر من

الحقيقة فلنقرأ النص الذي أورده يحيى بن سعيد الأنطاكي، الذي يعتبر ما كتبه في أواخر القرن العاشر الميلادي وبداية القرن الحادي عشر أهم مصدر حول تنصير الروس، ومما ذكره "واستفحل أمره (بارداس فوقاس)، وجذع باسيل الملك منه لقوة جيوشه، واستظهر عليه فنفذت أمواله، فدعته الضرورة إلى أن يرسل إلى ملك الروس، وهم أعداءه يلتمس منهم المعاضدة على ما هو بصدده، فأجابه إلى ذلك و عقد بينهما مصاهرة مع الأسرة الإمبراطورية، وتزوج ملك الروس أخت باسيل الملك بعد أن شرط عليه بأن يتعمد وسائر أهل بلاده"[17].

وإذا نحن تمعنا في قراءة هذا النص التاريخي الهام، فإننا نخلص إلى معرفة ظروف تعميد فلا ديمير، والتي ترتبط بالأوضاع السياسية والعسكرية، التي كانت تمر بها بيزنطية، أكثر مما هي ناجمة عن نشاط ديني. ففي صيف عام 987م، تعرضت الإمبراطورية البيزنطية، لتمرد خطير قاده أحد القادة البارزين واسمه بارداس فوقاس BARDAS PHOCOS، وعلى رأس جيش هام انطلق من آسيا الصغرى وشقت تلك الحشود طريقها لغزو القسطنطنية، ومما زاد الطين بلة أن الجيش نادي بالقائد فوقاس إمبراطورا يوم 15 من شهر أوت عام 987م، وأمام هذا الخطر الكبير، الذي من شأنه أن يعصف بالإمبراطورية، لجأ الأمبراطوران باسيل الثاني (976-1025م) وشقيقه قسطنطين الثامن، باعتباره شريكه في الحكم (976-1028م)، للبحث عن حلفاء لردع الخطر، وكان أمير كييف عن الذين وقع عليهم الاختيار وهو ما جاء بطبيعة الحال عن دراية جيدة ومعرفة بما تملكه روسيا من جنود بواسل يمكن الاعتماد عليهم لإنقاذ القسطنطنية وأقاليم الإمبراطورية المختلفة التي باتت في مهب الريح، وذكر بعض المؤرخين أن ملك النرويج أولاف تريجفسون OLAF TRIGVESON (955-1000م)، الذي كان آنذاك في زيارة إلى القسطنطنية، هو من قاد المفاوضات بين السلطات البيزنطية وأمير كييف فلا ديمير، إن اختياره في الواقع، ليقود هذه الجولة العسيرة من المفاوضات كان أمرا مدروسا جيدا، ومرد ذلك إلى الصداقة التي كانت تجمعه مع فلاديمير، لذلك فقد عولت عليه السلطات

البيزنطية وراهنت على نجاحه في المهمة المسندة إليه، في الوقت الذي كان باسل الثاني وحاشيته يخشون من رفض فلاديمير الاستجابة لطلب المساعدة[18] علما أنه ابن سفياتوسلاف، الذي أنزلت به هزيمة نكراء في البلقان عام 971م، ليلقى مصرعه عام 972م، وهو عائد إلى دياره يجر أذيال الخيبة[19]، واستنادا إلى هذه النتائج المأساوية التي مازالت عالقة في أذهان الروس، وخاصة أبناء سفياتوسلاف، فإن احتمال رفض فلاديمير لنجدة بيزنطية في تلك الظروف الحرجة، وهذا انتقاما لما حل بوالده، كان مطروحا وبشدة. لكن يبدو أن ذكاء وحنكة فلاديمير قد تغلبت عن كل العواطف في موقف كهذا، إذ أنه انتقم لوالده وبطريقة لم تكن متوقعة، فقد استجاب لنداء الاستغاثة القادم من القسطنطنية وهذا بتقديم المساعدة العسكرية اللازمة لدحر المتمردين، لكنه اشترط مقابل ذلك أن تمنح له آنا** بورفيروجنيت ANNE PORPHYROGENETE***، شقيقة باسل الثاني و قسطنطين الثامن كزوجة، إنه مطلب تعجيزي فعلا، فكيف لأمير وثيني أن يتزوج بأميرة مسيحية، لها حقوق شرعية في العرش البيزنطي، لكن أمام الوضع الحرج للإمبراطورية لم يكن أمام الباسيليوسين من خيار إلا قبول مطلب أمير كييف، حينها فقط، أرسل فلاديمير إلى بيزنطية قوة عسكرية تتشكل من ستة آلاف من خيرة الجند الذين علقت عليهم كل الآمال لتحقيق النصر.

في ربيع عام 988م، ألحقت القوات البيزنطية -الروسية المتحالفة، هزيمة نكراء بجيش فوقاس، في موقع يسمى كريزوبوليس CHRYSOPOLIS، غير بعيد عن القسطنطنية، لكن المعركة الحاسمة دارت رحاها في 13 من شهر أفريل عام 989م، وبعد مرور بضع أيام فقط على هذه النكسة، لفظ فوقاس أنفاسه، وهكذا عاد الهدوء والسكينة إلى أرجاء الامبراطورية، التي كانت أيامها معدودة، حينما كان فوقاس وجنده يقتربون من أسوار العاصمة.

لكن بمجرد زوال الخطر الذي كان يشكل بارداس فوقاس وجيشه على مستقبل الإمبراطورية، أخذ كل من باسيل الثاني وشقيقه قسطنطين الثامن، يتماطلان في

تنفيذ ما وعدا به فلاديمير قبلا، وهذا بمنحه آنا زوجه ، ولم يكونا يدركان بأن رفضهما هذا يعرض الإمبراطورية، التي خرجت منهكة عن الحرب مع فوقاس، لخطر و تهديد لا يقل أهميته عن الأول فالأمير فلاديمير الذي لم يستصغ ذلك الرفض، قرر الضغط على الإمبراطوريين، وهذا باللجوء إلى القوة لإسماع صوته، فقام بغزو مدينة خرسون CHERSON. وهي محطة تجارية واستراتيجية ذات أهمية قصوى بالنسبة للبيزنطة، في منطقة شمال البحر الأسود، ومع إحكام الخناق على الإمبراطورية، هدد فلاديمير، أنه وفي حالة عدم الاستجابة لمطلبه، سيسير بجيشه لغزو القسطنطنية ذاتها، حينها أدركت السلطات الإمبراطورية حجم التهديد، والكارثة التي يمكن أن تأتيها من الروس فقرّرت التضحية بآنا في سبيل خلاص بني جلدتها، وهي الوسيلة التي تمكن من كبح جماح فلاديمير، لكن باسل الثاني وقسطنطين الثامن، اشترطا من جهتهما على فلاديمير ضرورة اعتناقه المسيحية[20]، قبل الزواج من آنا[21] ذلك أن القوانين الكنيسة تمنع بشكل قاطع الزواج، الذي هو رباط مقدّس، بين وثني ومسيحية، ولم يتردد فلاديمير في قبول هذا الشرط.

وهكذا، عاد أمير كييف إلى دياره من المحتمل عام 990م، وهو يمسك بيد زوجته آنا بورفيروجنيت، وليس وثينيا[22] كما خرج منها، ولكن مسيحيا أرثوذكسيا. إنه انتصار باهر، وعلى مختلف الأصعدة، فبهذا الزواج وضع فلاديمير قدمه في العرش البيزنطي، فهذا الرباط الذي أصبح بربط بيزنطة بروسيا بات أقوى عن ذي قبل، ومن جهة أخرى فإن تخلي فلاديمير عن ديانة أجداده، الوثنية، يعتبر في الواقع، انقلابا حقيقيا في الوضع الداخلي لروسيا[23]، التي انتقلت من أمة وثنية على هامش الحضارة، لتلتحق بركب الحواضر المسيحية متفتحة عليها.

أما بالنسبة لبيزنطة، فإن هذا التنازل الذي قامت به لأمير كييف لم يكن دون نتائج ايجابية على مستقبل سياستها في المنطقة، بل إن ما نجم عن تلك المصاهرة مازال شاهدا لحد الآن، وأقصد بذلك أن أصبح الروس مسيحيون على المذهب الأرثوذكسي[24]، الذي تدين به بيزنطة، وباتت روسيا، وابتداء من عامي 988 و

989 الميلاديين، قلعة شامخة لهذا المذهب في عالم السلاف من جهة وجدارا منيعا أمام المد اللاتيني الكاثوليكي الذي شق طريقه إلى هذه الأصقاع السلافية وفي هذه الفترة بالذات[25].

وبهذا نخلص، بعد هذا العرض الوجيز إلى القول بأن عهد الأمير فلاديمير سفياتوسلافش، يعتبر بحق فاصلا بين مرحلتين تاريخيتين هامتين بالنسبة لروسيا، وهما الفترة الوثنية والتقوقع على الذات، وعهد دخلت فيه البلاد، بخطى عملاقة في محفل القوى الكبرى آنذاك.

الهوامـــش:

-* أسسها الملك الفرنجي شارلمان CHARLEMAGNE، سميت بهذا الاسم نسبة إلى اسمه اللاتيني كارولوس CAROLUS، و الذي تحول إلى شارل باللغة الفرنسية. وقد ضمت هذه الإمبراطورية جغرافيا معظم مناطق أوروبا الغربية، و لتفاصل أكثر عن هذا الموضوع إرجع إلى:

EGINHARD, VIE DE CHARLEMAGNE, TRADUCTION GUIZOT (F,P,G) DANS COLLECTION DES MEMOIRES RELATIFS A L'HISTOIRE DE FRANCE,T. III , PARIS, 1823 – 1835 ; KLEINCLAUSZ (ARTHUR), L'EMPIRE CAROLINGIEN. SES ORIGINES ET SES TRANSFORMATIONS, ROUSSEAU, PARIS, 1902 :
MUSSOT- GOULARD (RENEE), CHARLEMAGNE, P.U.F.
PARIS,1984 ; RICHE (PIERRE), LES CAROLINGIENS.
UNE FAMILLE QUI FIT L'EUROPE, HACHETTE, PARIS, 1983 ; HALPHEN (LOUIS), CHARLEMAGNE ET L'EMPIRE CAROLINGIEN, A.MICHEL, PARIS, 1968.

(1) GUILLAUME DE JUMIEGES, HISTORIA NORMANORUM, TRADUCTION GUIZOT (F.P.G), DANS COLLECTION DES MEMOIRES RELATIFS A L'HISTOIRE DE FRANCE, T 29, PARIS, 1826 ; SMITH (CHARLES, MARSHALL), LES EXPEDITIONS DES NORMANDS DEPUIS LES ORIGINES JUSQU'A LA CONQUETE DE L'ANGLETERRE, PARIS, S.D ; DVORNIK (FRANCIS), LES SLAVES, HISTOIRE ET CIVILISATION DE L'ANTIQUITE AUX DEBUTS DE L'EPOQUE CONTEMPORAINE, TRADUIT DE L'ANGLAIS PAR D.P, EDITION DU SEUIL, PARIS, 1970 ; ECK (ALEXANDRE), LE moyen âge russe, Paris, 1933 ; Vernadsky (George), Ancien Russia, Yale University press, New Haven, 1943 ;
Rostovtseff (H.), Iranians and greeks in south Russia, Oxford, 1922, P 210 ; Florinsky (Michael. T), Russia. A Short History, The Macmillan Company, New York, First published, 1964.

(2)- من الملاحظ أن عبادة بعض الألهة، كانت مشتركة بين مختلف فروع السلاف، مثلا الإله سفاروج Svarog، إله الشمس اللامعة، إنه كان محل عبادة سلاف الشرق و كذلك الغرب على حد سواء. أنظر:
Niederlc (Lubor), Manuel de l'antiquité slavc, T.2, La civilisation, Paris, 1926, P140.

-(3)The Russian Primary chronicle (Laurentian Text), ed and trams by cross (S.H) and sherbowitz, 1953, P 180 ;

(4)- ابن فضلان (أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد): رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك و الخزر و الروس و الصقالية سنة (309 ه – 921 م)، تحقيق سامي الدهان، دمشق، 1978، ص 153.

(5)- نفسه، ص 154.

(6)- نفسه، ص ص . 163 – 164، الدمشقي (شنس الدين) أبو عبيد الله محمد أبي طالب الأنصاري الصوفي المعروف بشيخ الربوة)، نخبة الدهر في عجائب البر و البحر، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية، 1865، ص. (14) الإصطخري (أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي)، مسالك الممالك، حققه محمد جابر عبد العال، القاهرة، دار القلم، 1901، ص 135.

(7)- ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي)، صورة الأرض أو المسالك و الممالك، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، د.ت، ص 336.

(8)- أشار فوتيوس إلى أن الروس، بعد فشل حملتهم على القسطنطنية عام 860 م، أرسلوا وفدا إلى بيزنطية يطلبون من سلطانها أن ترسل إليهم عددا من الأساقفة لتعميدهم، و حسب المؤرخ دفورنيك Dvornik، فإن سبب التوجه بهذا الطلب لبيزنطية، يعود إلى تخوفهم مما يشكله التقارب البيزنطي – الخزري من تهديد على إمارتهم، و بذلك فإنهم قرروا أن يصبحوا أصدقاء بيزنطة قبل فوات الأوان، و إن الرابط الديني هو الكفيل أن يجنبهم غضب حكامها، أنظر:

Dvornik (Francis), les légendes de constantin et de Méthode vues de Byance, Prague, P. 178 ; Arrignon (Jean-pierre), les relations diplomatiques entre byance et la Russie de 860 à 1043, Dans Revue des Etudes Slaves, T.55, fascicule (1), 1983, P.130 ; Bonet-Maury (G), les premiers témoignage De l'introduction du christianisme en Russie, Dans Revue de l'Histoire des Religions, Tome 44, 1901, P.223 .

-(9)Couret (Alphonse), la Russie à Constantinople, premières tentatives des Russes contre l'empire grec (865 – 1116) ; Dans Revue des questions Historiques, 10 éme année, n°19, Janvier 1876 ;
Ostrogorsky (George), Histoire de l'Etat byzantin, Traduction française, Gouillard, Payot, Paris, 1977, P.309.

(10)- يرى بعض المؤرخين أن الأميرة أولغا، قامت في الواقع بزيارتين إلى القسطنطنية، وكانت الأولى عام 946 م، وعنها كتب المؤرخ الإغريقي يوحنا سكيلتزس John skylitzés قائلا: "إن زوجة الأمير الروسي إيغور Igor، الذي قاد في الماضي، حملة ضد البيزنطنيين، و اسمها Helga قد زارت القسطنطنية بعد وفاة

"زوجها"، في حين ذكر الراهب لسطور خطأ، في حولياته أن أولغا زارت القسطنطينية في عهد اللإمبراطور يوحنا الدمشقيق John Tzimiskès . أنظر:

Pritsak (Oueljan), when and where was olga baptised ?, In Harvard Ukrainian studies, volume x, number 1-2, Yune, 1985, P.6; Cross (S.H) and sherowitz (w.o.p), op.cit, p.168; vasiliev (A.A), Hugh capet's letter in 988 to the byzantine emperors Basil II and constantin VIII, In Dunbarton Oaks Papers, N°6, 1951, P.244.

(11)- و قد رافق الأميرة أولغا أثناه زيارتها إلى القسطنطنية عام 957 م، وفدا هاما، أغلب أعضاءه من التجار و عددهم حوالي ثلاثة و أربعين، عادوا إلى كييف و هم يحملون هدايا كثيرة، منحتهم إياها السلطات الإمبراطورية أنظر:

Featherstone (yeffrey), Olga visit to constantinophe, In H.U.S vol. XIV, N°3-4, December, 1990, P.304;

Arrignom (Jean, pierre), Les relations internationales de la Russie Kiévienne au milieu du Xème siècle et le baptême de la princesse olga, Dans occident et orient au Xème siècle, Actes du IX éme congrés de la sociétés des Historiens médiévistes de l'enseignement supérieur publique, Dijon 2-4, juin1978, Les belles lettres, paris, 1979, P.168.

-(12)Labunka (Hiroslav), Religious centers and their missions to kievan Rus from ol'ga to volodimer, In H.U.S volumes XII- XII, 1988 – 1989, P.167.

(13)- و بعد تعميدها، اتخذت اسم هللينا Hélène، و يذكر بعض المؤرخين، بأنه اسم والدة الإمبراطور قسطنطين العظيم (306-337 م). في حين يشير البعض الآخر بأنه اسم زوجة الإمبراطور قسطنطين السابع بورفيروجنيت (949 – 959 م) الذي تمت الزيارة في عهده.

و هناك تباين آخر، و يتعلق هذه المرة بالمكان الذي عمدت فيه أولغا، إن حدث ذلك بالفعل، فالبعض يرى بأنه جرى في كييف و ليس في القسطنطنية، و يستندون إلى ما كتبه الإمبراطور قسطنطين السابع في كتابه "مراسيم البلاط البيزنطي" حيث ذكرها باسمها الوثني أرخونتيسا إلغا Archontissae Elgae أنظر:

Cross (S.H) and sherbowitz (w), op.cit, P.168 ; Featherstone (J), op.cit, p.304.

-(14)Gonneau (pierre), la Rus de kiev une société féodale ? 860-1240, Dans journal des savants, de Broccard, paris, Janvier-juin, 1999, PP. 167 – 225 ;

(15)- توفيت عام 969 م، و قد أشرف على المراسيم الجنائزية الأساقفة الذين جلبتهم من القسطنطينية أثناء زيارتها إلى هناك، أنظر:.Cross (S.H) and sherbowitz (w), op.cit ; P.170

-(16)Ostrogrosky (G), op.cit, P.317 ; Rambaud (Alfred), Histoire de la Russie depuis les origines jusqu'à nos jours, 6 ème édition, Hachette, Paris, 1914, PP. 56-60.

-(17)Yahia Ibn Said d'Antioche Continuateur de said Ib Bitriq, Traduction française par Kratchkovski (J) et vasiliev (A), deuxième partie, Patrologia Orientalis, 23.3, paris, 1932, P.423 ;

-18Norwich (Yohn, Yulius), Histoire de Byzance 330-1453, Traduit de l'anglais par Dominique Peters, Perrin, Paris, 2002, PP.242-244 ;

Franklin (Simon) and Sherpard (Jonathan), The emergence of Rus 750-1200, Longman, London and New York, 1996, P.29 ;

(19)- يعتبر الأمير سفياتوسلاف (972.969 م)، إبن أولغا، أكثر الحكام الروس طموحا، كان يسعى من خلال غزوه لبلغاريا الدانوبية، إلى تأسيس امبراطورية سلافية، و يكون نهر الدانوب الإستراتيجي محورا لها، إنه مفترق الطرق بين الشرق و الغرب أي بين آسيا و أوروبا، و استنادا إلى المؤرخ الإغريقي سكيلتزس Skylitzes، فإن الروس، و بالإضافة إلى الأهمية التجارية التي تشكلها بالنسبة إليهم منطقة الدانوب، قد أبهروا بخصوبة أراضي المنطقة " وجاء في حوليات نسطور أن سفياتوسلاف، خاطب جنده قائلا:"لا أرغب في العيش في مدينة كييف، إنني أطمح في الإقامة بمدينة بريسلافتز pereiaslavets، الواقعة على نهر الدانوب، حيث ترد الثروات المتنوعة، من ذهب الإغريق، وأنسجة رفيعة، خمور، فواكه و فضة و أحصنة من المجر، كما يحمل التجار الروس إلى بلغاريا، الشمع، العسل و العبيد السلاف."

أنظر: Franklin (S) and Sherpard (j), op.cit, P.146 ; Ostrogorsky (G), op.cit, P.317.

** - لدت في 13 من شهر مارس عام 963 م، و توفيت عام 1011 م، هي ابنة الإمبراطور رومانوس الثاني Romain II، و كان الإمبراطور الألماني أوتو الأول OTTO I (936-973 م)، قد أرسل في شهر جوان عام 968 م، و فدا إلى بيزنطة يقوده أسقف مدينة كريمونا و اسمه ليوتبراند Liutprand de Crémone، من أجل أن يطلب أنا زوجة لإبنة أوتو الثاني، لكن طلبه قبل بالرفض، أنظر:

Cross (S.H) and sherbowitz (w), op.cit, p.212 ; vasiliev (A.A), Hugh capet.., pp.234-235.

***- بورفيرا Porphyre هي غرفة في القصر الإمبراطوري، مزينة بالرخام الأحمر، مخصصة لميلاد الأطفال الشرعيين الذين لهم الحق في العرش البيزنطي، فلقبوا بورفيروجنيت، نسبة إلى هذه الغرفة.

(20)- و تم حفل الزواج "بعد تنصير فلادمير"، و من المحتمل أن ذلك حدث في خرسون، التي غادرها فلادمير و المرافقين له و هو عائد إلى كييف محمّلا بأدوات مقدسة و حتى بقايا القديسين، التي كان قد استولى عليها عند غزوه للمدينة.

ارجع إلى: الدمشقي(ش.د) المصدر السابق، ص 261، و انظر أيضا: cross (S.H) and sherbowitz (W), op.cit, p.212

-(21)platnov (s), Histoire de la Russie des origines à 1918, payot, paris 1918, p.57 ; Vodoff (Vladimir), La conversion de la rus. Thème de recherche historique international.un millénaire de la christianisation de la russie ancienne, U.N.E.S.C.O, paris 1989, pp.120-112 ; Honigmann (Ernest), studies in slavic church history, Dans, Byzantion, T.XVII, 1944-1945, pp

128-129 ; Vodoff (V), pourquoi le prince volodimer svjatoslavic n'a-t-il pas été canonisé, In H.U.S,T. XII-XIII, (1988-1989), pp.446-447.

(22)- تميز فلاديمير قبل اعتناقه المسيحية بطبع حاد و كان لا يتردد برهة في سفك دماء أقرب الناس إليه لتحقيق مآربه، كما كان محبا للنساء. و تذكر الكتابات بأنه تزوج قبل ارتباطه بـــ أنا بورفيروجنيت، بعدد من النساء لعل أبرزهن، أرملة شقيقه ياروبلك، و هي راهبة بيزنطية عرفت بجمال فائق، و كان قد جلبها والده، سفياتوسلاف في إحدى حملاته على بلغاريا، أما خليلاته فيقال أن عددهن قد بلغ الثمانمائة، أنظر:

Rambaud (Alfred), Histoire de la russie depuis les origines jusqu'à nos jours, 6ème édition, Hachette, paris, 1914, p.56.

(23)- و كانت عودة فلاديمير إلى كييف عام 990 م، اذانا بثورة حقيقية على العادات الوثنية البالية التي كانت قائمة، فقد أمر بتحطيم الألهة الوثنية و منها الإله بيرون، الذي ظل لقرون محط عبادة الروس، و رمي به في نهر الدنيبر، و أمر ببناء كنيسة في الموضع الذي كان فيه الصنم منتصبا، و بعث ممثلين عنه إلى مختلف المدن و القرى يأمرها بأن تقوم بالمثل و لعل أبرز خطوة في سياسته لنشر المسيحية في بلاده، أنه دعا أهالي كييف و لم يستثن في ذلك أية شريعة، إلى نهر البوتشاينا Počajna

و هو أحد فروع نهر الدنيبر ليتم تعميدهم جماعيا le Baptême Collectif des kiéviens، و لم يكن السكان ليتخلفوا عن الموعد خشية من العقاب الذي ينجم عن ذلك. أنظر :

Cross (S.H) and sherbowitz (W), op.cit, p.204.

24- منذ تنصير الروس، فيما بين عامي 988 و 989م، أصبحت كنيسة كييف تابعة بشكل مباشر لبطريركية القسطنطينية، وهو الوضع الذي استمر حتى النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي. وعن هذه المسألة الجوهرية في العلاقات الدينية بين الإمبراطورية البيزنطية وروسيا. أنظر:

Platonov (S), op.cit, p.57 ; vitalien (Laurent), le corpus des sceaux de l'empire byzantin. T.IV – l'eglise. Première partie : l'église de constantinople, C. N.R.S. paris , 1963, p.55 ; poppe (André), le traité des azymes. Quand, où et par qui a-t-il été écrit ? Dans, Byzantion, T.XXXX, fascicule, 2, 1956, p.517 ; vodoff (V.) , la conversion , pp.110-112 ; Horigmann(e.), op.cit, PP.128-129 ; santorius (Bernard), l'église orthodoxe, Genève, 1968, P.40.

(25)- و أقصد بذلك، محاولات الإمبراطور الألماني أوتو الأول، الذي أرسل إلى كييف الأسقف أدلبرت Adalbert، عام 961 م، في محاولة منه للتبشير بالمذهب الكاثوليكي في المنطقة، و جاء هذا عقب الزيارة التي قادت الوفد الروسي الذي أرسلته الأميرة أولغا إليه، في خريف عام 959 م، و الذي لا يعرف بالتحديد سبب لقائه بـــ أوتو ، فالمؤرخ فورنوف Vornov ، أشار إلى أن الهدف كان ربط علاقات اقتصادية بين كييف و ألمانيا ، أما مؤرخ الكنيسة الروسية، العالم جلوبنسكي Goloubinsky فإنه أشار إلى صعوبة تحديد سبب تلك الإتصالات ، و لكن في نفس الوقت، يضيف الكاتب أنه، لم يكن لطلب أسقف، و إن ما قام به أوتو من ارسال أدلبرت إلى كييف، كان مبادرة أحادية. و لكن رغم مساعيه فإن مبعوثه قد فشل في مهمته. أنظر:

Vodoff (V), naissance de la chrétienté russe : la conversion du prince Vlademir de Kiev (988) et ses conséquences (XI[e] - XIII[e] siècles), Paris, 1988 ; Labunka (H), op.cit, P.168 ; Franklin (S) and Shepard (J), op.cit ; P.112 ; Kovalevsky (Pierre), Histoire de Russie et de l'U.R.S.S, Paris, 1970, P.43-44.

حركة الرباط الساحلي والنشاط البحري في عهد الأغالبة

د. توفيق مزاري عبد الصمد

جامعة المدية

كان لقيام دولة الأغالبة (184-296هـ/800-900م) بداية مرحلة جديدة في الصراع الثغري والبحري بين المسلمين والبيزنطيين، نظرا لموقع الأغالبة المحاذي للساحل وقربهم من المناطق الرومية البحرية (صقلية وجنوب إيطاليا) وكان الخوف من غارات الروم على السواحل التونسية والاستعداد الدائم للجهاد ضد الروم في صقلية حافزا قويا على عناية الأغالبة بتحصين هذه السواحل بالرباطات والمحارس [1] من جهة، والاهتمام بالأسطول اهتماما خاصا من جهة ثانية.

الربط الساحلية: توسع الأغالبة في بناء الربط الساحلية التي سموها (القصور والمحارس)، وخاصة في السواحل الممتدة من صفاقس إلى بنزرت، إذ كانت مليئة بالحصون المتقاربة التي ينزلها العباد والمرابطون [2] ولعبت هذه الأربطة دورا هاما في الحياة الدينية والحربية على السواء ببلاد إفريقية. فقد ساعدت على تكوين طبقة من الصالحين [3] كرسوا حياتهم للمرابطة والجهاد البحري لمدافعة الروم في صقلية وجزر البحر المتوسط [4].

وكان أول رباط أغلبي هو رباط سوسة ويطلق عليه قصر الرباط، الذي كان مأوى الصالحين داخله حصن ثان يسمى القصبة وهو بجو في المدينة بدار الصناعة في سفح جبل، وقد بناه الأمير الأغلبي "زيادة الله الأول" سنة 206هـ/ 821م ومنه انطلق المسلمون ففتحوا صقلية.

حرص الأغالبة على إقامة الأربطة الكثيرة القريبة من بعضها بعض لإعلان الرسائل الخاصة بالإنذار المبكر لملاقاة العدو برا وبحرا، ولذلك كثر عدد الأربطة

على السواحل التونسية ولاسيما على عهد الأمير "أحمد الأغلبي" (242-249هـ) الذي ذكر ابن خلدون انه بنى عشرة آلاف قلعة من الحجر الصخر وبأبواب الحديد [5].

وهذا الرقم وإن كان يبدو مبالغا فيه حسب الدكتور سالم عبد العزيز [6] والدكتور أحمد مختار العبادي، فإنه يدل على اهتمامهم بسياسة التحصين، فاستفادوا من الحصون والأبراج القديمة التي أقامها البيزنطيون على تخوم الصحراء والسواحل، ابتداء من طرابلس شرقا إلى نوميديا غربا [7]. واستخدمها المسلمون في أغراضهم الدفاعية مثل حصون "طبنه" Tubnae وبغاية Bagai بلزمة Belezma وجلولاء وغيرها، إلى جانب مجموعة الرباطات والمحارس التي كانت حول المدن الساحلية الهامة مثل طرابلس وصفاقس وسوسة وبنزرت [8] وشرشال [9] وغيرها.

واهتم بعده الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبي (261-289هـ) كذلك بالعمارة العسكرية فبنى القلاع والأبراج والمحارس والحصون والربط على ساحل البحر، حتى كانت النار توقد من ساحل سبته للنذير بالعدو فيصل إيقادها بالإسكندرية في الليلة الواحدة. فمن صفاقس إلى بنزرت على الساحل ثمانية أيام، وفي جميع المراحل حصون متفاوتة[10] ينزلها العباد والمرابطون، حتى كان بين الإسكندرية وسبتة ألف رباط[11].

فمن حصون ومحارس صفاقس الساحلية نجد محرس بطوية ومحرس الريحانة ، وحصن ينقة وهو حصن بيزنطي قديم كان يعرف باسم ينجه Younga الذي تحدث عنه البكري[12].

وفي القرن الثالث الهجري (9م) ازدهرت حركة الرباط الساحلي على السواحل المغربية كلها. ومرد ذلك تزايد غارات الأسطول البيزنطي من قواعده في صقلية وسردانية وجنوب إيطاليا. وكان هدف هذه الأربطة تحصين السواحل

الإسلامية وشحنها بالأمراء والجند المحتسب للحيلولة بين المقاتلة البيزنطيين والنزول إلى البر.

ففي المغرب الأدنى كانت صفاقس وما يليها من السواحل محصنة بسلسلة من الربطة والمحارس ، نخص بالذكر منها بطوية الذي كان مزودا بمنار مفرط الارتفاع يرقى إليه في 166 درجة، ومنها محرس ميلة ومحرس أبي الغصن، ومحرس مقدمان، ومحرس اللوزة ومحرس الريحانة[13]. ويعتبر كتاب رياض النفوس للمالكي من أهم المصادر التي ذكرت نشوء رباطات إفريقية وتطورها خلال القرون الثاني والثالث والرابع هجري[14].

وعلى أية حال فقد تكلل نشاط هذه الأربطة بالنجاح الكبير في الذود عن السواحل الإسلامية أمام الأساطيل المعتدية. بل انطلقت منها حركة غزو وجهاد بحري امتدت إلى فتح الجزر القريبة من سواحل تونس، والتي كانت قواعد خلفية للأساطيل البيزنطية في هجومها على السواحل الإسلامية[15].

ومن تونس الأغلبية انتشرت الرباطات على الساحل المغربي كله. فقد بلغ عدد أربطة سبته وزواياها في القرن التاسع الهجري نحو من سبع وأربعين ما بين زاوية ورابطة محاذية للبحر من جانبي الشمال والجنوب، بينما بلغ عدد المحارس ثمانية عشر محرسا تمتد من سبته إلى اثني عشر ميلا من خارجها من جهة البحر وما وراء ذلك إلى بلاد الريف وطنجة[16]. وقد ذكر البكري بعض المحارس والمنارات بين مدينتي سبته وطنجة، مثل "جبل المنارة" و"مرسى اليم" الذي كان فيه سكنى ورباط[17].

وذكر ابن حوقل البغدادي (ت 367هـ) أن مدينتي سلا والرباط كانت في الأصل رباط على دولة برغواطة في تامسنا فيقول: "ومن وراء وادي سبو Sbou إلى ناحية بلد برغواطة على نحو يريد وادي سلا، وعليه تنتهي سكنى المسلمين، وهي رباط يرابط فيه المسلمين وعليه المدينة الأزلية المعروفة سلا القديمة[18] قد خربت

والناس يسكنون ويرابطون برباط يحف بها، وربما اجتمع في هذا المكان من المرابطين مائة ألف إنسان، يزيدون وينقصون، رباطهم على برغواطة وهي قبيلة من قبائل البربر على البحر المحيط متصلين بهذه الجهة التي شقت عمارة بلد إليها[19].

والمعروف أن دولة برغواطة التي امتدت حدودها على السواحل الأطلسية في نواحي مراكش وجنوبي آسفي، وكانت تملك أسطولا بحريا قويا قاعدته الرئيسية مدينة فضالة بجوار الدار البيضاء، كانت دولة مارقة. ولهذا أحاطها المسلمون بالرباطات من جميع نواحيها، فرابطوا عند سواحلها الشمالية في سلا والرباط[20].

ومن المغرب انتقل نظام الرباط إلى الأندلس، فقامت الربط على سواحله كلها خاصة منذ العهد الأموي، ولاسيما بعد غارات النورمانديين عليها في عهد عبد الرحمن الأوسط[21].(سنة 229هـ،845م)

وأهم ربطها الساحلية نذكر "المرية"[22]، ورابطة القابضة أو القبضة بجوار المرية من ناحية الشرق، ورباط عمروس ورباط الخشني، إضافة إلى الربط التي كانت في مدينة دانية Dania وغيرها.

ولاشك أن هذه الربط كانت تشكل جزءا أساسيا في البحرية الإسلامية، فكانت الحراسة مهمتها الأساسية، حتى عرف الحراس الليليون باسم السمار[23]. وقد جرت العادة أن تكون الحراسة في مراقب عالية ملحقة بالرباط، وفي أماكن مرتفعة قريبة منه لكشف سفن العدو من مسافة بعيدة. وكانت هذه المراقب أو الربط مزودة بالمناور أو المنارات. فكلما اكتشف هؤلاء السمار المرابطون عدوا في البحر مقبلا، أشعلوا النار على قمم المناور إن كان الوقت ليلا أو أثاروا فيها الدخان إن كان الوقت نهارا.

هذا إلى جانب استخدام الطبل والنفير لتحذير أهالي المدن المجاورة من غارة العدو. وكثيرا ما استعمل المرابطون إشارات نارية أو دخانية بطرق وحركات

معينة للإخبار عن حالة العدو و عدده أو جنسه وغير ذلك، وكان من الممكن إرسال تحذير عبر المغرب كله من الإسكندرية إلى سبته في ليلة واحدة[24].

وفي ذلك يقول الخطيب بن مرزوق: "إذا رفعت النيران في أعلاها ستصل في الليلة الواحدة أو بعض ليلة، وذلك في مسافة تسير فيها القوافل نحو شهرين، وفي كل محرس منها رجال مرتبون نظار وطلاع يكتشفون البحر، فلا تظهر في البحر قطعة تقصد ساحل المسلمين إلا والنفير يبدو في المحارس يتخذ أهل كل ساحل من السواحل ساحلهم"[25].

كما ذكر صاحب صبح الأعشى ما يدل على هذا بقوله: "... ولما يرفع من هذه النار أو يدخن من هذا الدخان أدلة عرف بها على اختلاف حالات رؤية العدو والمخبر به باختلاف حالاتها تارة في العدد وتارة في غير ذلك. وقد أرصد في كل منور الدبادب والنظارة لرؤية ما وراءهم وإيراء ما أمامهم"[26]. ذكر هذا عن دور الأربطة في المشرق على عهد الصليبيين، وهو لا يختلف كثيرا عما كانت تقوم الأربطة في المغرب.

نشاط الأغالبة البحري: حري بنا قبل الحديث عن نشاط الأغالبة البحري أن نلقي أضواء ولو خافتة على الأوضاع التي تكون ونمى فيها الأسطول الأغلبي. فقد شهد المغرب الإسلامي قيام إمارات مذهبية مستقلة منذ أواخر القرن الثاني هجري، أعلنت انفصالها عن الخلافة العباسية. أما الإمارة الأغلبية فكانت إمارة استكفاء تتمتع باستقلال جزئي عن العباسيين لتكون دولة ارتطام وحاجز بين الأقاليم التابعة للعباسيين في المغرب الأدنى وبين بلاد الرستميين في المغرب الأوسط والأدارسة في المغرب الأقصى.

وقد أدرك مؤسس الأسرة الأغلبية "إبراهيم بن الأغلب" أن امتداد إمارته من طرابلس شرقا حتى بجاية غربا يستلزم وجود أسطول يستطيع بواسطته حماية السواحل من غزوات الروم، وفي نفس الوقت بعث حركة الجهاد البحري في

الحوض الغربي للمتوسط بتوجيه الغارات إلى بلاد الروم. فضلا عن الاستعانة بالأسطول في إخماد الثورات الداخلية التي كانت تحتدم في طرابلس خاصة مركز الإباضية[27].

وثمة عامل آخر دفع الأغالبة إلى اصطناع سياسة بحرية في وقت مبكر، وهو المشاكل التي واجهها إبراهيم بن الأغلب في تأمين التجارة العربية في البحر المتوسط عند سواحل إمارته، ولهذا الغرض أبرم مع قسطنطين البطريق البيزنطي في صقلية معاهدة سلام مدتها عشر سنوات رغم رفض عرب إفريقية لها. لأن الاستقلال الذاتي للأغالبة كان قد رهنه هارون الرشيد (170-193هـ) مقابل دفع خراج قدره أربعون ألف دينار في العام[28]؛ وقد حرص إبراهيم بن الأغلب في تكوين قوة بحرية عظيمة على الاستفادة من توافر المواد اللازمة لصناعة السفن في إفريقية، كما أفاد من خبرات سكان سواحل إفريقية و ميولهم لركوب البحر[29].

وفي ولاية "أبي العباس عبد الله بن إبراهيم" (197-201هـ) زاد الاهتمام بالأسطول[30]، الذي قدر له أن ينمو وتزيد قوته في عهد زيادة الله[31].

وبعد فترة الفتن التي عرفتها إفريقية وطرابلس منتصف القرن الثاني هجري، فقد صاحب دولة الأغالبة نزعة دينية أدت إلى انتشار المذهب المالكي الذي يتلاءم مع الروح السائدة عند سكان هذه الأقاليم. وظهرت في البلاد التونسية طبقة من العلماء المالكية المتعبدين الزاهدين[32]. كان لهم الأثر البالغ في تذكية الروح الجهادية، انطلاقا من المرابطة في الثغور بسبب تعرض السواحل الإفريقية لغارات الروم البحرية[33]. ولا شك أن أمراء الأغالبة قد استثمروا هذا الحماس الديني للجهاد الذي صاحب نمو قوتهم البحرية للعودة إلى النشاط البحري وسياسة الفتح في الحوض الغربي للمتوسط.

وثمة مستجد آخر سيستفيد منه أمراء الأغالبة لتنفيذ مشروعاتهم البحرية. فقد كانت إمارة الأغالبة في إفريقية تابعة للخلافة العباسية في بغداد، فكان أمير

القيروان مدة خلافة هارون الرشيد يتحاشى سواحل مملكة شارلمان حرمة للعهد الذي كان بين هارون الرشيد وشارلمان.

ولكن عندما مات الرشيد سنة (193هـ/ 809م) ووقعت الحرب بين ولديه الأمين والمأمون، تخلص الأمير الأغلبي من ذلك العهد، وصارت مراسي تونس وسوسة بؤرة غزاة البحر المسلمين حيث تنطلق الغارات البحرية. وقيل أن أمير صقلية كان يشكو إلى رسول قادم من عند الأغالبة عبث القرصان على سواحله، فأجاب الرسول: نعم، منذ مات أمير المؤمنين صاروا الذين كانوا عبيدا يريدون أن يكونوا أحرارا، والذين كانوا أحرارا ولكنهم فقراء يريدون أن يكونوا أحرارا أغنياء[34]. دليل واضح على تغير السياسة البحرية الأغلبية.

يرى عزيز أحمد أن تنامي قوة الأسطول الإسلامي في البحر المتوسط هو نتيجة حتمية لتقلص القوى البحرية البيزنطية[35]. وقد ظهر هذا التقهقر البحري منذ عهد الإمبراطور "ليو الثالث الإيزوري" (717–740م)[36] الذي حط من شأن الأسطول، وواصل خلفاؤه في الحكم السياسة نفسها. مما جعل البيزنطيين يفقدون بعض مواقعهم الجزرية في حوض المتوسط، ولاسيما جزيرتي كريت (اقريطش) وصقلية إبان القرن الثالث هجري/ التاسع ميلادي.

ويبدو أن الأغالبة وعوا جيدا طبيعة المرحلة و ظروفها، والتي كانت في مجملها في صالحهم، فلم يضيعوا الوقت للشروع في تحقيق آمال المسلمين القديمة لفتح صقلية ومالطة[37] وسواحل إيطاليا وجزيرة سردانية وغيرها.

ومع أن الأغالبة كفوا لبضع سنوات عن مهاجمة مراكب البيزنطيين فإن هؤلاء أحسوا باستعدادات الأغالبة البحرية، ونقل هذه الأخبار النصارى المقيمون في إمارة بني الأغلب إلى البطريق البيزنطي في صقلية، فقام البيزنطيون بتعزيز قوتهم البحرية في الجزيرة. وبدا بذلك استعداد الطرفين لمعارك بحرية مرتقبة.

غير أن الحملة البحرية التي وجّهها شارلمان إلى صقلية، والتي هدف من خلالها أن يسبق غزوة العرب المرتقبة إليها، كما أن تحطم مراكب أسطول صغير للأغالبة بفعل عاصفة قرب جزيرة سردانية حال دون تلطخ مياه المتوسط بدماء الغزو.

وكل هذه العوامل أعادت جو علاقات المهادنة بين الأغالبة والبيزنطيين. وأبرما معاهدة صلح جديدة لمدة عشر سنوات بين الأمير "أبي العباس" والبطريق البيزنطي في صقلية "جري جوري" في سنة (197هـ/ 813م)، وتم تبادل الأسرى كما أخذ بعين الاعتبار مسألة سلامة التجار العرب في صقلية و التجار البيزنطيين في إفريقية[38].

وذكر المالكي هذه الهدنة فقال: قال سليمان بن عمران: "كنت حضرت في أيام أبي العباس (196- 201هـ)[39] في هدنة صقلية، وقد جمع شيوخ القيروان ووجوههم وكنت فيمن حضر، فكتب بين يديه كتاب الهدنة وقرئ على جماعة الناس، وكان فيه "إن من دخل إليهم من المسلمين وأراد أن يردوه إلى المسلمين كان ذلك عليهم..."[40].

ولكن اختلال موازين القوى البحرية في مياه المتوسط بين المسلمين والبيزنطيين ستضع اتفاق الهدنة في مهب الريح، بعد أن تتوفر الظروف المناسبة لذلك. فثمة أمورا مستجدة تطفو إلى السطح في عهد الأمير "زيادة الله بن الأغلب" (201-223هـ) تدفعه إلى تحريك آلته البحرية إلى فتح جزيرة صقلية سنة (212هـ/ 827م).

ولا أدل على قوة الأسطول الأغلبي أن قام سنة (189هـ/ 805م) بغارة بحرية على شبه جزيرة البيلوبونيز في بلاد اليونان، وأمد الصقالبة بالمساعدة في حصارهم مدينة "باتراس". وكان ذلك جزءا من الإستراتيجية الإسلامية للخلافة العباسية في تضييق الخناق على القسطنطينية برا وبحرا[41]. وبمقابل ذلك ضعف الموقف البحري

البيزنطي الذي لم يكن قادرا على استعادة جزيرة كريت أو حماية جزر بحر إيجه والسواحل التي تعرضت للغارات الإسلامية المستمرة [42].

غزو صقلية : وقد كان لهذا التقهقر البيزنطي وإخفاقه في مياه البحر المتوسط أمام الأغالبة دافعا قويا لغزو صقلية، ولاسيما عند استنجاد بعض رعايا بيزنطة بالدولة الأغلبية. فقد ذكر النويري[43] وابن الأثير[44] وغيرهم أن سبب إنفاذ الأسطول الأغلبي إلى صقلية، أن الإمبراطور البيزنطي "ميشيل الثاني" (820-829م) استعمل على جزيرة صقلية بطريقا اسمه "قسطنطين" الملقب بسودة سنة أحد عشر ومائتين، فلما وصل إليها عمر أسطولا وأمّر عليه إنسانا روميا اسمه "فيمي" أو إيفيميوس Euphemois، وكان حازما وشجاعا وخاصة في الحروب البحرية[45]، رفعته إلى منصب قائد بحري (طرنجار).

وسار هذا الأسطول إلى بر إفريقية فغزا سواحلها وأخذ منها تجارا ونهب وبقي مدة [46]. غير أن ما أقدم عليه فيمي من اغتصاب راهبة يقال لها "مونيزا" والزواج بها والتجاء إخوتها إلى الإمبراطور ميخائيل أد أن طلب هذا الأخير من قائد ثغر صقلية "فوتينوس" Photeinos أن يحقق في الأمر ويقوم بعزل فيمي ويعذبه[47]. هذه الرواية التي تذكرها المصادر قد لا تكون هي السبب الرئيسي في تأزم الوضع بين فيمي والإمبراطور، فقد يكون طموح فيمي السياسي والعسكري هو الذي جلب عليه سخط الإمبراطور. ولا يستبعد كذلك أن يكون فيمي هو الذي شق عصا الطاعة مغتنما فرصة أوضاع الإمبراطورية المزرية خاصة بعد ثورة "توماس" وانتصار المسلمين في اقريطش[48].

ولم يكد فيمي يعلم بالخبر عند عودته من غارة على طرابلس أصاب فيها غنائم كثيرة، حتى نزع يده من الطاعة وتوجه نحو "سرقوسة" واستولى عليها فسار إليه قسطنطين. لكن فيمي هزمه وقتله في مدينة "قطانية" التي انسحب إليها[49]. وأعلن فيمي نفسه حاكما على صقلية وصار يعين ولاته على أقاليمها ومدنها، واستعمل على ناحية من الجزيرة أحد الأرمينيين المعروف في المصادر العربية باسم "بلاطة"[50].

ولم يلبث أن خرج بلاطة عن فيمي وانحاز إلى ابن عمه "ميخائيل" حاكم مدينة "بلرم". وحشد الحليفان الجيوش وتمكنا بها من هزيمة فيمي، وقتلا من أتباعه نحو ألف رجل وتمكن بلاطة من الاستيلاء على سرقوسة.

ولم يسع فيمي بعد خروجه منهزما، إلا اللجوء إلى أمراء إفريقية الأغالبة طالبا المساعدة، حيث ذكر ابن الأثير وغيره: "وركب فيمي ومن معه في مراكبهم إلى إفريقية وأرسل إلى الأمير زيادة الله يستنجده ويعده بملك جزيرة صقلية"[51]. فكان ذلك شبيها بما حدث سنة 92هـ، عندما جاء "يوليان" حاكم سبته إلى موسى بن نصير وقال له إني مدخلك الأندلس.

غير أن واقع العلاقات كان مختلفا إلى حد كبير، ولست أدري لماذا أوعز بعض المؤرخين تردد زيادة الله في قبول العرض، هو ارتباطه بهدنة مع الروم أهم بنودها، من دخل إلى الروم من المسلمين وأراد أن يردوه إلى بلده ردوه. رغم أن معظم المصادر تذكر غارة البيزنطيين بقيادة فيمي نفسه على السواحل الإفريقية[52].

ألا تعد هذه الأعمال العسكرية على السواحل الإسلامية خرقا للهدنة ونقضا لها. أم أن هؤلاء الرواة لم يعوا مدى خطورة هذه الغارات البيزنطية على الحمى الإسلامية.

ومهما كانت أهمية العرض الذي جاء به فيمي لغزو الأغالبة صقلية، فإن هناك دوافع كثيرة لعبت دورها في تحقيق هذا الإنجاز. فالأهمية الاستراتيجية والاقتصادية لجزيرة صقلية قد جذبت إليها الفاتحين والغزاة عبر التاريخ. فهي تطل بسواحلها على حوضي المتوسط الشرقي والغربي، بحيث لا يمكن لأي قوة بحرية متنامية في البحر المتوسط أن تهمل الارتكاز عليها والسيطرة على موانئها. أما ثراءها الاقتصادي بالمنتجات الزراعية والحيوانية والمعدنية وغيرها، فقد دونه

الرحالة والجغرافيون العرب وذكروا ما فيها من زرع وضرع وفواكه بما يسيل لعاب كل متطلع إليها[53]. ولاسيما إفريقية التي افتقرت لهذه المواد.

ومن جهة أخرى يبدو أن في عهد زيادة الله بن الأغلب، كانت إفريقية تعرف نوع من الاستقرار بعد فترة من الفتن كما ذكر النويري "استقامت إفريقية وصفت بعد أن دامت الفتنة ثلاث عشر سنة"[54].

فقد قامت ثورات متعددة[55]، قام بها الجند أحيانا كادت أن تطح بملك الأغالبة، وبعضها قام في عهد زيادة الله، فغير مستبعد أن هذا الأخير أراد إشغال جيوشه التي أحست بنوع من الفراغ في حروب خارجية إبعادا للفتنة وبعثا لمشروع حركة الفتوح في حوض المتوسط.

ورغم أن المفاوضات بين فيمي وزيادة الله أفضت حسب بعض المصادر إلى أن يساعد الأغالبة فيمي على توطيد نفوذه بالجزيرة مقابل جزية يدفعها للأمير الأغلبي، فإن زيادة الله و قبل أن يرّسم قرار غزو الجزيرة[56]، أراد أن يضفي على هذه الحملة البحرية نوعا من الشرعية السياسية، حرصا منه على إشراك الجيوش البرية في حملته حتى يشغلهم بمقاتلة الروم عن التفكير في القيام عليه، وأن يضع حدا للاضطرابات التي كانت تحدث داخل الجيش بين السودان والعرب والبربر[57].

وكلل هذه الحملة من جهة أخرى بطابع الجهاد المقدس، فعقد مجلسا فقهيا لاستفتاء العلماء في عرض فيمي ودراسته. وقد ذكر المالكي النقاش الذي تم داخل المجلس وشارك فيه كبار فقهاء إفريقية آنذاك وهما القاضيان "أبو محرز وأسد بن الفرات فقال: "جمع زيادة الله الناس وأحضر أسدا وأبا محرز وسألهما عن ذلك، فأما أبو محرز فقال: "وكيف نقبل قول الرسل عليهم أو دفعهم عنهم؟ " فقال أسد: "بالرسل هادناهم والرسل نجعلهم ناقضين قال الله عز وجل: "فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون"[58] فكذلك لا نتماسك (أي نتمسك به) ونحن الأعلون. وكان فيمي قد رفع إلى زيادة الله أن عند الروم أسرى من المسلمين، فسأل زيادة الله عند

ذلك الرسل فقالوا: نعم حبسوهم لأن في دينهم لا يحل لهم ردهم قال: وكان في الرسل مسلم"[59].

ومع أن بعض الفقهاء كرهوا غزوها مادام أن الروم لم يثبت أنهم نكثوا العهد، فإن النويري قال أن هناك من الفقهاء من قال: "نغزوها ولا نسكنها ولا نتخذها وطنا، وأشار من بقي بغزوها ورغبوا في ذلك وسارعوا إليه"[60].

وبذلك استجاب زيادة الله لرغبة الجماعة ولعرض فيمي الذي هون عليه غزوها وأغزاه بها[61]. وأمّر على الحملة القاضي "أسد بن الفرات"، فجمع أسد بين القضاء ورئاسة الأسطول حيث لم يجتمع لأحد قبله[62].

وتجمعت الحملة في خليج سوسة حيث كان فيمي ينتظر بسفنه التي انضمت إليها. وتألف أسطول ابن الفرات من مائة مركب سوى مراكب فيمي[63]، عليها عشرة آلاف راجل وسبعمائة فارس من العرب والبربر وأهل الأندلس من جربه وكريت والخرسانيين، وكان بينهم فقهاء[64] ومن وجوه أهل العلم[65].

ومن سوسة أقلعت القوتان المتحالفتان صوب صقلية[66] في ربيع الأول من سنة 212هـ/ يونيو 827م، وذلك في خلافة المأمون، ولما نزلت القوات إلى البر في مازر Mazara حيث كان لفيمي بعض الأنصار. وفي أول لقاء انتصر الأغالبة وفر "بلاطة" إلى معقل قصريانة Castrogiovanni ومنه هرب إلى مقاطعة "قلورية" Calabria حيث قتل بها وغنم المسلمون الكثير من الأموال والدواب واستولوا على عدة حصون من الجزيرة[67].

واستعمل القاضي أسد بن الفرات على مازر "أبا زكي الكناني" ثم سار إلى "كنيسة المسلقين" أو "أوفيمية"، وهو يريد سرقوسة Siracuse . ولكن حليفه فيمي لم يلبث أن تنكر للمسلمين وأدرك أن الأمور أفلتت من يده وأن مصلحته لا تتفق معهم، وأخذته الحمية الدينية والقومية فاتصل بالبيزنطيين وحثهم على المبادرة

لقتال المسلمين، كما أرسل إلى أهل سرقوسة يدعوهم إلى الصمود أمام حصار أسطول الأغالبة[68].

غير أن أسد واصل زحفه على سرقوسة وحاصرها برا وبحرا مستعينا بأساطيل وإمدادات جاءته من إفريقية والأندلس وكريت، وشدد عليها الحصار حتى طلب أهلها الأمان لكن المسلمين رفضوا خوفا من غدرهم.

ويذكر Bury أن تحرج أحوال البيزنطيين في صقلية إنما دلّ على أهمية الأسطول البحري للدولة البيزنطية، ولذلك اهتم أخلاف "ميخائيل الثاني" بإعادة بناء الأسطول وتقويته[69]. وقد حاول الإمبراطور البيزنطي الاستعانة بحلفائه التقليدين في المنطقة لإجهاض الحصار، وطلب من دوق البندقية إرسال قوة بحرية لتسهم في إنقاذ مدينة سرقوسة. وعندها زحف والي بلرم في جيش كثيف نحو المسلمين.

غير أن هذه القوى المتحالفة مع البيزنطيين لم تنجح في إيقاف الحصار والحيلولة دون فتح المسلمين للمدينة، رغم قيام قوة بحرية كارولنجية من تسكانيا بمهاجمة ميناء بونة على الساحل الإفريقي محاولة منها فك الحصار على سرقوسة[70].

لكن اتخذ المسلمون التدابير الكافية لصد القوى المتحالفة، فقد خندقوا حول أنفسهم، وحفروا خارج الخندق جحورا ليتردى فيها فرسان العدو، فلما حمل الروم على المسلمين كبت الخيل وسقط منها في الحفر فقتل المسلمون أعداد كثيرة منهم[71].

وأثناء الحصار حّل بمعسكر المسلمين وباء الطاعون فمات الكثير منهم بسببه ومنهم القاضي أسد بن الفرات فمات بصقلية ولم يستكمل فتحها[72]. وذلك سنة 214هـ حسب أبي عرب، و في نفس الوقت جاءت الإمدادات من القسطنطينية والبندقية لمؤازرة المحاصرين في سرقوسة[73]. كما فقد المسلمون مساعدة فيمي بعد أن لقي مصرعه بيد بعض أهل جزيرة صقلية من أنصار الإمبراطور قرب مدينة قرصيانة[74] الواقعة في الشمال الغربي من صقلية.

وولى المسلمون على أنفسهم بعد أسد بن الفرات "محمد بن أبي الجواري" الذي حاول مواصلة الحصار والتضييق على سرقوسة، لكن أرسلت الحكومة البيزنطية في هذه الآونة أسطولا كبيرا وعساكر من البر لنجدة أهل صقلية وإعادتها إلى الحظيرة البيزنطية، فعزم المسلمون على العودة إلى إفريقية ورحلوا عن سرقوسة وأصلحوا مراكبهم وركبوها، فوقفت مراكب الروم على المرسى الكبير ومنعوهم من الخروج فأحرق المسلمون مراكبهم ورحلوا إلى حصن "مناو" وتحصنوا فيه.

ووصل جيش كبير من القسطنطينية مددا لمن في الجزيرة، وظلت الحرب بين المسلمين و الروم سجالا توفي خلالها "محمد بن أبي الجواري" سنة 214هـ. وولى المسلمون بعده "زهير بن برغوث" (أو ابن عوف حسب ابن خلدون) وكانت بينه وبين الروم حروب كثيرة. لكن الروم تمكنوا من حصر المسلمين في "ميناو" حتى ضاقت عليهم الميرة فأكلوا الدواب والكلاب وأشرفوا على الهلاك.

ولم يتمكن المسلمون فك الحصار إلا بمساعدة من الأسطول الأندلسي، حيث قدم "أصبع بن وكيل الهواري" المعروف باسم (ابن فرغلوش) في مراكب كثيرة[75] من الأندلس ووصلت في نفس الوقت سفنا كثيرة من إفريقية مددا بقيادة "سليمان بن عافية الطرطوشي". ويبدو أنه حدث اتفاق بينهما على أن ينزل قرصان الأندلس جزيرة صقلية لنصرة جندها وفتح مدنها والقضاء على حكم المسيحية فيها، مقابل أن تكون إمارتها "لأصبع بن وكيل"[76].

ومهما يكن فإن هذا الحادث يستوقفنا لملاحظة أن القوى البحرية الإسلامية كانت لها السيطرة في الحوض الغربي للمتوسط في هذه الحقبة، لكن دون أن يوجد تنسيق بينها. وهذا يبين غياب إستراتيجية واضحة المعالم لديها في تثبيت سيطرتها على هذا الحوض، بقدر ما كانت عبارة عن غزوات بحرية متقطعة بحسب الحاجة إلى إظهار الهيبة الإسلامية في مياه المتوسط تحقيقا لمكاسب مادية وأهداف سياسية فحسب.

المهم فقد أعطت هذه المساعدة الأندلسية نفسا جديدا لنشاط الأسطول الأغلبي، فوطد نفوذه في جنوب الجزيرة كلها، وتمكن الأغالبة من فتح مدينة "بلرم" بعد حصار طويل دام خمس سنوات ما بين (215–220 هـ) واتخذوها عاصمة لهم ومنها توسعوا في الأرجاء المتبقية للجزيرة[77]، وصارت صقلية تابعة للأغالبة، بينما انحصر الروم في الناحية الشرقية من الجزيرة حوالي مدينة قطانيا، وتحصنوا في خط دفاعي على شكل مثلث يمتد من الشرق إلى الجنوب الغربي من مسينا إلى قصريانة ثم يرجع من قصريانة نحو الجنوب الشرقي إلى مدينة نوتو[78].

ولما تولى "أبو الأغلب إبراهيم بن الأغلب" (221–236هـ) ولاية صقلية نشط نشاطا كبيرا في الغزو البحري بعد أن أيقن أن القضاء النهائي على المقاومة الرومية فيها تستدعي قطع مصادر تمويلهم وقهر الأسطول البيزنطي الذي يمدهم كل مرة بما يحتاجونه من مؤونة وسلاح[79].

وقد حقق الأسطول الأغلبي تفوقا بحريا هاما سجلت وقائعه مصادر التاريخ فذكر ابن الأثير: "أنه سنة 211هـ، جهز أبو الأغلب أسطولا فثاروا نحو الجزائر فغنموا الغنائم العظيمة وفتحوا مدنا ومعاقل، ثم كانت وقعة أخرى بين الروم والمسلمين فانهزم الروم وغنم المسلمون منهم تسعة مراكب كبار برجالها و شلنديين... وفي سنة 223هـ وصل كثير من الروم في البحر إلى صقلية وجرى بينهم وبين الروم الواصلين حروبا كثرة..."[80].

وامتد نشاط الأسطول الأغلبي إلى جنوب إيطاليا، ونزل المسلمون أرض قلورية Calabria واستولوا على مدينة طارنطة Tarente واتخذوها مركزا لأعمالهم البحرية. ومنها وصلت غزواتهم البحرية حتى مصب نهر بو في شمال إيطاليا. وانتظم أمرهم بتلك البلاد واتخذوا مدينة باري عاصمة لإمارتهم التابعة رأسا لبلاط الأغالبة في القيروان، ومنها أرسلوا الحملات البرية والبحرية إلى روما وتمكنوا من أرباضها وبعض قلاعها.

لكن في سنة (238هـ/ 853م) أعلن "مفرج بن سليمان" انفصاله عن الأغالبة بجنوب إيطاليا مؤسسا إمارة باري المستقلة، والتي كانت لها حروب حامية الوطيس مع الإمارات الإيطالية في الجنوب، كما تمكنت بفضل سفنها البحرية من صد الأسطول البيزنطي عن استرجاع البلاد[81].

وظل الصراع البحري بين الأغالبة و البيزنطيين سجالا. ومن أهم المعارك البحرية بينهما تلك التي وقعت سنة 254هـ/ 868م في مياه المتوسط على سواحل سرقوسة حيث اختلطت صواري المسلمين بصواري النصارى الروم والتحمت نيران المعركة التي أسفرت عن هزيمة الروم و انسحابهم[82].

فتح مالطة: أما جزيرة مالطة منذ أن استولى عليها الروم سنة 533هـ،كانت معقلا من معاقلهم في البحر المتوسط وحلقة وصل بين ممتلكاتهم في الشرق ومطامعهم في الغرب[83]. ولهذا رأى الأغالبة أنه لا يمكن إبعاد الروم نهائيا عن صقلية وإفريقية إلا بإخضاع قاعدتهم المتقدمة في المتوسط وهي مالطة، لأن من ملكها هيمن على الحوض الغربي للمتوسط بأسره.

ويبدو أن الروم لم تكن لهم السيطرة الكاملة على مالطة أو كانت هناك ثورة قائمة ضدهم، فاستغل الأسطول الأغلبي تلك الظروف بدليل ما ذكره ابن الأثير أنه لما سير "محمد بن أبو الغرانيق"[84] الذي كان أميرا على إفريقية سنة ست وخمسين[85] ومائتين الأسطول إلى مالطة التي كان الروم يحاصرونها فلما سمعوا بمسيرهم رحلوا عنها.

المهم أن الأسطول الأغلبي خرج من إفريقية بقيادة "أحمد بن عمر بن عبد الله بن الأغلب" واستولى على جزيرة مالطة بعد أن دحر الأسطول البيزنطي[86]. وبفتحها تم للمسلمين السيطرة على المضايق الواقعة بين صقلية وإفريقية مما مكنهم الإشراف على جزء هام من البحر المتوسط[87]. وأنشأ فيها الأغالبة دار لصناعة السفن لكثرة أشجار الصنوبر بها[88]، وأصبحت على هذا النحو قاعدة بحرة هامة

للأغالبة في المتوسط. ونظرا لأهمية مالطا الإستراتيجية فقد حاول الروم البيزنطيون استرجاعها، حيث أرسل الإمبراطور البيزنطي سنة 257هـ/ 870م أسطولا ضخما من أجل ذلك، لكن النجدات البحرية الإسلامية وصلت في الوقت المناسب فلاذ الأسطول البيزنطي بالفرار، وهكذا استمر سلطان المسلمين في مالطة إلى أن استخلصها النورمان بعد 220سنة من الوجود الإسلامي وبعد أن دحروا آخر مقاومة إسلامية في جزيرة صقلية عام 1090م.

ونستشف من مصادر هذه الحقبة أن السواحل التونسية كانت آمنة بما فرضه الأسطول الأغلبي من سيطرة وهيبة[89] تحت علم الخلافة العباسية، ليس هذا فحسب بل طالت الحملات البحرية الأغلبية السواحل الجنوبية لأوربا، ولهذا أمر شارلمان ببناء الأبراج والحصون في السواحل وعند مصب الأنهار وأنشأ الأساطيل لدفع عوادي الغزاة.

وفي أيام لويس الحليم أو التقي بن شارلمان (814-840)[90] ازداد عبث الغزاة المسلمين من إفريقية والأندلس بالسواحل الفرنسية والإيطالية في الوقت الذي كان قرصان النورمان يغيرون على سواحل فرنسا وألمانيا وإنجلترا وإسبانيا. وقد عيل صبر "بونيفاس" أمير كورسيكا وأرسل مراكب إلى إفريقية فاجتاحت ساحل قرطاجنة للأخذ بالثأر[91].

ولكن بعد مقتل الأمير الأغلبي في صقلية "خفاجة بن سفيان" (248-255هـ/ 862-868م) الذي فتحت في عهده جزيرة مالطة، ومقتل ابن محمد الذي تولى بعده (255-257هـ/ 868-870م)، انفتحت أبواب فتنة عمياء كانت وراء تقهقر النشاط البحري الأغلبي[92]. وذلك بسبب الضعف الذي عرفته الدولة الأغلبية. لاسيما في عهد إبراهيم بن الأغلب (261-289هـ) الذي اتبع سياسة دموية جعلته يولي ويعزل حسب أهوائه[93].

وأهم مظاهر هذا الضعف تلك النكبة البحرية التي مني بها الأسطول الأغلبي سنة 260هـ بقيادة والي صقلية "الحسين بن رياح" عندما سير سفنه غازيا فلقي أسطولا للروم مؤلفا من 140 سفينة، وبعد قتال شديد تغلب أسطول الروم وترك المسلمون سفنهم ومتاعهم غنيمة للعدو ورجعوا عن طريق البحر منهزمين[94].

ورأى الروم أن اختلال الإدارة واضطراب البلاط الأغلبي فرصة مناسبة لتحقيق انتصارات بحرية واستخلاص جزيرة صقلية من المسلمين. فأرسلوا حملة بقيادة البطريق نقفور Nicéfors فأخذ من المسلمين عدة قلاع ومدن في صقلية منها مدينة سبرينة Santa severina ومدينة منتية Amentia واشتد الخوف يومئذ على صقلية التي بدت مخالب الروم واضحة هذه المرة للانقضاض عليها[95].

وطلب أهل صقلية من الحكم الأغلبي في القيروان "إبراهيم بن الأغلب الثاني" أن يرسل ابنه "أبا العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب" واليا على صقلية. وقد اعتقدوا أن ذلك سيساهم في استقرار الأوضاع البحرية في صقلية، لأن الوالد لا يعزل ولده في مدة وجيزة ولا يبخل عليه بنجدة أو مدد فتستقر بذلك الإدارة ويستقيم أمر الجهاد.

وأصبح بذلك أبو العباس بمثابة نائب الأمير الأغلبي في صقلية، واتجه أولا إلى إعادة النظر في أمر الأسطول وتجهيزه من جديد. واستطاع أن يحقق انتصارا بحريا هاما ضد الروم (سنة 275هـ/ 889م) في معركة فاصلة دامت عدة أيام، ثبت خلالها المسلمون ثباتا مكنهم آخر الأمر من الغلبة والفوز، وكانت كارثة الروم هائلة وفظيعة قتل منهم سبعة آلف وغرق خمسة آلاف واضطر الباقون إلى إخلاء مراكزهم المتقدمة وما استولوا عليه من قلاع ومراكز المسلمين أثناء السنوات السالفة[96].

وكرر أبو العباس الغزو سنة 288هـ إذ عمر أسطوله وغزا دمنش وحاصرها أياما، ثم مضى إلى مسيني ومنها إلى ريو Réggioحيث تجمع عدد كبر من الروم

البيزنطيين، فاستولوا عليها بالقوة، ثم عاد إلى مسيني فوجد بها سفنا بيزنطية وصلت من القسطنطينية فاستولى منها على ثلاثين مركبا[97].

وفي ربيع الأول سنة 289هـ تخلى الأمير إبراهيم بن أحمد لابنه والي صقلية على الأمر وهو أبو العباس. واستنفر الناس و دعاهم إلى الجهاد وقاد الأسطول الأغلبي في غزوات بحرية فتح من خلالها طبرمينTaoramina [98] وهي من أمنع مراكز الروم وأعز قلاعهم بعد سقوط سرقوسة، ثم هاجم المسلمون رمطة ولياج (وهي معقل آخر للروم شرقي صقلية)[99] فدخلوها و غنموا كل ما فيها من مال ومتاع[100]. وكان إبراهيم بن الأغلب ينوي مواصلة غزواته البحرية إلى أرض قلورية ومنها إلى نابولي في جنوب إيطاليا، وبدأ العبور إليها في رمضان سنة 289هـ بعد أن جمع قواته البحرية في مسيني لكن المنية عاجلته وهو يحاصر قلعة كسنتة Cosenza الواقعة بالقرب من خليج طارنت.[101] وهكذا فتحت جميع قلاع و مدن صقلية في العهد الأغلبي.

في هذه الفترة كانت الدعوة الإسماعيلية الشيعية بقيادة عبد الله الصنعاني تنتشر في المغرب الأوسط بين أفراد قبيلة كتامة، فشكلت عاملا أساسيا لتقلص النشاط البحري الأغلبي وانهيار دولة الأغالبة سنة 296هـ.

أما الوضع في صقلية فبعد موت إبراهيم بن الأغلب استولى ابنه أبو العباس على الملك وأرسل ابنه زيادة الله ممثلا له بالجزيرة، لكن هذا الأخير كان كثير اللهو والشرب فعزله أبوه واستقدمه إلى القيروان وسجنه.

وولى الناس عليهم في صقلية "محمد السرقوسي" الذي توفي سنة 290هـ فاختاروا "علي بن محمد" واليا عليهم و أرسلوا إلى الأمر زيادة الله في ذلك فامتنع عن المصادقة وأرسل من قبله واليا جديدا على صقلية وهو "أحمد بن أبي الحسن" فقبلوه على مضض. وعندما بلغ أهل صقلية انهيار دولة بني الأغلب وفرار زيادة الله آخر ملوكها إلى مصر. ثاروا على أحمد بن أبي الحسن فحبسوه وأعادوا إلى الولاية "علي بن محمد" وذلك يوم 10 رجب 296هـ/ 908م.

وأرسلوا إلى أبي عبد الله الشيعي يطلبون إليه المصادقة عليه ويعلنون الانضمام للدعوة الفاطمية، فصادق عليه العبيديون مؤقتا ريثما يستتب لهم الأمر وتدين لهم سائر البلاد بالطاعة والانقياد. وعندما تم لهم ذلك استقدموا "علي بن محمد" إلى إفريقية وأرسلوا من قبلهم أول والي لهم على الجزيرة وهو "الحسن بن أحمد"[102] وبذلك أصبحت صقلية تابعة للحكم الفاطمي من جديد.

وخلاصة الموضوع فإن نشاط الأغالبة في البحر المتوسط كانا كيرا وحافلا بالنجاحات ودورهم في حماية السواحل الإفريقية والتوسع في جزر البحر المتوسط ولاسيما صقلية كان مهما جدا، في هذه المرحلة التي كان فيها الأسطول الأندلسي يبذل جهدا معتبرا في تأمين السواحل الأندلسية والعمل للسيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط، ولكن بقدر ما بين ذلك أهمية القوى البحرية الإسلامية وتفوقها على البحرية البيزنطية، بقدر ما بين ضعف التنسيق بين هذه القوى الإسلامية إلا في حالات قليلة كما حدث عندما دعم الأسطول الأندلسي الأسطول الأغلبي في صقلية. ودل ذلك على غياب إستراتيجية إسلامية موحدة في البحر المتوسط، وسيزيد هذا الضعف في المراحل القادمة لتحول إلى صراع حقيقي بين القوى الإسلامية لاعتبارات مذهبية وسياسية. كما سنبينه في القادم إن شاء الله.

الهوامش:

[1] محمد الأمين بلغيث (محمد الأمين) الربط بالمغرب الإسلامي و دورها في عصري المرابطين و الموحدين (رسالة ماجستير) معهد التاريخ جامعة الجزائر 1987/09/30م.ص 41

[2] البكري (أبو عبيد الله) (تـ487هـ/1094م) المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، طبعة حجرية، مكتبة المثنى بغداد، د ت ط ص 36

[3] سالم (السيد عبد العزيز) و العبادي (أحمد مختار) تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية للطباعة و النشر بيروت 1969،ص 41

[4] السراج (الوزير محمد بن محمد الأندلسي)(تـ 1149هـ) الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تقديم و تحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط2 دار الغرب الإسلامي بيروت 1985، ص 297

[5] ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد)(تـ 808هـ/1405م) العبر و ديوان المبتدأ و الخبر- تاريخ العلامة ابن خلدون-، طبعة دار الفكر دمشق 1988، ج4 ص 435

6 سالم (السيد عبد العزيز) المغرب الكبير – العصر الإسلامي- دار النهضة العربية بيروت 1981، ص449

[7] محمد الأمين بلغيث : الربط ، ص 50

[8] أحمد مختار العبادي : العبادي (أحمد مختار) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية للطباعة و النشر و التوزيع د ت ط.، ص 292 . و راجع *Georges Marsais ; L'architecture Musulmane d'occident , Paris 1954 p 29 , 30*

[9] *Lucien Golvin ; Note sur le mot ribat (terme d'Architecture et son interprétation en Numéro 6 .occident musulman, Revue de l'occident musulman et e la Méditerranée 1er et 2e Semestres 1969, p 99.*

[10] ابن خلدون ، ج4 ص 435

[11] محمد الأمين بلغيث : الربط ، ص 50

[12] و يوجد بالقرب من هذا الحصن قبر أبي خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي، و يسميه أهالي تلك الناحية سيدي عنبسة،و كان هذا الرجل من الأخيار الصالحين الذين درسوا على الإمام مالك بن انس بالمدينة ثم أقام في هذا الحصن مرابطا مجاهدا إلى أن مات سنة 210هـ/ 825م .راجع رياض النفوس ، ج1 ص – ص 241 – 247 . و ذكر عنه أنه كان يقول (ثلاثة لكل واحد منهم ملك موكل به ينسيه ، النفساء و راكب البحر و حامل الجنازة) رياض النفوس، ج1 ص246

[13] البكري : المغرب ، ص20 ، و تاريخ البحرية ، ص ص 42 43

[14] راجعالمالكي (أبي بكر عبد الله بن محمد) (عاش في القرن الخامس الهجري) رياض النفوس فطبقات علماء القيروان إفريقية و زهادهم و نساكهم و سير من أخبارهم و فضائلهم و أوصافهم، تحقيق بشير البكوش راجعه محمد العمروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي ط1403هـ/1983م،ج1

[15] حسن(أحمد محمود) قيام دولة المرابطين- صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى- دار الفكر العربي القاهرة 1956، ص 129 . و بلغيث : الربط ص 50

[16] تاريخ البحرية ، ص 43

[17] البكري : كتاب المغرب ، ص 105

[18] المعروفة باسم شالة ***Chella*** و لا زالت آثرها باقية إلى اليوم ضواحي مدينة الرباط .

[19] ابن حوقل : صورة الأرض ، ليدن 1872 ، ص 56

[20] أحمد مختار العبادي : دراسات ، ص 265

[21] نفسه ، ص 266

[22] يرى دوزي ***Dozy*** أن هذه التسمية مشتقة من فعل رأى ، فهي مرئية أو مرية ، كناية عن ظهور أبراجها و مناورها التي تراها السفن من بعيد . راجع العبادي :دراسات ن ص 260

[23] ابن عذاري (أبو العباس أحمد) البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب (قسم الموحدين)، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني و آخرين، طبعة الرباط 1985ج4 ص 421 . القلقشندى (أبو العباس أحمد بن علي) (تـ821هـ/1418م) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق وتعليق نبيل خالد الخطيب، ط1 دار الكتب العلمية بيروت لبنان 1407هـ/1987م ، ج5 ص 217

[24] العبادي : دراسات ، ص 302

[25] الخطيب بن مرزوق : نخب من كتاب المسند الصحيح في مآثر مولانا أبي الحسن ن نشره ليفي بروفنسال في مجلة ***Hespéris*** العدد الأول سنة 1925 ص 20 و ما ليها .

26 صبح الأعشى ، ج 1 ص 398 . و انظر العبادي : دراسات ، ص 303

27 تاريخ البحرية: ص 99

28 عزيز أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية ، د ت ط ، ص 112

29 سالم عبد العزيز: المغرب الكبير، ج2 ص 374

30 عزيز أحمد: تاريخ صقلية، ص 12

31 عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ج2 ص 374.

32 راجع الجزء ا لأول من رياض النفوس

33 تاريخ البحرية ، ص 100

34 شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ، ص 141

35 تاريخ صقلية الإسلامية ، ص 13

36راجع سياسة ليو الثالث، عند العريني (السيد الباز) الدولة البيزنطية (323-1081هـ)، دار النهضة العربية بيروت 1982، ص 186 ،

37 محمد كرد علي : الإسلام و الحضارة العربية ، ج2 ص ص 228 429

38 عزيز أحمد : تاريخ صقلية الإسلامية ن ص12

39 البيان المغرب ، ج1 ص ص 295 296

40 رياض النفوس ، ج1 ص270

41 – *Lewis, A R : naval power and trade in Mediterranean A D 500 – 1100 Princetion 1954 p 105*

42 العريني : الدولة البيزنطية ، ص *268*

43 النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) (*677-733*هـ) نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق حسن نصار وعبد العزيز الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة *1403*هـ/*1983*، ج*24* ص *355*

44 ابن الأثير(عز الدين أبو الحسين علي بن أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الجزري الشيباني) (*630*هـ/*1232*م) الكامل في التاريخ، طبعة دار الفكر بيروت *1978*. ونسخة دار الكتاب العربي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري *1417*هـ/*1997*م، *5* ص *186*

45 فازلييف : العرب و الروم ص*64* . و العريني : الدولة البيزنطية ، ص*270*

46 الكامل ، ج6 ص *186*

47 نهاية الأرب ، ج24 ص 355

48 فازييف : المرجع السابق ، ص 68

49 الكامل ، ج6 ص 187

50 نهاية الأرب ، ج 24 ص 355

51 الكامل ، ج6 ص 187

52 راجع ياقوت الحموي : الحموي (أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله)(تـ 626هـ): معجم البلدان، دار الفكر بيروت د ن ط، ج3 ص 417 . و النويري ، ج24 ص 354 . و ذكر ابن الأثير ((فعمر قسطنطين أسطولا وسيره إلى بر إفريقية و ولى عليه فيمي الرومي ، و كان مقدما من بطاركتها ، فاختطف من بعض سواحلها تجارا وبقي مدة)) الكامل ج5 ص 186

53 ذكر البكري : ((أنها كثيرة الزرع و الضرع و الفواكه)) المغرب دار الفكر ،ط 1978ص 213 . و ذكر الإدريسي: ((أن المياه بجميع جزيرة صقلية مخترقة ، و عيونها جارية متدفقة ، و فواكهها و مبانيها و منتزهاتها كثيرة حسنة رائعة)) ص 23 . و الحميري ، ص 147

54 نهاية الأرب ، ج 24 ص 114

55 مثل ثورة عمر بن معاوية القيسي في القصر سنة 208هـ ، و ثورة منصور الصنبذي بتونس في سنة 209هـ ، و ثورة بن نافع الأزرق بسبيبة سنة 201هـ . راجع تفاصيل هذه الثورات في تاريخ المغرب الكبير لعبد العزيز سالم ج2 ص 417

56 ابن الأثير :الكامل ، ج5 ص 187

57 عثمان فتحي : الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ، القاهرة 1967 ، ج2 ص 190

58 سورة محمد : آية35

59 رياض النفوس :ج1 ص ص 270 ، 271

60 نهاة الأرب ، ج24 ص 355

61 معجم البلدان ، و تاريخ البحرية ، ص 104

62 رياض النفوس ، ج1 ص 271

63 نهاية الأرب ، ج 24 ص 356

64 الباز العريني : الدولة البيزنطية ، ص 271

65 رياض النفوس ، ج1 ص 271

66 رحلة التجاني ، ص 27

67 الكامل في التاريخ ، ج5 ص187 . و نهاية الرب ، ج24 ص 356

68 نهاية الرب ، ج24 ص 357

69 *Bury J B : Ahistory of the later roman empire 2vols london 1923 p 301*

70 الباز العريني : الدولة البيزنطية ، ص 272

71 تاريخ البحرية ، ص 108

72 أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني : طبقات علماء إفريقية و تونس ، تحقيق علي الشابي و نعيم حسن الباني ، الدار التونسية للنشر تونس ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط2 1985 ص 165

73 ذكر النويري أنه توفي في شعبان 213هـــ، أما ابن عذاري فذكر وفاته في سنة213 هـــ

74 الدولة البيزنطية ، ص 273

75 ابن الأثير : الكامل ، ط 1978 ، ج 5 ص 188

76 أحمد توفق المدني : المسلمون في جزيرة صقلية و جنوب إيطاليا ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، *SNED* الجزائر 1365 هـــ ص 64

77 ذكر النويري أنه بعد فتح بلرم :(.. استأمنت قلاع كثيرة من قلاع صقلية ، منها جرصة *Geragia* و قلعة البلوط *Calla bellota* و ابلاطنو *platani* و قلعة قرلون *Carleone* و مرناو *Morinéo*) نهاية الأرب ، ج 24 ص 360

78 أحمد توفيق المدني : المسلمون في جزيرة صقلية و جنوب إيطاليا ، ص 67

79 نفسه : ص 71

80 ابن الأثير: الكامل ، ج5 ص 189

81 تمكن مفرج بن سليمان من محاربة الإمارات الإيطالية ، و تمكن من السيطرة على مدينة أوترنت *Otrente* ومدينة *كالياري carigliari* وحاصر مدينة قابو*Capone* و بذلك دانت له اغلب المناطق الجنوبية لإيطاليا . راجع أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 72

82 أحمد توفيق المدني :المرجع السابق ، ص 80

83 نفسه ، ص 81

84 ((يكنى بأبي الغرانيق لأنه كان مشغوفا بصيد الغرانيق (جمع غرنوق وهو طائر مائي طويل القوائم يدعى الكركي) وقد بنى قصرا في السهلين صيد الغرانيق انفق فيه ثلاثين ألف دينار و ثلاثين ألف مثقال من الذهب)) راجع نهاية الأرب:ج24 ص126 ، و البيان المغرب ، ج1 ص 150.

85 ذكر ابن عذاري فتحها سنة 255هـ (ج1 ص124 و كذلك صاحب مآثر الأناقة (ج1 ص248)،في حين ذكر النويري و ابن الأثير أن فتحها كان سن 256هـ .

86 نهاية الأرب ،ج24 ص 127

87 أرشيبالد لويس : أرشيبالد (لويس) القوى البحرية و التجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى ومراجعة محمد شفيق غربال، طبعة القاهرة 1981، ص 217

88 البكري : المصدر السابق ، ص 225

89 ذكر النويري: مما يبين قوة الأسطول الأغلبي و ما فرضه من أمن على سواحلها ((أن الأمير الأغلبي أبي الغرانيق مرة سكر و هو بمدينة سوسة و قد ركب البحر حتى صار إلى جزيرة قوصرة ، فلما ذهب عنه السكر انصرف)) نهاية الأرب ، ج 24 ص 127

90 سعيد عبد الفتاح عاشور: تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية ن بيروت ، ص 170

91 أرسلان (شكيب): تاريخ غزوات العرب، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه مصر 1352هـ ، ص 149

92 أحمد توفق المدني : المرجع السابق، ص ص 82 83

93 كما تولى خلالها على صقلية عدد من الولاة لم يستقر لهم الوضع . أهمهم رياح بن يعقوب (توفي سنة 258هـ) وابنه الحسين بن رياح (ت264 هـ) و الحسن بن عباس و محمد بن الفضل و الحسين بن أحمد (ت 271) و سوادة بن محمد بن خفاجة و محمد بن الفضل . راجع تاريخ البحرية ، ص 117

94 أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 88

95 نفسه ، ص 90

96 أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص 90

97 تاريخ البحرية ، ص 118

98 و كان فتح المسلمين لهذا المعقل المنيع أسوأ وقع في العالم المسيحي، و اهتزت له البلاد الرومية بأسرها و أعلن الإمبراطور من القسطنطينية الحداد سبعة أيام لم يضع فيها على رأسه تاج الملك .أحمد توفيق: الرجع السبق، ص 96

99 شرقي صقلية يقع جنوب طبرمين و بالقرب من بركان أثينا و قطانية . راجع الحميري ص 141

100 ابن الأثير : الكامل في التاريخ ن ج ص 242

101 ابن خطيب (لسان الدين أبوعبد الله محمد السلماني) (776هـ/1374م) كتاب أعمال الإعلام من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام(أو تاريخ إسبانيا الإسلامية)، تحقيق وتعليق النص بروفتسال، دار المكشوف بيروت آذار 1956، ج3 ص 125 . والنويري : نهاية الأرب ، ج24 ص 138

102 أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ن ص 106.

إسهام الدايات في وقف المساجد بمدينة الجزائر
(1671-1830م)
"دراسة لبعض النماذج"

أ. يوسف أمير
قسم التاريخ جامعة الجزائر 2

تعتبر ظاهرة الوقف من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية، التي دعا إليها الدين الإسلامي، فهو نظام قديم أصيل يستمد من القرآن الكريم إطاره العام، وأصوله المباشرة من السنة النبوية الشريفة[1].

عرف نظام الوقف تطورا كبيرا في الجزائر خلال العهد العثماني، حيث رسخه الحكام الأوائل وسار عليه سائر الحكام بعدهم، فقد عرفت كل المدن الجزائرية الوقف كتنظيم له إجراءاته الخاصة وهياكله المنظمة ومؤسساته المتميزة حيث تكاثرت الأوقاف بشكل مثير للانتباه، وأضحت مؤسسة الأوقاف بوجه عام إحدى المؤسسات الهامة من حيث إسهامها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، بل والإدارية أيضا، وأضحى تسيير الحواضر (المدن) مرتبطا أشد ارتباط بها.

تكمن أهمية الوقف في الإدارة الحضرية، إذ كان له دور كبير في تسيير المرافق العمومية كالمساجد والعيون والثكنات، بالإضافة إلى مساعدة الفقراء والمحتاجين والطلبة والمدرسين (المعلمين).

وللتنبيه لهذه الأهمية نستند إلى ما ذكره أومرا Aumerat عن الإدارة الفرنسية عشية استيلائها على المدينة سنة 1830م، أنها بفضل المؤسسات الوقفية القائمة وقتذاك، لم تكن في حاجة للبحث عن مداخيل لتسيير قطاعات عدة [2]، بمعنى آخر أن مصاريف صيانة المساجد والمقابر والمرافق العامة، لم تكن تتحملها الإدارة الفرنسية، وإنما كانت على عاتق وكلاء مؤسسات الأوقاف المختلفة.

والوقف نوعان وقف خيري (عام) ووقف ذري (أهلي)، أما بالنسبة للوقف الخيري فهو الذي يعود انتفاعه مباشرة على الجهة الخيرية، قد تكون مدرسة مسجدا، زاوية، عامة المسلمين أو أي مؤسسة خيرية[3]؛ أما الوقف الذري، فهو الذي يوقف في ابتداء الأمر حسب المذهب الحنفي على نفسه، ثم على جهة أخرى قد تكون من أفراد عائلته أو خارجا عنها، ويجعل آخره لجهة خيرية بعد انقطاع نسل صاحب الوقف[4].

لقد توزعت الأملاك المحبسة من قبل الدايات على عدة مؤسسات وقفية وجهات خيرية كانت قائمة بالجزائر وقتئذ، كأوقاف الحرمين الشريفين وأوقاف الجامع الأعظم وأوقاف سبل الخيرات وأوقاف العيون وأوقاف الجند والثكنات، حيث تندرج مقاربتنا في توضيح الإشكالية المتمثلة في الدور الذي لعبه الوقف في حركية مجتمع مدينة الجزائر، خلال الفترة الممتدة ما بين (1671-1830م).

سنخصص هذه الدراسة، للمساجد المستفيدة من مردود الوقف الخيري، الذي يرجو صاحبه من وراء وقفه فعل الخير ونيل الثواب، كما تذكره الوثائق بين طياتها[5]، نذكر على سبيل المثال: "... أشهد الآن، أن ابتياعه للدار المذكورة بقصد نية سنية ومساعٍ متقبلة إن شاء الله مرضية بناء مسجد بمكان الدار للصلاة، تقبل الله منه الأعمال وبلّغه في الدارين غاية السؤال..."[6]، وأيضا "... أشهد الآن شهيديه على نفسه الكريمة لما جلبت عليه طبيعته من التقرب إلى الله سبحانه وتعالى والتزلف إليه بالأعمال الصالحات، حبّس ووقف لله تعالى على المسجد..."[7].

المساجد المستفيدة من أوقاف الدايات:

تعتبر المساجد بيوت الله فوق الأرض، فهي أماكن عبادة مقدسة، أمرنا الله تعالى ورسوله الحفاظ عليها والاعتناء بها لقوله صلى الله عليه وسلم "من بنى مسجدًا لله بنى الله له في الجنة مثله"[8]. فكانت المساجد في القديم بناؤها والاعتناء بها من مصاريف ونفقات المؤمنين والمحسنين، طمعا في الأجر والثواب وليست على عاتق الدولة، وهذا ما لاحظناه أيضا في الجزائر خلال العهد العثماني، تعدد المساجد وكثرتها، إضافة إلى ذلك خصصت لها أوقافا تنفق عليها وتتكفل بتسييرها بصفة منتظمة ومهيكلة.

لقد ذكر العديد من المؤرخين الذين زاروا الجزائر، كثرة عدد مساجدها وجمال هندستها، حيث يذكر المؤرخ الإسباني هايدو Haedo أنه في أواخر القرن السادس عشر، كان يوجد بمدينة الجزائر وحدها مائة مسجد (كبير وصغير) يُسيّر من طرف المرابطين[9]، ونظرا لنمو وتطور ظاهرة الوقف خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، واهتمام الجزائريين بهذه المؤسسات وخاصة فئة الحكام، أصبحت تشتمل على عدد لابأس به من المساجد ومراكز التعليم، حيث يذكر دوفول Devoulx أنه مع نهاية الحكم العثماني كان يوجد بمدينة الجزائر 166 مؤسسة دينية، 13 مسجدا كبير و109 صغير، و32 ضريحا و12 زاوية[10]. وحسب التقرير الذي قدمته الإدارة الفرنسية سنة 1836م، كان يوجد 103 مسجد[11]، وفي تقارير أخرى في نفس الفترة، تذكر بأنه يوجد 102 أو 103 مسجد[12].

ومن خلال هذه الأرقام، نستطيع القول أن هذه المساجد هي ثمرة النشاط الذي عرفته الجزائر خلال القرنين السابقين، من بناء المساجد وتجديدها وترميمها والحفاظ عليها[13]، والدليل على ذلك أن معظمها بقي قائما إلى غاية الاحتلال الفرنسي سنة 1830م.

أما بالنسبة لدراستنا هذه، فإن اهتمام الدايات بهذا المعلم الديني والتاريخي يصوره لنا عدد العقارات المحبسة على المساجد، فقد حظيت بعدد كبير من أوقافهم، بلغ عددها 85 عقارا في الفترة مابين 1087-1242هـ/1676-1826م، وهو ما يمثل 40,28٪ من العدد الإجمالي للأملاك الموقوفة من قبل الدايات[14]، وهذه المساجد هي:

ترتيب المساجد حسب الأوقاف الموقوفة عليها

مسجد كتشاوة: مسجد حنفي، يقع مكانه بشارع الديوان أمام السوق المعروف بسوق كتشاوة تذهب الروايات إلى أنه أنشئ على ربوة تعرف برحبة الماعز (كجاوة)[15]، ومنه أخذت تسمية المسجد، فعرف بمسجد كتشاوة، لكننا لا نعرف بالضبط تاريخ إنشائه، سوى ما تذكره أقدم الوثائق المتعلقة به والتي تعود إلى سنة

1020هـ- 1612م[16]؛ كانت تشرف على تسييره مؤسسة سبل الخيرات[17]، أعاد بناءه الداي حسن باشا سنة 1209هـ/ 1794م-1795م، حيث قام بتوسعته وتزيينه بالرخام على نمط مسجد السيدة، فعد من أجمل مساجد مدينة الجزائر من حيث النقوش وطراز العمارة، حولته السلطات الفرنسية بعد الاحتلال إلى كنيسة[18].

بلغ عدد الأملاك الموقوفة عليه 23 عقارا، فقد أوقف عليه الداي حسن باشا عدة أملاك بلغ عددها 22 عقارا أغلبها حوانيت (19حانوت) في الفترة ما بين (1209هـ-1212هـ/ 1794م-1797م)[19]، وهي ثروة لابأس بها وذلك لما تدره هذه الأملاك من فوائد.

مسجد المصلى: مسجد حنفي، يقع في المكان المعروف بالمصلى خارج باب الواد، أمر ببنائه الداي محمد باشا التريكي في أواسط رمضان عام 1086هـ-1675م[20].

بلغ عدد الأملاك الموقوفة عليه 13 عقارا، كلها من تجبيس الداي محمد باشا التريكي، في الفترة ما بين (1087هـ-1094هـ/ 1676م-1682م)[21]، يصرف مردودها مباشرة على هذا المسجد من صيانة وترميم وتسديد النفقات الأخرى.

مسجد شعبان خوجة: مسجد حنفي، يقع بالقرب من باب الجزيرة في المكان المعروف بقاع السور، شيّد من طرف الداي شعبان باشا في مكان دار كانت موجودة هناك، اشتراها من ماله الخاص حسب ما جاء في عقد التأسيس الذي يعود تاريخه إلى ربيع الثاني 1104هـ- 1692م[22]، تشرف على تسييره مؤسسة سبل الخيرات[23]؛ بلغ عدد الأملاك الموقوفة عليه 11 عقارا، منها 06 عقارات حبست من طرف الداي شعبان باشا في الفترة ما بين (1104هـ-1106هـ/ 1692م-1694م)[24]، يصرف ريعها على هذا المسجد في كل ما يلزمه من صيانة وترميم وغير ذلك.

مسجد عبدي باشا : مسجد حنفي، يقع بالقرب من دار الإنكشارية المقربين، شيّد من طرف الداي عبدي باشا سنة 1138هـ/ 1725م-1726م، وهو يحمل اسم مؤسسه[25]، وفي سنة 1162هـ/ 1748م-1749م قام الداي محمد باشا بن بكير(1748م-1754م) ببناء مدرسة ألحقت بهذا المسجد الجامع[26].

بلغ عدد الأملاك المحبسة عليه 11 عقارا، كلها من تحبيس الداي عبدي باشا في الفترة ما بين (1138هـ- 1143هـ/ 1725م-1730م)[27]، وهذا عدد معتبر مقارنة بالأملاك التي حبسها الدايات الآخرون على المساجد.

مسجد علي باشا : شيّد هذا المسجد في شهر ربيع الثاني 1164هـ/ 1750م-1751م من طرف الداي علي باشا نقسيس، مكان المسجد المعروف بسيدي الأكحل وقديما بزاوية أقرون، يقع مكانه أعلا دار الإنكشارية القديمة[28]، وفي سنة 1173هـ- 1760م أضاف له مساحة حانوت من أجل توسعته[29].

بلغ عدد الأملاك الموقوفة عليه 09 عقارات، كلها من تحبيس الداي على باشا نقسيس في الفترة (1173هـ- 1174هـ/ 1760م)[30] ، يصرف مردودها في مستلزمات المسجد.

مسجد القصبة الخارجي: مسجد حنفي، يقع مكانه مقابل لباب القصبة، وهو مسجد صغير، له منارة قليلة الارتفاع[31]، أقدم العقود التي تشير إلى وجود هذا المسجد تعود إلى عام 1064هـ/ 1653-1654م[32]، أعيد بناؤه وتوسعته سنة 1233هـ/ 1817م-1818م من طرف الداي حسين باشا بعد أن اهترأ بنيانه[33].

بلغ عدد الأملاك المحبسة عليه 06 عقارات، كلها من تحبيس الداي حسين باشا، سُجلت خلال شهر جمادى الأولى عام 1235هـ- 1819م[34] .

الجامع الأعظم: مسجد مالكي، يعد أقدم وأكبر الجوامع وقتئذ، والذي بقي موجودا إلى يومنا هذا[35]، يرجع تاريخه إلى القرن الحادي عشر، تدل الكتابة الموجودة على منبره أنه كان موجودا في رجب 409هـ-1018م[36]؛ لقي الجامع الأعظم اهتماما كبيرا من طرف الحكام العثمانيين، حيث كان له دورا رائد خلال كل الفترة العثمانية في شتى الميادين القضائية والدينية والتعليمية وحتى الاجتماعية والسياسية، فقد احتضن المجلس العلمي وغطى على أنشطة كل الجوامع الأخرى، حتى التي أنشأها الأتراك أنفسهم[37]، وكثيرا ما كانت فيه الأولوية للمفتي المالكي على المفتي الحنفي في مختلف القضايا[38]، وبما أن الجامع الأعظم يعد قبلة للجزائريين ومنبرا للعثمانيين، فقد خصصت له أوقاف تنفق عليه، بلغ دخلها

السنوي سنة 1830م ما قيمته 43222,70 فرنك تدرها 1558 وقفا[39]،وما فتئت هذه المؤسسة تتطور حتى استولت عليها السلطات الفرنسية سنة 1843، بعد اتهام مفتيها مصطفى بن الكبابطي بموقفه المعادي للاحتلال الفرنسي[40].

وبالرغم من الحجم الكبير للأملاك المحبسة على الجامع الأعظم ، فما لاحظناه من خلال استقراء الوثائق الخاصة بأوقاف الدايات، أن حصة الجامع الأعظم من أوقافهم كانت قليلة مقارنة بالمساجد الأخرى، حيث بلغ عددها 05 عقارات بنسبة 2,36٪ من العدد الإجمالي لأوقاف الدايات، فمن بين الدايات الذين أوقفوا لصالح الجامع الأعظم نجد الداي محمد باشا التريكي حبس دارا في أوائل رمضان 1088هـ-1677م[41]، والداي إبراهيم أوقف عدة عقارات، منها قطعة أرض في ذي القعدة 1090هـ-1679م[42]، ورقعتين في رجب 1153هـ/ 1740م[43]، وبحيرة في أواخر رجب 1153هـ/ 1740م[44].

الجامع الجديد: يعد المسجد الرئيسي لأتباع المذهب الحنفي بمدينة الجزائر، ومقر المفتي الحنفي، حيث يتولى به الإفتاء والإمامة[45]، أسس من طرف جماعة من الجيش الإنكشاري على موقع المدرسة العنانية عام 1070هـ-1660م[46]، يقع مكانه أعلى باب الجزيرة على بعد أمتار فقط من الجامع الأعظم، وحسب ما تذكره المصادر أن تسميته بالجامع الجديد تمييزا له عن المساجد الحنفية التي كانت موجودة بمدينة الجزائر قبل تاريخ تشييده[47]، لكن بالرغم من أنه المسجد الرئيسي لأتباع المذهب الحنفي، مذهب الطبقة الحاكمة في البلاد، إلا أن ما أوقفه الدايات على هذا المسجد يعد قليلا مقارنة بالمساجد الأخرى، حيث بلغ عدد العقارات الموقوفة عليه 03 عقارات أي بنسبة 1,42٪ من العدد الإجمالي لأوقاف الدايات.

جامع صفر: يعد من المساجد الحنفية العتيقة، يقع في القسم العلوي من المدينة الذي يذكر في الوثائق بحي الجبل تشرف على إدارته مؤسسة سبل الخيرات[48] شيّد هذا المسجد من طرف القايد عبد الله صفر(العلج) معتوق خير الدين بربروس، يقال إن بناءه دام تسعة أشهر، من شهر رجب 940هـ/ جانفي 1534م إلى غاية ربيع الأول 941هـ-1534م[49]، جدد بناءه الداي حسين باشا في سنة 1242هـ/

1826م-1827م[50]. بلغ عدد الأملاك الموقوفة عليه عقارين، بنسبة 0,94٪ من العدد الإجمالي للأملاك الموقوفة من قبل الدايات.

مسجد محمد باشا بن عثمان: تكاد كل المصادر لا تذكر هذا المسجد، والمعلومات التي عثرنا عليها قليلة وشحيحة، فقد أخبرنا دوفول "بأنه مسجد صغير يقع بالقرب من الرملة خارج باب الواد، أمر ببنائه الداي محمد باشا بن عثمان، استغرق بناؤه أربعة وعشرين سنة من 1179هـ-1765م إلى غاية 1205هـ/ 1790م-1791م"[51]، وبعد الاحتلال الفرنسي حدث له مثل ما حدث لباقي المنشآت الدينية والعمرانية الأخرى، هدّم من طرف الفرنسيين بحجة المشروع العمراني الذي قامت به السلطات الفرنسية بالجزائر[52].

بلغ عدد الأملاك الموقوفة عليه عقارا واحدا، يتمثل في حانوت من تحبيس الداي محمد باشا بن عثمان في أوائل ذي الحجة 1197هـ-1782م[53]، وهذا عدد قليل مقارنة بأوقاف الدايات السابقين لصالح المساجد التي أقاموها.

مسجد عبدي باشا ببئر مراد رايس: شيّد هذا المسجد حسب ما جاء في الوثائق من طرف الداي عبدي باشا ببئر مراد رايس سنة 1137هـ-1724م، وأخذ التسمية من الشارع الذي بني فيه[54].

بلغ عدد الأملاك الموقوفة عليه عقارا واحدا، يتمثل في تحبيس جنّة (بستان) من طرف الداي عبدي باشا سنة 1137هـ-1724م[55].

واستنادا إلى عقود الوقف الخيري، فإن اهتمام الدايات بهذا المعلم الديني والتاريخي يصوره لنا عدد العقارات المُحبّسة على المساجد، حيث تعددت وتنوعت بين تجارية وزراعية توزعت على النحو التالي:

المُحبس	نوع الحبس وعدده	المستفيد منه	السنة
محمد التريكي 1081هـ- 1094هـ 1671م-1682م	11 حانوت 01 علوي 01 إصطبل	مسجد المصلى	1087هـ- 1094هـ 1676م-1682م
	01 دار	الجامع الأعظم	1088هـ/1677م
الحاج شعبان 1100هـ- 1107هـ 1688م-1695م	03 حوانيت 01 بحيرة ورقعتها 01 دار 01 علوي 01 مخزن	مسجد شعبان خوجة	1104هـ- 1106هـ 1692م- 1694م
عبدي باشا 1136هـ- 1145هـ 1724م-1732م	01 جنة	مسجد عبدي باشا ببئر مراد رايس	1137هـ/1724م
	03 علويات 03 ديار 02 زندانة 02 حانوت 01 حمام	مسجد عبدي باشا	1138هـ- 1143هـ 1725م- 1730م
إبراهيم باشا 1145هـ- 1158هـ 1732م-1745م	03 رقعات 01 بحيرة	الجامع الأعظم	1143هـ- 1153هـ 1730م- 1740م
علي باشا نقسيس 1168هـ- 1179هـ	02 قهوة 01 فندق	الجامع الجديد	1169هـ/1755م
	04 علويات	مسجد علي	1173هـ-

1754م-1766م	03 ديار 01 دكان 01 إصطبل	باشا	1174هـ 1759م – 1760م
محمد باشا بن عثمان 1179هـ- 1205هـ 1766م-1791م	01 حانوت	مسجد محمد باشا بن عثمان	1197هـ/1782م
حسن باشا 1205هـ- 1212هـ 1791م-1798م	02 حانوت 01 دار 01 مخزن	مسجد شعبان خوجة	1209هـ/1794م
	16 حانوت 03 ديار+ غرفة 01 مخزن 01 قهوة	مسجد كتشاوة	1210هـ- 1212هـ 1795م - 1797م
أحمد باشا 1220هـ/1223ه 1805م/1808م	01 حانوت 01 جنة	مسجد كتشاوة	1222هـ/1797م
حسين باشا 1233هـ- 1246هـ 1818م-1830م	06 حوانيت	مسجد القصبة الخارجي	1235هـ/1819م
	01 حانوت 01 جنة	جامع صفر	1242هـ/1826م

يمكن أن نلاحظ من خلال الجدول، التفاوت في عدد الأملاك المحبسة من داي إلى آخر، حيث يرجع هذا التباين في النسب إلى غنى وثراء بعض الدايات، نتيجة ممارستهم وظائف سامية في الدولة قبل أن يتولوا الحكم، مثل حسن باشا الذي

كان وكيلا للحرج سنوات (1775م-1788م) ثم خزناجي (1788م-1791م)، وعبدي باشا هو الآخر تقلد عدة وظائف إدارية في إيالة الجزائر، فقد تولى منصب باي على بايلك التيطري ثم آغا الصبايحية لعدة سنوات قبل أن يصبح دايا، والداي الحاج محمد التريكي والداي علي باشا نقسيس وغيرهم.

لكن ما تجدر الإشارة إليه، هو أن فيه بعض الدايات من بقي فترة طويلة في الحكم مثل محمد باشا بن عثمان (1766م-1791م)، إلا أن عدد الأملاك المحبسة من قبله على هذا المعلم الديني في الفترة المدروسة لم يتجاوز عقارا واحدا ، كما نرجع سبب عدم إسهام بقية الدايات في هذا النوع من الوقف إلى أمور عدة، منها قصر فترة حكمهم، انشغالهم بأمور أخرى كمشاكل البلاد الداخلية والخارجية، عدم اهتمامهم بأمور الوقف، أو لضياع الوثائق وإتلافها.

وتفسير مثل هذه الحالات، يذهب بنا إلى القول أن إسهام الدايات في الوقف لديه عدة أسباب ودوافع منها سياسية، اقتصادية واجتماعية، مثل استعمال الوقف كأداة سلطة ونفوذ في المجتمع، وذلك أن الأتراك أغراب عن البلاد وأهلها، وقد اتخذ بعض الحكام من نظام الوقف وسيلة لتدعيم حكمهم، والتودد إلى الشعب الجزائري ليغض الطرف عن مساوئهم وهكذا فإن أكثر الدايات من وقّف العقارات و الأراضي على المرافق العامة التي تقدم للشعب خدمات مباشرة.

وبالرغم من ذلك، لا نستطيع أن نفرغ الوقف من محتواه ألا وهو فعل الخير، حيث كان لمشاركتهم في الوقف دور وتأثير على مؤسسات الوقف، فقد تمكنوا من خلال أملاكهم الموقوفة توفير دخل معتبر لمؤسسات الوقف، وهذه الأخيرة بدورها قدمت خدمات لمختلف الشرائح الاجتماعية المتواجدة في مدينة الجزائر وقتئذ.

أخيرا يمكن القول بأن الداي لم يكن حبيس محيطه الضيق (القصر) كما صورتها الكتابات المعاصرة، بل كانت له تطلعات خارج هذا المحيط، وأسهم بقسط كبير في مجتمعه وفي شتى الميادين، وهذا من خلال إسهامه في الوقف وتفاعله مع

محيطه وما نتج تلك العلاقة من أبعاد اقتصادية وإنسانية، ميزت بعض الدايات دون غيرهم.

الهوامش:

(1) لمزيد من المعلومات حول مشروعية الوقف في القرآن والسنة انظر: سليم هلني منصور، الوقف ودوره في المجتمع الإسلامي المعاصر، ط1، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، 2004.

- وهبة الزحيلي، الوصايا والوقف في الفقه الإسلامي، دار الفكر المعاصر، بيروت 1998.

- أبو زهرة محمد، محاضرات في الوقف، دار الفكر العربي، دون تاريخ طبع ونشر.

(2) AUMERAT.M., " La propriété urbaine à Alger ", in R.A., n° 41, 1897, pp. 321-330.

(3) MERCIER.E., Habous ou ouakof ses règles et ses jurisprudences, typographie Adolphe Jourdan, Alger, 1895, p.10.

(4) الحفناوي هالي ، "حول الوقف في الإسلام " ، مجلة المعرفة الجزائرية ، العدد 02 ، جوان 1963، ص 21

(5) توجد وثائق المحاكم الشرعية التي عدنا إليها في دراستنا في مركز الأرشيف الوطني الجزائري - ببئر خادم- الجزائر العاصمة، حيث تعد مصدرا مهما لمقاربة التاريخ السياسي و الإداري والاجتماعي والاقتصادي وحتى الثقافي للجزائر خلال العهد العثماني، تتميز بتنوع مواضيعها، فهي تشتمل على عقود الزواج والطلاق والصداق والإرث والهبة، ضف إلى ذلك معاملات البيع والشراء وعقود الوقف، تغطي فترة زمنية تمتد من النصف الأول من القرن السادس عشر إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر. لمزيد من المعلومات أنظر:

- الساحلي خليل أوغلي، "سجلات المحاكم الشرعية كمصدر فريد للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي"، المجلة التاريخية المغربية، عدد 01 ، 1974، ص 27.

- سعيدوني ناصر الدين ، " نظرة حول الوثائق العثمانية بالجزائر ومكانتها في تاريخ الجزائر الحديث "، مجلة التاريخ ، عدد 04 1976، ص ص 135- 157.

- تكور فضيلة ، "رصيد الفترة العثمانية من وثائق الأوقاف والأرشيف الوطني الجزائري"، دراسات انسانية، عدد خاص بأعمال ندوة الوقف في الجزائر أثناء القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر، جامعة الجزائر، 2001، ص 69.

(6) سنستعمل في هذه الدراسة عبارة (م ش) اختصارا لكلمة المحكمة الشرعية، (ع) العلبة، (و) الوثيقة.

- م ، ش ، ع : 61 ، و 08 .

(7) م ، ش ، ع : 60 ، و 12 .

(8) أخرجه مسلم عن عثمان بن عفان، كتاب المساجد، باب فضل بناء المساجد، ج5، رقم الحديث 533، ص 15 .

(9) HAEDO.D.D., Topographie et Histoire générale d'Alger, Trad de l'espagnol par Dr Monnereau et A .Berbrugger, Bouchène, Paris, 1998, p.207.

(10) DEVOULX.A., " Les édifices religieux de l'ancien Alger ", in R.A., n° 06, 1862, p.372.
(11) SHUVAL.T., La ville d'Alger vers la fin de XVIII^{eme} siècle, CNRS, Paris 1998, p.193.
(12) Ibid, p.193.
(13) Ibid, p.194.
(14) يوسف أمير، أوقاف الدايات بمدينة الجزائر وفحوصها من خلال سجلات المحاكم الشرعية ، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر 2 ، 2010.
(15) كجاوة : كلمة تركية تعني مكان الذي يرع أو يباع فيه الماعز .
(16) DEVOULX.A., "Les édifices religieux de l'ancien Alger ", R.A., n° 12, 1868, pp.107- 108.
(17) Ibid, p.114.
(18) Ibid, pp.107-108.
(19) م ، ش ، أنظر العلب التالية : 61 ، 127 ، 128 ، 129 ، 132 ، 133.
(20) يخبرنا دوفول Devoulx ، أنه منذ زمن طويل (حوالي قرنين) كان يوجد خارج باب الواد مساحة تقام فيها صلاة الجنازة ونظرا لكثرة المقابر الكبيرة حول هذه المنطقة من المدينة ، لذا أصبحت تسمى هذه المنطقة بالمصلى وبما أن صلاة الجنازة تقام خارج المسجد والمصلى عادة ما يكون تابعا للمسجد، فقد قام الداي محمد باشا التريكي ببناء مسجد للخطبة ومصلى مغطى في وسط مساحة المصلى سنة 1086هـ- 1675م ، وبقي هذا المسجد قائمًا إلى غاية الاحتلال الفرنسي للجزائر، حيث تم هدمه من طرف السلطات الفرنسية في شهر فيفري 1862. أنظر :
- DEVOULX.A.," Les édifices religieux de l'ancien Alger ", in R.A, n° 07, 1863, pp.189-191.
(21) م ، ش ، ع : 129 ، وثائق 38 ، 43 ، 50 ، 52 ، 55.
(22) م ، ش ، ع : 61 ، و 08 .
(23) أنظر : أمير، المرجع السابق ، أوقاف مؤسسة سبل الخيرات.
(24) م ، ش ، أنظر العلب التالية : ع : 57، و35. ع : 1/27، و 46. ع : 1/37، و 23.
(25) DEVOULX.A.," Les édifices religieux de l'ancien Alger ", in R.A., n° 09, 1865, p.452.
(26) Ibid, p.452.
(27) م ، ش ، أنظر العلب التالية : ع : 2/28، و 10. ع : 129، وثائق 05، 10، 15، 31، 33، 34. ع : 132-133، وثائق 14 ، 31.
(28) تاريخ بناء زاوية أقرون يعود إلى سنة 1080هـ-1669م بالقرب من دار الإنكشارية القديمة، لكن لا نعرف من قام ببنائها أو أمر بذلك ، كان إمام مسجد أقرون الإمام العربي والد العالم العلامة سيدي محمد الأكحل، شيّد هذا الأخير مكان الزاوية مسجدا سنة 1140هـ /1727- 1728م والذي أصبح يعرف بمسجد سيدي الأكحل ، قام بتجديده الداي علي باشا نقيس وأصبح يحمل إسمه أنظر :
- DEVOULX.A., " Les édifices religieux de l'ancien Alger ", in R.A., n° 14,1870, p.170.

(**29**) م ، ش ، ع :61 ، و 16 .

(**30**) م ، ش ، أنظر العلب التالية : ع : 60 ، وثائق 12 ، 12 ، 23 . ع : 61 ، وثائق 01 ، 02 ، 03 ، 21 .

(**31**) نور الدين عبد القادر، المرجع السابق ، ص 163.

(32) DEVOULX.A., " Les édifices ... ", 1870, p.180.

(**33**) نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص 163.

(**34**) م ، ش ، ع : 141 ، و 42 .

(**35**) نظرا لكون غالبية الجزائريين على المذهب المالكي ، فقد بلغ عدد المساجد المالكية 92 مسجدا ، و14 مسجد آخر حنفيا سنة 1830 . أنظر : سعيدوني ناصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر القترة الحديثة والمعاصرة المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص 241.

(**36**) بن حموش مصطفى و بلقاضي بدر الدين ، تاريخ وعمران قصبة الجزائر من خلال مخطوط ألبير دوفولكس المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2007، ص 38.

(**37**) التميمي عبد الجليل ، " وثيقة عن الأملاك المحبسة باسم الجامع الأعظم بمدينة الجزائر "، المجلة التاريخية المغربية العدد 05 1980، ص 10.

(**38**) نفسه ، ص 11.

(**39**) سعيدوني ناصر الدين، " موظفو مؤسسة الأوقاف بالجزائر في أواخر العهد العثماني "، المجلة التاريخية المغربية، العددان 57 – 58، جويلية 1990، ص 176.

(**40**) التميمي ، المرجع السابق، ص 14.

(**41**) م ، ش ، ع : 141، و 64.

(**42**) م ، ش ، ع : 1/42، و 23.

(**43**) م ، ش ، ع : 1/42، و 23.

(**44**) م ، ش ، ع : 55 ، و 20.

(**45**) يذكر دوفول DEVOULX أن المساجد الحنفية الثلاثة ،المسجد الجديد ومسجد كتشاوة ومسجد السيدة، بأنهم قمة وأناقة وروعة في الهندسة المعمارية الجزائرية في هذه الفترة. أنظر: نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العصر التركي، مطبعة البعث قسنطينة، الجزائر، 1965، ص 155.

-DEVOULX.A., " Les édifices … ", 1862, p.375.

(**46**) حول تاريخ الجامع الجديد أنظر :

- DOKALI.R., Les mosquées de la période turque à Alger, SNED, Alger, 1974, p.36.

– نورالدين عبد القادر ، المرجع السابق ، ص ص 155 - 156 .

– بن حموش و بلقاضي، المرجع السابق، ص 36 .

(**47**) نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص 155.

(48) DEVOULX.A.," Les édifices … ", 1870, pp.186 -187.

(49) DOKALI , Op.cit., p.35.

(50) DEVOULX.A.," Les édifices …", 1870, pp.186-187.

(51) DEVOULX.A., " Les édifices religieux de l'ancien Alger ", in R.A., n° 07, 1863, p.112.

(52) Ibid , p.112.

(**53**) م ، ش ، ع : 68 ، و 01.

(54) DEVOULX , " Les édifices …" , 1870 , p. 287.

(**55**) م ، ش ، ع : 58 ، و 13.

نموذج من العائلة الأندلسية في مدينة الجزائر في الفترة العثمانية القرنين (17ـ 18م)

من خلال سجلات المحاكم الشرعية وثائق الأرشيف الوطني الجزائري

أة. طيبي مهدية
قسم التاريخ جامعة الجزائر 2

سجلات المحاكم الشرعية:

تتوفر مدينة الجزائر على غرار المدن العثمانية على رصيد زاخر من الوثائق الرسمية المحلية العائدة للفترة العثمانية ومن بينها سجلات الحاكم الشرعية والتي تعتبر من أهم المصادر لكتابة التاريخ الاجتماعي والإداري والثقافي والاقتصادي للجزائر في تلك الفترة وقد قمنا بمسح شامل لهذه السلسلة ويمكن تصنيف وثائق هذا الرصيد من حيث الكم، حيث تحل عقود الحبس الصدارة ثم تليها عقود البيع الشراء وعقود النزاعات والخصومات وعقود المعاوضة وعقود الزواج والهبات بالإضافة إلى عقود الملكية التي لها نسبة معتبرة في هذه السجلات وقد توزعت وثائق المحاكم الشرعية على ثلاثة وخمسين و مائة علبة وهي تخص في معظمها مدينة الجزائر وبعض المدن المجاورة لها كالبليدة والقليعة والمدية وملیانة... الخ

واللغة المتداولة في سجلات المحاكم الشرعية هي اللغة العربية وتغطي فترة زمنية معتبرة إذ تمتد من النصف الأول من القرن السادس عشر إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وطبيعة ومحتوى الوثائق التي اشتملت عليها هذه السلسلة فقد حدده الدور الذي أضحى يلعبه الحاكم الشرعي أي القاضي بالمدينة، وإذا كانت وظيفة القاضي وظيفة دينية فان صلاحياته امتدت إلى مختلف مجالات الحياة ويظهر هذا جليا في غنى وتنوع وثائق المحكمة الشرعية فمهامه تكمن في الفصل في النزاعات والاحتجاجات والسهر على القضايا المستعجلة وهو قاضي الأحوال

الشخصية والمشرف على الأوقاف ومعاملات البيع والشراء، وتعتبر هذه السلسلة مكسبا هاما خاصة أنها تشكل مصدرا من مصادر كتابة تاريخ الجزائر في العهد العثماني.

I- مصاهرات العائلات الأندلسية:

تميزت الجالية الأندلسية بمدينة الجزائر بكونها أصبحت تشكل عنصرا بشريا له تأثيره في مختلف مجالات الحياة وأهمية لم تخفى عن الحكام وباقي السكان، إذ كان لهم تأثير اجتماعي كبير يتصل خاصة بالتقاليد ومظاهر الحياة اليومية فقد حافظوا على تقاليدهم الخاصة سواء في المعاملات وفي الأفراح وأيضا على مظاهر مميزة للاحتفال بالأعياد والمواسم الدينية (المولد النبوي الشريف، ليلة القدر، عاشوراء، عيدي الأضحى والفطر) كما امتزجت التقاليد الأندلسية بأذواق تركية، عربية، وأوروبية.

فالأفراح الأندلسية تندرج فيها مناسبات الزواج والتي كانت تتم أركان الشريعة الإسلامية، ولا تخلو من أي شرط من شروطها، إذ أننا لم نستطيع التحصل على عقد زواج أندلسي في المحاكم الشرعية والذي من خلاله يمكن أن نعرض خصوصية هذا الزواج من جانب العادات والتقاليد، لكننا تحصلنا على عينة من العقود المختلفة الأخرى والتي أفدتنا بالجديد حول المصاهرات الأندلسية داخل الجماعة وخارجها، وقد تطرق ابن حمادوش لعقد قران أندلسي وتعرض إلى أهم مراحل هذه العلاقة الإنسانية التي من خلالها يمكن ربط أواصل الرحم وتكوين أسرة وجاء تحت عنوان "عقد نكاح لبعض الأندلسيين لثيب[1] شابة" إذ من خلاله استنتجنا أن الأندلسيين اكتسبوا بعض عادات وتقاليد سكان بلاد المغرب[2] ولا نستطيع أن نبصم بان المصاهرات الأندلسية كانت لا تخرج عن نطاق الأندلسي وقد سجلنا زواج بعض الموريسكيات من أعيان مدينة الجزائر[3] إلا أن النفور من الطوائف الأجنبية الأخرى كان جليا إذ أن الأندلسيات اللواتي تزوجن من أتراك أصبحن يضعن أقنعة لإخفاء ذلك النفور نوعا ما[4] أما عقود المحاكم

الشرعية فإنها تثبت أن اكبر نسبة من المصاهرات الأندلسية كانت لا تخرج عن نطاق جماعتهم وهذا خلال القرن 17 وبدايات الربع الأول من القرن 18 إذ سجلنا عددا معتبرا منها ونذكر بعض الحالات كالتالي "الهالك الحاج الإبر أبو العباس احمد بن محمد أبو بكر الأندلسي وزوجه فاطمة بنت الفقيه سليمان محمد الأندلسي"[5] ونذكر أيضا "الهالك علي النيار الأندلسي وزوجه آمنة بنت محمد الأندلسي"[6] وأيضا "الشاب علي الحلواجي بن الحاج عبد الله الحلواجي الأندلسي زوجه خديجة بنت الحاج يوسف الثغري الفخار"[7] بالإضافة إلى الزوجين الحاج إبراهيم الثغري والحرة مريم بنت إبراهيم الثغري"[8] وهذه الأمثلة ما هي إلا عينة من كم هائل من العقود والتي تنحصر في الزواج الأندلسي المحض بالإضافة إلى مصاهرات أهل الأندلس مع الجيش والتي تحتل نسبة معتبرة في العقود الشرعية وتدور كلها في القرن 17 ومن ثم نستخلص أن الجيش له الصدارة والأولوية في كسب مودة الأندلسيين ويظهر ذلك جليا حتى في المعاملات الاقتصادية إذ نسجل "زواج الولية عايشة بنت" كذا "الأندلسي من محمد بلدباشي بن حسين وابنها نابي الانكشاري"[9] وأيضا زواج قاسم الانكشاري بن بازيد من أندلسية ويظهر في العقد المؤرخ عام 1620م" قاسم الانكشاري زوج زهرة بنت احمد بن مسعود الأندلسي"[10] ونذكر أيضا "الحاج مصطفى آغا ابن عبد الله زوج الحرة عايشة بنت المرحوم الحاج إسماعيل الأندلسي"[11] بالإضافة إلى ذلك تحصلنا على عينات تفيدنا عن تزاوج أهل الأندلس مع الأتراك وبعض أفراد السلطة الحاكمة (الدايات) ورياس البحر والفئة البرانية عن المدينة ويظهر جليا في العقود التالية "عايشة بنت مصطفى الأندلسي كانت زوجا للمرحوم محمد ريس"[12] وأيضا "السيد الحاج احمد بن الحاج عمر الأندلسي وزوجه فاطمة بنت السيد محمد اللمداني"[13] "والشاب محمد الأندلسي ابن الحاج عبد القادر بن عمر صهر مولانا حسين باشا بن السيد حسين"[14] وأخيرا "الولية فاطمة بنت محمد الثغري باعت لزوجها الحاج محمد التركي ابن الياس جميع الدويرة بناحية باب عزون"[15] بالإضافة إلى بعض المصاهرات الأندلسية مع فئات مجهولة النسب إذا أحصينا نسبة لا باس بها إذ لم

يذكر في العقود لها نسب مثلا "الحاج عبد الرحمن بن الحاج علي بن بربر الأندلسي زوجته الولية نفيسة بنت محمد[16]... الخ، ويقال أن الحمية الدينية لدى أبناء يعقوب التركي لحماية إخوانهم المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية دافعهم كان صلة الرحم بعرب الأندلسيين[17].

أن الوضعية الميسورة والمتميزة كانت تساعد الأندلسيون على الحفاظ على مكانة خاصة في مجتمع مدينة الجزائر، هذا ما جعلهم محل أطماع الفئات الاجتماعية الأخرى، إذ أن هذا الوضع سمح لهم بمصاهرة العناصر التركية المتنفذة ولبعض موظفي الديوان الكبار، إذ تزوج العديد من الباشاوات والرياس والضباط الأتراك من أندلسيات موريسكيات ولعل هذا الوضع هو الذي جعلهم يشكلون طائفة يمكن أن نطلق عليها لقب "برجوازية المدينة".

I- مكانة المرأة في الأسرة:

كما هو معروف في المجتمعات الإسلامية فانه من الصعب تكوين فكرة عن المجتمع النسائي، فالعالم النسوي في اسبانيا الإسلامية قد نشا في مجتمع سعيد، وكن يشكلن عناصر أخلاقية و ثقافية مختلفة ويتمتعن بحرية اكبر من تلك التي أصبحوا عليها في مدينة الجزائر[18] وقد شحت وثائق المحاكم الشرعية عن أحوال المرأة الأندلسية داخل المدينة وجعلتنا نستقي بعض المعلومات من خلال العقود المتنوعة على الرغم من أن بعض الدراسات تؤكد على عدم توفر الوثائق على أية دلالة تثبت بان احد النساء ينتمين في نسبها إلى الأندلس أو إلى أي موطن من المواطن الأندلسية الأخرى، وتم إدراجها ضمن فئة الحضريات[19] لكن رغم هذا يمكن إعطاء فكرة واضحة عن المجتمع النسائي الأندلسي بمدينة الجزائر من خلال العينة البسيطة التي بين أيدينا.

إن معظم الكتابات المحلية تفتقر إلى الدقة في تحديد التركيبة النسوية في المدينة إذ نجد إلا بعض التلميحات حول المرأة الأندلسية وهذا ما جعل بعض المؤرخين يقر بصعوبة إمكانية اخذ فكرة دقيقة عنهن ليس في مدينة الجزائر فقط بل في كل

الولايات العثمانية؛ وبالرغم من هذا وحسب العقود الشرعية يمكن إدراجهن ضمن الأندلسيات المالكات والأندلسيات صاحبات البيوت (الماكثات في البيوت).

أ- الأندلسيات المالكات:

لقد حصرنا عينة معتبرة من العقود التي من خلالها يمكن وضع تصور لأهم ممتلكات المرأة الأندلسية من عقارات مختلفة وذلك من خلال ما تحصلت عليه عن طريق الإرث وأهم الأملاك الموقوفة[20] بالإضافة إلى العقارات المباعة و المشتراة نذكر على سبيل المثال "... ملكت الولية جنات بنت الحاج محمد بن سالم الأندلسي جميع الدار الكاينة بحومة الجامع المعلق..."[21] و"ملكت عايشة بنت مصطفى الأندلسي جميع الدار الكاينة بحومة الجامع الأعظم بعلويها ومخزنيها وحوانيتها الثلاثة وملكت الدار الصغرى"[22] و"اشترت فاطمة بنت محمد الأندلسي من حسن الانكشاري ابن شعبان آغا جميع العلوي الكاين قرب القصبة الجديدة"[23] و"شراء الولية مريم بنت محمد الثغيري لمخزن و العلوي الكاين بالجبلية..."[24] بالإضافة إلى الأملاك المحبسة على سبيل المثال "حبست الولية عيشوشة بنت يحي الأندلسي جميع الدار الكاينة بحومة الولي سيدي علي الفاسي على نفسها ثم على ولدي أختها وابنة أختها أوسط محمد الخياط ابن علي الأندلسي والمرجع فقراء الحرمين والجامع الأعظم..."[25] و"حبست الولية عايشة بنت المرحوم مصطفى الأندلسي جميع الدار الكاينة بحومة حارة الجنان بناحية باب الواد على نفسها وعلى فقراء الحرمين والأندلس..."[26] بالإضافة إلى بعض الأملاك المشتركة بين النساء الأندلسيات وفئات أخرى من مجتمع المدينة وأيضا تملك بعض النساء الأندلسيات لنصيب من العقارات على سبيل المثال "... الاشتراك بين فاطمة ورحمة بنت السيد محمد الثغري في جميع الدار الكاينة أعلى بير الجباح أسفل القصبة الجديدة سند الجبل داخل محروسة الجزاير..."[27] وأيضا نذكر "... حبست الولية عايشة بنت محمد ابن قاسم سالم الأندلسي الثلث الواحد من الدويرة بخندق جاور على فقراء المدينة..."[28] إذ نستنتج أن اغلب ممتلكات المرأة الأندلسية كانت أكثرها دور (دار ودويرة) بالإضافة إلى العلويات والمخازن والحوانيت وبعض الجناين أيضا تملكها

لبعض الأثاث والعبيد بعد عتقهم نذكر على سبيل المثال "... توفيت نجمة بنت عبد الله الأمين الأندلسي وأوصت ثلث مخلفاتها لمعتقها ثلاثة أسهم ثلاثة أسهم لمعتقها محمد بن عبد الله وسهم واحد لبيت المال وبعد النداء وقفت للسيد" كذا "ابن احمد الأندلسي للدار وقش بيتها الكاينة بحومة سوق الجمعة..."[29] وبذلك نجد أن المرأة الأندلسية ملكت نسبة معتبرة من العقارات وبذلك سمح لها باحتلال مكانة اجتماعية واقتصادية بمدينة الجزائر.

ب- الأندلسيات صاحبات البيوت:

لقد سكتت وثائق المحاكم الشرعية على واقع المرأة الأندلسية داخل البيوت إلا أننا من خلال الحرف التي تداولتها خارج البيوت ومن خلال الكتابات حول نشاطها فإننا نستنتج أن المرأة الأندلسية أسندت لها تربية الأولاد وفي بعض الوثائق الشرعية تشير أنها تولت هذه المهنة مع أولادها من صلبها وأولاد غيرها (أبناء الزوج) بالإضافة إلى أنشطة حرفية وتقليدية كانت تقام في البيوت الأندلسية.

والدليل على احتشام النساء الأندلسيات وذلك من خلال الطراز المعماري الأندلسي إذ لا يوجد هناك نوافذ تطل إلى خارج المنازل إلا بعض الفتحات الصغيرة التي تسمح لهن بالنظر من خلالها دون النظر إليها[30] وكانت هذه الفئة من النساء لا يسمح لهن بالخروج حيث أصبحن يحيين ليالي الطرب فوق سطوح المنازل[31] وأيضا كن يمارسن حرفة غزل الصوف التي يمكن من خلالها صناعة الألبسة الصوفية[32] وقد اهتمت بالتطريز (الشبيكة، المخمل... الخ) التي أتقنتها الفتيات الأندلسيات بمدينة الجزائر[33] وكن يتمتعن بلباس مطرز ومزركش وهن حريصات على الحفاظ والاهتمام بمظهرهن ولكن حسب الأسير الاسباني هايدوا فان الأندلسيات الموريسكيات هن نساء غير مهتمات ببيوتهن ولا بأزواجهن[34] إذ معظمهن يقضين وقتهن في الجلوس والأكل والنوم بالإضافة إلى اهتمامهن بالاغتسال في الحمامات العامة والتزيين والتعطر وزيارة الأصدقاء والأحباب

وزيارة المقابر خاصة أضرحة الأولياء الصالحين للتداوي والتحضير إلى مختلف الحفلات الخاصة[35].

وبالرغم من أن المرأة الأندلسية تمتعت بمكانتين مهمتين في مدينة الجزائر إلا أنها كانت تحتل المرتبة الثانية بعد الرجل وذلك إتباعا لطقوس الشريعة الإسلامية لكنها كانت القلب النابض للمجتمع الأندلسي في مدينة الجزائر.

– حجم الأسرة الأندلسية:

لا تحث الشريعة على الإنجاب بل ترغبه في قوله تعالى: "المال والبنون زينة الحياة الدنيا والبقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا"[36] على عكس الزواج في قول الحديث النبوي الشريف: "تزوجوا الودود الولود فاني مكاثر بكم يوم القيامة" حيث أحصاينا عينة من العقود والتي مكنتنا من حصر حجم الأسرة الأندلسية داخل المدينة، وتشكل الأسر ذات الحجم الصغير غالبية العينة إذ معدل حجم الأسرة خلال القرن 17و 18 لا يتعدى عدد أولادها ثلاثة[37] أي متوسط الأولاد من واحد إلى ثلاثة نذكر على سبيل المثال "باعت عايشة بنت الحاج عبد الله البراضي الأندلسي وبعد وفاتها لابنتها فاطمة ولونة بنتي مصطفى جميع الدار الكاينة بحومة سيدي شعيب داخل محروسة الجزاير..."[38] ويفيدنا العقد التالي عن وجود عقب واحد "... حبس حسن الخياط الأندلسي النية على ابنته الحرة زهوا..."[39] بالإضافة إلى عقد آخر يعطي لنا فكرة حول حجم الأسرة الأندلسية الكبيرة وهو على الشكل التالي "... تصفية تركة بين أولاد السيد" كذا "ابن إبراهيم بن محرز الأندلسي وزوجته حليمة بنت احمد الأندلسي وأولادها منها محمد و آمنة وعيشوشة..."[40]. لكن عقود الوقف تشير إلى العقب بالتفصيل إلى غاية ذكر المرجع إذ تفيدنا بنسب الأندلسيون لكن في آخر المطاف نستنتج أن هناك تراجعا في المعدل المذكور سابقا ويعود هذا التراجع لأسباب من بينها الأوضاع الصحية المتدهورة والأوبئة.

ولدينا بعض الحالات حول ارتفاع حجم الأسرة الأندلسية وذلك في حالة التزاوج خارج الجالية نذكر على سبيل المثال "... باع أولاد محمد آغا على جماعة

الصبايحية محمد ورجب وعلي وفطومة وآمنة وخديجة وحسن وزوجه فاطمة بنت احمد الأندلسي جميع الدار الكاينة بحومة حارة الجبل..."[41] بالإضافة إلى اقتناء بعض العقود والتي تسكت على معدل الأولاد داخل الأسرة الأندلسية ورغم هذا فقد استطعنا أن نستخلص أن حجم الأسرة حجم متوسط أن لم نقل ضئيلا.

- انتقال الأملاك داخل الأسرة:

هناك عدة طرق لانتقال الملكية داخل الأسرة الواحدة من بينها الإرث المعاوضة والصدقة والوصية وأيضا البيع والشراء، إذا كان هذا الأخير محصورا داخل أفراد الأسرة، وبهذا قد سجلنا عدة حالات في هذا الصدد.

من خلال عقود الإرث نسجل تقسيم مفصل للملك على كل الورثة، بما في ذلك الموصى عليهم في حياة الهالك، إذ أن جميع الأولاد لهم نصيب في متروك المتوفى إناثا وذكورا ،فمن بلغ منهم سن الرشد تولى نصيبه مباشرة ومن كان قاصرا يعين عليه و على ماله وصي، ولا يحق لهذا الأخير التصرف في المال سواء بالبيع أو الشراء أو الهبة [42] ويتم توزيع الميراث بعد الوفاء بأيام قلائل.

والمرأة الأندلسية لها حق الميراث والتوريث ويظهر ذلك جليا في العينة المدروسة "... الهلكة نجمة بنت إبراهيم الأندلسي من بين الورثة ابنتها عايشة بنت الحاج علي الأندلسي وأختها خديجة بنت محمد الانكشاري وخلفت موروثا جميع العلوي الكاين بحومة ابن جاور داخل محروسة الجزاير..."[43].

وفي عقود الإرث لاحظنا أن المرأة لها الحق في توريث زوجها والعكس صحيح ويتجلى ذلك من خلال العقد التالي "... الهالكة آمنة بنت محمد الأندلسي الخشاب تركت موروثا عنها جميع الدار الكاينة بحومة قاع الصور في الجامع الجديد داخل محروسة الجزاير والورثة هم بعلها قارة حسن بلكباشي وأخيها أوسطا إبراهيم النيار ابن محمد الأندلسي"[44].

وإما انتقال الأملاك عن طريق الصدقات نذكر على سبيل المثال "... اشهد الحاج مصطفى بن محمد الأندلسي والحاج علي بن احمد الأندلسي وكيلي فقراء الأندلس أن الثمن الذي دفعاه في الدار المذكورة هو ثلث ما تصدق به الحاج" كذا

"الأندلسي بن عمر بان يشتري به ربع ويصدق بغلته على فقراء الأندلس وجعل صدقة على زوجه الحاجة فاطمة بنت محمد هيبل الأندلسي..."[45].

ورغم محاولتنا لإعطاء فكرة حول الحقوق العائلية الأندلسية بوجود طرق أخرى للتملك داخل الأسرة، إلا أننا لا نستطيع أن نبصم على ذلك لعدم توفر المصادر المتخصصة المحلية في إطار الشريعة الإسلامية.

مدونة العائلات الأندلسية المقيمة بمدينة الجزائر

1- عائلة الروج	2- لعائلة ابراموني
3- عائلة بن مطري	4- عائلة الدويسي
5- عائلة بن فارطة (كارطة)	6- عائلة بن بريبر
7- عائلة بن فاضل	8- عائلة العداد
9- عائلة الخيار	10- عائلة قاسم
11- عائلة مارين	12- عائلة بوضربة
13- عائلة بن سالم	14- عائلة الكميليوا
15- عائلة قرانص	16- عائلة صفره (صفر)
17- عائلة برالطة	18- عائلة البوني
19- عائلة شملال	20- عائلة جراد
21- عائلة بن الطبال	22- عائلة ابن الاحرش
23- عائلة الحجام	24- عائلة صعد
25- عائلة النقلة	26- عائلة الغربي
27- عائلة الانجرون (الاجروني)	28- عائلة الغبري(القبري)
29- عائلة بن فارس	30- عائلة بن عمار

31- عائلة الكيراني	32- عائلة مفتاح
33- عائلة الرشوا	34- عائلة بن دبسي
35- عائلة الفكاي	36- عائلة شيخون
37- عائلة فرج	38- عائلة المدافعي
39- عائلة البراعي	40- عائلة الأمين
41- عائلة الحميني	42- عائلة كلاطوا (فلاطوا)
43- عائلة القرطبي	44- عائلة القلدرون
45- عائلة الطنيطن	46- عائلة البراضي
47- عائلة الشاطبي	48- عائلة المرابط
49- عائلة بن برمقوز	50- عائلة بيزار
51- عائلة العبلي	52- عائلة أبو ساهل
53- عائلة خلاصة	54- عائلة الانجدون
55- عائلة الروند(الدوند)	56- عائلة المسيمح
57- عائلة العادل	58- عائلة الصديق
59- عائلة الفانيدي	60- عائلة شحاتة
61- عائلة بولطا	62- عائلة شوطو
63- عائلة هيبل	64- عائلة علج
65- عائلة الارجوني	66- عائلة السنيني
67- عائلة الطالب	68- عائلة انغزلوا
69- عائلة الرفاعي	70- عائلة بن عاشور
71- عائلة المحاتي	72- عائلة الفتال
73- عائلة الرصافي	74- عائلة رندة
75- عائلة موهوبي	76- عائلة البرميل

77- عائلة بن فاضلة	78- عائلة المليح
79- عائلة نبيضة	80- عائلة بن محمد
81- عائلة ابن بقا	82- عائلة القوري
83- عائلة ساعد	84- عائلة اللبيب
85- عائلة بن عاشير (عاشير)	86- عائلة عبيد
87- عائلة العزوي	88- عائلة العاقل
89- عائلة الجبوط	90- عائلة البونصوا
91- عائلة يماني	92- عائلة الشريف
93- عائلة سعد الله	94- عائلة الهاشم
95- عائلة الجكيكن	96- عائلة حمودة
97- عائلة بشان	98- عائلة بن يليه
99- عائلة النبطور	100-عائلة الشوابي
101- عائلة الخشاب	102-عائلة حميدة
103- عائلة الخطيب	104-عائلة جامع
105- عائلة بديلة	106-عائلة الداي
107- عائلة الطويل	108-عائلة عسكر
109- عائلة البراملي	110-عائلة الثغري

أصول هذه العائلات وألقابها

تفيدنا وثائق المحاكم الشرعية بأسماء العديد من أهل الأندلس من خلال عقود الإرث والبيع و الشراء والوقف والتي نصت على تمسك هذه الفئة بأصالتها وعراقتها ونستطيع تدوين نسب الأندلسيين خصوصا من خلال عقود الإرث، لأنها تبين تسلسل الشجرة العائلية إذ يذكر اسم الهالك وأسماء الورثة منهم من الأبناء وأبناء الأبناء إلى غاية آخر العقب بالإضافة إلى ذكر الورثة الشرعيين مع التسلسل الزمني وهذا يثبت استمرارية وتواصل الأجيال إلى فترة طويلة من الزمن.

أن الجالية الأندلسية رغم تجانسها ظلت محافظة لفترة طويلة على تمايز فئاتها وهذا بحسب موطنهم الأصلي وتاريخ هجرتهم إلى الجزائر ومعظم المصادر والمذكرات التي تركها القناصل والرحالة الأوربيين الذين زاروا الجزائر في القرن 17-18م عند تعرضهم لتاريخ هذه الفئة يحصرونهم في جماعة الثغريين[46] ومن خلال المدونة للعائلات الأندلسية التي بحوزتنا حاولنا معرفة الأصول الحقيقية لها إذ استنتجنا أن معظم الالقاب هي ألقاب عربية وهناك بعضها محلي والآخر اسباني ولا نستطيع أن نبصم على ذلك لعدم تحصلنا على نسبة كبيرة من الكتابات الأندلسية المتخصصة وهذا الاستنتاج جاء من خلال الألقاب المتداولة في المدونة ومن خلال معرفتنا لبعض الألقاب العربية والمحلية بالإضافة إلى بعض الألقاب الاسبانية والتي احتفظ بها الموريسكيون حتى بعد الهجرة و استقرارهم في المدينة فالنسبة للألقاب العربية فإنها تمثل اكبر نسبة من جملة العائلات المذكورة وهذا يدل على تأثر أهل الأندلس بالوجود العربي الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية ابتداءا من الفتوحات الإسلامية إلى غاية صدور قرار الطرد النهائي، بالإضافة إلى العائلات الاسبانية العربية فان ظاهرة حمل الأندلسيون للأسماء العربية يدعم فكرة تميز الطائفة الأندلسية بلهجتها العربية التي كانت شائعة بغرناطة وحواضر الأندلس الأخرى، إذ تأثر بها حضر المدينة وساعدوا بلهجتهم

الخاصة على انتشار واستعمال العربية في المناطق التي تستعمل بها اللهجة البربرية بالإضافة إلى استعمال مفردات اسبانية مما جعل لغة الفرانكة la langua franca[47] شائعة بمدينة الجزائر، وأصبحت بعض المصطلحات الاسبانية متداولة في المدينة ذات لهجة عربية وهذا ما يؤكد تزاوج اللغتين في وسط عربي إسلامي.

ونذكر بعض العائلات التي تحمل الألقاب العربية: عائلة بن فاضل[48] عائلة بن فارس[49] عائلة صفر[50] عائلة عبيد[51] عائلة بن محمد[52] عائلة بن عمار[53]... الخ.

وقد حاولنا تتبع أخبار بعض العائلات التي حملت ألقابا عربية ومن بينها عائلة بن فاضل لتوفر بعض المعلومات في الوثائق الشرعية حيث أن هذه العائلة تولت منصب وكالة أوقاف الحرمين الشريفين لفترة من الزمن وقد توصلنا إلى التعرف على بعض أفرادها من الفترة الممتدة من 1655-1753 وهم كالتالي:

1- مصطفى بن فاضل الأندلسي _____ 1655م
2- أبو الرف مصطفى بن فاضل الأندلسي _____ 1678م
3- الحاج محمد ابن السيد بن فاضل الأندلسي _____1682م
4- الحاج احمد المقايسي بن فاضل بن يحي الأندلسي _____ 1683م
5- الحاج محمد بن المنعم السيد بن فاضل الأندلسي _____1686م
6- الحاج محمد بن فاضل الأندلسي _____1689م
7- السيد احمد بن فاضل الأندلسي _____1692م

أن العقود الشرعية الخاصة بالأندلسيين غير مصنفة حسب تسلسل زمني لعائلات الأندلسية إلا عدد قليل منها فمثلا عائلة بن فاضل استطعنا التعرف على بعض أفرادها لأنها تولت منصب وكالة الحرمين الشريفين مثلا محمد بن فاضل الأندلسي[54] حيث نجد أن أفرادها بصناعة الحلي (المقايسية) مثل الحاج احمد المقايسي بن فاضل بن يحي الأندلسي[55] فنظرا لتكرار ذكر هذه العائلة في مختلف

عقود البيع والشراء والوقف فإننا نستخلص أن كانت لها مكانة مهمة داخل مدينة الجزائر.

وهناك العائلات التي تحمل ألقابا اسبانية وجدت لها معاني في اللغة الاسبانية وصياغتها غريبة عن اللغة العربية واللهجة المحلية والخاصة بالفئة التي هاجرت بعد سقوط غرناطة والذين احتكوا بالعالم الكاثوليكي مثلا عائلة بيزار[56] عائلة الكميليو[57] عائلة انعزلوا[58] عائلة كلاطو[59] عائلة بن كارطة[60] عائلة الروج[61] وقد تحصلنا على عقود تحمل ألقابا تعود إلى مدن اسبانية مثلا محمد القرطبي الأندلسي المؤرخ عام 1664م[62] وأبو اليمن سعد بن المنعم موسى الشاطبي[63] وحاولنا التعرف على احد أفراد عائلة كلاطو التي كانت من العائلات الكبيرة ذات النفوذ بالمدينة وقد احتكرت ثلاثة مجالات (الحدادة، العطارة، الخياطة) فتارة تذكر فلاطو وتارة تذكر كلاطو وفي كيفية صياغة نفس الاسم لعدة مرات:

1- الحاج علي بن موسى عرف كلاطو الأندلسي ____ 1647م
2- الحاج علي كلاطو الأندلسي _____ 1647م
3- الناسك الحاج علي كلاطو الأندلسي ____ 1653م
4- الناسك الحاج علي فلاطو بن موسى الثغري ____1657م
5- الحاج علي ابن موسى كلاطو الثغري _____ 1657م

أما عائلة كارطة فتارة تكتب كارطة وتارة أخرى فارطة:

1- الحاج عبد الله كارطة بن محمد الأندلسي ____1656م
2- الحاج يوسف فارطة بن احمد الأندلسي ____1663م
3- الحاج عبد الله فارطة بن احمد الأندلسي ____1663م
4- الحاج عبد الله كارطة العطار الأندلسي ____1665م
5- الحاج عبد الله كارطة الأندلسي ___1667م___1682م

بالإضافة إلى عائلات لها ألقاب محلية التي نجد لها معنى في اللهجة المحلية الجزائرية والتي ربما من كثرة احتكاكهم بأهالي المدينة كسبت معنى محلي والخاص

بالفئة التي هاجرت قبل سقوط غرناطة وهي تحتل نسبة معتبرة بالعقود الشرعية وأهمها عائلة القبري[64] عائلة عاشير[65] عائلة بن بريبر[66] عائلة العاقل[67] بالإضافة إلى بعض العائلات التي لم تذكر في وثائق المحاكم الشرعية من بينها عائلة بوناطير ووبلانكيو ونيقروو رومنا... الخ.

أن تنوع ألقاب العائلات الأندلسية في مدينة الجزائر بالحفاظ على ألقابهم الأصلية الاسبانية واكتسابهم لألقاب عربية إسلامية ومحلية (مغاربية) هذا يدل على تمسك الموريسكيين بأصالتهم وانتمائهم وإسلامهم رغم الظروف القاسية التي وجهوها في بلاد الأندلس، وما عاقب ذلك من طرد وعدم قبول وترحاب في بعض مناطق الهجرة، إذ كانت كلمتهم واحدة و هذا بعد اتحادهم بالأندلسيين المحلين الذين وجدوا بمدينة الجزائر في الفترات السابقة أي قبل سقوط غرناطة إلا أن التلاشي والانصهار ظهر بعد الاحتكاك بالسلطة والمجتمع أواخر الفترة العثمانية.

الهوامش:

(1)- ثيب هي امرأة التي سبق لها الزواج على عكس البكر.

(2)- عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ، رحلة ابن حمادوش الجزائري لسان المقال في النبأ عن النسب و الحسب والحال " تقديم و تحقيق الدكتور أبو القاسم سعد الله ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، 1983، ص 246-248.

(3)- Don Diego de Haedo, « Topographie et histoire générale D'Alger de leurs usages et cérémonies dans les mariages », in RA, n15, 1871, P97.

(4)- M. Renaudot , Alger Tableau de royaume de la ville D'Alger et ses environs état de son commerce de ses forces de terre et de mer ancien officier de la garde de consul de France à Alger , quatrième éditions , librairie universelle , Paris , 1830, P5.

(5)- م ش ع 143/142 (2).

(6)- م ش ع 124(4).

(7)- م ش ع 73/72 (59).

(8)- م ش ع 88(15).

(9)- م ش ع 58(2).

(10)- م ش ع 100/99(54).

(11)- م ش ع 2/9(23) .

(12)- م ش ع 120/119(38).

(13)- م ش ع 125/124(48) .

(14)- م ش ع 129(28).

(15)- م ش ع 2/9(9) (39).

(16)- م ش ع 102/101(40) .

(17)- يقال يعقوب تزوج بعربية أندلسية مسلمة انظر :

- عبد القادر حليمي علي، مدينة الجزائر نشأتها و تطورها قبل 1830 م، الطبعة الأولى، 1972، ص 162.

- M Renaudot, Tableau, op cit, p 1.

(18)- كورين شوفاليه ، الثلاثون سنة لقيام مدينة الجزائر 1510-1541م ، ترجمة جمال حمانة، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1991، ص 79-80.

حول المرأة الأندلسية انظر أيضا:

- هانيريش فون مالتسان ، ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا ، ترجمة الدكتور أبو العيد دودو ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزء الأول ، الجزائر ، ص 62-64.

(19)- ليلى خيراني، واقع النساء في مجتمع مدينة الجزائر (1800-1817) دراسة مستقاة من مصادر محلية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، 2007/2006، ص 39.

(20)- انظر عائشة غطاس، " إسهام المرأة في الأوقاف في مجتمع مدينة الجزائر خلال العهد العثماني «، المجلة التاريخية المغربية، العدد 85-86، 1997.

(21)- م ش ع 23 (7).

(22)- م ش ع 120/119(38) .

(23)- م ش ع 1/126(126) (34).

(24)- م ش ع 75/74 (14) .

(25)- م ش ع 122 (88).

(26)- م ش ع 50 (53).

(27)- م ش ع 32 (8).

(28)- م ش ع 89 (71).

(29)- م ش ع 2/24 (24)(15).

(30)- Joao Mascarenhas ,esclave à Alger, Récit de captivité de Joao Mascarenhas (1621-1626) , Traduit et présenté par paul Teyssier , chandeigne , librairie Portugaise , Paris , 1993, P68.

(31)- G Guiauchain, Alger, édition de L imprimerie Algérienne, 1905, P69.

- احمد توفيق المدني ، مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار نقيب الأشراف الجزائر1754-1830، ذخائر المغرب العربي ، الطبعة الثانية ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1980 ، ص 38-58 .

(32)- Pierre Boyer, la vie quotidienne à Alger a la veille de l intervention française, librairie hachette, 1963, P188.

(33)- سعيدوني ناصر الدين و بوعبدلي ، الجزائر في التاريخ " العهد العثماني " ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984، ص 70.

(34)- Don Diego de Haedo, Topographie et Histoire générale D'Alger, édition Bouchene, collection bibliothèque d histoire du Maghreb, 1998, PP129-130.

(35)- ليلى خيراني، واقع النساء، نفسه، ص 123-124.

(36)- سورة الكهف، الآية 46.

(37)- عائشة غطاس، الحرف و الحرفيون بمدينة الجزائر (1700-1830)، مقاربة اجتماعية اقتصادية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، ج1، جامعة الجزائر، 2001، ص 85.

(38)- م ش ع 1 (47).

(39)- م ش ع 145 (13).

(40)- م ش ع 2/22 (22) (8).

(41)- م ش ع 124 (47) .

(42)- نجوى طوبال ، طائفة اليهود بمجتمع مدينة الجزائر 1700-1830 من خلال سجلات المحاكم الشرعية ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث ، جامعة الجزائر ، 2005/2004 ، ص 113.

(43)- م ش ع 89 (27) .

(44)- م ش ع 49 (34) .

(45)- م ش ع 97/96 (33) .

(46)- شكيب بلحفري ، موقف الدولة العثمانية من الجالية الأندلسية بالجزائر 1573/1571 م ، المؤتمر الدولي الخامس للدراسات الموريسكية ، تونس ، 1992 ، ص 9 -14 .

(47)- و قد سماها دارندا باللغة الموريسكية " la langue Morisque و هي خليط من الاسبانية و التركية و الايطالية و البرتغالية و الفرنسية انظر :

- Emanuel Daranda, Relations de la captivité et liberté jean Monncist à l'enseigne de l imprimerie troisième édition, Bruxelle, 1662, P344.

(48)- م ش ع 97/96 (10) ، م ش ع 49 (11) .

(49)- م ش ع 147/146 (37) .

(50)- م ش ع 1/48(48) (60) ، م ش ع 97/96 (44) .
(51)- م ش ع 1/10(10) (41) ، م ش ع 77/76 (65) .
(52)- م ش ع 115/114 (26) .
(53)- م ش ع 97/96 (71) وهذه العائلة تولت منصبة وكالة الأوقاف.
(54)- م ش ع 62 (18) .
(55)- م ش ع 54 (21) .
(56)- م ش ع 38(59).
(57)- م ش ع 89 (63).
(58)- م ش ع 1/10(10) (60) ، م ش ع 152/151 (32).
(59)- م ش ع 77/76 (10).
(60)- م ش ع 1/10(10) (27).
(61)- م ش ع 1/27(27) (8).
(62)- م ش ع 55(13).
(63)- م ش ع 97/96 (18) و شاطبة jativa احدى مدن مملكة بلنسية سقطت عام 1247م و هناك بمدينة الجزائر مسجد الشاطبي هدم قبيل الاحتلال .
(64)- م ش ع 1/24(24) (2).
(65)- م ش ع 58(35)، م ش ع 1/28(28)(109).
(66)- م ش ع 102/101(40).
(67)- م ش ع 76(20).

الموروث الحضاري الأندلسي في شرشال

أة. بحيري يامنة
قسم التاريخ جامعة الجزائر 2

تنفرد حواضر المغرب بتاريخ اجتماعي وثقافي كبير ومهم ، وبالأخص تلك المواطن التي استقبلت الأندلسيين واستوطنتهم، ومن بين أهم المواطن التي تم اللجوء إليها منطقة شرشال التي تم استقرار الأندلسيين بها وتعايشوا مع السكان الأصليين، فكان إسهامهم كبير لازلنا نلمسه إلى اليوم في مختلف المجالات، ففيم يتمثل الموروث الحضاري الأندلسي في شرشال، وما هي أهم مظاهره؟

I- الهجرات الأندلسية إلى شرشال:

إذا كانت الأضواء قد ألقيت على الأقليات الأندلسية بالإيالات المغربية بعد طردهم النهائي، فإننا مازلنا نجهل الكثير عن الدور الذي لعبته منذ بداية القرن السادس عشر، وعلى جميع المستويات في الحواضر المغربية[1]، وما يلفت انتباهنا، في هذا المجال، هو نقص الدراسات تماما، حول الأقلية الأندلسية التي استقرت بشرشال.

فبعد سقوط غرناطة حوالي 1200 عائلة لجأت إلى شرشال ابتداء من 1492م، فأعادوا بناءها ونشطوا بها الزراعة ونسيج الحرير بالإضافة على صناعة السفن فعاشوا في رفاهية، وفي هذا السياق جاء في وصف إفريقيا للحسن الوزان عن دور الأندلسيين في شرشال "... حتى سقوط غرناطة في أيدي المسيحيين فقصدها الغرناطيون إذ ذاك، وأعادوا بناء عدد مهم من دورها، وجددوا القلعة، وزرعوا الأرضي بينهم، ثم صنعوا كثيرا من السفن للملاحة واشتغلوا بصناعة الحرير، لأنهم وجدوا كمية لا تحصى من أشجار التوت الأبيض والأسود، وتحسنت أحوال هؤلاء يوما بعد يوم، حتى أنهم أصبحوا يسكنون مائتين وألفا من

البيوت، ولم يخضعوا إلا لبربروس ، وكانوا يدفعون له ضريبة لا تزيد عن ثلاثماية دينار في السنة..."[2].

كما ذكر سارفونطاس Cervantès أن الأندلسيين كانوا يصنعون خاصة الأواني الطينية والحدادة ، ومعدات من الفولاذ والخشب ، فعاشت المدينة في رفاه بفضل مينائها وصناعتها ، مما سمح بتصدير كميات كبيرة من التين الجاف[3].

وانطلاقا من هذه المعلومات القليلة نستطيع استخلاص أن الفئة الأندلسية التي استوطنت شرشال، يعود أصلها إلى منطقة غرناطة، كما جلبت هذه الفئة معها مهارات في مختلف الصناعات، مثل الحرير والسفن والفخار والحدادة والخشب، واشتغلوا بالزراعة، وأدخلوا أنواعا من المنتجات الزراعية، التي لم تكن موجودة من قبل.

كما أحيت هذه الفئة مدينة شرشال التي كانت ميتة، بعدما هجرت شرشال أثناء حروب ملوك تلمسان وملوك فاس وبقيت خالية من السكان قرابة الثلاثماية سنة، حتى سقوط غرناطة أين لجأ إليها هؤلاء الأندلسيون وأعادوا بناءها وتعميرها[4].

2- دور الموريسكيين في حماية شرشال:

شهدت شرشال حملات صليبية، ففي سنة 1531م كلف الملك شارلكان الأميرال أندري دوريا بحملة لغزو شرشال، فأنزل هذا الأخير حوالي 1500 رجل قاموا بتحرير الأسرى المسيحيين، ثم قاموا بنهب المنازل[5]، ولما طلع النهار تجمع الأتراك الذين شتتهم الصدمة الأولى وانضموا إلى سكان المدينة وهم من الأندلسيين، وانهالوا على جنود أندريا دوريا، المثقلين بالغنائم، ففتحوا أبواب القلعة، وأحاطوا بالعدو، ومنعوا تجمع هذه الفرق، كما حالوا بينها وبين البحر، في حين كانت مدفعية القلعة تقذف الأسطول الإسباني، قدرت خسائر الإسبان 1400 قتيل في حين استولى الأتراك والأندلسيون على أكثر من 600 أسير[6].

من خلال هذه الحملة نستطيع الكشف عن الدور الذي لعبه سكان شرشال التي كانت مسكونة في الأغلب من قبل المهاجرين الأندلسيين، الذين يعرفون كيف يحاربون الإسبان فإلتحموا مع الحامية التركية واستطاعوا التصدي للحملة.

3- النسيج الاجتماعي لمدينة شرشال:

تميز النسيج الاجتماعي لمدينة شرشال بالتنوع ، منعزلة بين البحر والمرتفعات المجاورة. عرفت شرشال في القرن 10م الفاتحين الأوائل، ثم في أواخر القرن 15م وبداية القرن 16م اتصال أندلسي مهم تمثل في إقامة الموريسكيين بها الذين طردوا من اسبانيا[7]، وكذلك التواجد العثماني الذي تزامن مع تواجد الموريسكيين وخلف العنصر الكرغلي[8]، بالإضافة إلى الاحتلال الفرنسي في القرن 19م الذي ولد تواجد المستوطنين الأوربيين واليهود بالمنطقة[9].

وفي هذا السياق وجدنا وثيقة (عقد بيع)، من وثائق المحكمة الشرعية بشرشال يرجع تاريخها إلى رجب 1280هـ/ ديسمبر 1863م، تم فيها بيع من السيد محمد بن حمدين إلى السيد الحاج أحمد الأندلسي الغرناطي المغربي القاطن الآن بمدينة فاس "... وعليه ابتاع المكرم السيد الحاج أحمد الأندلوسي الغرناطي المغربي القاطن الآن بمدينة فاس بذكره احمر اللون عريض الوجه كثيف اللحية غليظ البدر متوسط القامة بغلة أنثى حمرة اللون تميل إلى الخضرة قوايمها السود من البايع له السيد محمد بن حمدين العطار القاطن بشرشال بثمن قدره سبعة وثلاثين دور افرانصوية ..."[10]، وعليه فإن التواجد والتأثير الأندلسي كان موجودا في النصف الثاني من القرن 19م.

4- الموروث الحضاري الأندلسي في شرشال :

أ- **المظهر الاجتماعي**: لقد حرص أفراد مجتمع مدينة شرشال على التمسك بتقاليدهم وعاداتهم الإجتماعية، والملاحظ على هذه العادات والتقاليد أنها تتشابه مع عادات مجتمع الجزائر العاصمة والبليدة والقليعة... إلخ، وهذا نظرا

للتأثر الذي شهدته كل الأوطان الجزائرية بعادات وتقاليد المجتمعات التي استقرت في المغرب العربي عبر العصور، من مسلمين وأندلسيين، وعثمانيين، فهناك عادات تخص الملبس والمأكل والمعيشة واحتفالات الزواج والختان وغيرها.

فمن خلال وثائق المحاكم الشرعية الخاصة بمدينة شرشال والتي تعود إلى النصف الثاني من القرن 19م، نستطيع استنتاج معلومات وتفاصيل وافية عن مختلف جوانب الحياة الإجتماعية داخل الأسرة الشرشالية، والمعروف عنها أنها لعبت دورا هاما في الحفاظ على الموروث الاجتماعي، والثقافي، والروحي الأندلسي[11].

- مميزات الزواج:

الخطبة: يتميز الزواج في مجتمع مدينة شرشال أولا بالخطبة، ثم ربط الحناء، فتتجه النساء إلى بيت العروس يحملن معهن الطبق فيه الحناء والشمع والخاتم، الحايك والصباط. أما المرحلة الثالثة فتتمثل يوم الفاتحة في دار القاضي -المحكمة الشرعية- أين يعقد عقد الزواج أمام القاضي بحضور الشهود، وبعد رفع الفاتحة توزع الشاربات والحلويات[12].

إن المراحل المذكورة نجدها تتطابق مع تلك المذكورة في إحدى الوثائق التي تعود لسنة 1283هـ الموافق 1867م "... ثم جعل لها الخطبة بالشهرة على أعين الناس في ذلك الوقت وربطت الحنا وصار بعد ذلك في كل موسم مثل المولود والأعياد وغيرها يودي لها الهدايا كما هي عادة أهل البلاد المرقومة والآن يريد أن يزف بها كونها صارت كبيرة وتم الأجل بل زاد عنه..."[13].

ونستخلص من هذه الوثيقة عادة أخرى ،تميز بها مجتمع مدينة شرشال ،وهي تقديم الخاطب -الرجل- لمخطوبته الهدايا، في كل موسم مثل المولد النبوي الشريف، والأعياد وعاشوراء... إلخ، كما ترسل أسرة الفتاة المخطوبة إلى منزل الخاطب -الرجل- أنواعا من الحلويات في كل موسم، وغالبا ما تكون من صنع الفتاة المخطوبة، مما يجعل أهل الخاطب أكثر رغبة وابتهاجا بها، وذلك أثناء فترة

الخطوبة، ولا بد من الإشارة أن هذه العادة لازالت موجودة إلى يومنا هذا؛ كما أننا لاحظنا نفس هذه العادة موجودة عند بعض العائلات النبيلة في سلا المغربية [14].

الصداق: اشتمل الصداق على مبلغ نقدي ومكونات أخرى كالقفطان والغليلة والحايك والحزام والجوهر، فبعضها كان للإسهام في تأثيث البيت الزوجي، والبعض الآخر شكل جزءا من جهاز العروسة، والملاحظ أن هذه الممارسات الشائعة عند مجتمع مدينة شرشال شبيهة بتلك التي بمجتمع مدينة الجزائر.

تعد الغليلة أحد المكونات الأساسية للصداق، وتعد أكثر الأزياء رواجا وشيوعا، ويلاحظ من خلال عقود الزواج، أن الغليلة هي اللباس التقليدي التي ظلت المرأة الشرشالية ترتديه خلال فترة القرن I8وI9م على عكس الدزيريات[15]. وصلت إلى شرشال عن طريق الأندلسيين، فالنساء الشرشاليات على اختلاف مستوياتهن، كن يرتدين زي الغليلة التي كانت تصنع من أقمشة متنوعة.

الحزام كان يلي الغليلة في صداق الشرشاليات، واختلف نوعه من حزام مذهب لبنات الطبقة الغنية، إلى حزام حرير ومخرمة، وسعره يتماشى والمبلغ النقدي للصداق كما هو شأن الغليلة[16]. وهناك من الأحزمة ما تكون من الصوف ويسمى هذا النوع من الحزام تكة يزخرف بشرابات طويلة من خيوط الصوف، ويلف حول جسم المرأة مرتين، بينما تبقى الشرابات متدلية من الأمام [17].

لازال هذا النوع من التكة (بنفس التسمية) متداولا عند العجوز الشرشالية حاليا، أما القفطان والذي يعود أصله للعثمانيين، احتوى عليه صداق الشرشاليات بشكل قليل، فقد اختصت به بنات العائلات الحضرية الثرية، كما اشترطت، هذه العائلات في صداق، بناتهن توفير الخادم.

حرصت هذه الأسر، ذات الجاه والمكانة ،الظهور بمظهر الأبهة والرخاء، فاشترطت في صداق بناتهن المصاغ الذي تكون من عدة أنواع مثل: "أزويج مقفول ذهب" و"مسايس ذهب" و"البزايم" و"الأونايس ذهب أو فضة" و"الرديف" و"الدح" و"الجوهر" و"الخلخال" و"الخاتم"[18].

وهكذا نرى أن المصاغ انحصر في الأسر ذات الحسب والنسب والثراء مثل عائلة دقيش -ابن مخلوف- الغبريني -المداح- ومزغراني... إلخ؛ أما الصوف فقد ورد ذكرها في حالة واحدة من صداق الغبريني بن عبد المالك الغبريني إلى يامنة بنت محمد بن قار حسان[19].

وقد قمنا بتصنيف مكونات الصداق الشرشالي في الجدول التالي:

جدول رقم I: أنواع الصداق ومحتوياته (استنادا على الوثائق المتحصل عليها)

نـــــوع الصـــداق	المـحتـــــــــــوى
المصـــــــــاغ	أونايس ذهب- حزام مذهب- أزويج دح ذهب- زوجاين مقفول ذهب وفضة- أزويج بزايم- خلخال فضي وذهبي- سلسة- صوار- سلطاني ذهب- خاتم- أمسايس- رديف- وقية جوهر.
الأمـــــــوال	نصف وربع سلطاني ذهب- زيانية- دورو- دراهيم فضة- سلطاني
اللبـــــــاس	قفطان- أملحفة- أغليلة- بليطة- حزام حرير- سروال الزنقة منور- قمجة شاش- حايك- محرمة حرير- أفريملة- قمجة حرير- تنشيفة الحمام- بنيقة- فوطة- حرير مور- عباية- أطراف منور (قماش)- تعجيرة- قمجة مالطي.

أثـــــــــاث	أمضربة- مطرح- مسند كمخة- مخدة فراش الكروصة- إيزار باب البيت شاش- إيزار الركنة مالطي وكتان- إيزار للفراش مالطي- إيزار الحط مخدوم بالحرير- مقاصة حوايج- حايك صوف للغطا- أمخايد كمخة- قطاعية طرطاق- إيزار منور وفي وسطه 3 حواشي حرير- صوف- مطرحه- إيزار فينه- كله ترتاق- مخدة مرقومة- قطاطع كمخة قطيفة.
مواد غذائيـــــة	طاسة سمن- قمح- خمارية دهان
الحـــــيوانـــــات	بقرة- مسنة- رأسين عتري
الخـــــــــــــادم	من جنس ذكر

والملاحظ كذلك في مكونات الصداق وجود مبلغ خاص بلباس الرجل أو الزوج يدفعه الزوج في الصداق مع "... مقاصة حوايج الزوج كما هي عادة البلد..."[20].

أما في الرباط فتسمى الكسوة، تجلب من طرف العروس إلى زوجها في جهازها، وربما هي عادة كانت سائدة في الأندلس جلبها الرباطيون معهم، كون أغلبهم كانوا من أصل أندلسي[21].

وعليه فإن الصداق، في مدينة شرشال، تحكمت فيه عوامل عدة أبرزها الإنتماء الاجتماعي، فارتبط غلاء المهر بالوضعية الإجتماعية للزوجة والزوج، بالإضافة إلى مكونات الصداق التي تعكس موروثا حضاريا لعادات وتقاليد تأثرت بالوجود الأندلسي في المنطقة، وهذا ما جعل بعض العائلات الشرشالية تتبنى الزواج على العرف، والفرق بين زواج الصداق وزواج على عرف سيدي أمعمر هو أن الثاني

لا يشرط فيه الصداق سوى لويزة أربعة دورو، أما الزواج على عرف سيدي مروان فصداقه لويزة اثني عشرة دورو[22].

وفي الأغلب أن هذه العادة انتقلت من منطقة تنس، مقر الولي سيدي أمعمر، وتبنتها بعض الأسر الشرشالية في أواخر القرن 19م وبداية القرن 20م، حسب عقود الزواج من وثائق المحكمة الشرعية ، وهذا نظرا لتدهور أوضاع معيشة المجتمع الشرشالي نتيجة أوضاع البلاد المحتلة.

الجهاز أو الشوار: نلاحظ أن كلمة شوار[23] هي المستعملة في مدينة شرشال إلى يومنا هذا، فمعظم عقود الزواج تحوي على مقدار الجهاز الذي تأخذه العروس ومحتوياته، وعادة ما يكون الأب أو الجد وحتى الأم المونين لجهاز ابنتهما.

والجهاز ليس أمرا مفروضا، بل هي عادة تنبع عن عاطفة الكرم والمجد والشهرة من الزوجة الجديدة وعائلتها، فالأب ليس ملزما بدفع الجهاز لابنته، إلا أن العادة والتقاليد يفرضانه حقيقة. واشتمل الجهاز أو الشوار، في مجتمع مدينة شرشال، على مكونات كثيرة وذات قيمة مبالغ فيها، ففي هذا الشأن يذكر لنا السلاوي، نقلا عن المراكشي في القرن 13م، كيف كان الأندلسيون المسلمون يبالغون في تجهيز بناتهن بجهاز ثري نتيجة الثراء والرفاهية التي كان يعيش فيها الأندلسيين[24].

تبدأ الأسر الشرشالية في تجهيز بناتها من وقت مبكر جدا، فهناك مثل شعبي قديم يردد في شرشال "مولات عامين وجديلها حجتاين" فتبدأ الأم بجمع محتويات الجهاز، فهذا فستان وهذه قمجة، ستائر، أو منشفة ويكون ذلك من مالها الخاص، أو من منتوج عملها، أو عمل بناتها في التطريز.

وعادة بنات الفقراء هن اللائي يطرزن للأثرياء وهذا لجمع المال لتجهيز أنفسهن بدورهن، فتحضير الجهاز يعد نوعا من التربية التي تتلقاها البنت من صغر سنها فهذا العمل يشغلها ويسليها ويكسبها رزقها وهي عادة تميز بها سكان فاس ووجدة والرباط[25].

يحوي الجهاز الشرشالي على مكونات منها القمجة -السروال -الفرملة -الخلخال -الإيزار -المخدة -الفوطة -التنشيفة -الغليلة -المحرمة -المضربة، فبعضها كان للإسهام في تأثيث البيت الزوجي، والبعض الآخر شكل جزءا من لباس العروسة ومجوهراتها[26].

تعد القمجة أحد المكونات الأساسية للجهاز فهي أكثر الأزياء رواجا، فالنساء، على مختلف مستوياتهن، كن يرتدين القمجة المصنوعة من أقمشة متنوعة ،فهناك الذهبية، والحريرية، وتلك المصنوعة بالشاش[27]، ويلي القمجة السروال[28] ويختلف نوعه من سروال للدار المجونح إلى المنور إلى سروال الزنقة، وحاليا يعد السروال من أهم الأزياء التي تلبس في الحفلات وخاصة العروس الشرشالية.

أما الفرملة فقد تنوعت بين المنورة إلى المجونحة إلى فريملة ذهب، اختصت بها معظم أجهزة بنات العائلات الشرشالية حيث كانت في متناول مختلف فئات المجتمع، وهذا لسعرها المقدور عليه، بالإضافة إلى الغليلة الديمي والمنورة والحريرية وغليلة الملف والمجونحة والغليلة الشامي التي حرجها فضة، ويليها المحرمة التي تنوعت من محرمة الفتول إلى محرمة الحرير إلى الذهبية، أما الفوطة فأغلبها مصنوع من حرير فلم تأخذها كل بنات شرشال في جهازهن بل القليل منهن، ثم التنشيفة والبليطة التي لازالت العروس الشرشالية تأخذها في جهازها الحالي، وعادة ما تكون من كتان مطرز بالحرير أو تصنع من خيط الصوف (بليطة الصوف)، وبنيقة الحمام التي بقيت المرأة الشرشالية تفضل استعمالها إلى وقتنا الحالي في الحمام، والتي تظهر براعتها في تطريزها.

كما ذكر كل من الحزام الحريري المذهب وأحزام حرير وبليغة الصوف والتكة المرقومة.أما المصاغ فمنه أزويج مقفول ذهب والخلخال، والمسايس، والاونايس ذهب، والبزايم، وعقد الصديف، والنقود الذهبية كالربع سلطاني ذهب والنصف سلطاني والسلطاني والزيانية.

ومن مكونات الجهاز، عند مجتمع مدينة شرشال، الفراش والأثاث مثل: إيزار الفراش، وإيزار الحط، وإيزار باب البيت وحايك الصوف، للغطا والمسند والمضربة والمطرح والمخايد والقطاعيات والصندوق[29]. وعليه فإن الجهاز الضخم اقتصر على بنات الخاصة وكانت هذه المكونات مكملة للصداق.

جدول رقم 2: أنواع الجهاز –الشوار– ومحتوياته (استنادا على الوثائق المتحصل عليها)

المصاغ	خلخال فضة– صندور– أونايس– مقفول ذهب– أمسايس– أربع ذهب قديم– أبزايم فضة بسلسلتهما– عقد صديف (أربعة أرباع ذهب)– أفرملة ذهب.
الأموال	ربع سلطاني ذهب– نصف سلطاني ذهب
اللباس	بليغة صوف– تكة مرقومة– أقمايج حرير– قمجة شاش– أغليلة مجونح– أغليلة جيم– فوطة مور حرير– أفريملة– حزام حرير مذهب– محارم لفتول– فوطة حرير– محرمة– محارم فلار– صروال منور– تنشيفة للحمام– أغليلة ملف– أفريملة ذهب– بنيقة الحمام– سروال الزنقة– بليطة– أغليلة شامي حرجها فضة.
أثاث	إيزار للفراش– مطرح– إيزار باب البيت– مضربة– أمخدة– الكلة– مسند– حايك صوف للغطا– صوف
الحيوانات	مسنة من بقر حمرا

ومن بين أهم العادات ،الموجودة إلى يومنا هذا ،هو إظهار هذا الجهاز إلى أهل وأقارب العروسة والضيوف. فيوم الحناء يتم إظهار الجهاز للمعازيم ويعرف ذلك "نهار يوريو الشوار" أين يتم عرض كل ما تم تحضيره من جهاز من لباس ومصاغ وأثاث، تفاخرا من أهل العروسة بين الناس عن محتوى وجودة المكونات من أنواع التطريز والحياكة، ثم يتم نقل الجهاز إلى منزل العريس من طرف أهل العروسة،

ليتم ما يسمى إلى يومنا هذا "بالتعلاق"، ويتم كذلك إظهار ما أخذت العروسة من جهاز إلى أهل زوجها، فكلما كان الجهاز ضخما وجيدا زاد من رضا وإعجاب أهل الزوج، ورفع من مكانة العروس عند أهل زوجها. وما نلاحظه أن هذه الممارسات موجودة في كل من الرباط وسلا كما ذكرها السلاوي.

الفطور: هي عادة تميز بها الشرشاليون، ففي اليوم الأول بعد الزفاف (البناء) ويسمى بيوم السبوحي، ترسل عائلة العروسة الفطور إلى العرسان الجدد المتكون من عدة أطباق متنوعة، من شربة وشطاطح وسلطات وجواز حلو والخبز (حلولة لعروسة) وأنواع الفاكهة والحلويات، وعادة ما يكون تحضيرها مكلف جدا. ويذكر السلاوي أن هذه العادة لازالت قائمة عند الرباطين بينما أهل سلا بدأوا يتخلون عنها[30].

ب – المظهر العمراني:

حي عين قصيبة: ساهم مهاجرو الأندلس، بدرجة كبيرة ،في النهوض بعمران المدينة،ويظهر ذلك من قول حسن الوزان : "... فقصدها الغرناطيون إذ ذاك وأعادوا بناء عدد مهم من دورها وجددوا القلعة... حتى أصبحوا يسكنون في مائتي ألف بيت..."[31]؛ كما أشار الرحالة الألماني هاينريش فون مالتيسان "... إلى أن أغلب منازل شرشال ذات الطابق الواحد وأكثرها مغطاة بالبلاط الملون ، وهي لطيفة المنظر إذا قيست بمنازل الأروبيين الشبيهة بالثكنة..."[32].

عرفت شرشال نهضة جديدة وذلك بقدوم الأندلسيين ومن بعدهم العثمانيين، فتنوعت مظاهرها العمرانية فمدينة شرشال كانت تتمثل في عين قصيبة، التي مرت عبر مرحلتين عرف خلالها نسيجها العمراني تطورا وتكاملا كبيرين، فالمرحلة الأولى تتمثل في الفترة الأندلسية (1492– 1516م) بنيت خلالها المساكن على محور مستقيم أما المرحلة الثانية تتمثل في الفترة العثمانية من 1516– 1840م عرفت خلالها عين قصيبة تطورا كبيرا.

أما المساكن فبنيت بنمط منتظم على شكل مجمعات سكانية منفصلة على بعضها البعض، فقد جاءت متراصة فيما بينها يتكون أغلبها من طابق واحد يتوسطها صحن مكشوف، تحيط به حجرات عديدة، وهذه الظاهرة منتشرة بكثرة في بلاد الأندلس، أما سقفها فجعل مائلا على جهة أو جهتين تكسوه قطع من القرميد النصف الأسطواني أحمر اللون[33]، والملاحظ على حي عين قصيبة أنه سمي بذلك نسبة إلى العين الموجودة شرق القصبة.

المسجد الكبير أو مسجد مئة عرصة: عرف مسجد شرشال باسم المسجد الكبير، كونه أكبر مساجد المدينة، وعرف كذلك بالمسجد الجامع ويعرف محليا باسم "جامع مئة عرصة" كان له أهمية كبيرة في المدينة، يعود تاريخه إلى القرن 10هـ (16م) بني على نمط مغربي من طرف مسلمي الأندلس على يد أبي عبد الله محمد بن سي عياد الأندلسي قاضي غرناطة. ومستشار تركي، وكان ذلك سنة 981هـ/ 1573م، حول المسجد إلى مستشفى عسكري أثناء الإحتلال، استعاد وظيفته الأصلية للعبادة في أكتوبر 1985م[34]، وصفه الرحالة الألماني هاينريش: "... بناية المسجد لقديم رائعة إلى ابعد حد، فصحونه الثلاثة تقوم على مائة عمود، ودعائمه لا تخلو من قيمة فنية، إلا أن معبد الإسلام هذا قد حول -للأسف الشديد- إلى مستشفى عسكري..."[35].

الحمامات: يوجد بحي عين قصيبة مجموعة من الحمامات يتمركز معظمها في الجهة الغربية بالقرب من الجامع الكبير (جامع مئة عرصة)، نذكر منها حمام صاري وحمام الصغير، وحمام سويلاماس، وحمام سيدي يونس الذي يقع في الجهة الشرقية من القصبة، ينسب هذا الحمام إلى الولي الصالح سيدي يونس الذي يوجد قبره بمسكن بحد عمارة الحمام من الناحية الجنوبية.

إن حفاظ بعض الحمامات على طبيعتها المعمارية التقليدية ذات الطراز الإسلامي، جعل سكان المدينة يحنون إليها في كل وقت والإقبال عليها مستمرا إلى اليوم[36].

جـ – المظهر الثقافي:

المنطوق العربي الشرشالي: لم تدرس اللهجات العربية للسكان الحضر في الجزائر إلى يومنا هذا، وخاصة تلك التي تميز الوسط الجزائري ومن بينها المنطوق العربي لأهل شرشال، أو بالأحرى لهجة أهالي شرشال، والتي تشكل أهمية كبيرة في جانب اللسانيات مع تلك التي بدلس والبليدة والمدية وملیانة وتنس، فاللهجات الموجودة بملیانة والمدية والبليدة قد تأثرت باللهجات البدوية المحيطة بها، ولكن اللهجات الأخرى لم تتأثر، فمن هذا المنطلق استطاع جاك قران هنري Jacques Grand'Henry, في كتابه "Le parler arabe de cherchell" أن يدرس المنطوق العربي الشرشالي، التي دلت التحقيقات على انه منطوق أصلي، فالمنطوق العربي الشرشالي يعود في العمق إلى أوائل الفاتحين في القرن 12م وبقي في مأمن عن التأثيرات البدوية والخارجية العربية، كما انه عرف في القرن 15و16م إضافة أندلسية مهمة مع مجيء الموريسكيين، بعد سقوط غرناطة، وهذا ما أعطاه خصوصية يتميز بها أهالي شرشال في هذا المجال[37].

وقد ذهب ناصر الدين سعيدوني في قوله أن هذه الخصوصية في اللغة التي نشرها الأندلسيون في الوسط الحضري بالجزائر ونواحيها هي "لهجة أهل الأندلس" التي كانت شائعة بغرناطة، وهي تتميز بمفرداتها اللطيفة وعباراتها الرقيقة فهي عكس لهجة باقي السكان الآخرين الذين يغلب عليهم الطابع البدوي. هذا وقد ساعد الأندلسيون بلهجتهم الخاصة على انتشار واستعمال العربية في المناطق الجبلية القريبة من شرشال والبليدة فأصبحت غالبية السكان تتكلم بجانب اللهجة البربرية المحلية، اللغة العربية الدارجة في مناطق شنوة وبني مناصر وبني صالح ... إلخ؛ لكن مع انكماش العنصر الأندلسي الموريسكي جعل هذه اللهجة يغلب عليها نطق أهالي الريف على المدن، ولم تعد آثارها باقية بعد الإحتلال الفرنسي للجزائر سوى في نطق أهالي شرشال[38].

الموسيقى الأندلسية: استطاع أهل شرشال أن يحافظوا على هذا النوع من الموسيقى إلى يومنا هذا، حيث تحوي شرشال على ثلاث جمعيات موسيقية أندلسية، تنشط لحماية هذا التراث الثقافي العريق.

وختاما فإن قدوم الأندلسيين إلى شرشال وغيرها من حواضر المغرب الأوسط أثر إيجابا وبشكل كبير في إثراء الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب، وأسهم في جعل سكانه يعيشون في عالم يعرف المدنية والحضارة والتعايش بين الأديان، امتزجت فيه شعوب وقبائل فأسهمت في بناء حضارة إنسانية راقية في المغرب الأوسط.

الهوامش:

(1) – التميمي عبد الجليل: "موقف الدولة العثمانية من المشكل الموريسكي"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 23 - 24، تونس، 1981، ص 190.

(2) – الوزان ، حسن بن محمد الفاسي (ليون الإفريقي). وصف إفريقيا ، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر ، ج I ، ط 2 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1983 ، ص 34 .

(3)- Cervantès, Miguel de Saavedra. Don Quichotte de la manche, Librairie de L. Hachette et cie, Paris ,1978, p 585

(4) – عباد، صالح . الجزائر خلال الحكم التركي 1514 - 1830، دار هومة ، الجزائر ، 2005 ، ص 19 .

(5) – المدني ، أحمد توفيق. حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492 – 1792 م ، دار البعث،الجزائر، ص ص 221 - 225 .

(6)- Haédo,Diego. Histoire des Rois d'Alger, éditions grand – Alger- livres , Alger , 2004.
pp 52- 53

(7) -Grand'Henry,Jacques . Le parler arabe de cherchell - Algerie -, éditions peeters, Belgique , 1972 , p 30

(8)- Guim ,L. « Notice sur la famille des robrini de Cherchell » ,R. A ,N° 17 , 1873, p 455

(9) – يامنة ، بحيري. مجتمع مدينة شرشال في النصف الثاني من القرن 19 م من خلال وثائق المحكمة الشرعية ، مذكرة لنيل شهادة ماجيستير ، السنة الجامعية 2006 – 2007 ، ص 110 .

(10)- أرشيف ولاية تيبازة . سلسلة المحكمة الشرعية ، وثيقة رقم 1371 عقد بيع بغلة بين محمد بن حمدين و أحمد الأندلسي الغرناطي . 14 رجب 1280 هـ -24 ديسمبر 1863 م سوف أشير إلى هذه السلسة فيما يلي على النحو التالي : - م – ش، و...

(11)– بحيري. المرجع السابق ، ص 71 .

(12) - Grand'Henry. O p, Cit , p p 181 – 183 - 185.

(13) – م – ش، و : 249

(14) - Es-Slaoui ,Abou beker tahir zniber . « Enquête sur le Trousseau - Choura - et le Sadaq au Maroc » , R . A , N° 86 , 1942 , p p 146 – 147.

(15) – توصلت الأستاذة غطاس ، عائشة. في أطروحتها. الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر (1700 – 1830 م) – مقاربة إجتماعية – إقتصادية ، أطروحة لنيل شهادة دكتراه دولة في التاريخ الحديث ، ج1 ، جامعة الجزائر ، 2001، ص 453 ، أن الغليلة ورد ذكرها في حالتين فقط مع الحايك في مكونات صداق الدزيريات من سنة 1700 م إلى سنة 1800 م ، فقد كانت مقتصرة على بنات الخاصة ، فذكرها عند صداق الدزيريات يعادل ذكر القفطان لدى صداق الشرشاليات " حالة واحدة " .

(16) – بحيري . المرجع السابق ، ص ص 137 – 138 .

(17) – طيان، شريفة . ملابس المرأة بمدينة الجزائر في العهد العثماني ، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية ، السنة الجامعية 1990 – 1991 ، ص 119 .

(18) – بحيري . المرجع السابق ، ص ص 139 – 141.

(19) – ذكرت الأستاذة غطاس في أطروحتها للدكتراه " الحرف والحرفيون ...." ، المرجع السابق ، ص 449 ، أن الصوف قد إحتلت المرتبة الثانية بعد القفطان في مكونات صداق الدزيريات من سنة 1700 إلى سنة 1800 م ، فقد ورد ذكرها في ستة وعشرين حالة ، بينما في مكونات صداق الشرشاليات فلم يرد ذكرها إلا في حالة واحدة وهي : – م . ش . و : 1077 .

(20) – م – ش، و : 622

(21) - Es-Slaoui . Enquête sur le Trousseau - Choura - et le Sadaq au Maroc , O p, Cit , p 123

(22) - Grand'Henry. Le parler arabe de cherchell , O p, Cit , p p189 -191.

(23) – يطلق عليه إسم الجهاز كما يسمى في بعض المناطق من الجزائر بالشوار، حيث ذهبت طوبال عن تأثر اليهود

بعادات مدينة الجزائر في إلتزامهم بتقديم جهاز للعروس ، بذكرها لما جاء في أحد العقود الخاصة بسجلات المحاكم الشرعية لمدينة الجزائر ، حيث ذكرت فيه كلمة تشوير " ....فبعد وفاة الذمي شموييل بن دحمان اليهودي ، انتقل أولاده

وهم هارون وسلطانة وعزيزة لحضانة عمهم الذمي إسحاق ، الذي طلب من الشيخ القاضي أن يأذن له ببيع نصيب

الأولاد في تركة والدهم وهو ثمن واحد من إحدى الدور، لإجراء النفقة عليهم ولتشوير (تجهيز) البنتين المذكورتين لتزويجهما ، ولضروريات احتاجوا إليها ، فأجابه إلى ذلك الشيخ القاضي ...." ، أنظر :

– م ، ش ، ع : 49 (59) من وثائق المحاكم الشرعية لمدينة الجزائر.

– نجوى ، طوبال . طائفة اليهود بمجتمع مدينة الجزائر ما بين (1700 م – 1830 م) من خلال سجلات المحاكم

الشرعية ، مذكرة لنيل شهادة ماجيستير ، السنة الجامعية 2004 – 2005 ، ص 102 – 103 .

– كما نلاحظ أن كلمة شوار هي المستعملة في مدينة شرشال إلى يومنا هذا ، أما في المغرب الأقصى فنجد مصطلح

الشورة هو المتداول عندهم .

(24) - Es-Slaoui . Enquete sur le Trousseau - Choura - et le Sadaq au Maroc , O p, Cit , p 120.

(25) -Idem , pp 135 -136.

(26) – بحيري . المرجع السابق ، ص 155.

(27) – طيان . ملابس المرأة بمدينة الجزائر في العهد العثماني ، المرجع السابق ، ص ص 100 – 102.

(28) – بحيري . المرجع السابق ، ص 158.

(29) – م – ش، و : 1029 – م – ش، و : 1621

(30) - Es-Slaoui . Enquete sur le Trousseau - Choura - et le Sadaq au Maroc , O p, Cit , pp123 - 125 -126.

(31) – الوزان. وصف إفريقيا ، المصدر السابق ، ص 34 .

(32) – مالتسان ، هاينريش فون. ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا ، تر: أبو العيد دودو ، ج I ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1973 ، ص 161 .

(33) – بوطبة ، محفوظ . دراسة أثرية لنماذج من العمارة العثمانية في مدينة شرشال ، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية ، السنة الجامعية 2007– 2008 ، ص ص 51 – 52 .

(34) – نفسه ، ص 59.

(35) – مالتسان . ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا ، المرجع السابق ، ص 163.

(36) – بوطبة. دراسة أثرية لنماذج من العمارة العثمانية في مدينة شرشال ، المرجع السابق ، ص 112.

(37) - Grand'Henry. Le parler arabe de cherchell , O p, Cit , p p 29 – 30.

(38) – سعيدوني ، ناصر الدين . دراسات أندلسية ، مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر ، ط I ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، 2003 ، ص 59 .

التواصل الثقافي للرّحّالة الجزائريين مع العلماء المغاربة في العصر الحديث

أة. ليلى غويني
جامعة الجزائر 2

جذب موضوع الصّلات الثّقافية بين أقطار المغرب اهتمام الباحثين، خصوصا أن مجتمعات المغرب العربي اشتركت وتقاطعت في مجموعة من الموروثات الحضارية. ولعل أبرز هذه الموروثات تقاسمهم الرقعة الجغرافية وتجانس شعوبها في العادات والتقاليد والسمات اللغوية والثقافية، والدينية والعقائدية لأفرادها. هذه القواسم المشتركة زادت من انتعاش التبادل والتواصل الثقافي والمعرفي، وقدمت دلالات على أن العلاقات الثقافية ببلاد المغرب ظلت قائمة ومستمرة لم تؤثر عليها الظروف السياسية عبر التاريخ.

واستمرت هذه الصلات الثقافية والعلمية في فترة العصور الحديثة بواسطة انتقال طلبة العلم بين الحواضر الثقافية في هذا المجتمع المغربي الكبير. كما كان للرحالة دور بارز في توطيد هذه الصلات وأهميتها في إثبات درجة التبادل والتأثير والتأثّر على جميع الأصعدة، بدءًا من الاحتكاك بين أهل العلم وتلقائيته إلى الإنتاج الفكري الذي تبلور في كتب الرحلات، إذ أنها تعكس نظرة الرحالة الذين عرفوا وتعرفوا على علماء في الجزائر وتونس والمغرب الأقصى وليبيا.

ولم يخلُ تاريخ المغرب الإسلامي عبر العصور من مؤلفي الرحلات الحجازية منذ ظهورها. فقد أنتج هذا الفضاء الجغرافي رصيدا كبيرا أسهم في الحصول على تراث فريد من نوعه. وردت في شكل نصوص نثرية، أو شعرية؛ وفي هذه المقالة محاولة لتسليط الضوء على أهم الرحلات الجزائرية التي أمكن الإطلاع عليها، من خلال نماذج تبرز ملامح التفاعل الثقافي الذي عايشه الرحالة في تونس والمغرب الأقصى.

1- "**رحلة المقري في المشرق والمغرب**"، لأحمد المقري (986-1041هـ/ 1558-1632م)، يُعدّ صاحبها من أهم الشخصيات العلمية التي عاشت في القرن الحادي عشر هجري/ السابع عشر ميلادي ذاعت سمعته في كل المغرب والمشرق [1]. وخلّف ثروة هائلة من المؤلفات في شتى فنون الأدب والفقه والتاريخ والعقائد منه ما طبع، في حين بقيت أغلب أعماله في حكم المخطوط أو المفقود [2].

2- رحلة ابن حمادوش المسماة: "**لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال**" ومؤلفها هو عبد الرزاق بن محمد بابن حمادوش(1107هـ/ 1695م أو 1694م/ 1197هـ/ 1783م و1200هـ/ 1786م) [3]. وينفرد ابن حمادوش عن معاصريه بالتخصص العلمي، ومع ذلك لم ينقطع عن تيار عصره، فكان من المهتمين بالفقه والتصوف والتاريخ وحب السفر، له قائمة طويلة من التّآليف، لا نستطيع حصرها في هذه العجالة [4].

3- الرحلة الورثلانية "**نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**"، لحسين الورثيلاني (1123هـ-1193هـ/ 1713-1779م) [5]، من بني ورثيلان، وأدى فريضة الحج ثلاث مرات [6]، فجمعت هذه الرحلة بين التحصيل العلمي ومقاصد الحج، فأثمرت حصيلة ثقافية، أتاحت له فرصة أن يعرف ويتعرف على عدد كبير من علماء فارتفعت مكانته، وذاع صيته ليس في بيئته فحسب بل في المغرب والمشرق. وخلّف الورثيلاني مجموعة من المؤلفات في الفقه وفي أصول الذّكر على الطريقة الصوفية الشاذلية، وأعمالا شعرية تتمثل في قصائد مدح الرسول عليه الصلاة والسلام [7].

4- رحلة "**فتح الإله ومنته بالتحدث بفضل ربي ونعمته**"، لأبي راس الناصر(1150-1238هـ/ 1737-1823م) [8]، أحد أعلام القرن الثامن عشر، ذاع صيته في المغرب والمشرق، اكتسب ثقافة واسعة بانكبابه على المطالعة واتصاله بالعلماء، فكان كثير الحركة والسفر، حيث انتقل إلى العديد من الأقطار الإسلامية، وتعرّف على أوضاعها واتصل بعلمائها، وأسهم مساهمة عظيمة بتآليف كثيرة ومتنوعة لأحداث القرن الثامن عشر ميلادي السياسية والثقافية [9].

فكيف ساهمت هذه الرحلات في التواصل العلمي بين أعلام هذا الفضاء الجغرافي؟ وإلى أي مدى عكست نصوص الرحلة ملامح التفاعل الثقافي في بلاد المغرب عامة ؟

لقد اتخذ مسار الرحلات الحجازية الجزائرية الطريق البري والبحري المعروف اتجاه الحجاز. وكانت إيالة تونس نقطة عبور إلزامية. وعليه فإن جلّ كتب الرحلات تحدثت عن هذه المدينة وعن علمائها.أما بالنسبة للمغرب الأقصى وبالرغم من أنه لا يدخل في المسار الجغرافي للرحلة إلى الحج بالنسبة للجزائريين، إلا أن جُلّ رحالة الجزائر أسهبوا في التحدث عنه وعن الحركة الثقافية فيه. ويعود هذا إلى المكانة العلمية وشهرة مراكزه التعليمية. وانعكس هذا في إنتاج حصيلة ثقافية هامة تمثلت في الإجازات المتبادلة وعقد المجالس والمناظرات العلمية وحلقات التدريس والرسائل الإخوانية ونصوص التلغيز التي دارت بينهم وبين نظرائهم العلماء. ومن خلال الفقرات الآتية أدناه يمكن أن نلاحظ ملامح التواصل العلمي الجزائري -التونسي، الجزائري- المغربي.

أولا: الإجازات المتبادلة:

تعتبر الإجازة في ذلك الوقت شهادة يمنحها الشيخ للطالب يأذن له من خلالها أن يروي عنه كتبه ومروياته ونظراً لأهميتها، اهتمّ أهل العلم بالحصول عليها من العلماء ذوي الشهرة الكبيرة والعلم الوافر[10]. فبالنسبة للمقري الذي اتخذ المغرب الأقصى موطنا ثانيا له بعد الجزائر، ومكث به أكثر من خمسة عشر عاما، كوّن خلالها علاقات وطيدة مع العلماء،والفقهاء و القضاة و الحكام. وقد أحسن المقري في وصف الحركة الثقافية بحاضرتي فاس ومراكش، بتأليف كتابه المشهور: "روضة الآس العطرة الأنفاس في ذكر من لقيتهم من أعلام الحضرتين مراكش وفاس"، الذي وضع فيه تراجم العلماء وكل العلاقات العلمية التي عرفها خلال إقامته[11].

أما كتاب الرحلة فامتاز بمجموعة من الإجازات النظمية والنثرية، بلغت حوالي عشرين إجازة تبادلها المؤلف مع العلماء عصره . فساهم بذلك في التعريف بأهم أعلام الفكر في ذلك العصر. ولعلّ هذا ما جعل الرحلة تتميز بكونها مرآة لمختلف مظاهر النشاط الثقافي للمغرب والمشرق.

ومن جملة العلماء الذين أجازهم المقري وهو بالمغرب الأقصى: العالم محمد بن قاسم الشهير بابن القاضي [12] أحد أفراد عائلة ابن العافية الشهيرة بفاس، فأذن له برواية كل مروياته ومؤلفاته النثرية والنظمية، وسرد جملة من الأسانيد، كما ذكر عدم إجازته التامة للمختصر حيث قال في نص الإجازة : "**... وقد روى عني بعض المختصر**" [13]، وهذا دليل على اهتمام المُجيز بتفاصيل الإجازة التي تعبر عن شهادته العلمية. أما إجازته للعالم محمد بن يوسف التاملي [14]، فتوجه هذا العالم إلى فاس في أواخر سنة 1026هـ/ 1617م، حيث نزل عند المقري بغرض العلم، والحصول على إجازة منه، فنظم قصيدة في ذلك، نقتطف منها البيتين التاليين:

ويرقب منكم إجازتكم له بمرويكم عسى تكون له زلفى
وينشركم بيتا تقادم عهده لصاحب ود إذ ينادي به ألفا [15]

وجرت العادة عند العلماء بالردّ على طالب الإجازة بنفس خطابه، فجاءت إجازة المقري منظومة في اثنين وعشرين بيتا من بحر الطويل، أذن له فيها برواية جميع تآليفه وكعادته أورد المجيز أسانيده وإقراره بشهادته فقال:

وها أنا أشهدت أني أجـــزتكم على السنن المعلوم والمقصد الأوفى
جميع تآليـــفي ونظمي وإن هي ونثري وإن جاز الركاكة والضعفـا
وكل الذي أرويه عمن لقيت من أساتذة الغر الألي أحسنوا الرصفا [16]

إذا كانت الإجازات السابقة الذكر تمت بين المقري وعلماء المغرب الأقصى أثناء إقامته فيها، وعرفتنا على صيغة الإجازة في المغرب العربي في نهاية القرن

السادس عشر، وعن البعد العلمي المتبادل بين أهله، فإن المقري أورد في رحلته نماذج أخرى من الإجازة أظهرت علاقات المغاربة ببعضهم البعض، وتواصلهم المستمر حتى وهم بالمشرق. وعلى سبيل الاستشهاد نذكر إجازة المقري للعالم أبي بكر السنوسي [17] وهو بمصر [18].

أما عن إجازات المقري وهو في تونس، ولأنه ذو منزلة علمية وأدبية معروفة، فقد جلب اهتمام علمائها، وبالرغم من أن مدة إقامته بها لم تكن طويلة إلا أنّ أثرها العلمي كان واضحا في رحلته، وتمثل في إجازاته لأبرز العلماء بها في ذلك الوقت. أولها إجازاته [19] للشّيخ تاج العارفين التّونسي [20]، التي كانت عبارة عن نظم احتوى على ثلاثة وأربعين بيتا من بحر الطويل. خصص المقري القسم الأول منها للحديث عن واقع الثقافة في تونس، وكيف كان مزدهرا ومشعا سابقا. أما فيما يخص القسم الثاني، فتضمن الإقرار بالإجازة. والملاحظ أن المقري أجاز تاج العارفين في جميع مروياته ومؤلفاته، واستعرض عددا من الفهارس التي تضم بعض الأسانيد، كما ذكر سنة الإجازة ومكان تحريرها [21]. ولم يسفر هذا اللقاء على الإجازة فقط؛ بل أظهر صورة أخرى من مظاهر الاحترام والود المتبادل بين العلماء المغاربة، حيث قدم العالم التونسي هدية لمجيزه، هي تعبير عن المحبة والاحترام والامتثال لقول الرسول عليه الصلاة والسلام: **"تَهَادَوْا تَحَابُّوا"**. وعبّر المقري عن امتنانه وفرحته بالهدية بنظم قصيدة طويلة، حملت الكثير من معاني الشكر والاحترام. وقدمت هذه المنظومة صورة عن المميزات الأدبية للعصر من حيث حسن اللغة والأسلوب المستعمل لغرض المدح والشكر، واخترنا منها هذه الأبيات:

يا حادي البزل الضوامر يشدو بذكرى أم عامر
وإليك تاج العـــــارفين قصيدة تحكي تَمَاضِر[22]

أمّا لقاؤه العلمي الثاني فكان مع الشيخ أبي القاسم محمد بن جمال الدين بن خلف المسراتي[23]، الذي اغتنم فرصة لقائه بالمقري لطلب الإجازة فأجازه بمنظومة قصيرة حوت ثمانية أبيات، أعطاه من خلالها الإذن برواية جميع مؤلفاته ومروياته.

وإذا كان المقري قدّم نماذج لإجازاته لأهل تونس، فإن أبا راس قد ذكر إجازات علمائها له. وأول إجازة مُنحت له من طرف العالم أحمد بن عبد الله السنوسي المغربي النجار التونسي الدار. وقد أذن له بالرواية في جميع ما يتعلق بالدين وأصوله وفروعه والمسائل الفقهية بنص إجازة نثرية أقر أبو راس أنها كانت مكتوبة بيد المجيز حيث قال: "**وكتب لي بخط يده...**" إلا أنه لم يورد نص الإجازة كاملة، واكتفى بذكر طلبه هو للإجازة [24]. أما إجازته الثانية فكانت على يد العالم المشهور محمد بيرم الأول[25]، وقد قرأ عليه فقه أبي حنيفة بـ"مختصر الكنز[26]" والجدير بالذكر أن أبا راس كان يذهب إلى داره ومقره[27].

وفي ما يخص ابن حمادوش فتعدّدت اختياراته لأساتذته وهو بالمغرب الأقصى بحسب هدفه وغرضه العلمي، فلازم مجموعة من الشّيوخ بقصد الإجازة. واختار مجموعة أخرى بهدف التّحصيل العلمي. و من خلال قائمة أسماء المشايخ الواردة في رّحلته عرفنا أكثر المدرّسين شهرة بالمغرب الأقصى بشكل عام، وفي مدن تطوان وفاس بشكل خاص. كما عرفنا أسلوبهم في كتابة الإجازات وطريقتهم في التدريس. ومن أهمهم الشّيخ البناني [28] الذي حضر ابن حمادوش دروسه، وطلب منه إجازة بقصيدة من اثني عشر بيتا، نقدّم البيتين اللذين ورد فيهما طلب الإجازة [29]:

أَجِزْنِي وأَطْلِقْ لِي رِوَايَةً كُلَّمَا رَوَيْتَهُ عَنْ أَشْيَاخِ عِزٍّ أَوْ فِي الطُّولِ
ووَشِّحْ بِخَطِّكَ الشَّرِيفِ إِجَازَتِي فَذَاكَ لَهَا الزَّهْرُ النَّضِيدُ مَعَ الفُلِّ

ولم يخيّب البناني قاصده، فسلّمه إجازة مكتوبة أذن له فيها برواية كل ما سمعه عنه من مقروء أو مسموع، كما أنّه سمح له برواية كلّ مؤلّفاته، والتي ذكرها في نص الإجازة المؤرّخة في أواخر محرّم سنة 1156هـ/ 1743م [30].

كما حضي ابن حمادوش بمدينة فاس بحضور دروس الشّيخ أحمد بن المبارك الذي قرأ عليه مختصر السّنوسي في المنطق. فتقدّم إليه بطلبها بقصيدة طويلة من ثلاثة

عشر بيتا إلا أن ابن حمادوش لم يحصل على الإجازة المرجوّة بخط أستاذه، لأنّ هذا الأخير وافته المنيّة إثر إصابته بمرض الطاعون. لكنّ الرّحالة أصرّ على شهادة تثبت إجازة ابن المبارك له حول مختصر السنوسي، فتوجّه إلى القاضي بوخريص [31] يطلب منه شهادته على إجازة ابن المبارك له. فقبل وكتب له إجازة أقرّ فيها إجازة ابن المبارك، كما أضاف إجازته هو أيضا لابن حمادوش، وهي مؤرّخة في السّابع والعشرين من جمادى الأولى سنة 1156هـ/ 1743م [32].

ثانيا:المجالس والمناظرات العلمية:

تعتبر المجالس والمناظرات العلمية من أهم المظاهر الإيجابية التي ساهمت في إثراء الحركة الثقافية، وساعدت على امتزاج عناصر المجتمع باحتكاك الفقهاء وأدباء العصر. وامتد تأثيرها إلى معالم الحياة كلها، بما فيها الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، لتنوع موضوعاتها واتساع دائرة المناقشات حول مسائل الأمة.

لقد تمكن كل من الورثيلاني وأبي راس من خلال إقامتهما في تونس من إعداد مادة الجزء الخاص بتونس من رحلتيهما. فحفلت شهادتهما بشتى الأخبار وأنواع الثقافة عن معظم المدن التي توقف عندها الرحالة، سواء في الذهاب أو الإياب. ولا شك أن جهودهما كان لها تأثيرها الكبير في إبداء ملاحظات هامة عن هذا الميدان. كما أنها مثال للتعاون الثقافي المشترك بين الجزائر وتونس، الذي كان يتم بشكل عفوي بين الرحالة الجزائري والعالم التونسي.

وفيما يخص الأجواء العلمية التي عاشها الرحالة بتونس، والتي أثمرت رصيدا فكريا هاما، فقد اتفق الرجلان على التطرق لأهم مركز علمي بها، ألا وهو جامع الزيتونة الذي ظل على مرّ العصور يلعب دورا كبيرا في تقوية العلاقات الثقافية بين أهل المغرب الإسلامي كافة، ويقدم كلاهما شهادته حول النموذج العام للمجلس الزيتوني وآلياته. يقول الورتيلاني: "...**وكذا المجتمعون في**

جامع الزيتونة للإقراء والتدريس فتقصر العبارة عنهم عن عدهم..."[33]، أما أبو راس فقال: "**... واجتمعت مع العلماء بجامعها الأعظم، فتذاكرنا وتناظرنا وترافعنا وتشاجرنا وتقابضنا في جميع الفنون الدقيقة والمسائل المخفية...**"[34]. ونستخلص من كلامهما ما يلي:

1- امتاز المجلس الزيتوني بقوة الحاضرين من أهل العلم والسلطة، حيث ذكر أبو راس حضور حاكم البلاد حمودة باشا.

2- اتساع دائرة النقاش بين العلماء في جميع العلوم والفنون ومسائل العصر، كما اهتم المتناظرون بدقائق المسائل الخفية، وفي هذا الصدد يذكر أبوراس مثال حيا عن المواضيع التي تدخل حيز المجلس الزيتوني في قوله: "**... وسئلت بتونس عمن انتقل من مذهب إلى مذهب، ومن انتقل للاجتهاد، ومن كان يفتي بالمذاهب الأربعة، وعمن قلد غير الأربعة...**"[35].

3- بقي جامع الزيتونة يثبت فاعليته واستمراره في النشاط العلمي المغربي حتى في مرحلة عُرفت بالركود الثقافي.

كما اشتملت الرحلتان على عدة نماذج أوضحت قوة الاحتكاك والتواصل بين الرحالة ورجال العلم، مع التباين في طرح هذا التفاعل. كما انعكست ثقافة كُلّ رحالةٍ في كتابته للموضوع بحسب ميوله العلمية والشخصية. ومن هنا كان اهتمام الورتيلاني بذكر أسماء العلماء الذين لقيهم في كل مدينة مع الحديث عن الأولياء والأضرحة، متأثرًا بثقافته الصوفية، أما أبو راس فنظرا لتمتعه بثقافة واسعة الآفاق متعددة الفروع، فقد أتاح له هذا التوسع و التنوع أن يتحدث عن مشاركته في عدة مناظرات وحوارات مع أعلام تونس.

هذا؛ ونلاحظ أن الورتيلاني تطرق إلى واقع الثقافة بتونس والعوامل التي ساعدت على انتعاشها، ويتبين من شهاداته أن الازدهار العلمي الذي عرفته الدولة التونسية في هذه الفترة يرجع إلى عدة عوامل، أهمها: تشجيع حكامها للحركة الفكرية، وذلك عن طريق تقرّبهم من الفقهاء والعلماء والاهتمام بإقامة

المنشآت الثقافية في مختلف المدن، كبناء المدارس والمساجد[36]. كما أن انشغال الحكام بأحوال الثقافة والحركة العلمية كان دافعًا مؤثرا في إبراز مؤشر هام، وهو ارتفاع عدد العلماء والمؤسسات التعليمية بالحواضر التونسية التي أصبحت قبلةً لعلماء المغرب الإسلامي، خاصة منهم المتوجهين لأداء فريضة الحج.

ومن جهة أخرى نلاحظ أن الورتيلاني زار العديد من المدن التونسية، وتوقف بمؤسساتها العلمية وتفاعل مع أهلها وتحدث عن مدرسيها وفقهائها وعلمائها وما وقع له من مناظرات ومجالس معهم. كما تطرق أيضا إلى ذكر أهم الأضرحة المعروفة بتونس. أما أبوراس فقد دخل تونس عازمًا على حضور مجالسها ومناظرة علماءها[37]. فأبلى البلاء الحسن في جميع مجالسه ومناظراته. وكانت كثيرة ومتنوعة المواضيع، لم يقتصر حديثه على ذكر المجالس العلمية المنعقدة بجامع الزيتونة فحسب. بل عمل على الإفادة والاستفادة بحضوره المجالس الخاصة. وقد ذكر في رحلته عدة نماذج من هذه المجالس كحضوره مجلس حاكم البلاد الذي دعاه إلى مجلسه الخاص وأكرمه وطلب منه تفسيرات عن أصل تسمية قسنطينة ومدينة القيروان، وعن مسائل أخرى[38]. وقد استحسن حمودة باشا إجابات أبي راس كثيرا وأكرمه. الأمر الذي أثار حسد بعض أقرانه. وقد أشار الرحالة إلى هذه الظاهرة في رحلته[39].

كما تحدث عن حضوره مجلس القضاء للقاضي محمد بن المحبوب[40]، وأسفر هذا عن مشاركته في حل بعض القضايا، منها قضية "الخصمان في حضانة" ولما أثبت الرحالة قدرته في حلها، صار القاضي بن المحبوب يشاوره في النوازل المرفوعة إلى مجلسه[41].

ولم يقتصر الرحالة على ذكر مجالسه واجتماعاته العلمية فقط، بل قدّم في رحلته أمثلة حية للقاءاته الودية مع بعض علماء تونس الذين استضافوه في بيوتهم، ومنهم الشيخ أبو سعيد الباجي الذي دعاه إلى بستانه في قرية الغوث[42].

وفي ما يخص مجالسه في جوامع فاس، فإنه كان شحيحا في إعطاء معلومات حولها، واكتفى بذكر المدرسين وموضوع الدرس، فذكر أن الشيخ محمد بن بنيس[43] يقدم تفسير ابن عطية، وحضر أبو راس يوم ختم المختصر في مجلس[44] الفقيه الهواري[45] والعالم الزّروالي[46].

أما ابن حمادوش فقدم تفاصيل مهمة حول مجالس التدريس ببعض المدن المغربية كتطوان، ومكناس وفاس. كما أنه ساهم هو الآخر في هذه الحركة من خلال توليه تدريس كتاب المقنع [47] بجامع تطوان، حيث أذن له كل من الشيخ البناني والورززي بتدريسه لطلبته[48]. كما تصدّى لتدريس كتاب "روضة الأزهار في علم وقت الليل والنهار" ومن بين طلابه الطالب عبد الله جنان[49]، ولم يذكر ابن حمادوش أنه أجازه[50].

ثالثاً: المراسلات المتبادلة

تعد المراسلات بين العلماء حجر الزاوية في دفع العلاقات العلمية والثقافية وتوسيع رقعتها وتعميقها، وتتنوع الرسائل بحسب الغرض المقصود من كتابتها، وتضمنت رحلة المقري بشكل خاص رسائل عديدة يمكن تقسيمها إلى أربعة أنواع:

I- **المراسلات لغرض التقريظ:** يعتبر التقريظ من أهم الصور التي تعبر عن التواصل الفعلي بين أهل العلم، بحيث يعبّر المقرِّظ عن اهتمامه بأعمال غيره من العلماء. ويلعب هذا الأمر دورا هاما في التعريف بأعمال المقرَّظ له؛ ومما لا شك فيه أن أعمال المقري كانت تجد استحسانا كبيرا من العلماء، لنبوغه في الكتابة وانفراده بكثرة التأليف. وقد لقي كتاب "أزهار الرياض" صدى كبيرا في أوساط علماء المغرب الأقصى الذين استحسنوا هذا العمل كالعالم المكلاتي[51]، الذي ألف تقريظا مميزا في قصيدة طويلة كانت الأبيات الخمسة عشر[52] الأولى منها تشيد بمؤلف "أزهار الرياض"، بينما جاءت الأبيات الاثنتا عشر[53] الأخيرة لمدح المقري في تصنيفه "للأزهار" إلى"روضات". أما العالم الحسن بن علي الفاسي الشامي [54] فكان تقريظه حول نفس التآليف أدق وأطول وأشمل، فقد خصَّ المقرظ كل روضة من

روضات الأزهار بمقطوعة شعرية، وفي الحقيقة لم يكتف الشامي بمدح الأزهار بالمقطوعات السابقة فقط، بل كان كلّما سنحت له الفرصة يتقدم بمقطوعات شعرية أو نثرية[55] تُوفِي غرض المدح والاستحسان لهذا العمل.

2- **مراسلات لغرض علمي:** من أهم الرسائل المتبادلة بين المقري وعلماء المغرب والتي تهدف إلى التعاون العلمي، وتبرز مدى تواصل العلماء المغاربة فيما بينهم وهم بالمشرق، رسالة أبي بكر السوسي[56] التي تحمل بعض الأسئلة الفقهية. كحكم تارك الصلاة وآداب الصلاة، ومناسك الحج. وقد اختار صاحبها الأسلوب الشعري الذي كان منتشرا ومستعملا كثيرا وقتئذٍ[57].

3- **مراسلات لغرض التلغيز:** أما فيما يخص المراسلات لغرض التلغيز، فهذا اللون الأدبي كان معروفا في ذلك الوقت بين أهل العلم. وهو صورة من صور الاجتهاد الفكري والأدبي لإبراز الذكاء والحنكة بأسلوب ترفيهي. فثمة نموذجان فقط في الرحلة. الأول: كان من العالم ابن الناصر الفاسي، الذي استطاع حل "ملغز الكتاب"[58] للمقري بمقطوعة نظمية في ثمانية أبيات، نستخرج منها إجابته على اللغز:

إِنَّ الرُّبَاعِيَّ الَّذِي كُنْتَ قَدْ أَلْغَزْتَ فِيهِ ظَاهِرٌ مِنَ الكِتَابِ
ولَسْتُ بِالتَّعْرِيفِ يَوْمًا لَهُ مُبِينًا خَوْفَ لُحُوقِ العِتَابِ[59]

أما اللغز الثاني فكان مع أبي الحسن الشامي، الذي يبدو أنه كان من المهتمين بكل فروع الثقافة، فقد وجدناه في التقريظ وحلقات التدريس والتلغيز، وأظهر الشامي مهارته الأدبية وذكاءه في طرح ملغز "الأمس" في قصيدة طويلة من ثلاثة وثلاثين بيتا[60]، على قرينه المقري، الذي اقتصرت إجابته في حل اللغز في مقطوعتين[61]، كل واحدة منهما من ثلاثة أبيات فقط، فأظهر حنكته ودهاءه في فهم وحل اللغز.

4- مراسلات عامة: نعني بالمراسلات العامة الرسائل الإخوانية المتبادلة بين العلماء بقصد التهنئة أو التوديع أو للمجاملة. ومع أن هذه المراسلات تعتبر شخصية، إلا أنها تعبيرٌ صادق للتواصل الفعلي والعفوي. كما أنها تحمل تفاصيل هامة ليس فقط حول العلاقات بين الأفراد فحسب بل إنها تقدم صورة واضحة حول قضايا اجتماعية وسياسية.

وفيما يخص هذا النوع من المراسلات، فقد بعث الفقيه علي بن عبد العزيز السوسي برسالة للمقري الذي كان على جناح السفر بميناء تطوان. يودِّعه فيها بمنظومة من تسعة أبيات أبدى فيها مشاعر الألم والحزن والفراغ الذي سيتركه المقري في نفوس أهلها من العامة والخاصة[62]. أما رسالة عبد العزيز الفشتالي[63] إلى المقري، فتكشف رؤية جديدة حول اهتمامات العلماء وتواصلهم. حيث وضع صاحب الرسالة أسماء عديدة من علماء العصر، الذين بعثوا السلام للمقري في هذه الرسالة.

أما عن رسائل المقري لبعض أعلام المغرب، فقد أورد نموذجين. الأول: رسالته إلى شيوخ الزاوية الدلائية، والثانية: فكانت إلى زعيم أحمد النقيس المتمرد على السلطة السعدية. ومع أن هذه المراسلات ليس لها غرض ثقافي، إلا أنه لا يمكن إنكار دورها في إبراز جانب من حياة العلماء، وهو إسهامهم واهتمامهم بقضايا عصرهم، سوءا كانت اجتماعية ،مثل ما ورد في محتوى رسالة المقري لأعلام زاوية دلاء. أو سياسية كما جاء في رسالته إلى زعيم حركة التمرد أحمد النقيس[64].

رابعا: المصنفات العلمية المتداولة في بلاد المغرب

إن النشاط الذي عرفته حركة تبادل الكتب وشرائها ونسخها هي من أهم أوجه التفاعل الثقافي بين بلدان المغرب، فذكر الرحالة الجزائريون عددا لا بأس به من عناوين الكتب التي اشتروها أو نسخوها أو استعاروها وهم في طريقهم إلى الحجاز. فقد أشار المقري إلى استعارته لشرح البردة والشقراطية من قرينه العالم

الشامي [65]. وبالمقابل نجد علماء المغرب يهتمون أيضا باستعارة الكتب والمؤلفات من الرحالة. فتحدث أبو راس عن إلحاح أحد علماء فاس عليه لإعارته مؤلفه "درة الحواشي على شرح الشيخ الخراشي" [66].

كما اهتم الرحالة بالتعريف بالإنتاج العلمي لعلماء المغرب ونذكر على سبيل الاستشهاد أهم هذه المؤلفات: "اختصار معالم الإيمان وروضات الرضوان في مناقب المشهورين من صلحاء قيروان"، ومن الشروح: "شرح الشقراطية، شرح الرسالة القشيرية"، "شرح ابن عاشر"، "شرح الوغليسية"، "شرح المختصر"، "شرح البخاري" ،أما الحواشي فإن جلّ علماء بلاد المغرب قدموا حواشي على نفس المؤلفات، منها "حاشية على العقيدة للسنوسي"، "حاشية على القصائد القادسية"، "حاشية على المقامات وحواشي حول صحيح البخاري، حاشية على ألفية ابن مالك، حاشية على ألفية العراقي.

ولم يقتصر الرحالة على استعارة وتبادل الكتب وذكر أعمال العلماء المغاربة، بل قاموا بالمشاركة في حركة التأليف أثناء ترحالهم، فقد كتب أبو راس مؤلفه المشهور وهو بمدينة تطوان "روضة السلوان المؤلفة في مرسى تطوان، والجراية من عند أميرها تأتيني أمر السلطان سليمان" [67]، كما كتب ابن حمادوش وهو بالمغرب الأقصى عدة مقامات [68] وقصائد منها قصيدة رثاء الشيخ ابن مبارك [69]، وقصائد أخرى ضمن غرض المدح [70].

وفيما يخص المقري فكان جلّ إنتاجه وهو مقيم بالمغرب، كما أنه أبدع في تقديم قصائد وهو في تونس، قد سبقت الإشارة إليها. أما أهم الكتب المتداولة في المغرب وبين أيدي العلماء، فهي كثيرة ومتنوعة يتم الحصول عليها عن طريق النسخ أوعن طريق الشراء.

يتبين من خلال ما تقدم عرضه لأهم ما أورده الرحالة الجزائريون حول ملامح الحياة الثقافية في كل من تونس والمغرب الأقصى وصفهم لقنوات التواصل بين

العلماء، بأن لهذه المادة أهمية كبيرة في التاريخ الثقافي في العصر الحديث حينما تعرضت هذه الكوكبة إلى ذكر ملامح الاحتكاك، فكانت الرّحلة عونا كبيرا باعتبار أنها من أهم المصادر المحلية بتأكيدها الوقائع عن طريق المشاهدة والمعاينة، فساهم بذلك الرّحالة الجزائريون في توسيع مداركنا حول مجتمعات المغرب العربي بفضل ما أوردوه من معلومات عن طريق مجاورتهم للعلماء وأصحاب المعرفة بثقافات وتقلبات أحوالها.

ساهمت نصوص الرحلة في إبراز شكل المجالس العلمية المنعقدة في المساجد والمدارس، كما أفادت بأن بيوت الأعيان كانت هي الأخرى فضاءً يرتاده العلماء على اختلاف مشاربهم، أما عن شكل المواضيع المطروحة في هذه المجالس فلم تخرج في معظمها من دائرة العلوم الشرعية في كل بلدان المغرب.

كان النشاط العلمي هو أحد أهم مظاهر التواصل بين بلدان المغرب، خلال العهد العثماني، وكان الرحالة الجزائري سفيرا لبلاده في مجتمعات المغرب، ومن خلاله استقينا أدق المعلومات، من وصف الكتب وأسعارها وأهم أماكن تواجدها وأشهر أسواقها ونسّاخها.

وفي الأخير يمكن القول أن الرحالة الجزائريين أبرزوا أهمية التفاعل الثقافي وآلياته، خاصة في عصر انعدمت فيه وسائل الاتصال الحديثة، فأضحت كتبهم معرضا للثقافة بكل فروعها، اللغوية والدينية والاجتماعية، وكان تنقل العلماء والأدباء حاملين معهم مؤلفاتهم وأفكارهم وأساليبهم العلمية شاهدا على ذلك التفاعل الحاصل بين أقطار المغرب.

الهوامش:

[1] حول شخصية المقري أنظر: أحمد المقري، **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**،ج1،تحقيق إحسان عباس،دار صادر،بيروت،1988م ،ص ص:8،13،33،35؛ الفكون عبد الكريم، **منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية**، ط1، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م،ص:224.

[2] سعيدوني ناصر الدين، **من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي** (تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م،ص ص:330،331.

[3] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، **رحلة ابن حمادوش المسماة: لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال**، تحقيق أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983م، ص: 9؛ سعد الله أبو القاسم،**تاريخ الجزائر الثقافي (من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري 16/ 20م)**، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م،ص: 425.

[4] حول مؤلفات ابن حمادوش، انظر: **نفس المصدر**، ص ص: 430-431.

[5] حول الورثيلاني أنظر: Hadj-Sadok, *à travers la berbèrie orientale du XVIII e, siècle, avec le voyageur* Al-Warthilani, *İn revue Africaine*, Année 1951p p315-399 ؛ سعد الله،المرجع السابق، ص408؛ سعيدوني،المرجع السابق،418

[6] مختار بن طاهر الفيلالي، **رحلة الورثيلاني عرض ودراسة**، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 1978م، ص: 50؛ سعد الله، **المرجع السابق**، ص: 409

[7] الورثيلاني، **نزهة الأنظار في فضل التاريخ والأخبار،تحقيق محمد بن الشنب،مطبعة بيار فنتان ،الجزائر،1908م**، الصفحات: ج، د، هـ، ص ص: 5، 10، 87، 108، 284، 529-530.

[8] حول أبي راس الناصر انظر: أبي راس الناصر ،**فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته**، تحقيق عبد الكريم الجزائري،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1990م، ص:11ومابعدها؛ الزياني محمد بن يوسف، **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران**، تقديم وتعليق، المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978م،ص:240.

[9] عن مؤلفاته انظر: أبوراس الناصر، **المصدر السابق**، ص: 179 وما بعدها؛

Faure-Biguet, *Notice sur le chikh MOUHAMMED ABOU RAS EN NASIRI de mascara*, journal Asiatique, serie 09, T4, Année 1899, pp: 402- 418

[10] عرفت الإجازة تطورا كبيرا منذ ظهورها إلى غاية العهد العثماني، فأفرزت تبعا لذلك أنواعا جديدة ولكل نوع منها مفهوم خاص به، ويمكن القول عن مفهومها العام: أنها إذن من الشيخ لطالب أو عالم آخر في رواية الحديث الشريف أو الفقه أو التاريخ أو غيرها من العلوم، أو هي إذن في تولي منصب ما كالفتوى والتدريس وغيره، وعليه فإن ما يجمع مفهومها تحت مفهوم واحد هو أنها إذن في أمر يتعلق بعلم. للمزيد انظر: لزغم فوزية، **الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية** (924-1245هـ/1518-1830م)، مذكرة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية،غير مطبوعة جامعة وهران، السنة الجامعية 2005/ 2006م، ص ص: 2- 3.

[11] عدّد المقري في كتابه "روضة الآس" أربعة وثلاثين عالما من مدينتي فاس ومراكش، كما اشتمل الكتاب على عدد من القصائد له ولعلماء عصره، وبعض الإجازات. انظر: المقري، **روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس،ط2،المطبعة الملكية،الرباط،المغرب الأقصى،1993م.**

[12] هو محمد بن قاسم بن القاضي، توفي عام 1040هـ/ 1631م قتيلا لاتهامه بالميل إلى عبد الله بن المأمون. عن هذه القضية، انظر: التازي عبد الهادي، **، في تاريخ المغرب جامع القرويين (المسجد والجامعة بمدينة فاس) موسوعة لتاريخها المعماري والفكري**،ج2،، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1973م ،ص: 519.

[13] المقري، **رحلة المقري إلى المغرب والمشرق**،تحقيق محمد بن معمر ،مكتبة الرشاد ،الجزائر ،2006م، ص ص:77-78.

[14] هو الفقيه أبو عبد الله محمد بن يوسف التاملي السوسي المراكشي، عاصر أجلّة علماء فاس وأخذ عنهم، منهم أبو عبد الله الترغي، ومحمد المستغانمي كان حيا سنة (1048هـ/ 1638م). انظر: المحبي محمد أمين، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، ج4،دار صادرة،بيروت،لبنان،دون تاريخ. ص: 271.

[15] انظر القصيدة كاملة في: المقري، **الرحلة**، ص: 192.

[16] **نفسه**، ص: 193.

[17] هو أبو بكر بن مسعود المراكشي المالكي مفتي المالكية بدمشق، ولد بمراكش وتربى بها على أيدي نخبة من علمائها، ثم رحل إلى المشرق وبقي ينتقل من مصر إلى دمشق، تارة يعمل معلما في مصر، وتارة أخرى يعمل مفتيا للمالكية بدمشق، توفي عام 1032هـ. انظر: المحبي، **خلاصة الأثر**، ج 1، ص: 97.

[18] المقري، **الرحلة**، ص: 121.

[19] **نفسه**، ص: 153.

[20] الشيخ تاج العارفين، هو أبو عبد الله محمد تاج العارفين بن أبي بكر العثماني التونسي، كان من أهم علماء تونس، تولى الإمامة بجامع الزيتونة وتوارث أبناؤه وأحفاده هذا المنصب ما يزيد عن مائة و ثلاثة و سبعين سنة، و يقول صاحب المؤنس عنه: "... **و لم يكن بالديار التونسية من يوم حل بها العسكر العثماني من تعاطي الرواية والدراية إلا الشيخ... أبو عبد الله تاج العارفين، و كان مجلسه من أجلّ المجالس**" و المعروف عنه أنه تتلمذ على يد علماء أجلاء، منهم الشيخ أبو يحي الرصاع، أما أعماله فله رسالة تحت عنوان "إعمال النظر الفكري في تحرير الصاع النبوي" يجهل تاريخ مولده و وفاته إلا أنه كان حيا سنة (1037هـ/ 1628م). انظر: ابن أبي دينار، **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، تحقيق محمد شمام، المكتبة العتيقة، الطبعة الثالثة، تونس، 1967م، ص: 317؛ مخلوف محمد، **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، دار صادر، بيروت، دون تاريخ.،ص:293- 294.

[21] تعتبر إجازة المقري من الإجازات النظمية بالرواية، وهي إحدى أنواع الإجازات العلمية، وتعني الإذن من الشيخ للطالب بخطه ليؤدي عنه مروياته من غير أن يسمع ذلك منه أو يقرأه عليه، فيؤدي عنه بموجب ذلك الإذن في أي علم من العلوم، وإجازة المقري لتاج العارفين تعد من أطول إجازاته في المغرب الإسلامي، والتزم فيها بالعناصر العامة للإجازة؛ للمزيد. انظر: لزغم، **المرجع السابق**، ص ص 4، 257-258.

[22] أبيات مقتطفة من قصيدة المقري لتاج العارفين التي اشتملت على ثلاثين بيتا وهي من بحر الطويل. انظر: المقري، **الرحلة**، ص ص: 154-155.

[23] هناك عدد لا بأس به من العلماء الذين أجازوا أبا القاسم في المشرق ومصر، التي وافته المنية بها عام (1065هـ/ 1654م). انظر: مخلوف، ص: 305.

[24] أبو راس الناصر، ص ص: 50- 51.

[25] هو محمد بن حسين بن أحمد بن محمد بن حسين بيرم (1130هـ/ 1718م- 1214هـ/ 1800م) ، وأصله من التركية.كان مفتي حنفية في سنة 1756، ثم تولى رئاسة الفتوى عام 1773، وبقى فيها مدة خمسة وأربعين عاما، ومن أهم مؤلفاته "بغية السائل في اختصار أنفع المسائل"، "رسالة في البيانية الشرعية" و"الشجرة النبوية" وتعرف بالحمامات المائية، و"نبذة بعض القواعد الشرعية لحفظ الإدارة الكلية". انظر: ابن أبي الضياف، **إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان**، ج7، الدار التونسية للنشر، تونس، 1989م ،ص ص: 30- 35.

[26] يقصد كتاب "كنز فائق" في فروع الحنفية للشيخ الإمام أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود الحنفي، المتوفى عام (710هـ/ 1310م).

[27] أبو راس الناصر، ص ص: 52- 53.

[28] هو أبو عبد الله محمّد بن عبد السّلام بن حمدون الفاسي البناني، نسبة إلى قرية بنان، ألف تأليفاً في التعريف بوالده سماه "تحفة الفضلاء الأعلام في التعريف بالشيخ محمد بن عبد السلام" توفي سنة (1163هـ/ 1749م). انظر: مخلوف، ص: 353.

[29] ابن حمادوش، ص: 39.

[30] **نفسه** ،ص:63.

[31] العالم أبو محمّد عبد القادر بوخريص الفاسي قاضي مدينة فاس، أخذ عن أهل الشّام ومصر والمغرب، وكان ملازما للشّيخ أحمد بن المبارك. انظر عنه: مخلو، ص: 356.

[32] انظر الإجازة كاملة: ابن حمادوش،ص ص: 90- 91.

[33] الورثيلاني**،** ص: 661.

[34] أبو راس الناصر، ص: 115.

[35] كان جواب أبي راس طويلا، واستشهد كعادته بجملة من أقوال العلماء المعروفين حول المسألة. للمزيد انظر: أبو راس الناصر،ص ص 155، 157.

[36] الورثيلاني، ص: 662.

[37] أبو راس الناصر، ص ص: 108-109.

[38] كانت إجابات أبي راس على النحو التالي: قصر الأجم من بناء هندسة الفرنج والروم، هو من عجائب الدنيا، وعن قسنطينة هي حصن من حصون إفريقية كان الفضل في تأسيس مدينة القيروان لعقبة بن نافع الفهري في وسط القرن الأول. انظر: أبو راس الناصر، ص: 115.

[39] **نفسه**، ص: 115.

[40] هو عبد الله محمد بن الشيخ قاسم المحجوب التونسي، تقدم للفتوى مع أبيه على أيام الباشا علي بن حسن باي ، يعتبر من أهم قضاة العصره، توفي عام (1222هـ/ 1807م)، وقد عرف به أبو راس بقوله: "**... سيدي محمد بن قاسم المحجوب عالم إفريقية وتونس.. المطلع على كل بديعة من علم القضاء والفتوى... السيد محمود باشا كان يعظمه أتم تعظيم، ويقدمه أفضل تقديم...** "؛ انظر: **نفسه،** ص ص: 51، 52، 81؛ محمد محفوظ، **تراجم المؤلفين التونسيين**، ج4، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985م، ص: 250-251.

[41] أبو راس الناصر، ص: 109.

[42] **نفسه**، ص: 109.

[43] محمد بن أحمد بنيس، ولد عام 1160هـ / 1747م. كان علامة مدرسًا أخذ عنه عدة علماء أجلة، له عدة مؤلفات أهمها "شرح على الهمزية للإمام البوصيري" و"شرح على فرائض الشيخ الخليل" "شرح منية الحساب لابن غازي، توفي عام (1214هـ/ 1800م). انظر: **موسوعة أعلام المغرب**، تنسيق وتحقيق محمد حجي، ج7 ط1، دار الغرب الإسلامي، ، ص: 2467 .

[44] أبو راس الناصر، ص: 106.

[45] أبو عبد الله محمد بن طاهر الهواري، العلامة والمدرس والفقيه، ولي قضاء فاس مدة، له شعر متوسط الجودة وتآليف عديدة مفيدة، منها أرجوزة في أنواع الجناس سماها كعب الجلاس، وأرجوزة فيما انفرد به ابن عاصم في التحفة من الصور الفقهية على مختصر الخليل، توفي عام (1220هـ/ 1805م) .انظر: **موسوعة أعلام المغرب**، ج7، ص:2477؛**مخلوف**، ص:377.

[46] محمد بن عمرو بن عبد الله الزروالي (ت1230هـ/ 1815م)، من بني زروال ،وهو مدرس وعالم وشيخ من أشياخ السلطان أبو ربيع. انظر: **موسوعة أعلام المغرب**، ج7، ص: 2494.

[47] كتاب "المقنع في علم أبي مقرع" هو شرح محمد بن سعيد السوسي على نظم محمد بن علي المعروف بأبي مقرع. انظر:ابن حمادوش ،ص: 35.

[48] **نفسه**.

[49] هو أبو عبد الله محمد الجنان، صاحب الذرر على المختصر، فرّ عن الأنظار في حادثة فتوى العرائش. انظر: الناصري أحمد بن خالد السلاوي، **الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج6، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري دار الكتاب، دار البيضاء، 1955م، ص: 22.

[50] ابن حمادوش، ص ص: 103- 104.

[51] هو أبو عبد الله محمد بن أحمد الفاسي، الشهير بالمكلاتي، كاتب الخلافة السعدية ، والمعروف بالبلاغة في الأدب، له تآليف عديدة منها: "تذييل على نظم الوفيات لابن الفشتالي" و"شرح مقصورة الإمام المكودي" يرجح أن تكون وفاته سنة (1041هـ/ 1639م). انظر: المقري، **الرحلة**، ص: 45؛ محمد القادري، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني عشر**، ج1، الرباط 1982م، ص: 160.

[52] المقري، **الرحلة** ص: 46.

[53] **نفسه** ص: 47.

[54] هو أبو الحسن علي بن أحمد الفاسي الشامي، نسبة إلى أصوله من بلاد الشام، عمل كاتبا بديوان الخلافة السعدية على عهد أحمد المنصور، وعلى عهد المأمون، من أهم مؤلفاته شرح "مقصورة المكودي" وذرة الإسعاف بنظم أجداد بعض الأشراف، توفي سنة 1032هـ/ 1693م. انظر: المحبي، **خلاصة الأثر**، ج 3، ص ص: 141- 142.

[55] عن نصوص المدح النثرية والشعرية انظر:المقري، **الرحلة**، الصفحات : 50، 188، 202، 205، 206، 207.

[56] هو العلاّمة إبراهيم بن محمد السوسي، أخذ عن علماء فاس ومراكش والسوس، وعمل في الزاوية الدلائية، ثم سافر إلى المشرق، وكان من المهتمين بالعلم وعلماء عصره، توفي بالحجاز سنة 1077هـ/ 1667م؛ انظر: المحبي، ج1، ص: 44-45.

[57] المقري، **الرحلة**، ص ص: 104- 105.

[58] **نفسه**، ص ص: 181- 182.

[59] **نفسه**، ص: 181.

[60] للاطلاع على القصيدة كاملة، انظر: **المصدر نفسه**، ص ص: 200- 201.

[61] أما عن إجابة المقري حول اللغز انظر: **نفسه**، ص ص: 49، 201.

[62] **نفسه**، ص: 185- 186.

[63] هو أبو فارس عبد العزيز بن محمد بن ابرهيم الفشتالي كاتب الدولة في عهد المنصور الذهبي السعدي، تتلمذ على يد مشايخ كبار منهم أحمد بن على المنجور والقاضي أبومالك عبد الواحد الحميدي والفقيه الأستاذ النحوي أبو العباس أحمد الزموري، وله تآليف عديدة أهمها **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، وافته المنية عام1031هـ/ 1622م. انظر: المقري، **روضة الآس**، ص ص: 112-162؛ المحبي، ج 2، ص: 425.

[64] للاطلاع على الرسالتين انظر: المقري، **الرحلة**، ص ص: 57-61، 141.

[65] **نفسه**، ص: 208.

[66] أبوراس الناصر، ص: 102.

[67] **نفسه**، ص 164.

[68] للمزيد حول المقامات، انظر: ابن حمادوش، ص ص: 71، 72، 78، 79، 80.

[69] القصيدة من تسعة وعشرين بيتا. انظر: **نفسه**، ص ص: 87، 89.

[70] له عدة قصائد، راجع عنها: **نفسه** ص ص: 81، 83، 97، 98، 108، 110، 116، 118.

الصراع العثماني الأوربي خلال القرن 19م وانعكاساته على الممتلكات العثمانية

د. عبد القادر مولاي
قسم التاريخ جامعة الجزائر 2

منذ نهاية القرن 18م عرف عالم البحر المتوسط أحداثا تاريخية مثل حركة التنوير وقيام الثورة الفرنسية (1789م) لتعيش أوربا في القرن 19م عصر وعهد الهيمنة السياسية والسيطرة الاقتصادية والقوة العسكرية المدججة بالأسلحة والمعدات الحربية الحديثة، ومؤتمر برلين (1878م) حول تقسيم بقية ممتلكات الدولة العثمانية بين الدول العظمى، أنذاك، وماذا جرى في العقد الأخير من القرن 19م من تكالب استعماري على بقية دول العالم غير المستعمرة منها الدولة العثمانية أين تقرر فيه مصير الشعوب غير الأوربية بقيادة كل من بريطانيا، وروسيا، والنمسا وبروسيا، وعلى ضوء هذا التقسيم نطرح السؤال التالي: هل العلاقة بينهما من الناحية الاقتصادية وسياسة المجال الحيوي ونهج الفتح للدولة العثمانية متوازية أم لا؟ وعلى أي أساس قامت هذه العلاقة؟ ومدى انعكاس هذا المبدأ على البلاد العربية والإسلامية التابعة للدولة العثمانية عامة؟ والجزائر بصورة خاصة؟

ما هو معروف تاريخيا أن العلاقة بين هذه القوى قامت وتمت على أساس مبدأين مبدأ قوة الجيش وسياسة الأحلاف والمعاهدات وما انجر عنها من بنود مجحفة في حق الشعوب والدول المتآمر عليها ومبدأ السيطرة والهيمنة الاقتصادية، إلى جانب المستوى والتقدم الحضاري الذي وصلت إليه بفضل النهضة الصناعية التي شهدتها وعرفتها تلك الدول الأوربية وهي الدرجة التي لم تصل إليها لا الدولة العثمانية ولا البلاد العربية والإسلامية منها، حيث بقيت منذ القرن 16م

حتى القرن 20م معتمدة في حياتها على سياسة الفتوحات والتوسع سواء في أوربا أو في بلاد المشرق والمغرب العربيين.

هذه الدرجة والمستوى في التفوق الحضاري والاقتصادي الأوربي من جهة ومبدأ القوة العسكرية من جهة أخرى، هما اللذان مارستهما دول أوربا على الدولة العثمانية والبلاد العربية، وفارس وشبه القارة الهندية، وحتى تكتمل الرؤية للقارئ من خلال هذه الأحداث التي بقدر ما عاشتها الدولة العثمانية في عصرها، بقدر ما عانتها الجزائر التي عايشت الكثير من ويلات أحداث ومشاكل الدول الاستعمارية وفي مقدمتها فرنسا التي تهدت لها الجزائر منذ غزوها لها عام 1830م.

⋆ واقع دول أوروبا ونظرتها المستقبلية خلال القرن (19م-13هـ):

مع نهاية القرن 18م أنهت الدول الأوربية عهد الانقلابات السياسية والثورات الداخلية كالثورة الفرنسية عام 1789م، التي تبعها التطور والتقدم الاقتصادي والاجتماعي جراء حركة التنوير، لتدخل وتعيش هذه الدول الأوربية خلال فترة القرن 19م عصرا اتسم بالهيمنة والسيطرة السياسية، والتفوق الاقتصادي والقوة العسكريّة، ونتائجها على حساب الشعوب والدول خارج حدودها ومجالها الجغرافي، الأمر الذي مكنها فيما بعد من تطبيق مشاريعها الاستعمارية على الخصوص بالسيطرة والتحكم في مصائر وإمكانات الأمم.

وساعد انعقاد المؤتمرات والاتفاقيات في إعادة الوفاق الأوربي والتفكير في إعادة بناء نفسها -أوربا- في إطار تطبيق سياسة الأنظمة الحاكمة، وضمان مصالح دولها الكبرى بعد نتائج انهزام (نابليون) في واترلو عام 1815م، والعمل على إعادة وبناء خريطة أوروبا من جديد ابتداء من إقرار سياسة التوازن الدولي جراء المعاهدات والاتفاقيات بعد نهاية حروب (لويس الرابع عشر)، منها معاهدة أورترخت 1713م، ورستان 1714م.

وقد رسخ كل من مؤتمر فيينا (1815م) ولقاء إيكس لاشابيل (1818م) وبروتوكولات لندن (1820م)، المحافظة على مصالح الدول الأوربية الكبرى "إنجلترا والنمسا وروسيا وفرنسا" وبذلك أصبح التوازن الدولي الذي يهدف إلى حفظ السلام ويحد من نشوب الحرب ولا يسمح لأية دولة من الدول الأوربية أن تستحوذ وتنفرد بعد انتصاراتها في أوربا على المزيد من التوسع في المستعمرات، ورسم استراتيجياتها الهامة عالميا.

كانت فرنسا خلال هذه الظروف في عهد لويس الثامن عشر (1814م-1824م) تتأرجح حول اتجاهين اثنين:

الأول: ساخط على الملكية معتبرها نموذجا للفضائح كهزيمة فرنسا في واترلو ومن ثمة أصبحت غير قادرة على ملاءمة ومسايرة مجتمع تسوده مبادئ المساواة.

الثاني: رافض للواقع المعاش والدستور السائد ومعاد لقانون الانتخابات لعام 1817م ومثلت هذا الاتجاه الفئات المتعصبة للملكية[1].

وأثناء فترة حكم شارل العاشر (1824م-1830م)، استمر التوتر في دولة فرنسا، بالرغم من أنها تحررت من مصاعبها ومنها وجود الجيوش الأجنبية على أراضيها "150.000" جندي تحت قيادة (ولنجتون الإنجليزي)، ودفع ديونها - تعويضا للحرب- بـ 700 مليون فرنك[2] بالإضافة إلى ما حققته فرنسا من تقدم وتطور في الميدان الاقتصادي بشكل كبير جراء سياسة محكمة لوزراء أكفاء وذوي درجة عالية في الميدان الاقتصادي نذكر منهم: "ريشليو Richelieu" و"دوسير De serre" و"دوكاز De cazes" و"فيليل Villéle".

لكن هؤلاء وما حققوه من نتائج معتبرة في الميدان السالف الذكر، لم يخفف من نقمة وردود أفعال الشعب الفرنسي على نظام الملكية، وأصبحت دولة فرنسا مجبرة لسلك نظام جديد في أوربا، هذا النظام الذي دعا إليه المستشار النمساوي الأمير (ميترنيخ)[3] والمتمثل في التوجهات الجديدة لسياسات الدول الأوربية

والخطة المتبعة في العلاقات الدولية خلال القرن 19م هذا النظام الذي رحبت به الشعوب الأوربية وأيدته بريطانيا.

ونظرا لظروف القرن 19م تعتبر سياسة (ميترنيخ) المتمثلة في التوازن الدولي قد أحلت السلام لدول أوربا لفترة زمنية تقارب الأربعين سنة، فكان بحق إنجازا عظيما لصالحها خلال هذا القرن ويعتبر (ميترنيخ) المهندس المعماري لأوربا الجديدة[4].

وهكذا عاشت فرنسا أحداثا وتطورات أثناء تطبيقها للنظام الجديد، هذا النظام الذي انعكس على حالة وأوضاع دولة الجزائر أثناء فترة (الداي حسين) ونهايتها، وفي فترة جهاد (الأمير عبد القادر) ومشروع دولته الحديثة، ونفيه خارج الجزائر، ومسار الثورات الشعبية الجزائرية بعد 1848م.

⋆ أوضاع الدولة العثمانية خلال القرن 18م وموقع الجزائر منها:

ومن خلال أوضاع أوربا خلال القرن 19م، وما أفرزته من تطورات وتحولات عميقة جعلتها تحتل الصدارة وتنفرد بالسيادة العالمية مسيطرة ومتحكمة في خيارات وإمكانات ومقدرات الشعوب الأخرى في القسم الجنوبي على الخصوص ارتأيت في المقابل أن أعرج على معالجة أوضاع الدولة العثمانية باعتبارها رائدة العالم الشرقي الإسلامي والمجال الحضاري الذي تنتمي إليه الدولة الجزائرية قبل جهاد وطموحات ومشاريع الأمير عبد القادر الجزائري.

وبحلول القرن 19م وصلت الدولة العثمانية في مسار تطورها التاريخي والحضاري إلى وضع سياسي واجتماعي واقتصادي متأزم وخطير على مستقبلها ومستقبل الأقطار العربية والإسلامية التابعة لها، جراء الضعف والتراجع الذي ساد أقطار الإمبراطورية أنذاك، وحتى العاصمة "استانبول" لم تكن في أحسن وضع من باقي أقاليم الإمبراطورية.

هذه الأخيرة ،التي كانت تعتبر وتمثل ممتلكات واسعة تابعة سياسيا وحضاريا للدولة العثمانية، قد تراجعت وتخلت عنها واضطرت إلى توقيع معاهدة مع روسيا عام (1718م) تعرف بمعاهدة "باساروفيتش Passarowitz ومن نتائجها تقديم تنازلات أخرى أجبروا على تقديمها من خلال معاهدة "كوجوك كينارجي" سنة (1774م-1188هـ).

ونظرا للشروط والقيود التي فرضت على الدولة العثمانية في هذه المعاهدة، سقط وتحطم وجه الإمبراطورية العثمانية التي كانت، فيما سبق، تمثل القوة والتماسك والوحدة غير خاضعة للضغوطات الأجنبية، وغير القابلة للهزيمة والتراجع والتخلي، فكان لذلك أثره الواضح في التوازن العثماني- الأوربي الذي استمر لفترات طويلة من الزمن(5).

وبفعل تلك التطورات والأحداث التي عاشتها الخلافة العثمانية قبل حلول القرن 19م تحولت وانجرت مرة أخرى إلى مسألة معقدة وقضية شائكة في ظل مشاريع ومخططات الدول الأوربية الكبرى التي أشرنا إليها سابقا، وأصبحت تشكل معضلة ونقطة الفصل السياسية منها ومؤثرة في العلاقات الدولية من جهة ومتحكمة في موازينها.

وطبع هذا الوضع في الفترة التي أفرز وأحدث أزمة متعددة الجوانب والمظاهر كنتائج انعكاساتها الخارجية التي تعرف "بالمسألة الشرقية" التي ظهرت نتيجة الضعف الاقتصادي والعسكري الذي ساد في العقود الأخيرة من القرن 18م الدولة العثمانية وأقاليمها التي عجزت عن مواجهة الخطر الأجنبي الأوربي ولم تواكب أوربا الحديثة.

فما كان على الدولة العثمانية إلا أن أجبرت واضطرت للانتقال إلى مرحلة جديدة عرفت باندماج الدولة العثمانية في الهيئة الاقتصادية الأوربية في الوقت الذي وصلت فيه الدول الأوربية إلى تراكم رأس المال ووفرته، والخبرة الفنية في الاقتصاد وتسييره وبفعل التبعية التي انجر عنها انتشار الفساد والفوضى في

الانكشارية، التي تمردت بفعل أعمال وتصرفات القوى العسكرية والولاة في الأقاليم لصالحهم على حساب حاجيات ومتطلبات الحكوميين والمجتمع، إضافة إلى السيطرة والتحكم في الجهاز الاقتصادي من طرف الأقليات الأوربية كاليونانيين والأرمن والصرب Serbes, Armeniens ودورهم في ربط الدولة العثمانية بنظام الاقتصاد الرأسمالي الأوربي، نتج عنه انتقال امتيازات الدولة إلى مكاسب شخصية نفعية ووضع إمكاناتها ومقدراتها تحت سيطرة مسؤولي الدوائر المالية الأوربية، الأمر الذي انعكس في مواقف الدول الأوربية واتجاهات سياساتهم من الدولة العثمانية[6].

تلك المواقف السياسية الأوربية تجاه الدولة العثمانية "الباب العالي" هي التي اصطلح على تسميتها بـ"المسألة الشرقية" وأصبح هذا المصطلح متداولا ومتعارفا عليه في الاجتماعات والمؤتمرات واللقاءات لدى الساسة الأوربيين منذ عقد مؤتمر (فيرونا) 1822م؛ فهو يعبر عن الواقع والجو السياسي نتيجة الضعف والانحلال العثماني والتكالب الأوربي من أجل الاستحواذ على أجزاء من أرضيها وبسط نفوذها في ثوب الحماية على رعاياها.

إن المسألة الشرقية عامل سياسي محوري يحدد من خلالها كما أسلفنا سياسات واتجاهات الدول الأوربية إزاء الإمبراطورية العثمانية، كانت الرغبة الملحة لديها الطرد النهائي للعثمانيين من الأقاليم والولايات التابعة لها في قارتهم بهدف تصفية وجودها منها وإزالة كيانها عنها، غير أن هذه التصفية لم تحدد لها الفترة الملائمة لتنفيذ خطة التصفية وإزالة الكيان العثماني منها وهو ما جعل هذه المسألة قضية سياسية لدى الدول الأوربية ونظرتها لإنهاء الوجود العثماني بصفة شاملة من قارتها[7].

ولتوضيح الرؤية من خلال تلك الرؤى بالنسبة للدول الأوربية فقد اتصفت سياسة كل من (روسيا والنمسا)، في إطار ما يسمى بالمسألة الشرقية، بالتوسع والاندفاع العسكري على حساب الامتيازات والممتلكات التابعة للدولة العثمانية

في مناطق (البحر الأسود والقوقاز والبلقان)، لذلك تكفل آل (هابسبورغ) من دور الدفاع عن قارة أوربا ضد الوجود والخطر العثماني[8] وتحولوا إلى قوة ضاربة لمواجهة وإبعاد التحرش والتهديد العثماني عن المجر والعمل على إضعاف هذا التهديد في أقاليم كل من (البوسنة والهرسك والصرب) تارة عن طريق شن الحروب عليها وتارة أخرى بواسطة عقد المعاهدات، وبعد اقتطاع إقليمي البوسنة والهرسك من الدولة العثمانية عام (1878م) أصبحت سياسة الدول الأوربية تجاه الدولة العثمانية العمل على السيطرة والتحكم في مصالحها الإقتصادية عن طريق المؤتمرات الدولية المنعقدة، الأمر الذي دفع بحكام (فيينا) إلى العمل والحرص على إبعاد النفوذ الروسي بالبلقان عن المنطقتين العثمانيتين "مصب نهر الدانوب" على البحر الأسود، حيث تنتهي خطوط الملاحة النهرية في وسط أوربا، وميناء (سالونيك) المنفذ البحري لمنتجات النمسا نحو الشرق[9] حيث كان حكام فيينا يعتبرونها المجالين الحيويين لإمبراطوريتهم.

وإلى جانب (النمسا)، أصبحت روسيا العدو التاريخي والتقليدي للدولة العثمانية منذ القرن17م، على إثر سياسة التوسع التي انتهجها كل من (بطرس الأكبر) (1682م-1725م) (وكاترين الثانية) (1762-1796م) إذ اعتبر قياصرة روسيا أنفسهم ورثة حقيقيين للدولة البيزنطية وعليه يحق لهم -في نظرهم- استرجاع (القسطنطينية) مقر الكنسية (الأرثوذكسية) من العثمانيين، وبالتالي يجعلهم مؤهلين لحماية حقوق (الأرثوذكس) التابعين لدولتهم.

وإذا كان الموقف الروسي من العثمانيين قد قام على خلفية تاريخية، نجده في خضم هذه الأحداث، قد تحول واعتمد في سياسته على استراتيجية طويلة المدى أصبحت مشروعا محققا نتيجة المكاسب والانتصارات المحققة من طرف الجيش الروسي خلال حروب عدة مع الدولة العثمانية منها:

الحرب الأولى: (1768-1774م): باستلاء روسيا على مناطق (القوقاز وكوبان، وشبه جزيرة القرم)، استفادت من حق إبحار ومرور سفنها عبر مضيق كل من

(البوسفور والدردنيل) وأصبح لها شرعية الحماية الروسية للأرثوذكس المتواجدين في الدولة العثمانية وذلك بعد انتصارها عليها هذا الانتصار الذي انتهى بتوقيع معاهدة (كوتشوك كينارجي) بتاريخ (22/ 07/ 1774م).

الحرب الثانية: (1788-1792م): فقد تمكنت روسيا من بسط سيادتها على سواحل (البحر الأسود) وأسست كنيسة روسية بالقسطنطينية بعد تخلي العثمانيين عن حقهم التاريخي بشبه جزيرة القرم، وهو ما اعتبرته روسيا إقرارا وإثباتا قانونيا بحق حمايتها (للأرثوذكس) العثمانيين كما أسلفناه وتوقفت هذه الحرب عن طريق معاهدة "جاسي jassy"[10].

الحرب الثالثة: (1827-1829م): في هذه الحرب أحرزت القيصرة (كاترين الثانية) على حق الملاحة لسفنها الحربية عبر المضايق وضمنت لروسيا الحقوق التاريخية في مصب (الدانوب)، ومداخل إقليم (القوقاز وبلاد اليونان).

وبفعل الانتصارات التي حققتها روسيا على الدولة العثمانية، من خلال الحروب السالفة الذكر تكون قد حرصت على تنفيذ مبادئ المؤتمرات الأوربية (1815م-1820م) التي تنص على تطبيق واحترام الشرعية الدولية الرامية إلى المحافظة على حقوق الدول والولايات في بسط سيادتها على رعاياها، في الوقت التي كانت هذه المقررات بالنسبة لقياصرة روسيا تحد من توسعهم في الدولة العثمانية، وعليه فهي تعارض سياسة مناصرتهم للمطالب القومية لسكان البلقان التي تشترك مع روسيا في الأرومة السلافية هذا ولم تضع حدّا للحروب الروسية على الدولة العثمانية إلا معاهدة أدرنة بتاريخ (14 سبتمبر 1829م)[11] ونتيجة لما حققته هذه الحروب، عملت روسيا على تحسين وتنسيق سياستها مع الكثير من الدول الأوربية لا لشيء سوى من أجل تحقيق امتيازات ومكاسب إضافية على حساب وضع الدولة العثمانية المتصف بالضعف والتقهقر، إلى حد التخلي عن بعض الأقاليم التابعة لها تاريخيا، وهكذا تم عقد معاهدة تلسيت tilsit سنة (1807م) بين (نابليون بونابرت وقيصر روسيا)، الذي أصبح طرفا فاعلا ومؤثرا في سياسة الوفاق الأوربي، وعضوا بارزا في الحلف المقدس سنة (1814م).

ومن جهة أخرى شجعت روسيا الميول القومية للعناصر (السلافية بالبلقان) والترويج لها تحت غطاء الجامعة السلافية التي تشترك وتتماشى أهدافها مع سياسة روسيا التوسعية ونتيجة لهذه المواقف أصبحت روسيا طرفا مؤثرا في الثورة التي قام بها الصرب على الدولة العثمانية سنتي 1804م و1815م بقيادة (جورج قارة) وحليفا في الحرب التي شنها اليونانيون على العثمانيين من أجل الانفصال والاستقلال عن الدولة العثمانية[12].

هذه الحرب التي بدأت بحركة عصيان داخلية محدودة عام 1812م لتنتقل إلى ثورة عارمة وشاملة سنتي 1821م و1827م مدعمة بالمساعدة والدعم المادي والمعنوي من طرف الدول الأوربية وشعوبها، كان لهذا الدعم نتائج وخيمة على الدولة العثمانية بصفة عامة والجزائر بصفة خاصة فيما بعد، ترى كيف كان ذلك؟

وجدت التنظيمات السرية اليونانية مثل (جمعية فليك هليريا) سنة 1812م و(اتحاد أصدقاء اليونان) سنة 1824م والأنصار والمؤيدين، فكونت عصابات مناهضة للعثمانيين تزامنت مع تمرد (علي باشا) حاكم (يانينا janina) سنة 1824م على السلطة العثمانية فرصة سانحة لإشعال الثورة، عندها أعلن القديس (باتراس) رفض طاعته للباب العالي في 25 مارس 1821م وقام الثوار اليونانيون بالثورة وإكتسحوا جزيرة (المورة) معلنين استقلال اليونان بالمدرج الإغريقي (إبيدور Epidaure) في جانفي 1822م[13] الأمر الذي دفع بالسلطان العثماني إلى طلب المساعدة الكاملة من (محمد علي) والي مصر والعون بالإمدادات البحرية من الولايات من شمال إفريقيا من بينها الجزائر التي تحطمت معظم وحدات أسطولها في هذه الفترة نتيجة تدخل الدول الأوربية ومساعدتها إلى جانب اليونان في معركة التي ألحقت الهزيمة بالعثمانيين في نافارين والتي تعرف باسم معركة (نافارين) في 20 أكتوبر 1827م ونتج عن هذه الخسارة في المعركة الحصار الاقتصادي والسياسي الذي فرض على الجزائر من هذا التاريخ حتى تاريخ غزو فرنسا لها عام 1830م[14] هذا الغزو الذي سنتحدث عنه بالتفصيل لاحقا.

⋆ التنافس الفرنسي البريطاني على ممتلكات الدولة العثمانية:

كانت سياسة كل من بريطانيا وفرنسا نحو الدولة العثمانية، في إطار المسألة الشرقية، غير معتمدة على القوة العسكرية فقط، بل كانت تقوم أيضا على سياسة ما يعرف بفرض المعاهدات والعمل على التوسع في كسب الامتيازات، والحصول على المكاسب المالية والاقتصادية خاصة ما يتصل بالمبادلات التجارية وهو ما تأثرت به فرنسا وبريطانيا من ناحية تقاليدهما.

كان لفرنسا وضع مميز في الدولة العثمانية نتيجة امتيازات خاصة انفردت بها عن باقي الدول الأخرى، المتمثلة في العلاقات والحلف المشترك بين (سليمان القانوني وفرانسوا الأول) ضد العدو المشترك (شارلكان) عام 1535م، هذا التعاون بينهما تحول فيما بعد إلى مخطط طموح أثمر وتطور نتيجة الأهداف والخطط التوسعية (لنابليون بونابرت) وأصبح بعد ذلك سياسة فرنسية مدروسة ومحكمة تقوم على التعامل الإيجابي مع (محمد علي) حاكم ولاية مصر، ومحاولة فرض السيطرة الفرنسية على منطقة البحر المتوسط، وجلب أصدقاء وحلفاء لها منهم (الموارنة) بلبنان.

ومثلما كان لليونان مناصرون لثورتها ضد الدولة العثمانية، ها هي سياسة فرنسا في خضم هذه الأحداث، أصبح لها أنصار وأتباع من أغلبية عامة الشعب الفرنسي ووفاء للتراث الحضاري الإغريقي، ناصر سياستها أدباء وشعراء أمثال: (شاتوبريان، وفكتورهوجو والرسام دولاكورا والجنرال فيفر).

وإلى جانب فرنسا وما حققته من امتيازات، نجد بريطانيا هي الأخرى قد استفادت من خلال تعاملاتها مع الدولة العثمانية على قدم المساواة مع فرنسا، في عهد الملكة (إليزابيت الأولى) عام 1570م فتحصلت بريطانيا على الامتيازات المخولة لشركة (الليفانت الإنجليزية) التي بفضلها تحولت إلى وضع متميز في التعامل مع الباب العالي. غير أن هذا المسعى لم يصل إلى مبتغاه، نظرا للتطورات والأحداث التي أقرتها المقررات الأوربية نفسها، التي تحول الرأي العام البريطاني إلى المناصرة والوقوف بجانب مطالب الشعوب والأقليات التابعة للدولة العثمانية،

ولهذا نجد بريطانيا قد سارعت لتغيير سياستها باندفاعها للمشاركة بفعالية حاسمة في مجريات معركة نافارين 1827م ومؤتمر برلين 1878م[15].

وبتزايد التغلغل والتدخل الأجنبي المتمثل في الدولتين الفرنسية والبريطانية، ضعفت الدولة العثمانية وتحولت الامتيازات من روابط صداقة وعلاقة تعاون إلى درجة حقوق تاريخية مكتسبة يصعب التنازل والتخلي عنها وبفعل الأوضاع التي سادت في البلقان وما لحق بها من امتيازات ومكاسب روسية على حساب ممتلكات الدولة العثمانية مما دفع حكام ومسؤولي الدولتين الفرنسية والبريطانية إلى تغيير سياستهما تجاه الدولة العثمانية حيث انصب اهتمام وطمع الدولتين في الحصول على مكاسب أرضية أخرى في الأقاليم والإيالات التابعة للدولة العثمانية (كمصر والشام والجزائر) ثم العمل على محاربة طموحات وأطماع دولة النمسا في البلقان من جهة وأطماع روسيا في المضايق من جهة أخرى[16].

⋆ معركة نافارين وانعكاساتها على الدولة العثمانية والبلاد العربية:

تعتبر معركة نافارين امتحانا للدول الأوربية (روسيا، فرنسا، بريطانيا) التي تشترك أهدافها في المصالح الحيوية في الدولة العثمانية، فحددت مواقفها وفق مصالحها، وفي اجتماع (لندن) بتاريخ 6 جويلية 1827م تشكل حلف ثلاثي يضم (إنجلترا، فرنسا، روسيا) ونصب نفسه طرفا في المسألة اليونانية، الأمر الذي سمح له بإرغام السلطان العثماني على وضع حد لنشاطه الحربي ببلاد الإغريق، ومنحها الاستقلال. وكان للشعراء والأدباء المناصرون لهذه الأحداث مواقف مناصرة لثورة اليونان أمثال (بايرون).

وتطبيقا لنص بروتوكول لندن بتاريخ 07 أكتوبر 1827م أعطيت قيادة الأسطول الحربي التابع لكل من فرنسا وروسيا وبريطانيا للأميرال البريطاني (كورد نغتون Cordington)[17] وواجه هذا الأسطول الصليبي في الأسبوع الثاني من شهر أكتوبر من نفس السنة الأسطول الإسلامي (العثماني والمصري والجزائري) حسب ما أكده الكثير من المؤرخين، وبعد حوالي أربع ساعات من

المواجهة الحربية بتاريخ 20 أكتوبر 1827م انتهت هذه المواجهة بتحطيم جزء كبير من سفن الأسطول الإسلامي، وسقوط حوالي ستة ألاف جندي في ساحة المعركة وفي الجهة المقابلة هلك حوالي ألف جندي مرتزق، وتحطم العديد من السفن الحربية للأسطول الصليبي وبقدر ما يهمنا ويؤسفنا انهزام الأسطول العثماني والمصري فحزننا أشد وأعمق على خسارة الجزائر لأسطولها الذي كانت له مبررات وظروف أقرها لها التاريخ منها وضع الدولة الجزائرية في الفترة الزمنية نفسها وعدم وجود حليف ومناصر ومساعد له مثل شعب اليونان وشعوب البلقان التي وقفت إلى جانبها الدول الأوربية السالفة الذكر في صراعهم من أجل الانفصال والاستقلال[18] ومن جهة أخرى بعد المسافة وما انجر عنها من إنهاك قوة الجيش ومستلزماته كل ذلك وغيره أثر على معنويات وقوة الجيش الجزائري أثناء الغزو الفرنسي للجزائر هذا الجيش الذي يشهد له خلال القرن 16م و17م بريادته واستماتته في الدفاع عن دول أوربا من خطر قراصنة البحر المتوسط والتي ظلت في مأمن بفضل الأسطول الجزائري.

لقد أفرزت وأوجدت معركة نافارين وضعا دوليا سمح للدولة القيصرية بإطلاق يدها في الدولة العثمانية لجني ثمار مشروعها التوسعي على حساب ممتلكات الإمبراطورية العثمانية لقد تحددت واتضحت معالم وأهداف هذا المشروع في معاهدة (أدرنة) سنة 1829م من جهة وفرصة استفحال المد القومي بدول البلقان وامتداد هذا المد "للمطالبة بالاستقلال" إلى قوميات أخرى مثل (الصرب) التي تأثرت بالماضي التاريخي ومساندة روسيا لها بالإضافة إلى دور (الكنيسة الأرثوذكسية) في التوجيه والنصح بالانفصال النهائي عن الإمبراطورية العثمانية.

أوضحت وأظهرت معركة نافارين الدور العملي والسياسي (لمحمد على باشا) في تسيير شؤون الدولة العثمانية ومدى قدرته على التأثير في مسار ومعطيات الأحداث الدولية بمنطقة الشرق.

وضعت هذه المعركة حدا نهائيا (للحلف المقدس La Sainte Alliance) نتائج مؤتمر (فيينا) سنة 1815م وأصبح نظام (ميترنيخ) هو أساس السياسة الأوربية في العلاقات الدولية وعلى هذا الأساس لم يصبح للشرعية الدولية مكانة تذكر على الآمال والأماني القومية وفي نفس الوقت على طموحات ومطالب الشعوب قبل مصالح الدول وهو ما مكن من إحداث التغيير بالنسبة للأوضاع السياسية السائدة بين الدول الأوربية.

ونتيجة للتطورات التي حدثت في مواقف الدول الأوربية يمكن اعتبار (المسألة الشرقية) ذات طابع دولي يزيل ويحد القطب الثنائي بين الدولة العثمانية ودولة من الدول الأوربية، خاصة بعد توسع (النمسا) في البلقان الذي نتج عنه ردة فعل وقلق من طرف (بريطانيا وفرنسا) كما أصبح العداء والخلاف الروسي العثماني[19] مثار مخاوف الدول الأوربية بصفة عامة وفرنسا وبريطانيا بصفة خاصة وهو ما أفرز الخلاف بينهم، في كيفية التعامل مع الرجل المريض.

لقد خلص وانتهى هذا التباين الواضح بالنسبة لمواقف الدول الأوربية جميعها تجاه الدولة العثمانية مع نهاية القرن 18م ومستهل القرن 19م، إلى إحداث خلل وتضارب في المصالح لكل دولة من الدول الأوربيةّ، واشتد هذا الخلاف في الرؤى بين كل من (بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا) كيف ذلك؟

معارضة فرنسا وبريطانيا السياسة الروسية إزاء العثمانيين التي كانت ترتكز على التوسع العسكري هادفة الوصول إلى المضايق والبحار الدافئة وعذرهم في ذلك أن روسيا سوف تكون خطرا على التبادل التجاري، وتهدد المواصلات الدولية التي تربط الدول الأوربية بالهند وبلدان الشرق الأقصى. وبالتالي يصبح شرق أوربا وشبه جزيرة البلقان منطقة حماية ووصاية روسية في إطار جامعة (الشعوب السلافية) كما أوضحناه سابقا وهو ما ينتج عنه اختلال في التوازن الدولي[20].

وعلى إثر الأوضاع المزرية التي وصلت إليها الدولة العثمانية بعد حصول روسيا على امتيازات استراتيجية كجعل المضايق تحت نفوذها، عن طريق معاهدتي (بوخارست) عام 1812م و(أدرنة) عام 1892م مما دفع السلطان العثماني (عبد المجيد) طلب المساعدة والتدخل الفعلي الفر نسي البريطاني، وهكذا دخلا إلى جانبها في حرب (القرم) 1853م و1857م مندفعين نحو المضايق بقطع بحرية معلنين الحرب في مارس 1845م بعد فشل مساعي الدولة النمساوية في التوسط لإزالة الخلاف ونشوب الحرب هذه الحرب التي تمكن فيها الجيش الثلاثي الوصول إلى جزيرة القرم وتحقيق الانتصار على الجيش الروسي في معركة (سيباستوبول) المعروفة بقساوة الطبيعة وانتشار الأوبئة الخطيرة (كالكوليرا) وهو ما دفع بروسيا إلى الاستسلام والانسحاب من الدولة العثمانية إثر معاهدة (باريس) بتاريخ 30 مارس 1856م[21]. وبها زال الخطر عن الإمبراطورية العثمانية وأصبحت الملاحة في نهر (الدانوب) حرة أمام السفن بما فيها سفن الدولتين (الفرنسية والبريطانية) وأقرت المعاهدة بان يكون (البحر الأسود) منطقة محايدة وحق رعاية الباب العالي لرعاياه المسحيين[22]. باعتبار حرب القرم محاولة لصالح الدولة العثمانية وإنقاذها من الواقع المتردي الذي تعيشه جراء صراعها مع روسيا فكان لها صدى كبير في البلاد العربية والإسلامية إضافة إلى توازن وتوافق المصالح في الحرب بين الحلفاء الثلاث الذي دام سبع سنين وهو ما عبرت عنه بعض الكتابات الشعبية بواسطة قصائد مدائحية وأشعار شعبية محلية في مختلف البلدان العربية والإسلامية ومنها قصيدة شعبية جزائرية عبر فيها صاحبها عن تأييده للسلطان العثماني بما يلي:

أدعو بالنصر لأمة المجـــاهدين ** الله ينصر أمة شارق الأنوار
أنصر علام عبدك أمير المؤمنين ** عبد المجيد ناصر دين المختار
أنـت صـــــاحـب الأمانـة ** وأنـت خليفـة المجـــــد
بـــــــالله والرسـول أمنـا ** وبطاعـة الأمير المرشـد[23]

⋆ الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للبلاد العربية خلال العهد العثماني من القرن 18م إلى القرن 20م:

إن الدساتير والقوانين والمراسيم الإجرائية التي عملت بها الخلافة العثمانية في استانبول وإقليمي الأناضول والروملي الرئيسيين خضعت لها البلاد العربية والإسلامية التابعة لها الأمر الذي جعلها تتأثر في حياتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفكرية، بالحياة السائدة والمنتشرة في المدن العثمانية وعلى رأسها استانبول، ونظرا لهذه التبعية الإدارية والسياسية عاشت شعوب البلاد العربية والإسلامية أوضاعها في نهاية القرن 18م ومستهل القرن 20م ومرد ذلك يعود إلى التطور التاريخي للكثير من الهيئات والمؤسسات الرسمية وهياكلها التي ظلت ترسم وتشكل الأطر المنظمة والبنية التحتية للشعوب العربية والإسلامية التابعة سياسيا وإداريا لها. يعود فرض حياة الملل ونظام الطوائف في تعامل الدولة العثمانية مع رعاياها إلى المجتمع العربي والإسلامي الذي كان مثله مثل مجتمع بالمشرق العربي الذي يقوم على طوائف دينية مختلفة من "مسلمين ومسيحيين ويهود" ومجتمع متعدد الأعراق من "أتراك وإغريق وأرمن وعرب وأكراد وألبان وصرب" حيث كان لكل فرقة أو طائفة نوع من الاستقلال الذاتي، هذه الاستقلالية قد تسمح لها بالتمايز ومع ارتباطها بالسلطة المركزية.

وفي خضم هذا التميز الديني والعرقي نشطت ونمت جماعة الطوائف وأصحاب الحرف والمهن والموظفين وأدى هذا الوضع إلى إصدار قانون اجتماعي يخضع له العامة باعتباره يوحد الوظائف بين المجتمع وكذا مهام الدولة من جهة ويحافظ على صلاحيات الوظائف به ويحقق بعض الامتيازات للأفراد الذي تسند لها الأعمال الإدارية والعسكرية[24].

وطبقا لهذا النظام السائد عبر الإيالات العربية والإسلامية، أصبحت مجتمعاتها توصف بالرعية التابعة سياسيا وإداريا للدولة العثمانية، فهذه المجتمعات كانت مجبرة على تقبل التوجيهات من السلطة المركزية، ومنصاعة لأوامر السلطان

وعلى هذا النحو تقوم الرعية بوفرة الإنتاج والمساهمة في الجباية لحساب وفائدة الولاية المحلية والباب العالي.

وبهذا الوضع المحكم القائم على إحداث المكاسب والامتيازات، والمحافظة على استقرار الأوضاع وضمان الأمن، تمكنت الدولة العثمانية من خلق هذا التوازن والانسجام بين السلطة المركزية باستانبول "صلاحيات السلطان" وسلطة الولاية المحلية "حكام الأقاليم" وما يلاحظ في هذا الشأن أن السلطة المحلية تقوم وتعتمد بالدرجة الأولى على قوة الجيش بصفتها الحامية الشرعية للدولة، وكذا طبقة المجتمع، المتكونة من الموظفين الساميين وشيوخ القبيلة وأعيانها وتجارها، وعلمائها.

بالرجوع إلى الوضع الاجتماعي الذي عاشته البلاد العربية والإسلامية التابعة للدولة العثمانية، نجد هذا الوضع قد ارتبط بالوضع الاقتصادي ونظامه، الذي يستند إلى من يخدم ويشغل الأرض وليس إلى ملكيتها، وهذا الإقرار يرجع إلى العمل المتوارث في هذا الميدان من عهد (المماليك) وكذلك من خلال قوانين أحدثتها الدولة العثمانية منذ حلول القرن 16م، وعليه فقد حافظ هذا الوضع على وجوده واستمراره كونه يقوم على أسس -علاقات- إقطاعية كرسها وأوجدها استغلال (الصبائحية) لأراضي الميري الذي يخضع ويستند إلى إجراءات جبائية مثل "العشور والزكاة والجزية والعطاءات والمساهمات الإجبارية"... إلخ.

إن هذا الوضع وما لحق به من نشاط اقتصادي يواكب روح سياسة وتوجهات الساسة العثمانيين عبر الولايات والأقاليم، إذ نجد هذا النشاط يضمن ويلبي حاجات ومتطلبات الإدارة المحلية، والمجتمع في الريف والمدن[25]، كما يساير هذا النظام سياسة الفتح والتوسع العثماني وهو ما كان في بداية ظهور الدولة، غير أن هذا الوضع يمكن اعتباره غير ملائم ومتماش لضروريات وتأمين الوظائف للمجتمع، مع نهاية القرن 18م وبداية القرن 19م منه نتيجة اختلال الانسجام

القائم على أداء المهام الاجتماعية أو ضمان الوظائف الاقتصادية لأن قوة الجيش العثماني لم تعد في استطاعتها ومقدورها إقرار نظام محكم وصارم.

وفي المقابل أصبحت الفئة المحلية الحاكمة غير قادرة وعاجزة على العمل بنظام التنفيذ والمتابعة في المدن والريف، والتأثير في المجتمع وهذا الوضع الخطير الذي وصل إليه جهاز السلطة بالدولة والطاقم الإداري المحلي، قد خلق وضعا وحالة اتصفت بالاضطراب والفساد الاجتماعي، والتخلف الاقتصادي إلى درجة الجمود، وأصبحت الإدارة عبارة عن هياكل إدارية بقدر ما تهتم بمصالح الرعية وتأخذها مأخذ الجد تعمل على تطبيق إجراءات تعسفية في حق الرعية، وتحافظ على امتيازات المسؤول والحاكم بالمنطقة.

لذلك نجد البنية التحتية للمجتمع العربي والإسلامي في الدولة العثمانية، باختلاف وتعدد طوائفه، قد تعرضت للتفكك والانحلال في غياب قوتها العسكرية، وتدني وضعها المحلي واختلال عامل موازين القوى الدولية، وهى معطيات لا تساعد على بقائها واستمرارها في الحياة.

وهذا ما ظهر وحدث خلال القرن I7م عندما حولت خطوط المواصلات للتجارة الدولية الأوربية باتجاه مستعمراتها والعالم الجديد، عن البلاد العربية والإسلامية "مصر، بلاد الشام"[26] وأصبح اتصالها مع الشرق الأقصى والهند يمر عن طريق رأس الرجاء الصالح وليس عن الإسكندرية والسويس بمصر والبصرة بالعراق وحلب ودمشق مثلما كان سائدا ومعمولا به قبل الاكتشافات الجغرافية الحديثة.

انعكس هذا الوضع الذي آلت إليه الدولة العثمانية خلال القرن I9م والذي كتب وعبر عنه أحمد أمين في الأقاليم العربية إلى تغييرات اجتماعية واقتصادية عميقة، نتج عنها ظهور فوارق وتمايز المقاطعات المحلية بالولايات عن الأقاليم المركزية للسلطة العثمانية والمتمثلة في ولايات (الأناضول) ومقاطعات الروميلي[27] الأمر الذي ساعد على خلق وقيام حكومات محلية مستقلة بكيانها وأقاليم منفردة بتسيير شؤونها الداخلية يرأسها ويشرف عليها ولاة مستقلون

بأمورهم، وأمراء ومدراء محليون مستبدون ومتنفذون على مستوى أقاليمهم ومقاطعاتهم، أما ارتباطهم وعلاقتهم بالدولة العثمانية، فلا تتجاوز روابط تحالف وتعاون ثنائي مؤقت وولاء رسمي لسلطان الدولة العثمانية، باستثناء "محمد علي باشا"[28] المنافس لها إلى درجة البديل عنها.

وأغلبية الحكام في هذه الفترة يوصفون ويعرفون بالطغاة المستبدين في مقاطعاتهم وأقاليمهم العربية والإسلامية، لا لشيء سوى لانعدام وضعف العلاقة مع السلطة المركزية بالباب العالي، فأصحاب الوظائف والفئات ذات الطابع التنفيذي محليا، لم تكن تستمد قوتها ونفوذها من المركز "استانبول" جاعلة نفسها معقلا ومصدرا رئيسيا لذلك النفوذ[29].

ونتيجة الضعف والانحلال والانهزام الذي حل بالدولة العثمانية المركزية والولايات العربية التابعة، لها ونتيجة تزايد سيطرة ونفوذ الحكام المسؤولين عن شؤون الرعية بالمنطقة أو الأقاليم ومحاولاتهم الرامية إلى الانفصال والاستقلال عن السلطة المركزية كل ذلك وغيره من التطورات والأحداث التي عاشتها هذه الدولة أدى إلى تنامي أطماع وتكالب الدول الأوربية في أقاليمها وولاياتها وبصفة خاصة الجزائر ومصر والشام[30] الشيء الذي فرض وأوجد وضعا خاصا ومميزا في التعامل بينها وبين الدول الأوربية التي تحولت إلى دول استعمارية واستيطانية فيما بعد فأصبحت تمثل الجانب العربي من المسألة الشرقية كان ذلك نتيجة تطورات القضية الجزائرية التي انتهت بالغزو الفرنسي عام 1830م ثم الاحتلال الكلي.

في الوقت الذي شهدت فيه الدولة العثمانية جمودا فكريا وانحطاطا حضاريا وتخلفا اجتماعيا عرفت أوربا مع نهاية القرن 18م ومطلع القرن 19م نهاية الانقلابات السياسية والثورات الداخلية والتوجه نحو التقدم الاقتصادي والاجتماعي الذي كان فاتحه عصر جديد، اتجه نحو موجة استعمارية جديدة كانت الدولة العثمانية من الممتلكات التي كانت تتكالب عليها الدول الأوربية ومنها روسيا، العدو التقليدي للدولة العثمانية وفرنسا وبريطانيا اللتان أقرتا تقسيم

ممتلكات هذه الدولة المترامية الأطراف نظرا لمنافسة روسيا لهما في أخذ نصيبها من الدولة العثمانية.

ومما يمكن استخلاصه من هذه المقارنة التاريخية التي ميزت فترة الصراع العثماني الأوربي خلال القرن I9م، نستنتج أن الدول الأوربية المتكالبة على الدولة العثمانية استطاعت أن تجر الدول العربية والدولة العثمانية إلى مؤامرة نافارين بجنوب اليونان عام 1827م التي تم بموجبها قص بعض أطراف الدولة العثمانية في أوربا الشرقية باستقلال اليونان عن الدولة العثمانية وانضمامها إلى الحضيرة الأوربية المسيحية.

ودسائس الدول الأوربية ومؤامراتها على الدولة العثمانية وإيالاتها تندرج في إطار الحرب الصليبية الحاقدة على الإسلام والمسلمين الممثلين في الدولة العثمانية التي تصدت لها في جبهة البلقان وشرق أوربا عامة والمشرق العربي الإسلامي خاصة.

أما المغرب العربي الإسلامي فقد نابت عنه الجزائر في الجهاد والدفاع عن الإسلام والمسلمين والتصدي للحملات الصليبية التي استهدفته بقيادة إسبانيا والبرتغال، وبذلك فقد استحقت الجزائر في تلك الفترة حقيقة لقب المحروسة وإسطنبول الصغرى ودار الجهاد.

وفي مستهل القرن I9م اعتبرت فرنسا انتصارها على الجزائر هو انتصار للمسيحية بكاملها ولم يقف التآمر الأوربي عند هذا الحد فحسب ،بل نلاحظ فرنسا تدعم محمد علي والي مصر في تمرداته وتوسعاته على حساب الدولة العثمانية تحت ذرائع واهية تكمل في مشروع إنشاء دولة إسلامية كبرى، في حين أن البلاد العربية العثمانية كانت تعيش فترة وجمود فكري ولم تشهد نهضة علمية وفكرية على غرار ما كانت تشهده أوربا.

وما يمكن ملاحظته خلال القرن 19م أن البلاد العربية العثمانية قد عاشت فترة جمود فكري وحضاري ولم تشهد نهضة علمية وفكرية وإصلاحية على غرار ما كانت تشهده وتعيشه دول أوربا.

الهوامش:

(1) هيربرت فيشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث (1789م – 1950م) ترجمة أحمد نجيب هاشم، دار المعارف، 1958م، القاهرة، ص200.

(2) أ.ج. جرانت وهارولد تمبرلي: أوربا في القرنين 19م، 20م، (1789م – 1950م) ترجمة يوسف وفريد داغر، بيروت، باريس 1987م، ص162.

(3) هربرت فيشر: المصدر السابق، ص200.

(4) مترنيخ (كليمنس) 1773م – 1859م: رجل دولة نمساوي من كبار رجال السياسة في أوربا قرن 19م. سفير بلاده في فرنسا ثم مستشار الإمبراطورية 1809م – 1848م. قام بدور خطير في مؤتمر فيينا 1815م، قاوم حركات التحرر في بلاده وفي أوربا. (منجد الأعلام ص 633).

(5) N.itzkowitz, " la sublime porte", in l'islam, d'hier à aujourd'hui, publié sous la direction de B.lewis, paris, bordas, 1981, pp. 315 – 336.

(6) ليلى الضباغ: تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دمشق، مطبعة إبن حيان، 1982م، ص 239.

(7) R. Mantran, histoire de la turquie, paris, p.u.f, 1985. pp. 101. 11.

(8) الخطر العثماني الذي هدد عاصمتهم "فيينا" لمرتين متتاليتين، الأولى عام (1529م) والثانية (1673م)

(9) أ.ج. جرانت وهارولد تمبرلي: المصدر السابق، ج1، ص 401. 417.

(10) أ.ج: جرانت وهارولد تمبرلي. م.س. ج2. ص. ص 3. 31.

(11) محمد كمال الدسوقي: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، دار الثقافة للطباعة والنشر. القاهرة. مصر 1976م. ص.ص 177. 200.

(12) نفسه: ص 294.

(13) V.P. fleuriot de l'angle. l'affaire de navarin, autour de la journee du 20. 10. 1827. paris 1930.

(14) لمعرفة المزيد عن تطورات ثورة اليونان ومعركة نافارين، أنظر: ناصر الدين سعيدوني، معركة نافارين 1827م، "ورقات جزائرية" ، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان 2000م، ص.ص. 351- 370.

(15) محمد رفعت: تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية، دار المعارف القاهرة مصر، 1959م.

(16) ناصر الدين سعيدوني: مرجع سابق، معركة نافارين، 1827م، م.س. ص 360.

(17) أسندت قيادة السفن الحربية الحليفة، البالغ عددها 37 سفينة المجهزة بـــ 1298 مدفعا، إلى الأميرال الإنجليزي كورد نغتون.

(18) N.nuy, la Bataille de navarin 1827, paris, 1870.

(19) أصبحت الدولة العثمانية تعرف بالرجل المريض، والذي نعتها بهذا الإسم والصفة، هو القيصر الروسي "نيقولا الأول" في لقاء بينه وبين رئيس وزراء بريطانيا "أبردين" بأن الدولة العثمانية دولة ميتة ولا يستطيع أن يبعث الحياة في الموتى، ويؤكد بأنه ليس له الثقة أن يستمر الجسم العجوز في المحافظة على الحياة، لأنه منحل من جميع النواحي.

(20) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ج4، القرن 19م، ترجمة أمين فارس ومنير بعلبكي دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، 1961م، ص.ص. 44. 45.

(21) جاء هذا التدخل بعد رفض قيصر روسيا نيقولا التنازل عن مطالبه ومكاسبه في الدولة العثمانية والكف عن دعاية حماية الرعايا الأرثوذكس العثمانيين، الذين يتجاوز عددهم عشرة ملايين نسمة، ومناصرة روسيا للقساوسة الأرثوذكس بالنسبة للأماكن المقدسة بفلسطين.

(22) محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجيل، بيروت،197 - لبنان7م ص ص. 261 - 284.

(23) الأبيات من قصيدة الشاعر الشعبي محمد بن إسماعيل.

(24) Mohammed. Ben cheneb. La guerre de crimèe et les Algeriens,in la revue Africaine, t.51, 1907, p p. 171. 196.

(25) عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون، (1516م – 1916م)، دمشق، مكتبة الأطلس، 1974م، ص 458. 464.)

(26) نفسه: ص 470.

(27) عند تعرض أحمد أمين لوضع وحالة العالم الإسلامي، كتب قائلا: <<...إن مركز الخلافة "الآستانة" مفكك منحل، والولايات العربية في مصر والشام والعراق والحجاز، متدهورة متضعضعة قد أمات نفسها توالي الاستبداد عليها... والسياسة فيها نزاع مستمر بين الأمراء، وكل أمير له حزبه، وكل حزب يتربص الدائرة بخصمه، والبلاد ضائعة بينهم، والوالي لا يطيل المكث إلا ريثما يغتني، حتى أصبح اسم الحكومة والوالي والجندي مرعبا، مفزعا مقرونا في النفوس بمعنى الظلم والتعسف، وعلى الجملة فقد كان العالم الإسلامي "إذ ذاك" شيخا هرما حطمته الحوادث، وأنهكه ما أصابه من كوارث، وفساد نظام واستبداد حكام وفوضى أحكام وخمول عام واستسلام للقضاء والقدر...>>. للاطلاع أكثر: أحمد أمين. زعماء الإصلاح، لجنة التأليف الترجمة والنشر 1949م، القاهرة – مصر ص7. 8.

(28) ف. لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة عفيفة البستاني، دار التقدم موسكو الاتحاد السوفياتي،1971م. ص 43.

(29) من الحكام المحليين نذكر:

- حسين بن علي التركي بتونس (1705م – 1735م).
- أحمد القرمانلي بطرابلس "الغرب" (1711م – 1735م).
- أسعد باشا العظم آل إليه أمر ولاية دمشق (1743م – 1757م).
- علي بك تولى حكم شؤون مصر (1769م – 1772م).

- أحمد الجزائر مد نفوذه أطراف بلاد الشام حتى جبل لبنان (1775م – 1804م).
- البشير الشهابي وطد حكمه على لبنان وكان عدوا لأحمد الجزائر وحليفا لمحمد علي بمصر (1788م-1839م).
- داود باشا المملوكي استولى على العراق (1817م – 1831م).

(30) إدوارد جرجي وفيليب حتى: تاريخ العرب المطول، ط3، ج2 ، دار الكشاف، بيروت – لبنان، 1961م، ص 458.

سليمان باشا الباروني والجزائر

أد. أبو القاسم سعد الله
قسم التاريخ جامعة الجزائر 2

عاش سليمان باشا الباروني عصره المليء بالأحداث الجسام ابتداء من فاتح القرن العشرين إلى وفاته سنة 1940. وأهم الأحداث هي احتلال إيطاليا لبلاده ليبيا ومقاومته لهذا الاحتلال ودخوله البرلمان العثماني ممثلا عن ليبيا عندما كانت ما تزال تحت مسؤولية الدولة العثمانية. ومشاركته في الحرب العالمية الأولى حليفا لألمانيا والدولة العثمانية، وما قام به خلالها من مغامرات تدل على شجاعته وصدق إيمانه في الدفاع عن الإسلام. ولجوؤه إلى العراق وتكليفه بخطة إصلاحية في مسقط وعمان... وفي خضم هذه الأحداث الكبيرة لم ينس الكفاح من أجل استقلال ليبيا ولا علاقته بالجزائريين، وخاصة أهل ميزاب.

- الإدارة الفرنسية في ميزاب:

كانت الإدارة الفرنسية الأهلية في الجزائر كلها، ومنها ميزاب، بأيدي ما يسمى بالمكتب العربي، وهو جهاز إداري لجمع المعلومات وتصريف الأمور وتنفيذ القوانين الفرنسية الخاصة بالاستعمار وقمع الاضطرابات. وهو في معظم مظاهره يقوم مقام البلدية اليوم. وقد جرت العادة أن يترأس هذا الجهاز ضابط فرنسي خبير بشؤون البلاد وعادات الأهالي، ويساعده في مهمته ترجمان وقاض ومحاسب وشاوش... وحراس. ويقع المكتب داخل أو قرب ثكنة عسكرية تشرف على أمن البلدة أو المدينة.كما أن على الضابط المسؤول أن يكون عارفا بلغة الأهالي (اللغة العربية الفصحى أو الدارجة، مضافا إليها أحيانا بعض الألسنة المحلية)، وعليه أيضا أن يكون دارسا لطوائف الناس وإمكاناتهم التجارية والاقتصادية، وخلافاتهم المذهبية وانتماءاتهم الصوفية ليستثمرها وقت الحاجة. وكان وادي ميزاب في نظر الفرنسيين مركزا هاما في طريق القوافل الصحراوية بين الشمال

والجنوب لتعاطي التجارة في أسواق نافقة في اتجاه الشمال نحو المدن الجزائرية واتجاه الجنوب نحو غدامس وغات وتنبكتو. لذلك اعترف الفرنسيون بالجاليات الميزابية المنتشرة في المدن الشمالية الكبيرة كالجزائر وقسنطينة حيث كانوا يؤلفون نقابات متخصصة في صنع وبيع مواد غذائية معينة باتفاق مع السلطات العثمانية سابقا والفرنسية لاحقا.

ولعل أهم من ذلك كله في نظر بني ميزاب هو أن الفرنسيين اعترفوا بخصوصية المذهب الإباضي، وسمحوا لأهله بممارسة شعائرهم ومحاكمهم طبقا لهذا المذهب، وبتأسيس الكتاتيب القرآنية والمساجد في ميزاب وفي المدن التي تضم جاليات منهم. وذلك يعني اعتراف السلطة الفرنسية بالفقه الإباضي ومرجعيته الأصولية. وكان الشيخ محمد بن يوسف اطفيش (1818-1914) هو العلم المشار إليه بالبنان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، كما أن شرحه كتاب النيل وشفاء العليل أصبح هو المرجع الفقهي لهذا المذهب كما كان الموطأ بالنسبة للمذهب المالكي. ومهما كانت خلفيات الفرنسيين من إحداث هذا "التوازن المذهبي" في الجزائر فإنهم كانوا يأملون أن يستفيدوا منه وقت الحاجة.

وقد تخصص بعض المستشرقين في الدراسات الاباضية وتقاليد بني ميزاب، وكان إيميل ماسكري (1843-1894) من المبكرين في دراسة المدن الميزابية والأحوال الاجتماعية والعمرانية فيها (إضافة إلى مدن منطقتي الأوراس والقبائل). ومنهم في هذا العهد أدولف موتلانسكي (1854-1907) الذي تولى الشؤون الإدارية في ميزاب مما فتح له شهية الدراسات الفقهية والدينية عموما انطلاقا من المذهب الإباضي. وفي هذا النطاق نشر موتلانسكي مدونة ابن غانم وأعمالا أخرى في الفترة التي كان فيها سليمان الباروني تلميذا في معهد الشيخ اطفيش.

- دراسة الباروني في معهد أطفيش:

بتوجيه من والده (عبد الله الباروني) درس سليمان الباروني في معهد الشيخ القطب محمد بن يوسف أطفيش في بني يزقن (يسقن). أثناء دراسته تأثر بالبيئة المحلية والعامة بما فيها من ناس جديين وطبيعة صحراوية متقشفة وتقاليد اجتماعية تميل إلى الخشونة والصرامة. ولا ندري ما الذي جعله أو جعل والده يختار له وادي بني مزاب (أو الشبكة كما تعرف في التاريخ السياسي). هل هو الابتعاد عن الإدارة العثمانية التي كانت يدها تمتد إلى الجبل الغربي أو قبيلة نفوسة، وكانت ربما تعامل أهل نفوسة معاملة خاصة عرقيا ومذهبيا. أما بنو ميزاب فمعترف لهم بـ"أحوالهم الشخصية" الخاصة وبحقهم في الاحتفاظ بتقاليدهم التاريخية تحت الإدارة الفرنسية، وكانوا بحكم المنافسة بين الدولتين، يستطيعون أن يطالبوا بحقوق منصوص عليها في اتفاق بينهم وبين الفرنسيين غير أن هؤلاء افتكوها منهم تحت شعار توحيد البلاد (الجزائر) التي تعتبرها فرنسا أقاليم فرنسية.

لم يكن الشيخ اطفيش مرجعا فقط في المذهب الإباضي وإنما كان أيضا مرجعا في الشؤون السياسية التي تهم فرنسا وبني ميزاب. لذلك كان الفرنسيون يستشيرون الشيخ أطفيش في الأمور الخاصة بالمنطقة والمذهب والتقاليد،ويسمحون له بالحج وزيارة بعض أصدقائه، وبقبول الهدايا والأوسمة من الدول الأجنبية. فقد نال في هذه الأثناء أوسمة رسمية من الفرنسيين ومن سلطان بني عثمان ومن حكومة تونس تقديرا لعلمه ومكانته[1].ولا ندري مدى تأثر الباروني بشيخه في ممارسة السياسة والجمع بين العلم وخدمة الأمة الإسلامية. فقد أنشأ الباروني عدة مشاريع تحسب في ميزان الزعامة والتمهيد لصعود نجمه في مصر وليبيا والدولة العثمانية كالمطبعة البارونية، وتعاطي التجارة وتأسيس جريدة الأسد الإسلامي، وطبع كتب التراث الإباضي مثل الأزهار الرياضية، ومختصر تاريخ تيهرت،كما قام بطبع نظم جواهر الاكليل للشيخ خليفة بن حسن عن مختصر الشيخ خليل في الفقه المالكي[2].

- الباروني وسياسة الدولتين العثمانية والفرنسية في المغرب العربي:

لم تكن العلاقات بين الدولتين العثمانية والفرنسية قد توترت إلى الحد الذي تلغي فيه زيارة الباروني للجزائر، وإنما حاولت كل منهما توظيف الزيارة لصالحها بالتأثير على الباروني بجعله يحس أنه في الجزائر كان بين أهله وإخوانه وأن فرنسا صديقة له كما هي صديقة للدولة العثمانية. وكان لسان حالها يقول للباروني عليك الاعتماد على فرنسا عند الحاجة لأنها ذات حدود مشتركة مع ليبيا العثمانية، وإذا واجهتك ضغوط محلية أو دولية فبإمكانك الرجوع إلى فرنسا والدخول تحت حمايتها. ومن أجل بناء هذه الفكرة في ذهنه مهدت له الطريق للاتصال بأبناء ميزاب في مختلف المدن الجزائرية.

لذلك نجده قد أجرى اتصالات مكثفة مع الحاج عمر العنق وإبراهيم امتياز وإبراهيم بن عيسي أبي اليقظان... وقد كان الأخير على رأس البعثة التعليمية الميزابية في تونس. وسنلاحظ أن الباروني قد خص أبا اليقظان بكثير من أسراره ورسائل المكاشفة والشعر الملغز الذي يشير فيه إلى أشياء لا تذكر في النثر إلا صريحة. فكان الباروني شاهدا على نهضة الجزائر (نهضة بالمفهوم المحلي) معتبرا الجزائر وطنه الثاني.

- جريدة الفاروق وزيارة الباروني الثانية للجزائر:

عبرت جريدة الفاروق التي كان يديرها الصحفي عمر بن قدور[3] من الجزائر عن طقوس الاستقبال الاستثنائية التي حظى بها الباروني،أثناء الزيارة الرسمية. وبناء عليها قد سهل له الفرنسيون تحقيق أهدافه. وكان المعلن منها هو زيارة ضريح شيخه القطب أطفيش الذي توفي حديثا (1914). وبهذا الصدد سمح الفرنسيون للموظفين وأعيان بني ميزاب وعلمائهم بالتوقف عن العمل واستقباله ومرافقته بشكل احتفالي ضخم. وكانت مهمة توفير الأمن والراحة له أثناء السفر البعيد قد تولتها السلطات الفرنسية.والغالب على الظن أن وصف الرحلة كان

بقلم عمر بن قدور ولكن السلطات الفرنسية هي التي وافقت عليه. وهو وصف يدل على أنها وافقت على الزيارة، لأنها، كما قال أبو اليقظان، كانت تخشى اتصال الباروني بأهل البلاد، وخاصة أعيانهم.

العنوان الذي اختارته جريدة الفاروق لرحلة الباروني هو "الباروني في صحراء الجزائر"، وأضافت أنه سافر من العاصمة إلى بني يزقن في شهر أبريل وهو من شهور الربيع الجميلة في المناطق الصحراوية. وعنوان الفاروق يشبه العناوين التي تتبجح بها جريدة المبشر الرسمية[4] عندما تصف أنشطة السلطة الفرنسية نحو الأهالي. قالت الفاروق إن الإدارة الفرنسية أعطت إجازة للقضاة والعلماء، وأن بعضهم قد ألقى خطبا ترحيبية بين يدي الباروني، كما رد هو بخطب وكلمات شكر. ثم وصل موكبه إلى غرداية حيث مقر الإدارة الفرنسية. ولم يتوان الباروني عن شكر فرنسا التي وفرت له شروط الراحة والوصول إلى بلدة شيخه حيث قضى ردحا من الزمن تلميذا عليه.

وفي مقر الحاكم الفرنسي استقبل رسميا كما استقبل من العلماء والموظفين، ثم زار ضريح شيخه القطب اطفيش. وكان الباروني مرفقا بشيوخ الناحية الذين منهم الحاج عمر العنق[5]. وردا على هذا الاستقبال الحافل شكر الباروني أصحابه المعتزين به، كما شكر السلطة الفرنسية التي قال إنها قامت على "دعائم الحرية". وزاد في المجاملة حين قال إنها تحب كل ما يسعد رعاياها المسلمين (يقصد الجزائريين ومنهم بنو ميزاب).

ومن جهة أخرى خاطب مستقبليه بقوله اعملوا على ما يرضي فرنسا وابتعدوا عما يغضبها. وهو يقصد بذلك عدم مقاومتها أو إثارة الشغب ضدها. والباروني في هذا الخطاب يذكرنا بنصائح الشيخ محمد عبده للجزائريين قبله بعقد من الزمان حين ألقى على مسامعهم دروسا وخطبا. وربما يلتمس الباحث عذرا للباروني لأن بلاده كانت في حالة حرب ضد إيطاليا التي احتلت ليبيا سنة 1911، وكان في

حاجة إلى دعم فرنسا التي لم يكن يسرها هذا الجار الطماع فيما بقي من شمال إفريقيا ولوكان مثلها جارا لاتينيا.

وربما لهذه اللهجة سمحت فرنسا للجزائريين في هذه المناسبة بالتعبير عن مشاعرهم الداعمة للدولة العثمانية وحركة الجامعة الإسلامية لأن فرنسا كانت في منافسة حادة مع إيطاليا حول تونس. ومن الجدير بالذكر أن زيارة الباروني المنوه بها حدثت بعد الإطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني بحوالي خمس سنوات. فالجرح عنده كان ما يزال حيا وكانت لجنة الاتحاد والترقي تعيش ربيعها ومشاكلها أيضا مع من دفعوها إلى الثورة والانقلاب. لذلك فإنه من المستغرب أن يكتب صاحب الفاروق، وهو الذي طالما عبر عن ولائه للدولة العثمانية والسلطان المخلوع- بموالاة أحد المنقلبين ودعمه وهو سليمان الباروني الذي عاش سنوات الدراسة في الجزائر فرارا ربما من حكم السلطان "الأحمر"[6] وتماهيا مع الدعاية الماسونية-الصهيونية التي ساندت لجنة الاتحاد والترقي ضده.

وقد نفهم من خطاب الباروني الإعلامي المكشوف أنه جاء إلى الجزائر لاجئا سياسيا غير أن الفرنسيين سيكشفون له عن وجههم الحقيقي ويعاملونه معاملة المنبوذ حين كان يبحث عن دولة تمنحه حق اللجوء. وقد أثبت الباروني أنه بقي وفيا للدولة العثمانية قبل وبعد الحرب، مما جعل دول الحلفاء يمتنعون عن إعطائه حق اللجوء (بريطانيا، فرنسا، إيطاليا..)،وسدت إيطاليا في وجهه أبواب بلاده (ليبيا). والغريب أن مصطفى أتاتورك رفضه أيضا لأن الباروني عارض التغيير الذي أحدثه في نظام الدولة العثمانية. لقد رفض الفرنسيون السماح له باللجوء إلى تونس أو الجزائر بعد الحرب، كما طلب ذلك وألح. وقد أصر وزير خارجية فرنسا عندئذ، بون مارشي على أن الباروني لن يدخل فرنسا ولو في المنام[7].

- زيارة الباروني الثالثة للجزائر:

ورغم ما حدث خلال الحرب فالباروني عاد إلى الجزائر سنة 1925. وفي هذه الزيارة التي كانت تبدو علمية وتاريخية توجه إلى أجزاء مختلفة من القطر الجزائري،

منها مدينة تاهرت العاصمة الرستمية الإباضية. وفي طريقه إليها سجل انطباعاته شعرا ونثرا، وترك لنا رصيدا أدبيا غنيا، ثم ثروة وصفية وإنسانية للمدن والطرق والمعالم التي مر بها. وشاهد خلال ذلك مدنا خلابة كالقليعة عاصمة العلم والتجارة والتصوف، والبليدة مدينة الورود، وجبال زكار الخضراء الشاهقة ، وقالمة الساحرة بمناظرها ومياهها المعدنية الدافقة. ففي القليعة تناول الغداء عند أحد الأعيان الأعضاء في مجلس ولاية العاصمة.(من عائلة الصوفي ابن مبارك) ولا شك أن هذا "العين" تحرك بإيعاز من فرنسا لأنه من رجالها الرسميين[8].

وفي هذه المناسبة قال الباروني شعرا:

بين الجبـــــــــال وبين حوض البحر أبهـــى منظـــر
طود بـــــه قصـــــــر القليعة ذو المنــاخ الأخضـــر

ولا نملك الآن معلومات دقيقة عن خط سيره ولكننا نعرف أنه شاهد أيضا تلمسان.ثم رجع إلى مدينة الجزائر عن طريق قسنطينة كبرى مدن الشرق عبر قالمة. وفي هذه المدينة ألح عليه أهلها -كما قال- أن يزور حماماتها المعدنية الشهيرة. وقد عبر عن إعجابه بقوله إنها "منابع كثيرة تحيط بها جبال شاهقة ذات غابات شجر لها منظر عجيب يقصده الافرنج من أوروبا". ويبدو أنه زار تلك الناحية في آخر فصل الشتاء لأنه أضاف أن "الثلج ما يزال جامدا" على رؤوس الجبال. وقد وصف الحمامات نفسها بالنظافة والنظام. ورغم البرد فقد أخبر الباروني أنه اجتمع مع ضيوفه حول الحمامات "لتناول الطعام وشرب الشاي" بينما كان بخار الحمامات حولهم يملأ الفضاء.

ومن قالمة سافر ليلا آخذا طرقا معبدة، وخلال سيره تَذكَّر العربة التي يركبها في جبل نفوسة، فقال شعرا رقيقا يفيض حنينا وشوقا إلى مسقط الرأس ومراتع الصبا:

تدفق ماء معدني من الصخـــر يذكرني مما تخـــــــلد في الفكـــــر
سبحنا وروَّحنا النفوس سويعة وعدنـــا وجنح الليل منسدل الستـــر
تحف بنا تلك الجبال يزينـــــها من الثلج هامات كمنفلــق الفجـــر
وطرق كقضبان اللجين ترصعت بها الروض من صنف الزياتين والسدر(9)

- الجزائر في صحيفة الأسد الإسلامي والمطبعة البارونية:

وبقدر ما كانت صحف الجزائر تهتم بآراء الباروني في مختلف القضايا المعاصرة، ومنها المذهب الإباضي، وتاريخ مسقط، وحالة زنجبار، وتاريخ بني رستم في الجزائر وليبيا، والسياسة العربية والإسلامية في ضوء التطورات التي كانت تمر بها الدولة العثمانية- بقدر ما كان الباروني ينشر ذلك في صحيفته الأسد الإسلامي التي أسسها في مصر. فقد كان ينشر فيها ما يتعلق بأحوال بلاد المغرب ماضيا وحاضرا، وكان أصدقاؤه وأنصاره بنو ميزاب يبثون آراءه في مختلف المنتديات ويسهلون وصول صحيفته إلى القراء في الجزائر على أوسع نطاق. وقد ربط الباروني أيضا علاقات تجارية بينه وبين أهل ميزاب.

أما المطبعة البارونية فقد اهتمت بنشر التراث الإباضي وخاصة آثار الشيخ اطفيش. فنشرت له مجموعة من الكتب التي لا تخرج عن خدمة الدين والمذهب. كما نشرت بعض آثار المذهب المالكي ومنها نظم جواهر الإكليل للشيخ خليفة بن حسن القماري. وكانت المطبوعات البارونية تباع في مكتبة السيد يوسف بن مسعود في قسنطينة. وكان الباروني يتصل بتجار وعلماء منطقة ميزاب الذين عرفهم من قبل. ولكن هذه الحركة العلمية والتجارية تعطلت بسبب الحرب بين الدولة العثمانية وإيطاليا وهي الحرب التي شارك فيها الباروني كما شارك فيها شكيب أرسلان والأمير علي نجل الأمير عبد القادر والأمير عبد القادر (الحفيد) ابن علي.

وعندما أحس الباروني أن الكتب التي نشرها بقيت في مصر ولم توزع كلها وأنه لا يستطيع الرجوع لا إلى مصر ولا إلى الجزائر عرض الموضوع على أصدقائه في الجزائر فاتفقوا على جلب كميات منها (قدرت بـ 15 ألف نسخة) لبيعها باسمه. وكان ابراهيم اطفيش المهاجر من تونس بعد طرد الفرنسيين له نشيطا في مصر من أجل استقلال مسقط وعمان، فقام بتنفيذ الصفقة وذلك بتجليد الكتب وإرسالها إلى الجزائر. وعند وصولها بطرق مختلفة كان ابراهيم امتياز هو الذي يقوم بتوزيعها وبيعها رغم أن فرنسا كانت تراقب حركة الكتب بين مصر والجزائر وتخشى من تأثيرها على استقرار السكان. ويذكر أبو اليقظان أن ثلاثة صناديق منها قد وصلت إلى الجزائر[10].

قلنا إن الباروني لم يكن من المتفرجين على ما يحدث في العالم العربي بل كان مشاركا وناقدا وخاصة فيما يحدث في بلاد المغرب. فعندما رأى بعض العلماء الجزائريين ينتسبون إلى قبائلهم لم يرفض ذلك كما لم يرفض انتساب الشخص إلى الجهة أو البلدة. وكان يعلق بذلك على ما نشرته جريدة البصائر حول انتساب بعض العلماء إلى قبائلهم.

ولعل الذي أثار الموضوع هو الشيخ سعيد الزاهري أحد كتاب جريدة البصائر آنذاك ومن أنصار التيار الإصلاحي الوطني. فعلق الباروني على الموضوع قائلا إن الواحد من العلماء ينهي اسمه بكلمة الزواوي أو الصنهاجي، وهذا لا غضاضة فيه فينظره فهو كالانتساب إلى نفوسة وزواوة وزناتة، وهلم جرا، وليس في ذلك شعوبية، كما أنه لا شعوبية في النسب إلى بني هلال وبني راشد وبني حفص، إلخ. أما الغضاضة عنده فهي الانتساب إلى العنصر كالعربي والبربري-المزيغي[11]. فالواجب، في نظره، على أهل شمال افريقيا أن ينتسبوا إلى الإسلام فيقول الواحد منهم إنه مسلم جزائري ومسلم طرابلسي ومسلم مراكشي... دون ذكر كلمة عربي أو بربري.

كما حبذ الباروني انضمام علماء الإباضية من بني ميزاب إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[12]. ورأى أن في إضافة كلمة المسلمين إلى اسم الجمعية هو عين الصواب، وعبر عن سروره بإضافة كلمة الإسلامي للمؤتمر الإسلامي الجزائري الذي انعقد سنة 1936 بالعاصمة لأن ذلك هو الاستعمال الصحيح في نظره إذ ليس في العنوانين كلمة عربية أو عربي. ولبعضهم أن يتهم الباروني نفسه بالشعوبية لانتصاره لهذا التفسير الذي يدعم وصف الإسلامي ويرفض وصف العربي. ترى ما ذا عساه يقول عندما يرى القوم اليوم يفضلون وصف الديموقراطي والليبرالي على وصف الإسلامي والعربي؟

ولكي يكون على اطلاع بما يجري في الجزائر، وهو إما في مسقط وإما في العراق، طلب من أصدقائه الميزابيين أن يدفعوا عنه الاشتراك في جريدة البصائر التي كان يتابع من خلالها ومن خلال صحف أبي اليقظان أخبار الجزائر. وكان يتكلم عن البصائر باعتبارها جريدة جمعية العلماء المركزية التي صدرت تارة في العاصمة بتحرير الشيخ الطيب العقبي وتارة في قسنطينة بتحرير الشيخ مبارك الميلي الهلالي[13].

وقد أخبر أصدقاءه أنه تأثر من الشقاق الذي حدث بين جمعية العلماء وبعض الأحزاب وهو فيما يبدو يقصد حزب الشعب الذي انتقد الجمعية على مشاركتها في المؤتمر الإسلامي وتحالفها مع الشيوعيين والاندماجيين، وهو المؤتمر الذي قاطعه الحزب.

- في مواجهة الفتن والدسائس:

جرت في الجزائر فتن عديدة تمس بني ميزاب مثل أحداث مدينة قسنطينة في الخامس من شهر أوت (آب) سنة 1936 والتي سماها فتنة. وهي تتمثل بالأساس في مقاطعة التجار اليهود بالمدينة، فلم تحن نهاية العام حتى حول هؤلاء "الفتنة" إلى

مقاطعة تجار بني ميزاب. فكتب الباروني إلى صديقه إبراهيم امتياز بأنه كان يتوقع حدوث ذلك. وطلب منه الإسراع بتدارك الوضع ووقف مكائد اليهود التي لا تحصى، حسب تعبيره. والواجب في رأيه على عقلاء وعلماء الأمة، من العرب وغيرهم، تلافي الأمر. مقترحا أن تكون مقاطعة التجار اليهود تدريجية لأن التجارة قديمة بين الفريقين (بنو ميزاب واليهود). وعندما يتخلص الميزابيون من سيطرة التجار اليهود يتجهون إلى التجارة مع فرنسا مباشرة دون واسطة يهود الجزائر[14]...

- الباروني والمذهب الإباضي:

وكان الباروني حذرا لا يريد المساس بالعلاقة المذهبية بسوء، لأنه يدرك أن علاقة الميزابيين مع أهل السنة المالكية كانت حجر الزاوية في معاملاتهم اليومية. ومن جهة أخرى كان يخبرهم بأحواله في مسقط لكي يكونوا في صورة الأحداث. فهو يخبره بتكليف الإمام له بإصلاح السلطنة، وبوفاة أحد القضاة البارزين، وهو الشيخ عامر بن خميس الذي "ارتجت عمان" لفقده، ووصفه بأنه رابع أربعة من أكبر العلماء في عمان فقدهم الإسلام والعمل بالعلم في هذه السنة (1346).

كما كتب لأبي ليقظان معبرا عن غبطته بالإصلاحات الجارية في ميزاب، خاصة تلك المتعلقة بالولاية والبراءة التي اعتبرها من الأمور التي لا تدوم رابطة بدونها في ميزاب، قائلا إنه لا نظير لها في الدنيا وإنها ميزة تميز بها المذهب الإباضي النقي. وقد نصح بالعض عليها بالنواجذ في المدن والقرى، لأنها جامعة الشمل، وعليهم ألا يوهنوها "بمسائل السياسة والوطن العمومي فتضيع الميزة والشخصية البارزة لميزاب والميزابيين". والتمسك بهذه الميزة لا ينافي في نظره اتحاد أبناء القطر كله[15].

وقد تدخل في صميم السياسة الفرنسية نحو بني ميزاب، وهي مسألة التجنيد الإجباري[16]. فقد كان بنو ميزاب يطالبون بإعفاء شبابهم من التجنيد لأن اتفاقهم مع الفرنسيين سنة 1853 يعفيهم منه. وفي نظر الباروني أن الحاكم الفرنسي الجديد (موريس فيوليت)[17] كان متفهما لمطلبهم. فقد كتب الباروني إلى الحاج عمر العنق أنه مسرور بتقدم تفاهمهم مع السلطات الفرنسية حول مسألة التجنيد، وبـ "تساهل الدولة معكم في مسألة التجنيد بهمة الوالي الجديد الحر، فهنيئا لكم بذلك" (1345)[18].

وعبر الباروني لأبي اليقظان أيضا عن تألمه من عواقب مسألة الأذان التي رآها دسيسة لتمزيق شمل أبناء الأمة عند تأسيس جمعية العلماء (1931)، ومن رأيه أن التحزب للمسألة قد خطط لتمزيق الشمل وتحطيم ما بقي لميزاب من الامتياز الحافظ للدين الحامي للبلاد[19]... كما كان له رأي فيما دار من نقاش بين بعض متعلمي ميزاب حول التليفون في الجرائد وغيرها وصل حد التشاتم. ورغم أنه نصح بالكف عن نشر مثل هذه الآراء فإن المهاترة قد استمرت على مستوى العزابة أيضا.

ويضيف الباروني أن ميزاب تشهد نهضة حديثة، ودليلها وجود الصحف والمطبعة وغيرها من مظاهر الحياة العصرية. وكان يتتبع ذلك فيما يقوم به الأدباء والمتعلمون والتجار. ومن مطالبه الاهتمام بالجامع التاريخي في وارجلان وآثار السلف التي سماها مدافن الأجداد والأعلام. ويبدو أنه كان مهتما بالآثار، كما عبر عن ذلك فيما سماه أطلال تاهرت وغيرها من المدن الرستمية.

وكان أصدقاؤه في ميزاب يمدحونه شعرا فيرد عليهم بمثله. وكانت بعض مراسلاته معهم ملغزة أو مشفرة نشر بعضها في جرائد أبي اليقظان، سيما جريدة الأمة. فقد مدحه أبو اليقظان ذات مرة في جريدة وادي ميزاب بقصيدة مطلعها:

خفقت بنود العز والسلطان وعلت جنود سيادة بعُمان

وهي قصيدة قال عنها الباروني إنها قرئت وأطربت السامعين، ولكنه أوصاه بالاعتدال في المدح حذرا ربما من إساءة فهمها سياسيا. وربما كان يخشى أن المبالغة في مدحه تجعله هدفا لاتهامات عديدة.

وكان يرد على بعض الجرائد العمانية، مثل الفلق،بنشر آرائه على صفحات جرائد الجزائر كالنور لأبي اليقظان والحياة للشيخ باسعيد عدون[20].

- الباروني والفقر:

وأخبر الباروني أنه نشر تعليقا عن حقوق الطرابلسيين الذين سلمتهم فرنسا إلى إيطاليا في تونس، وأنه راجع الحلفاء لكي يسمحوا له بالالتحاق بعائلته في طرابلس والعلاج في تونس أو الجزائر. وقد توسل لفرنسا بقناصلها وبشخصياتها المتنفذة في المشرق. وطلب من أصدقائه الميزابيين التوسط من أجله لدى الفرنسيين ليسمحوا له بدخول تونس أو الجزائر للاستقرار بأهله، ووعدهم -إذا فعلوا- بتقديم "ضمانة معتبرة"[21].

أخيرا حصل على التابعية العراقية (الجنسية) بعد إقامة دامت خمس سنوات. ومع ذلك فقد فتحت عليه السماء فكانت مدرارا، وشعر بالأمل ونبض الحياة من جديد:

تأمل يا أبا اليقظان وانظر تجد ذا البؤس في جنب الملوك
فليس المال للإجلال كاف ويكفي للعلا حسنُ السلوك
وسبحان الذي خلق البرايا على حِكَمٍ تجِلُّ عن الشكوك

وأضاف إلى هذا أبياتا يمدح فيها المال الذي يقود إلى سلم الجاه والمجد والسؤدد، متسائلا كيف تجتمع الفضيلة والبؤس في شخص واحد، منها البيت التالي:

إن في الفقر شرورا ليس تُحصيها شِفاه[22]

وبعد الحرب العالمية الأولى وسيطرة الإيطاليين على مقاليد السلطة في بلاده أصبح لاجئا في بلدين لا ثالث لهما هما مسقط والعراق. وكان في حاجة إلى المال ليعول به عائلته البعيدة عنه[23] وولده المريض مرضا مزمنا وعلاج صحته بعد أن داهمه المرض ومنعه الطبيب من تناول أطعمة وأشربة كان يتعاطاها بدون قيود. وكان الباروني قد جرب حياة الرفاه الاقتصادي والنيابة في البرلمان وما فيها من امتيازات وتبجيل. وها هو الآن يعيش في فقر مدقع رغم استقبالاته العديدة ومحيطه الاجتماعي الذي يتطلب منه فاخر اللباس والأثاث والطعام والظهور بمظهر العظماء.

- بين أطلال تاهرت:

زار الباروني مدينة تاهرت القديمة ووقف على أطلالها، وهي عاصمة بني رستم حيث حكمت الأسرة الرستمية ابتداء من عبد الرحمن الذي تذهب بعض الروايات إلى أنه فارسي أصبح من موالي العرب. وتاهرت تسمى أيضا عاصمة الأئمة لأن الحاكم فيها كان يلقب بالإمام وليس الخليفة أو السلطان أو الأمير. فكان منظرها يثير العبرة ويدعو إلى التذكر عند الباروني الذي يعرف أن حكم الأئمة كان يمتد منها إلى قبيلته نفوسة. ومن ثمة سماها مدينة الأجداد.

يقع كتاب الأزهار الرياضية الذي خصصه الباروني للدولة الرستمية في ثلاثة أجزاء، ولكن المطبوع المتداول منه هو الجزء الثاني فقط. وهو في الحقيقة -كما قال المصراتي- جزء خاص بتاهرت، يتناول نظمها وأيمتها وأطلالها وتاريخها ومذهب أهلها وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية. ومن فصول الكتاب: تاريخ تأسيس تاهرت، وبعض المدن المنسوبة إليها، والعلماء المنسوبون إليها. كما تحدث فيه عن واقعة نفوسة مع المعتزلة، وعن زواج ابن رستم من قبيلة لواته... دون أن يهمل آراء بعض أهل السنة في حضارة تاهرت[24].

- خاتمة:

للباروني شخصية طموحة رفعت همته إلى المجد السياسي والعسكري، وكان شاعرا وناثرا، يقف على قمة الجبل الغربي معتزا بمذهبه وقبيلته. ويظهر في عينيه ذكاء خارق، وصورته تدل على قصر قامته فعوضها بطربوش عثماني وشعر طويل.

الهوامش :

[1]- عن ذلك انظر كتابنا **تاريخ الجزائر الثقافي** ج 3، ط. عالم المعرفة، بيروت، 2011، ص 264.

[2]- عن كتاب الأزهار انظر لاحقا، وعن **جواهر الإكليل** انظر كتاب **إتحاف القاري** بحياة الشيخ خليفة بن حسن القماري للشيخ محمد الطاهر التليلي، ط.2، تالة، الجزائر، 2010.

[3]- عمر بن قدور تحدثنا عنه في الإسهام الصحفي بداية القرن العشرين. وقبل أن ينشئ صحفا باسمه. وقد اشترك مع باروكان صاحب جريدة **الأخبار** الفرنسية التي أصبحت تنشر ملحقا بالعربية كان ابن قدور هو الذي يحرره ويشرف عليه وكان قد تبنى مذهب الإصلاح الذي دعا إليه الشباب (النخبة) الجزائري. وبعد الحرب العالمية الأولى أنشا ابن قدور بعض الصحف باسمه وأسهم في صحف أخرى. وقيل إنه عذب ونفي إلى الصحراء خلال الحرب العالمية الأولى من قبل الفرنسيين.

[4]- جريدة الحكومة الفرنسية الموجهة إلى الأهالي الجزائريين. وقد ظهرت في نهاية سنة 1847 وكانت تصدر باللغتين، وهي حسب دارسي تاريخ الصحافة العربية ثاني صحيفة بالعربية بعد **الوقائع المصرية**.

[5]- ويظهر أن أبا اليقظان لم يرافق الباروني لأنه كان ما يزال بتونس على رأس البعثة التعليمية الميزابية.

[6]- هكذا كانوا يلقبون السلطان عبد الحميد الثاني لأنه كان في نظرهم دمويا وكثير الجواسيس والعداء للغرب المتغطي بالصهيونية والماسونية.

[7]- أبو اليقظان، **سليمان الباروني باشا**، ج2/ 202.

[8]-عضو المجلس هنا يعني **مجلس الشؤون المالية**، وهو أحد المجالس المعينة من قبل الإدارة لتمثيل الأهالي، ولكن ليس لهم تأثير على سياسة فرنسا بالنسبة إلى شعبهم.

[9]-أبو اليقظان، **الباروني** ج2/ 98، 101. أبو القاسم سعد الله، **بحوث في التاريخ العربي**، ط. دار عالم المعرفة، بيروت، 2011، ص 408.

[10]- أبو القاسم سعد الله، "لعنة ميرانت" في **أفكار جامحة**، عالم المعرفة، بيروت،2011، ص 147.

[11]- قال إن النطق المزيغي أصح من المازيغي، أي البربري.

[12]- أنشئت سنة 1931 برئاسة عبد الحميد بن باديس ونائبه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي واستمرت إلى سنة 1956. وهدفها استعادة هوية الجزائر العربية والإسلامية بطريق التعليم بالعربية، وهي الهوية التي حاول الاحتلال طمسها.

[13]- أعادت دار الغرب الإسلامي طبع البصائر بعد أن جمعت ما تفرق من أعدادها بصعوبة. بيروت 2004؟

[14]-تعرف بأحداث قسنطينة، وقد بدأت باعتداء أحد اليهود على مقدس إسلامي وهو الجامع العتيق، فثار المسلمون ضد اليهود وتدخلت الشرطة ومات بعض الأفراد، وكادت الأمور تخرج من أيدي الحكومة وأعيان المدينة. وعن مسألة الأذان والمقاطعة وغيرها مما كان فيه بنو ميزاب طرفا انظر أحمد توفيق المدني **حياة كفاح** (مذكرات)،ط. دار البصائر، الجزائر، 2008، ص 311 وهنا وهناك.

[15]- أبو اليقظان، **الباروني** 210/2.

[16]-**التجنيد الإجباري** قانون سنه الفرنسيون عام 1912 وفرضوه على الشباب الجزائري ليحارب معهم تحت الراية الفرنسية، وكانت سحب الحرب العالمية الأولى تتلبد، وشعرت فرنسا بالخطر الألماني وباتساع جبهاتها القتالية. أما قبل ذلك فليس إلا التطوع لأداء الخدمة العسكرية. أما منذ 1912 فقد أصبح الشباب الجزائري مجبرا على التجند، وهذا ما نازعهم فيه بنو ميزاب ودعمهم الباروني في موقفهم.

[17]- تولى موريس فيوليت حكم الجزائر من 1925 إلى 1927، وكان اشتراكي المذهب. وقد استطاع أن يجلب إلى بلاده بعض النخب الجزائرية بسياسته الاندماجية الخطرة التي كانت تبدو سياسة ليبرالية براقة.

[18]- أبو اليقظان، **الباروني** 211/2.

[19]- أبو اليقظان، **الباروني** ج212/2

[20]- صدرت الجريدة الأخيرة باللغتين عام 1933 و لم يظهر منها سوى أعداد.

[21]-لم نفهم من العبارة الأخيرة سوى وعده لهم بعدم التدخل في الشؤون السياسية أو المساهمة في التهدئة التي يطلبونها.

[22]- أبو اليقظان، **الباروني**، ج 102/2.

[23]- كانت عائلته مقيمة عند أخيه يحي الباروني في طرابلس.

[24]- علي مصطفى المصراتي، **مؤرخون من ليبيا**، ط1، طرابلس، 1977، ص245-261.

بيان أول نوفمبر 1954 وأبعاده

د. محمد لحسن زغيدي
قسم التاريخ جامعة الجزائر 2

لم يأت بيان أول نوفمبر 1954 من فراغ سياسي وطني ودولي، بل جاء في ظرف أحاطت به ظروف دولية ووطنية، وفرت الأرضية الفكرية الخصبة لبناء تلك الأفكار والعبارات المؤسسة للبيان، والتي تعود إلى جذور الحركة الوطنية منذ انبعاثها في شكلها الوطني الثوري، مع بزوغ نجم شمال إفريقيا سنة1926، وما تلاها من أحداث هامة هزت الكيان الجزائري خاصة الاحتفالات المأوية التي بينت فيها الإدارة الاستعمارية نواياها المستقبلية وإرادتها في الاحتفاظ الأبدي بالجزائر كمفتاح ذو بعد جيواستراتيجي هام بالنسبة للتحكم في مصير القارة الإفريقية.

وما شهدته سنوات الثلاثينيات فيما بعد من صراع فكري وإيديولوجي، إلى اندلاع الحرب العالمية الثانية، وما واكبها من أحداث هامة ذات علاقة بالحالة الجزائرية والاتجاه الوطني بصفة خاصة، وكانت أهمها سقوط العاصمة الفرنسية باريس في جوان 1940م، وما لاحظه المجندون الجزائريون في الجبهة الفرنسية من فرار وخيانة في صفوف الجيش الفرنسي وانقسامه بين بيتان ودي غول.

كما أن الساحة الجزائرية، عاشت أحداث الحرب وتفاعلت مع الإيجابي فيها لاسيما ما تعلق بالقضية الوطنية والتعريف بها والسعي لنيل الحقوق المغتصبة، نذكر منها:

- بيان الحلف الأطلسي سنة 1941، خاصة ما جاء فيه في حق الشعوب في تقرير مصيرها.
- نزول الحلفاء في 08 نوفمبر1942 بالجزائر واتخاذها مقراً لسير العمليات بالمنطقة.
- مؤتمر سان فرانسيسكو والتأكيد على حق الشعوب في إن تحكم نفسها بنفسها.

وبعد نهاية الحرب شهد العالم تغيرات هامة شجعت الشعوب على المطالبة بتحقيق تقرير المصير، بما عرفته الساحة الدولية من هيئات ومؤسسات أممية، وحصول دول على استقلالها في مختلف أنحاء العالم، كل ذلك كان له أثره الإيجابي في الفكر الوطني التحريري الذي انعكس في أدبيات البيان، لا سيما ما ورد فيه عاكساً لهذه الأهمية للظرف الدولي المشجع فجاء ما نصه: "إن الانفراج الدولي مناسب لتسوية بعض المشاكل الثانوية التي من بينها قضيتنا التي تجد سندها الدبلوماسي وخاصة من طرف إخواننا العرب والمسلمين" [i].

ولنبين ذلك الانفراج والسند الذي شجع قادة الثورة على المضي قدما وإظهاره في البيان هو ما اشرنا إليه من تحويلات ايجابية على مستوى الساحة العالمية والتي نقسمها إلى الآتي:

I- في الساحة الدولية فيما بين 1945-1954:

أ- في 24 اكتوبر1945، تأسيس هيئة الأمم المتحدة

ب- وفي جانفي 1945، افتتاح الدورة الأولى للأمم المتحدة

ج- وفي 10 ديسمبر 1948، المصادقة على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

2- الدول الإسلامية:

أ- في 02 مارس 1946، جلاء القوات الأجنبية من إيران.

ب- في 30 سبتمبر 1947، قبول باكستان عضو في الأمم المتحدة.

ج- في 27 ديسمبر 1949، استقلال إندونيسيا (اكبر الدول الإسلامية).

من بريطاني في 29 نوفمبر 1946 ومن هولندا في 27 ديسمبر1949.

د- في 01 جوان1951، قيام السيد مصدق رئيس الحكومة الإيرانية بتأميم النفط.

3- الدول الأفريقية:

أ- شهدت القارة الإفريقية حركة وطنية في نهاية الحرب العالمية الثانية.

ب- وفي 10 أفريل 1947، إنعقد بدكار عاصمة السينغال مؤتمر إتحاد إفريقيا.

ج-في 29 مارس 1947 قيام ثورة وطنية بمدغشقر.

د- في سنة 1950، شهدت إفريقيا الغربية اقترح دساتير جديدة نصت على حصولها على قدر من الحكم الذاتي.

4- بعض المستعمرات الفرنسية:

أ- في 22 أكتوبر 1953، استقلال لاووس عن فرنسا.

ب- وفي 07 ماي 1954، هزيمة فرنسا بالفيتنام في معركة ديان بيان فو بخسائر فادحة قدرت بـ (1500 قتيل و4000جريح و10 ألاف أسير).

ت- وفي 20 جويلية 1954، صادق مؤتمر جنيف على استقلال كمبوديا الكامل من فرنسا.

5- الوضع العربي:

أ- في مارس 1945 تأسيس جامعة الدول العربية [2].

ب- انضمام دول عربية لهيئة الأمم المتحدة على النحو الأتي:

1- لبنان في 24 أكتوبر 1945.

2- المملكة العربية السعودية في 24 أكتوبر 1945.

3- الجمهورية العربية السورية في 24 أكتوبر 1945

4- الجمهورية العربية المتحدة في 24 أكتوبر 1945.

5- جمهورية العراق في 21 ديسمبر 1945

6- جمهورية اليمن في 03 ديسمبر 1947.

7- قيام الثورة المصرية في 23 جويلية 1952.

6- الوضع المغاربي:

أ- في 15 فبراير 1947تم تأسيس مكتب المغرب العربي بالقاهرة: ودوره في التعريف بالقضية.

ب- في 01 جانفي 1952، استقلال ليبيا (كتبت عنه جريدة المنار: (دخل الاستقلال المغرب العربي)).

ج- وفي سنة 1952، قيام الثورة بتونس والمغرب وآثارها على النفسية النضالية لدى الجزائريين.

د- لقد كانت الساحة التونسية والمغربية مجالاً لنشاطات النخبة الجزائرية فكرياً ونضالياً.

ه- فمثلا تونس كانت صحافتها منذ مطلع القرن مجالا للكتابات الجزائرية حيث شهدت الفترة الممتدة من 1907 إلى 1954: (411 مقالاً في 42 صحيفة قام بها 88 كاتبا جزائرياً).

كانت تصب في الشأن الجزائري من جميع جوانبه السياسية والاجتماعية والثقافية.

وفي 1953 تم طرح القضية التونسية والمغربية على هيئة الأمم المتحدة.

و- تبني جامعة الدول العربية القضية على المستوى الدولي.

ز- دعم الدول الآفرو آسيوية في الهيئة الأممية للمسألة المغاربية.

ك- سنة 1954 بدأت الاتصالات بين فرنسا والمغرب وتونس من أجل المفاوضات [3].

7- الوضع الداخلي الوطني:

1- اندلاع الحرب العالمية الثانية وآثارها على الساحة السياسية الوطنية

2- التجنيد الإجباري في الحرب.

3- سجن قادة الحركة الوطنية وإيقافهم ووضعهم تحت الإقامة الجبرية المحددة.

4- في 10 فبراير 1943، بيان الشعب الجزائري ومن بعده المكمل.

5- في 14 مارس 1944، إعلان حركة أحباب البيان والحرية كجبهة وطنية موحدة.

6- انتفاضة 08 ماي 1945، والمجازر المرتكبة فيها من طرف جيوش الاستعمار الفرنسي في حق الشعب الجزائري المسلم الأعزل والتي استشهد أكثر من 45 ألف جزائري مسلم.

7- في 15 و 16 فبراير 1947، تأسيس حركة الانتصار للحريات الديمقراطية والمنظمة السرية العسكرية (O.S) كجناح عسكري للحزب للشروع في التحضير العملي للثورة.

8- الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في 10 ديسمبر 1948 ومواده المنطبقة على الحالة الجزائرية، ومن قبلها الديباجة التي نصت في فقراتها: (1و2و3و6و9)، أما مواده المتطابقة نعرضها في المواد (م1و 2ف2، وم3 و5و6 و7و8 و9 و10ف1وف2وم12و15ف2وم17ف2وم18و19و20ف1وم21و22و23و26و28 و29) [4].

9- اكتشاف المنظمة السرية في مارس 1950 وملاحقة أعضائها وقيادتها.

10- في سنة 1952: تشكيل لجنة مصغرة من السادة (محمد بوضياف وديدوش مراد ومصطفى بن بولعيد والعربي بن مهيدي)، كانت تناقش قضايا وطنية ومغاربية ودولية، اتفقت على إعادة تفعيل O.S والاتصال من أجل تفعيل قضية السلاح.

11- في أفريل 1953، انعقد مؤتمر الحزب حيث تقرر فيه: إعادة تشكيل O.S تحت اسم حركة البركة، ووضع استراتيجية مستقبلية لمسار الحركة الوطنية ودورها محلياً وإقليمياً.

12- في 1953، أزمة الحزب وانقسامه إلى المركزيين والمصاليين متناحرين من أجل قيادة الحزب.

13- في 1953، سفر بوضياف وديدوش مراد إلى فرنسا للإشراف على فدرالية الحزب بفرنسا.

14- في فبراير 1954، عودة بوضياف إلى الجزائر.

15- في 23 مارس 1954، تأسيس اللجنة الثورية للوحدة والعمل.

16- من 13 إلى 15 جويلية 1954، انعقاد مؤتمر المصالين بأورنو ببلجيكا وتم فيه فصل المركزيين.

17- من 13 إلى 16 أوت 1954، انعقاد مؤتمر المركزيين بالجزائر وتم فيه الانفصال عن المصاليين.

18- نهاية جويلية 1954 انعقاد اجتماع الـ 22 التاريخي (بكلو صلامبي بيت إلياس دريش).

19- تكوين لجنة الـ 06 وبداية العمل التحضيري للثورة [5].

إن الغرض من تقديم الخلاصة المتعلقة بالوضع العام الذي سبق ورافق كتابة بيان أول نوفمبر 1954، على المستوى الدولي والأممي خاصة ما شهدته الساحة الإسلامية والإفريقية وبعض المستعمرات الفرنسية والبلاد العربية والمغاربية، من أجل تبيين النضج الذي كان يتمتع به جيل نوفمبر الذي نشأ في تلك الظروف لاسيما ما شهدته الساحة الوطنية الجزائرية قبل وأثناء وبعد الحرب العالمية الثانية والتطورات التي عرفها التيار الثوري الوطني بعد مجازر 08 ماي 1945 كما سيتضح في الحديث عنه لاحقاً.

لقد كان الشباب من جيل نوفمبر يتتبع تلك الأحداث لاسيما ما كان يجري في منطقة المغرب العربي وما كان يسببه في نفسية الرأي العام الوطني عامة والنضالي الثوري خاصة ما دفع البعض منه للالتحاق بالثورتين المغاربيتين على الجناحين الغربي والشرقي، وهو ما دفع النخبة الثورية إلى التفكير والتخطيط من أجل العمل في الوقت المناسب [6].

وقد ساعدت ظروف طارئة أثرت على العمل الثوري من حيث تأخير الإنجاز، إلا أنها كانت في غير ما حسب لها من طرف الإدارة الاستعمارية، لكونها مكنت اللجنة الثورية من إعادة النظر في الترتيب والتنظيم خاصة في مجال السرية والحساب المدقق لكل الخطوات المستقبلية لإنجاز العمل الناجح، الشيء الذي فوت الفرص على المستعمر بكل أجهزته المسخرة لعدم تسرب العمل الثوري للجزائر من الجناحين، وهو ما جعل وزير الداخلية الفرنسي: فرنسوا ميتران يصرح في 30 أكتوبر 1954 بقوله: "ما زلت أستبعد قيام عمل عسكري بالجزائر استنادا لتقرير مصالحنا" [7].

لعب الكتمان وحفظ السر دوراً أساسياً في التحضير للثورة والإعداد لها بصفة جيّدة وحسنة دون الوقوع في الأخطاء والارتجال الذي قد يؤدي إلى اكتشاف

الأحوال، لقد وضع مخططو ومنفذو الثورة خطة حكيمة اعتمدت على السرية والكتمان والدقة في اختيار الرجال، وقد ساعدهم على ذلك الوضع النضالي الذي تربوا وتكونوا فيه، حيث أن حزب الشعب الجزائري ومنذ إعلان حله سنة 1939 ودخوله السرية التي وجد فيها التربة الخصبة، التي ترعرع ونشأ فيها جيلاً كاملاً، عرف كيف يوظفها ويستعملها سلاحاً في الحفاظ على كيانه واستمرار مساره وتمتين أواصره وترصيص صفوفه [8]، وقد مكنه ذلك من اجتياز عدّة امتحانات وعقبات صعبة، كانت أقصاها وأصعبها مظاهرات 08 ماي 1945، وما نتج عنها من مجازر رهيبة، ذهب ضحيتها أكثر من 45 ألف شهيد أعزل من أبناء الجزائر في مختلف الأعمار والأجناس؛ لقد أفضت تلك المجازر عكس ما كان يخطط له العدو ويسعى إليه، فقد زادت في ثبات الجيل ودفعه قدماً نحو تحقيق العمل الهادف.

فتكونت المنظمة السرية في مؤتمر الحزب (15و16 فبراير 1947) [9] والتي باشرت وهيكلت ونظمت وأعدت للثورة، ولم بثنيها اكتشاف أمرها في 1950 وملاحقة أعضائها، بل ساعدها ذلك على تأمين مستقبل عملها، وزاد في رصيدها احتكاكها المباشر بالقاعدة النضالية في أعماق المجتمع الجزائري، الذي أحتضنها ومنع أيادي الاحتلال من الوصول إليها مدة أربعة سنوات من الاختفاء عن أنظار الاستعمار وعيونه.

لقد كانت الأشهر الأولى لسنة 1954 حاسمة في مسار المنظمة السرية التي قررت الدخول في العمل، فأرادت ترميم بيت الحركة الوطنية المتصدع والمنقسم، فأسست اللجنة الثورية للوحدة والعمل في 23 مارس 1954 التي لم يكتب لها النجاح أمام الحالة التي وصل إليها الانقسام والتباين في الطرح والتمسك بالرأي معاً، أدى إلى حلها وتغير وجهة نظرها واتجاه مسارها نحو الإسراع في العمل، وترك ما كان يتنظر في الحزب من أمل.

فقامت الخلية الثورية باستدعاء قدماء المنظمة السرية الذين وصلوا من جهات الوطن الأربع وتم اللقاء في بيت أحد المناضلين[10] بالمدنية وقد بلغ عدد الواصلين

"22" ناقشوا الوضع العام والآفاق المستقبلية واتفقوا على قيادة وطنية تنجز الخطوات الختامية لتفجير الثورة التحريرية.

قام العضو المنتخب (محمد بوضياف) في اليوم الموالي بالاتصال بالسادة: (مصطفى بن بولعيد، ديدوش مراد والعربي بن مهيدي ورابح بيطاط) [11] لتكوين القيادة الأولى للإعداد للثورة، وشرعوا في البداية بالاتصال بمنطقة القبائل ليكتمل الشمل وأصبحت اللجنة سداسية وتم عقد الاجتماعات التحضيرية بكل سرية في أماكن مختارة بدقة وحساب وهي المنهجية العملية التي أوصلت اللجنة القيادية إلى تحقيق هدفها، ومن خلال تلك الاجتماعات تمكنت من وضع كل اللمسات التي من شأنها تحقيق الهدف بسرية وإتقان ونجاح.

- فكرة البيان وكتابته:

يتطلب الإعلان عن الثورة المنظمة التي تهدف إلى التحرير والتغيير، ضرورة التعريف بها من اجل التقديم والتنوير، وهو ما يستلزم على قادتها تقديم بيان وإعلان سياسي يضمن التعريف بها وبأهدافها ودوافع اندلاعها، والتنظيم الذي يقودها ويسهر على تسييرها، كذلك انتمائها الحضاري وبعدها النضالي وماذا تحمل من أبعاد أخرى وآمال للشعب وتطلعاته وتحقيق رغباته، ثم ماهي البدائل المطروحة التي تسعى إلى الوصول إليها، ليجعل المتتبعين لأحداثها يثقون بها وبأهدافها، ويلتف الناس حولها لتحقيق غايتها وهو ما يعكسه البيان في تنوير الرأي العام.

الشيء الذي ناقشه القادة الستة وأولوه أهمية خاصة لكونهم غير معروفين على الساحة الوطنية، وهو ما يستوجب التعريف بالعمل قبل العامل، لأن الميدان هو من سيثبت الثقة بينهم والجماهير الشعبية في المستقبل، لأن الأرضية النضالية خصبة وتنتظر الفعل لتتفاعل معه.

لذلك استغرقت وقتاً طويلاً وقد كانت تثار في كل لقاءات المجموعة وحتى في الاجتماعات الهامشية، ولم تتبلور إلا في الاجتماع الأخير الذي تقرر فيه إعلان

الثورة وتحديد موعدها وتوقيتها ويرجع السبب في تعقد موضوع المحتوى السياسي، هو أن المحتوى السياسي لم يتجاوز كلمة "الاستقلال" في جميع العهود السابقة في مختلف صور الحركة الوطنية، وأعد ذلك السيد محمد بوضياف نقصاً وعبر عنه بقوله: "لم يقع أي تعمق جاد في الحزب" [12]

وفي هذا اللقاء [13] تم تكليف السيدين محمد بوضياف وديدوش مراد بكتابة نص البيان بعدما تم الاتفاق على خطوطه العريضة.

وقد وقع اختيارهما على المناضل محمد العيشاوي ونظراً لكفاءته في الصياغة والرقن وما يتمتع به من ثقافة قانونية ومن تجربة نضالية في صفوف الحزب، ذلك ما أهله ليرشح لكتابة البيان، وقد اصطحباه إلى محل المناضل عيسى كشيدة للخياطة، حيث تم فيه كتابة نص البيان، والذي تم بالكيفية الآتية: "تولي السيدين بوضياف وديدوش بإملاء الأفكار الأساسية المستمدة من مبادئ الحركة الوطنية ولوائح مؤتمرات حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، وتولي السيد العيشاوي الكتابة والتحرير" [14].

وقبل الحديث عن الصياغة أقدم نبذة عن كل واحد من الثلاثة حتى يتضح من خلالها المسار الفكري والتكويني النضالي لكل منهم:

- تعريف شخصيات البيان:

محمد بوضياف	ديدوش مراد	محمد العيشاوي
من مواليد 23 جوان 1919، حي العرقوب المسيلة. تحصل على شهادة الابتدائية سنة 1933. درس الإكمالية ببوسعادة بدأ العمل في سن17 عند محضر قضائي بالمسيلة،	من مواليد 13 جويلية 1927 بالمرادية (تاريخ إعلان النجم) انضم إلى PPA سنة 1943 وفي عمره 16 سنة. سنة 1945 عين مسؤولاً في أحياء	ولد في 22 جانفي 1921 بسي مصطفى بولاية بومرداس توقف عن التعليم من أجل الشغل. عمل عند محام وتعلم الرقن. في الحرب العالمية الثانية

انخـــرط في PPA ســـنة 1937.
عمل بمصنع التبغ بقسنطينة سنة 1939
عمـل عـون إداري بثكنـة ســـنة 1941 بســـطح المنصورة بقسنطينة.
نجح في مسابقة في مصلحة الضرائب وعين بجيجل.
أستدعى للخدمة الإجبارية العســكرية ســنة 1943، فالتحق بفيلق 67 للمشـاة الجزائريين بباتنة.
تخـرج ضـابط صـف سـنة 1945، شـــعاره: "لـــيس لأحد حـق علـى الـوطن، الوطن هو الـذي لـه حـق علينا، من عمل واجباً فـلا يشكر عليه".
اشـــتهر بالانضـــباط والصـــرامة والجديـــة والأخلاق العالية والتـدين والغيرة الوطنية.
كـــان يحـــرض الجنـــود ويجندهم وطنياً.
عـــاش مجـــازر 08 مـــاي 1945 وزار سطيف ليرى ما جرى وقال عنها

المرادية.
ســنة 1946 شـارك في الانتخابات.
سنة 1946 أسس فرقة الأمـــل للكشـــافة الإسلامية.
أسس فريق الراما الكرة القدم.
درس المرحلة الابتدائية بالمراديـــة والثانويـــة بالعناصر.
وقـــد أغلقـــت ســـنة 1942 بعـــد نـــزول الحلفـــاء، وســـرح التلاميذ.
انتقل إلى قسنطينة لإتمام الدراسة.
ســـنة 1948 كلـــف بمسؤولية O.S بالشـرق بقسنطينة.
1950 حكـــم عليـــه غيابيـاً بـــ 10 سـنوات سجناً نافذا.
سنة 1952 أنشأ مع بن بولعيـد نـواة لصـنع القنابل.
انتقل مع بوضـياف إلى فرنسا سنة 1953.

برز كخطيب وطني كان يحث الشباب علـى النضال والوطنية.
انضـم للحـزب سـنة 1946.
عمـل صـحافي بباريس بمجلـــة "مونـــد أراب" "Mond arab" العـــالم العربي.
تعـرف عليـه بوضـياف حينما كان بفرنسا
عمل بالجزائر في منصب مـداوم بمقـر الحـزب وتعـاون مـع لحـول سنة1954.
عمـل محـرراً في جريـدة "لالجيري ليبر" Algérie libre الجزائـر حرة.
التقـى مـع بوضـياف بالجزائر وكلفـه بتحرير وثـائق دعائيـة سـرية لصالح (C.R.U.A).
واسـتعان بـه بوضـياف لمقدرته الفكرية ووطنيته علـى صـياغة البيـان في محل عيسى كشيدة رفقـة ديدوش.

إنها الناهية والبداية تفرغ للحزب واستقال من العمل. أصبح من المسؤولين في O.S، عضو الأركان العامة. سنة 1950 حكم عليه في عنابة والبليدة بـ 10 سنوات سجن نافذة. جويلية 1953 عين على رأس وادية الحزب بفرنسا فبراير 1954 عاد إلى الجزائر يحمل نداء الحكمة ويدعو للحياد الإيجابي، أسس في 23 مارس (C.R.U.A) كان كثير المطالعة	**فكره:** كان نموذج المثقف الذي يخضع كل شيء للتحليل العقلي الواقعي. شارك مع بوضياف في كل النشاطات التي سبقت إعلان الثورة. فلسفته الثورية يجب الاّ نغفل على أن سنوات الكفاح الأولى ستهدف فقط إلى الخروج من دائرة "الأرض الفرنسية إلى دائرة المستعمرة كما أنها ستهدف في نفس الوقت إلى تحقيق وحدة الشعب وراء أهداف الثورة... وبعد ذلك فقط يبدأ الكفاح من أجل الاستقلال كان يطالع كل ماله علاقة باهتمامه وتطلعاته.	

- أما فيما يخص كتابة البيان وكيف تمت يقول:

السيد عيسى كشيدة صاحب المحل الذي تمت فيه كتابة البيان: "تمت كتابة النصين [15] اللذين نشرناهما ووزعناهما على المناضلين والشخصيات العاصمية

من مختلف الأديان وبقلم مناضل يدعى: العيشاوي محمد، وكان قد انخرط في صفوف حزب الشعب الجزائري في حدود عام 1946، عمل صحافياً في باريس لحساب مجلة "لومن آراب، العالم العربي" وتعرف عليه بوضياف عندما كان مسؤولاً في فرنسا، عند عودته إلى الجزائر، تحصل العيشاوي على منصب مداوم في مقر الحزب في ساحة (شاوتر) (عودة عبد القادر حالياً)، وتعاون مع لحول [16] كما عمل محرراً في جريدة "لالجيري ليبر، الجزائر الحرة".

التقى به بوضياف والتمس منه خدمة لتحرير وثائق دعائية سرية، لم يكن لأحد أياً كان أن يعلم بذلك، ,اعطى العيشاوي موافقته المبدئية...

وقد التقى فيما بعد لعدة مرات ببوضياف وديدوش مراد عندي في (05 ممر ملاكوف) [17] على طرق باب الوادي.

هذا عن اللقاء والتكليف أما عن صياغة البيان وكتابته في محل السيد كشيدة المشار إليه أعلاه يقول السيد كشيدة: "كان السي طيب [18] يدلي بأفكار مستوحات عن برنامج الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية الذي أعد أثناء مؤتمر 1953 وكان العيشاوي يحاول أن يركبها في جمل مفيدة وعندما تمت كتابة الوثيقتين، اجتمع بوضياف بمجموع السنة مرتين وتلاهما على مسامعهم" [19]

وبعد الانتهاء من كتابة البيان، عقدت لجنة الستة اجتماعها الأخير في 23 أكتوبر 1954 بالرايس حميدو غرب العاصمة، في الاجتماع تمت مناقشة آخر التحضيرات، وقدم السيدان محمد بوضياف وديدوش مراد، نص البيان الذي نال رضا الجميع، واتفق على كتابته وتوزيعه ونقله إلى الخارج ليذاع في وقت واحد من طرف الوفد الخارجي مع اندلاع الثورة بالداخل [20]. وأخذ كل واحد نسختين واحدة من البيان وأخرى من النداء العسكري على أن يسحبها في ناحيته.

أما بالنسبة لرقنه وسحبه فتقرر أن يكون بعيداً عن العاصمة وأعين العدو المتواجدة في كل مكان، فتم اختيار المنطقة الثالثة لقربها من العاصمة، ولتوفير إمكانيات الرقن والسحب لوجود الآلتين [21] اللازمتين للمهمة، وإمكانية نقله في

الوقت المناسب؛ فتم لأجل ذلك استدعاء السيد محمد العيشاوي مرة أخرى من طرف ديدوش مراد الذي سلمه مبلغاً من المال لشراء عشرة رزمات ورق وعلب (ستانسيل) وقارورتين من حبر (رونيو كوريس) ومساكة أوراق وزجاجة ممحات التصحيح.[22]

لذلك تم تكليف السيد عمر أعمران نائب السيد كريم بلقاسم باصطحاب السيد محمد العيشاوي إلى تيزي وزو، وعند وصوله إلى قرية إغيل إيمولا، يقول المجاهد الشاهد (شابة محند أكلي): "جاء الصحافي إلى هذه القرية ماراً على مدينة تيزي وزو إلى قرية إغيل أمولا حيث حضر البيان تحضيراً محكما بدءا من الآلة الراقنة وسحب عشرات النسخ، وبعد ذلك وضعت في حقيبة حملها بن شابة محند أكلي يوم 31 أكتوبر 1954 إلى العاصمة أما الصحافي فبقي في نفس المكان إلى غاية 01 نوفمبر 1954 تحت حراسة مشددة لم يشعر بها أحد حتى الصحافي نفسه."[23]

أما بالنسبة للنسخ التي تم سحبها وذلك حسب تقرير سري حول استنطاق محمد العيشاوي يقول: "إن العيشاوي هو الذي كتب وسحب البيان وتم في المرة الأولى سحب 160 نسخة من النداء وفي المرة الثانية 1200 نسخة"[24]

أما فيما يتعلق بنص البيان فإن قراءة متأنية له تبين للباحث وللمتمعن فيه أنه غير عادي من حيث اختيار الكلمات والمصطلحات السياسية والتاريخية الهادفة، وكيفية ترتيبها وتنسيقها في جمل سياسية ذات دلالات ومعاني هادفة، فكل ما تقرأه تتضح لك نتائج جديدة ومفاتيح عديدة وهو ما جعله يتجدد مع الزمان لاحتوائه لنقاط عديدة حضارية وأبعاده السياسية تجعل المجتمع الواحد يرى كل فرد وطني منه نفسه فيه وإن اختلفت القناعات وتباينت الألوان السياسية والمذاهب الفكرية.

وقبل التفصيل في هذه النقاط والأبعاد نعرض ذلك قبل شرحه في الجداول الآتية:

- الجدول الأول: محتوى البيان:

عدد الكلمات	عدد الفقرات	النقاط الحضارية	الأبعاد السياسية
685	09	11	17

- الجدول الثاني: جدول النقاط الحضارية في البيان

الترتيب	الأبعاد الحضارية
01	الاحتكام إلى الشعب
02	النقد الذاتي
03	تحمل المسؤولية
04	الحياد الإيجابي
05	تكافؤ الفرص
06	الأهداف السياسية
07	الأهداف الداخلية
08	الأهداف الخارجية
09	وسائل الكفاح
10	أرضية السلم
11	الالتزام المقابل

- الجدول الثالث: جدول التوقيت وأبعاده:

الرقم	التوقيت	البعد الحضارية
01	الفصلي	المناخي
02	أول نوفمبر	التاريخي
03	المولد وعيد الفصح	الديني
04	التوقيت	الزمني

الجدول الرابع: جدول الأبعاد السياسية في البيان

الرقم	البعد السياسي	النقاط في البيان
01	الشعبي	08 نقاط
02	النضالي	10 نقاط
03	العملي	02 نقطتين
04	الديني	01 نقطة
05	المغاربي	08 نقاط
06	الديمقراطي	10 نقاط
07	الحضاري	13 نقطة
08	الإنساني	21 نقطة
09	السلمي	05 نقاط
10	الانتماء الحضاري	09 نقاط
11	حق المواطنة	11 نقطة
12	التاريخي	08 نقاط
13	الهوية الوطنية	05 نقاط
14	التشريعي	08 نقاط
15	الاستشرافي	06 نقاط
16	الإعلامي	04 نقاط
17	المصالحة الوطنية	06 نقاط
المجمـــــوع: 17 بعـــــداً		135 نقطـــة

أما بالنسبة للنقاط الحضارية الواردة في البيان والتي أشرنا إليها في الجدول الثاني فقد جاءت من خلال قراءة البيان على الشكل الآتي:

I- الاحتكام إلى شعب:

نص البيان أن الحكم يرجع إلى الشعب في قضية مصير الثورة ومسارها وهو الحكم الوحيد في تقييمها حيث نص في أول عباراته متوجهاً إلى الشعب الجزائري بصفة عامة دون إقصاء أو تهميش فجاء على النحو الاتي:

"أيها الشعب الجزائري.

أيها المناضلون من أجل القضية الوطنية.

أنتم الذين ستصدرون حكمكم بشأننا: نعني الشعب بصفة عامة والمناضلين بصفة خاصة". وهو الإقرار المعلن بأن الشعب هو صاحب كلمة الفصل خاصة طليعته النضالية.

2- النقد الذاتي:

وجه البيان النقد لحزب الشعب ولحركة انتصار الحريات الديمقراطية، رغم أن واضعيه من مناضلي الحزب الذين تربوا في رحابه وتشبعوا بفكره ونموا في ثقافته، ولما تعلق الأمر بالقضية الوطنية المصيرية، لم يتوانوا في توجيه اللوم للتقصير في العمل المتعلق بتقرير المصير، فوجه النقد على تخلي الحزب عن خطه الثوري الذي طالما نادى به منذ بداية الحركة الثورية في 1926 إلى دخوله في الصراع الهامشي وهو السبب الذي جعل الجزائر تتأخر عن شقيقتيهما تونس والمغرب رغم أنها كانت أول الداعين للعمل الثوري، كما جاء في البيان. مما أدى إلى استياء وخيبة أمل المناضلين المتحمسين إلى الثورة. ثم استعرض البيان بوادر الأمل ليعيد الثقة في نفسية المناضلين فجاء فيه: "أما نحن الذين بقينا في مؤخرة الركب، فإننا نتعرض إلى مصير من تجاوزته الأحداث، وهكذا فإن حركتنا الوطنية قد وجدت نفسها محطمة نتيجة لسنوات من الجمود والروتين...".

3- تحمل المسؤولية:

في غياب الحزب عن تحمل مسؤولياته التاريخية والنضالية، ودخول مسؤوليه في الصراع الشخصي، أدى ذلك الفراغ الرهيب إلى تأخر الحركة الثورية عن نظيراتها

في المغرب العربي، وفي غياب شخصية وطنية معلمية تقود الحركة الثورية، رأي محررو البيان أن يوضحوا ذلك بقولهم: "رات مجموعة من الشباب المسؤولين المناضلين الواعين التي جمعت حولها أغلب العناصر التي لا تزال سليمة ومصممة أن الوقت قد حان لإخراج الحركة الوطنية من المأزق الذي أوقعها فيه صراع الأشخاص والسمعة".

4- **الحياد الإيجابي:**

أعلن قادة الثورة عدم انحيازهم لأي طرف في الصراع، حتى لا يحسب الشباب الثوريون قادة الثورة على طرف معين في الصراع السياسي، فوضحوا ذلك في البيان حيث جاء فيه: "إننا نوضح بأننا مستقلون عن الطرفين اللذين يتنازعان السلطة، إن حركتنا قد وضعت المصلحة الوطنية فوق كل الاعتبارات التافهة والمغلوطة لقضية الأشخاص والسمعة".

5- **تكافؤ الفرص:**

نبذ الأقصاء ومحاربة التهميش: لا لإبعاد ونبذ الآخر على أساس اللون السياسي أو الفكر الإيديولوجي أو الفئوي، بل الفرصة تمنح لكل مؤمن بالقضية كفء لتحمل المسؤولية، وفي هذا صرح البيان بشكل واضح وجلي: "تتيح الفرصة لجميع المواطنين الجزائريين من جميع الطبقات الاجتماعية وجميع الأحزاب والحركات الجزائرية، أن تنظم إلى الكفاح التحريري دون أدنى اعتبار آخر".

6- **الأهداف الأساسية:**

حدد البيان الأهداف الأساسية التي تسعى الثورة الجزائرية إلى تحقيقها من حرية واستعادة السيادة الوطنية، وشكل الدولة المنشودة، ثم المجتمع الذي نسعى إلى إنشاده والذي تميزه العدالة والمساواة والاحترام للحريات الأساسية فجاءت على الشكل الآتي:

1-الاستقلال الوطني في إطار الشمال الإفريقي.

2-إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ذات السيادة ضمن إطار المبادئ الإسلامية.

3-احترام جميع الحريات الأساسية دون تمييز عرقي أو ديني.

7- **الأهداف الداخلية:**

تم تحديد أهداف داخلية تسعى الثورة إلى تحقيقها، نص عليها البيان كما يأتي:

1- "التطهير السياسي بإعادة الحركة الوطنية إلى نهجها الحقيقي والقضاء على جميع مخلفات الفساد وروح الإصلاح".

2- "تجميع وتنظيم جميع الطاقات السليمة لدى الشعب الجزائري لتصفية النظام الاستعماري".

8- **الأهداف الخارجية:**

نظراً لأهمية العمل الخارجي ودوره في المساعدة على تحقيق النصر، بجمع المؤيدين والمساندين والمتعاطفين لنصرة القضايا الوطنية خاصة قضايا تقرير المصير، لأن الضغط الدبلوماسي المساند يجبر العدو المعاند للرضوخ لمطالب الوطنيين الثوار، لذلك حدد البيان أهدافاً من أجل تحقيق ذلك المسعى رتبها على النحو الآتي:

1- "تدويل القضية الجزائرية".

2- "تحقيق وحدة الشمال الإفريقي في إطارها الطبيعي العربي الإسلامي".

3- "في إطار ميثاق الأمم المتحدة نؤكد عطفنا الفعال اتجاه جميع الأمم التي تساند قضيتنا التحريرية".

9- **وسائل الكفاح:**

لم يحدد البيان نوعية الوسائل المستعملة لتحقيق النصر، وإنما دعا إلى اتخاذ كل ما يحقق أهداف الثورة المعلنة بالوسائل السلمية في مقدمة العمل الثوري، ولذلك نص البيان في هذا الصدد على: "مواصلة الكفاح بجميع الوسائل حتى تحقيق هدفنا".

10-**أرضية السلم:**

دعا البيان دولة الاحتلال، أن قادة الثورة يدعوها لحل سلمي يجنب إراقة الدماء ويحافظ على الحياة البشرية ويضمن تحقيق الأهداف التي قامت من أجلها

الثورة التحريرية لذا قدم لها شروطاً واضحة لتحقيق السلم عرضها البيان كما يلي:

I- "الاعتراف بالجنسية الجزائرية بطريقة علنية ورسمية ملغية بذلك كل الأقاويل والقرارات والقوانين التي تجعل من الجزائر أرضاً فرنسية رغم التاريخ والجغرافيا واللغة والدين والعادات للشعب الجزائري".

2- "فتح مفاوضات مع الممثلين والمفوضين من طرف الشعب الجزائري على أساس الاعتراف بالسيادة الجزائرية وحدة لا تتجزأ"

3- "خلق جو من الثقة وذلك بإطلاق سراح جميع المعتقلين ورفع كل الإجراءات الخاصة وإيقاف كل مطاردة ضد القوات المكافحة".

II- **الالتزام المقابل:**

أعلن البيان أن الاعتراف بأرضية السلم والشروط المقدمة، ستقابل بالتزام السلطات الجزائرية بعد استعادة السيادة فنصت عليها فيما يلي:

I- "إن المصالح الفرنسية ثقافية كانت أو اقتصادية، والمتحصل عليها بنـزاهة، ستحترم وكذلك ألأمر بالنسبة للأشخاص والعائلات".

2- "جميع الفرنسيين الذين يرغبون في البقاء بالجزائر يكون لهم الاختيار بين جنسيتهم الأصلية ويعتبرون بذلك كأجانب تجاه القوانين السارية أو يختارون الجنسية الجزائرية وفي هذه الحالة يعتبرون كجزائريين بمالهم من حقوق وما عليهم من واجبات".

3- "تحديد الروابط بين فرنسا والجزائر وتكون موضوع اتفاق بين القوتين الاثنين على أساس المساواة والاحترام المتبادل".

أبعاد الاختيار الزمني:

قبل الحديث عن الأبعاد السياسية المشار إليها في الجدول والمتعلق بالبيان وما ورد فيه، يجدر بنا الحديث عن أبعاد اختيار أول نوفمبر تاريخاً وتوقيتاً لاندلاع الثورة التي روعي فيها عدة معطيات وأبعاد نوضحها على الشكل الآتي:

1- **البعد المناخي:** شهر نوفمبر نهاية فصل الخريف وبداية فصل الشتاء حيث الأمطار والأوحال مما يزيد في صعوبة المسالك ويعرقل عملية المطاردة البرية ويضمن حصانة مناخية لجيش التحرير المعتصم في الريف وقمم الجبال لمدة أطول.
2- **البعد التاريخي:** اختيار اندلاع الثورة في غرة نوفمبر له دلالة التاريخ لأن التاريخ ببداية الشهر يختلف كثيراً في الدلالة على الأيام الأخرى في التعداد الشهري.

كما يبين من جهة أخرى على أن المؤرخ له أي الثورة تمت بإعداد جيد وتفكير رزين وتدبير دقيق في وقت غير قصير، ولم تكن عملاً ارتجاليا أو اندفاعيا أو رد فعل مباشر دون تخطيط محكم أو تحضير عقلاني.

3- **البعد الديني:** كان ذا دلالتين:
الأولى بالنسبة للشهر: وهو أن أول نوفمبر كان يوافق لـ 06 ربيع الأول سنة 1374 هـ، شهر مولد النبي صلى الله عليه وسلم.
والثاني بالنسبة لليوم الاثنين: له دلالة رمزية لدى المسلمين فهو يوم مولد النبي صلى الله عليه وسلم. يحمل التفاؤل والبشرة ومن عادة الجزائريين يبدؤون فيه الأفراح والختان كما أنه بالنسبة للطرف الأخر يصادف عيد القديسين.
4- **البعد الزمني في التوقيت:** للشروع في تنفيذ العميلات الأولى باختيار الوقت المحدد والموحد.

فالساعة الواحدة: بداية التعداد الزمني لليوم، تكون ساعة الصفر أي بداية الثورة مع بداية العد الزمني لليوم والشهر.

كما كان توحيد العمل الوطني في وقت واحد، دليل على وحدة الثورة ووحدة القيادة والرأي والخطة والهدف، هو ما يعطي انطباع أولي بأن هذه الثورة تختلف عن سابقاتها.

كما أن ذلك يعطي مغزى ومعنى كبيرين لما تحمله عملية توحيد الزمن والعمل واختيار التوقيت في الساعة الواحدة، فإنه لا يوجد الفرق بين الواحدة والوحدة.

وهو ما أرادت قيادة الثورة إيصاله إلى الدوائر الفرنسية السياسية والإدارية والعسكرية وكذلك للرأي العام نفسه. بأن الثورة وطنية وشاملة وموحدة عبر كامل جهات الوطن.

- الأبعاد السياسية:

أما بالنسبة للجدول الرابع والمتعلق بالأبعاد السياسية التي تضمنها البيان والنقاط التي تناولها كل بعد والتي بلغت 17 بعداً و135 نقطة على الشكل الآتي:

أولاً - البعد الشعبي: وتضمن 08 نقاط:

يعد الشعب هو الضامن الأساسي للثورة والمغذي الدائم لاستمرارها بكل ما تحتاجه من عدة وعتاد، ولذلك وجه إليه البيان النداء بصيغة الجمع في البداية لتكون المسؤولية جماعية لأن الوطن للجميع والوحدة تتطلب التعبئة الشاملة في الداخل والدعم المتواصل في الخارج، لذلك وحتى لا يستبعد الجزائري حيثما وجد مهاجر للعمل أو للعلم عليه أن يتحمل المسؤولية كاملة، وحتى لا ترمي على الغير وتكون فرض كفاية، ختم البيان نداءه بالتوجه للفرد بالتمييز " أيها الجزائري" وذلك ليصبح العمل في إطار البيان فرض عين على كل إنسان جزائري أينما كان.

- وهكذا وردت نقاط هذا البعد كما يأتي:

1- "أيها الشعب الجزائري".

2- "نعني الشعب بصفة عامة".

3- "إن الشعب في أوضاعه الداخلية متحداً حول قضية الاستقلال".

4- "إتاحة الفرصة لجميع المواطنين الجزائريين من جميع الطبقات الاجتماعية أن ينظم".

5- "تجميع وتنظيم جميع الطاقات السلمية لدى الشعب الجزائري لتصفية النظام الاستعماري".

6- "رغم التاريخ والجغرافيا واللغة والدين والعادات للشعب الجزائري".

7- "أيها الجزائري إننا ندعوك لتبارك هذه الوثيقة".

8- "إن انتصارها هو انتصارك".

ثانياً: البعد النضالي: وتضمن 10 نقاط.

إن العمل الثوري هو قمة الوعي بالمسؤولية الناجم عن التربية النضالية للفرد الوطني، وما دامت الساحة الجزائرية خلال العقود الأولى للقرن العشرين شهدت نشاطاً فكرياً وثورياً، وتكويناً نضالياً اضطلعت به أحزاب وجمعيات وطنية لأعداد الفرد الوطني المناسب للوقت المناسب، وذلك كاستمرارية للعمل العسكري الميداني الذي اضطلعت به المقاومة الوطنية للغزاة المحتلين، منذ بداية الاحتلال، حيث كانت المقاومات في كل الجهات عبر ربوع الوطن وشهدت خلالها قيادات تاريخية ريادية من الأمير عبد لقادر وأحمد باي في بدايتها إلى الشيخ آمود وإبراهيم آق بكدة في نهايتها في مطلع العقد الثاني للقرن العشرين.

ذلك الإرث الجهادي، كان هو الغذاء الناجع للفكر الوطني النضالي والذي توج بمظاهرات 08 ماي 1945 وما شهدته الساحة الوطنية من جرائم كولونيالية ضد الإنسانية قل مثيلاتها في بشاعتها، والتي أعطت للعمل النضالي بعداً في التصميم والإرادة والتكوين، فعرفت الساحة جيلاً نوعياً هاماً من المناضلين حول القضية الوطنية، كل يسعى لأجلها من المنطق الذي يتموقع فيه.

ولذلك وجه البيان النداء إلى هؤلاء بصفة خاصة لإشعارهم بأن الوقت المنتظر قد دقت ساعته واتضحت ساحته فعلى كل مناضل وطني أن يتحمل مسؤوليته اتجاه وطنه وأمته.

فنص البيان على هذا البعد في النقاط الآتية:

1- "أيها المناضلون من أجل القضية الوطني".
2- المناضلون بصفة خاصة".
3- "إدراك الحركة الوطنية مرحلة التحقيق النهائية"
4- "إن حركتنا الوطنية قد وجدت نفسها محطمة.....إن المرحلة خطيرة".
5- "حان الوقت لإخراج الحركة الوطنية من المأزق الذي أوقعها فيه صراع الأشخاص".
6- "إننا مستقلون عن الطرفين اللذين يتنازعان السلطة".
7- "إن حركتنا قد وضعت المصلحة الوطنية فوق كل الاعتبارات".
8- "موجهة فقط ضد الاستعمار".
9- "حركتنا التجديدية: جبهة التحرير الوطني".
10- "إعادة الحركة الوطنية الثورية إلى نهجها الحقيقي".

ثالثاً: البعد العملي: ويتضمن نقطتين:

المقصود بالبعد العملي هو ما يجب تجسيده ميدانياً وتحقيقه في أرضية الواقع وهو جواب السؤال الذي يتبادر إلى ذهن كل مواطن: لماذا الثورة وما هو الهدف من إعلانها الذي يستوجب تلبية ندائها والتجنيد في صفوفها، وتقديم المال والجسد والروح في سبيلها وفقاً للمبادئ الثورية التي تلقنها المناضل خلال مسيرته النضالية الوطنية، لذلك تناول البيان هذا البعد في نقطتين هامتين هما:

1- "الاستقلال الوطني".
2- "إقامة الدولة الجزائرية.....ذات السيادة".

رابعاً: البعد الديني:

لقد كان الدين الاسلامي دائماً هو الحصن المنيع للشخصية الوطنية الجزائرية المميزة، بل كان هو الهوية المفرقة بين مجتمعين، الوطني الأصيل المتمسك بالأرض والدين والدخيل البديل المحارب للهوية والشخصية والدين. لذلك كان الدين عند

الجزائري الأصيل هو السلاح المرفوع في وجه الدخيل، فسمى به جمعياته الطلابية والمهنية والثقافية والرياضية وكان هو الركن الأساسي لكل مبادئ الحركة الوطنية.

ولذلك جاء هذا البعد واضحاً في نوعية الدولة المراد تشيدها، حيث نص البيان على:

"إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ذات السيادة ضمن إطار المبادئ الإسلامية".

كما أنه تم الاتفاق على المصطلحات التي يجب على الثورة استعمالها لأن عامة الشعب لا تريد بدلا عنها انطلاقا من عقيدتها وثقافتها ومسيرتها التاريخية في مواجهة الحرب الاستعمارية، فتم انتقاء المصطلحات الآتية: مجاهد ـ ومسبل ـ وفدائي – وشهيد – والله أكبر – والجهاد في سبيل الله.

كما حددت كلمة السر ليلة أول نوفمبر بـ (خالد وعقبة).

خامساً : البعد المغاربي:

خص البيان هذا البعد بـ 08 نقاط:

يعد هذا البعد من أساسيات الحركة الوطنية الموروثة عبر التاريخ بحكم موقع الجزائر في قلب الشمال الإفريقي ورأس القارة في مواجهة الغرب الأوروبي، وبذلك جعلها تمثل مركز الحياة فيها من حيث الحفاظ على سلامتها وضمان استمراريتها، وكل الشواهد التاريخية عبر العصور تبوئ الجزائر تلك المكانة وذلك الدور.

لذلك فإن الحركة الثورية نشأت في إطار المسيرة النضالية المغاربية، فكان النجم هو الدال على فجر الحرية والباعث للوحدة النضالية للمنطقة المغاربية، ومن بعده كل مسار الحركة الوطنية الحزبية والجمعوية بكل أنواعها كانت تنشد نفس الخطاب وتعمل على نفس الدرب. رافعة لواء محاربة الاستعمار كظاهرة

عدوانية ودمار، وحضرت كل الأسباب من أجل الوحدة في العمل والنصرة في تحقيق الهدف.

لذا كان البيان خلاصة لتلك النضالات والاجتهادات والأعمال التي سعى لأجلها السلف الأول من المناضلين وبنيت على أساسها المدرسة الوطنية التي تخرج منها جيل نوفمبر المجيد، فأعطى البيان لهذا البعد ما يجب أن يقدمه القلب والرأس للجسد.

فجاءت على الشكل الاتي:

1- "دفعتنا إلى الاستقلال الوطني في إطار شمال الإفريقي".
2- "إن أحداث المغرب وتونس لها دلالاتها في هذا الصدد".
3- "تمثل بعض مراحل الكفاح التحرري في شمال إفريقيا".
4- "إننا كنا أول الداعين إلى الوحدة في العمل".
5- "هذه الوحدة التي لم يتح لها مع الأسف التحقيق أبدا مع الأقطار الثلاثة".
6- "إن كل واحد منها قد اندفع اليوم في هذا السبيل".
7- "لدفعها إلى المعركة الحقيقية الثورية إلى جانب إخواننا المغاربة والتونسيين".
8- "تحقيق وحدة شمال إفريقيا في إطارها الطبيعي العربي والإسلامي".

سادساً: البعد الديمقراطي: تضمن 10 نقاط:

لقد أدت التجربة النضالية التي عاشها مفجرو الثورة ضمن أطر بينت لهم أن الحوار والتشاور وإشراك الغير في الرأي هي أساس نجاح العمل واتساع رقعة التضامن وتوزيع تحمل المسؤولية، خاصة ما لاحظوه من أسباب تصدع الحزب وانقسامه والتي يرجع مردها إلى التسلط والنزعة الانفرادية ورفض المشاركة وتقاسم الرأي.

بينت تلك السياسة خطأها وعدم فعاليتها بل كانت السبب الرئيسي في تأخير اندلاع الثورة عن موعدها بل عن الركب المغاربي بعدما كانت لها الريادة فكراً وعملاً واستعدادا وتحضيراً، كلها دروس استخلصها رواد الثورة الستة، وبينوا

للرأي العام الفرنسي خاصة النخبة منه، بأن مبدأ الديمقراطية الذي يفسر بحكم الشعب، إن جبهة التحرير الوطني جعلته مبدأها في العمل وافتتحت به بيانها الأول وجعلته مقدمة شهادة ميلادها بحيث جسدته في التوجه للشعب بأنه هو الحاكم الرئيسي والقاضي الأول لمحاكمة قادة الثورة ومحاسبتهم.

كما جعلوا مبدأ المصلحة الوطنية فوق كل الاعتبارات الأخرى، والقناعة بالعمل الثوري هو الأساس للانضمام للثورة، مبدأ المساواة والعدالة بين الجميع مهما كانت الجهة أو اللون السياسي أو الانتماء الطبقي، فمعيار الأفضلية يكون من خلال الإقدام على التضحية والشجاعة الميدانية، ونبذ التميز واحترام الرأي والرأي الآخر دون اعتبارات أخرى.

تلك هي الديمقراطية الحقيقي بكل مدلولاتها العلمية والواقعية عبر عنها البيان في النقاط الآتية:

1- "أنتم الذين ستصدرون حكمكم بشأننا نعني الشعب بصفة عامة".
2- "متحدون حول قضية الاستقلال والعمل".
3- محرومة من سند الرأي العام الضروري".
4- "إننا نوضح بأننا مستقلون".
5- "المصلحة الوطنية فوق كل الاعتبارات".
6- "جبهة التحرير الوطني".
7- "تتيح الفرصة لجميع المواطنين الجزائريين من جميع الطبقات الاجتماعية وجميع الأحزاب والحركات الجزائرية....دون أدنى اعتبار آخر".
8- "إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية.....".
9- "احترام جميع الحريات الأساسية".
10-"الممثلين المفوضين من طرف الشعب الجزائري".

سابعاً: البعد الحضاري: أعطى لهذا البعد I3 نقطة:

إن تحرير الإنسان واستعادة الكرامة وإتاحة الفرص تعد من صميم البناء الحضاري ولا يقوم بها إلا من كان ينتمي إلى حضارة عريقة. وهو ما أراد البيان توضيحه من خلال هذا البعد، بأن للجزائر تاريخ عريق وإسهامات حضارية ساهمت بها عبر العصور.

ولها ثقافة غنية بحكم انتمائها إلى الحضارة أثرت العالم هي حضارة العربية الإسلامية وفي مقدمتها الدفاع عن الحرية وتقديسها، خاصة وأن الاحتلال عمد بكل وسائله على وأدى تلك الحضارة ومحو الهوية والقضاء على الجنسية، وتهديم كل المعالم التمييزية، فجاء البيان للرأي العام بكل نخبه بأننا نسعى لبناء حضارة هدفها القضاء على عدو الشعوب والمدنية المتمثل في "الاستعمار الأعمى والحاقد" كما جاء في ابليان، حيث وردت في النقاط الآتية:

I- "الكفاح التحرري في شمال افريقيا".
2- "أول الداعين إلى الوحدة في العمل".
3- "إخراج الحركة الوطنية من المأزق".
4- "مواجهة فقط ضد الاستعمار".
5- "أن يتيح أدنى حرية".
6- "جبهة التحرير الوطني".
7- "نتخلص من جميع التنازلات".
8- "الاستقلال الوطني".
9- "تصفية النظام الاستعماري".
I0- "إقامة الدولة".
II- "الاعتراف بالسيادة الجزائرية".
I2- "قضيتنا التحررية".
I3- "إنقاذ بلدنا والعمل على أن نسترجع له حريته".

ثامناً: البعد الإنساني: تناول هذا البعد في 21 نقطة.

إن القضية الجزائرية هي قضية إنسانية بالدرجة الأولى، لكون الإنسان الجزائري عانى أكثر من غيره من مظاهر اللاإنسانية المتمثلة في الاحتلال والتمييز والعنصرية وتشريد والتجهيل والتعذيب والإبادة العرقية والسلخ في الهوية وإلغاء الأنا والجنسية على الإنسان والجغرافيا... الخ، لذلك أراد البيان أنه بالرغم من كل ذلك إلا أن الثورة المعلنة تراعي الحقوق الإنسانية، ولن تكون رد فعل بالمثل ضد الجنس أو المجتمع الآخر، فورد فيه في هذا المجال ما يأتي مطابقاً للإعلان العلمي لحقوق الإنسان حسب الجدول الآتي:

البعد في البيان	مقابله في مواد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان:
1-"رفض كل وسائل الكفاح السلمية أن يمنح أدنى حرية".	م1 – م2ف1 –م3
2-"إحترام جميع الحريات الأساسية"	م26ف2
3-"دون تمييز عرقي أو ديني"	م2ف1
4-"تنظيم جميع الطاقات السلمية لدى الشعب الجزائري لتصفية النظام الاستعماري".	م6
5-"الكفاح بجميع الوسائل التي تحقق هدفنا".	
6-"قضيتنا التحررية أي (حرية الانسان والأرض وتصفية الاستعمار).	
7-"رغبتنا الحقيقية في السلم".	م3
8-"تحديداً للخسائر البشرية وإراقة الدماء".	
9-"أعددنا للسلطات الفرنسية وثيقة مشروعة للمناقشة".	
10-"إذا كانت هذه السلطات تحدوها النية الطيبة".	م3
11-"تعترف نهائيا للشعوب التي تستعمرها بحقها في تقرير مصيرها بنفسها.	
12-"الإعتراف بالجنسية الجزائرية".	

13-"فتح مفاوضات مع الممثلين المفوضين". 14-"الاعتراف بالسيادة الوطنية". 15-"خلق جو من الثقة". 16-"إطلاق سراح جميع المعتقلين". 17-"رفع كل الاجراءات الخاصة وإيقاف كل مطاردة. 18- بالمقابل احترام المصالح الفرنسية الثقافية والاقتصادية". 19"إحرام الأشخاص والعائلات". 20-"حرية اختيار الجنسية". 21-"التفاهم على أساس المساواة والاحترام المتبادل".	م28-م29ف2 م6- م15 م6 –م29ف2/ م5 – م30/ م22- م26 م25/ م15ف1
المواد التي اعتمدها البيان هي: 01و02و03و26و06و28و29و15و05و30و22و25.	عدد المواد المعتمدة: 12 مادة.[25]

كما عبرت عنها فيما سبق ديباجة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، كما ورد في تلك النقاط في فقراتها: الأولى والثانية والخامسة والسادسة والثامنة والتاسعة [26].

تاسعاً: البعد السلم تناوله في 05 نقاط:

لقد تم انتقاء المصطلحات والمفردات التي صيغ بها البيان على أساس أن يكون رسالة سلم توجه إلى الرأي العام لكلا المجتمعين، فلا نجد فيه ما ينص على القتل أو التطهير العرقي أو التعدي على حقوق الإنسان فلا نجد إلا بعض الكلمات التي توحي إلى السلم أكثر من غيره حسب موقعها في البيان مثل: "الكفاح بجميع الوسائل" - "العمل المحض" - "تجنيد كل القوى" - "المعركة ستكون طويلة" وقد جاءت عبارات السلم على النحو الآتي:

1- "أمام وسائل الكفاح السليمة".
2- "تجميع وتنظيم جميع الطاقات السلمية".
3- "التدليل على رغبتنا الحقيقية في السلم".

4- "تحديداً للخسائر البشرية وإراقة الدماء".

5- "المساواة والاحترام المتبادل".

عاشراً: بعد الانتماء الحضاري العربي الإسلامي: حصر البيان هذا البعد في 09 نقاط.

لقد اعتز الجزائري عبر القرون بانتمائه الحضاري العربي الإسلامي وجعله الوعاء الذي تحصن به في مواجهة عمليات السلخ التي تعرضت لها شخصيته وهويته الوطنية، فحافظ على اللغة العربية والدين الإسلامي في وجه التغريب والتمسيح.

فعبر البيان عن ذلك الانتماء في صيغ كثيرة بالأسلوب النضالي الثوري في مواضع متعددة على النحو الآتي:

1- "قضيتنا التي تجد سندها الدبلوماسي وخاصة من طرف إخواننا العرب والمسلمين".

2- "إن أحداث المغرب وتونس لها دلالتها في هذا الصدد".

3- "تمثل يعمق مراحل الكفاح التحرري في شمال إفريقيا".

4- "إننا منذ مدة طويلة أول الداعين إلى الوحدة في العمل".

5- "هذه الوحدة التي يتح لها مع ألأسف التحقيق"

6- "المعركة الحقيقية الثورية إلى جانب إخواننا المغاربة والتونسيين".

7- "تحقيق وحدة الشمال الإفريقي".

8- "داخل إطارها الطبيعي العربي الإسلامي".

9- "الاعتراف بالجنسية الجزائرية بطريقة علنية ورسمية ملغية بذلك كل الأقاويل والقرارات والقوانين التي تجعل من الجزائر أرضاً فرنسية رغم التاريخ والجغرافيا واللغة والدين وعادات الشعب الجزائري".

البعد الحادي عشر: بعد حق المواطنة: وردت في البيان II نقطة لهذا البعد.

المواطنة في المفهوم الثوري الوطني الجزائري، هي الانتماء والحب والتضحية في سبيل حرية الوطن، والاستجابة لندائه في سبيل استعادة حريته وسيادته، ولذلك فالمواطنة في تلك الفترة كانت تعني الوطني المستعد للتضحية في سبيل وطنه وأمته.

وفي هذا السياق تناول البيان هذا البعد في النقاط الآتية:

I- "أيها المناضلون من أجل القضية الوطنية".
2- "المناضلون بصفة خاصة".
3- "إن الشعب الجزائري في أوضاعه الداخلية متحداً حول قضية الاستقلال والعمل".
4- "المصلحة الوطنية فوق كل الاعتبارات".
5- جبهة التحرير الوطني".
6- نتيح الفرصة لجميع المواطنين الجزائريين من جميع الطبقات الاجتماعية وجميع الأحزاب والحركات الجزائرية أن تنظم إلى الكفاح التحرري دون أدنى اعتبار آخر".
7- "إعادة الحركة الوطنية إلى نهجها الحقيقي" (الاعتراف بنضال الوطنيين السابقين).
8- "احترام جميع الحريات الأساسية دون تمييز عرقي أو ديني".
9- "تجميع وتنظيم جميع الطاقات السلمية لدى الشعب الجزائري لتصفية النظام استعماري".
10- "الاعتراف بالجنسية الجزائرية بطريقة علنية".
11- "نقدم للوطن أغلى ما نملك".

البعد الثاني عشر: البعد التاريخي: تناوله في 07 نقاط.

أعطى البيان لهذا البعد أهمية بالغة لما يكتسبه من تأثير في الشخصية الجزائرية وتمييزها عبر العصور، والتي حاول المحتل بكل وسائله القانونية والدعائية إلغاءها وتشويهها واستبدالها بتاريخ آخر لمجتمع بديل يريده أن يحل محل الأصل.

إلا أن البيان وضح أن التاريخ يبقى دائماً الميزة الأساسية للشخصية الجزائرية المميزة بحكم موقعها ودورها في محيطها، لذا تناول هذا البعد منذ نشأة الدولة الجزائرية السيدة وموقعها الجغرافي المميز والمؤثر ثم مراحل قوتها بالمنطقة قبل سقوطها في يد الاحتلال.

كما تناول مراحل الكفاح التحرري للشعب الجزائري، ومساره النضالي على المستوى الداخلي في التعبئة ونشر الفكر الوطني الثوري، وعلى المستوى الإقليمي في إطار تحرير كامل المغرب العربي والعمل الطويل لأجله، وأسباب تعثر الحركة الوطنية وأثاره على الحركة الثورية فأدى إلى تأخيرها عن الركب رغم تقدمها في التحضير والدعوة إلى تقرير المصير وذلك منذ فجر العمل الوطني الثوري.

فلخص البيان ذلك في النقاط الآتية:

1- "رغم التاريخ والجغرافيا".
2- "إعادة بناء الدولة الجزائرية".
3- "أيها المناضلون من أجل القضية الوطنية".
4- "مرحلة الكفاح التحرري في شمال إفريقيا".
5- "إن الحركة الوطنية بعد مراحل من الكفاح".
6- "إن حركتنا الوطنية قد وجدت نفسها محطمة نتيجة لسنوات طويلة من الجمود والروتين".

البعد الثالث عشر: بعد الهوية الوطنية: تناول هذا البعد في (05) نقاط.

حدد البيان مكونات الهوية الوطنية الجزائرية وركائزها التي تبنى عليها والتي ميزتها عبر سنين الاحتلال وحافظت على الكيان الجزائري أمام كل المحاولات التي كانت تسعى لمحوها حيث جند المحتل لذلك وسائل متعددة كانت أولها التطهير العرقي بالإبادة البشرية، وتغيير جنسية الوطن وثقافته ولغته ودينه وتركيبته البشرية بالاستيطان وكل ما تطلبت السياسة المسخرة لذلك والتي جاء **لأجلها والمتمثلة في "الجزائر الفرنسية".**

فأراد البيان أن يبين تلك الهوية المميزة للجزائري الأصيل والتي لا علاقة لها مع ما ادعاه المحتل الدخيل، فيبين أسسها المتمثلة في: "التاريخ والجغرافيا واللغة والدين والعادات" هي التي استهدفتها سياسة المحتل من خلال النصوص والقرارات والقوانين ونشر المقالات وتأليف الكتابات المغالطة للرأي العام يجعل الجزائر أرضا فرنسية وشعبها كذلك، بل سعت لفرضه على أرضية الواقع.

وكشرط لإقرار السلم:

نص البيان على وجوب "الاعتراف بالجنسية الجزائرية بطريقة علنية ورسمية ملغية بذلك كل الأقاويل والقرارات والقوانين التي تجعل من الجزائر أرضاً فرنسية رغم التاريخ والجغرافيا واللغة والدين والعادات للشعب الجزائري. وقد حدد البيان أبعاد الهوية في النقاط الآتية:

I- **البعد الأمازيغي:** من خلال تقديم التاريخ في الترتيب، وذلك تعبيراً على التاريخ العريق للشعب الجزائري ومساهمته في الحضارة الإنسانية من عصور ما قبل التاريخ والمراحل التي مر بها السكان الأمازيغ للمنطقة دون أن تمسخ أو تمحي شخصيتهم المميزة التي عانت في مختلف المراحل من الاحتلال المتعاقب.

2- **البعد الإفريقي:** عبر عنه البيان بالموقع الجغرافي بالتعبير بلفظ "الجغرافيا"، حيث أن فرنسا التي تقع في أوربا والجزائر الإفريقية أرادت أن تجعل منها أرضاً فرنسية ملغية بذلك الخصوصية التي تميزت بها الجزائر بعمقها الإفريقي وحدودها الساحلية في البحر المتوسط الذي يفصل بين القارتين.

3- **البعد العربي:** لقد تميز الشعب الجزائري بحفاظه على لغة القران التي جمعته واحتضنها وجعلها مميزة له ولقبا خاصا به كان ينعت بها رغم محاربة المحتل لها ولمنافذها الثقافية وإلغائها وجعلها أجنبية بموجب قوانين ومراسيم تنفيذية لكونها وعاء الإسلام ومتى قضي عليها يتم استغراب الإنسان والأرض.

4- **البعد الإسلامي:** كان الإسلام دائماً يمثل الجنسية المميزة للفرد الجزائري والحصن الواقي للشخصية الوطنية والحاجز المانع لها من الذوبان والمسح من الوجود فجعل الإسلام له لقباً وجنسية، كما تمت إليه الإشارة سابقا.

5- **العادات:** حافظ الإنسان الجزائري على عاداته الموروثة التي صبغتها الحضارة العربية الإسلامية وجعلتها مميزة في المظهر والسلوك والأخلاق، والاعتزاز بالمفاخر والمآثر والذود على الكرامة والحفاظ على مظاهر الحصانة والتي جعلت منه على الدوام مقاوماً ومحارباً لكل المعتدين، على مر العصور والسنين.

البعد الرابع عشر: البعد التشريعي: حدد في ثماني (08) نقاط:

استطاع البيان أن يقدم أسسا كقواعد للبناء الثوري تلتزم بها الثورة وتعمل على اعتمادها كتشريع يمنع خرقه أو تجاوزه.

إذ يعد البيان وثيقة قانونية شرعية للثورة [27] من خلال تحديد أهدافها التي تسعى إلى تحقيقها باعتبارها مبادئ يجب الالتزام بها والعمل على تجسيدها، فوردت على النحو الآتي:

1- "أنتم الذين ستصدرون حكمكم بشأننا نعني الشعب بصفة عامة (مصدر حكم والتشريع".
2- "المساواة دون تمييز عرقي أو ديني".
3- "القطيعة مع النظام الاستعماري".
4- "الاعتراف بالجنسية الجزائرية، بطريقة علنية".
5- "إلغاء الأقاويل والقرارات والقوانين التي تجعل من الجزائر أرضاً فرنسية".
6- "إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية، الاجتماعية ذات السادة في إطار المبادئ الإسلامية".
7- "أن المصالح الفرنسية ثقافية كانت أم اقتصادية والمتحصل عليها بنزاهة، ستحترم وكذلك الأمر بالنسبة للأشخاص".
8- تحدد الروابط بين الجزائر وفرنسا وتكون موضع اتفاق بين القوتين الاثنين على أساس المساواة والاحترام المتبادل".

البعد الخامس عشر: البعد الاستشرافي: ورد في ست(06)نقاط.

يتضح هذا البعد من خلال قراءة متأنية في نص البيان، أن واضعوه لم يتناولوا فقط بالتوضيح والتحليل الماضي والأسباب التي أدت إلى العمل الثوري، والوضع الراهن للأوضاع الداخلية والخارجية التي كانت تعيشها الجزائر، بل عمدوا إلى تنوير القارئ بنظرتهم المستقبلية للدولة الجزائرية والمبادئ التي يجب الحفاظ عليها والعمل لأجلها لارتباطها بالماضي النضالي للأجيال السالفة لتكون ضمن مهام الأجيال اللاحقة في إطار إنجازات الدولة الوطنية المستقلة، وذلك من أجل التمكن من تمتين الروابط والاستمرارية بين أجيال الأمة الجزائرية المتعاقبة.

فنص البيان على لسان واضعيه بقولهم: "نوضح لكم مشروعنا والهدف من عملنا ومقاومات وجهة نظرنا"، وذلك في النقاط الآتية:

1- "الاستقلال الوطني في إطار الشمال الإفريقي".
2- "هي موجهة فقط ضد الاستعمار الذي هو العدو الوحيد الأعمى".
3- "إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ذات السيادة ضمن إطار المبادئ الإسلامية".
4- "تحقيق وحدة الشمال الإفريقي في إطارها الطبيعي العربي الإسلامي".
5- "السيادة الجزائرية وحدة لا تتجزأ".

هذه الأهداف رسمها مفجرو الثورة لمن يأتي بعدهم للعمل لأجلها والحفاظ عليها وإقامتها والذود في سبيلها خاصة الاستقلال والسيادة والوحدة الوطنية، والسعي من أجل الوحدة المغاربية.

البعد السادس عشر: البعد الإعلامي: جاء في أربع نقاط:

يعد البيان في حد ذاته وثيقة إعلامية من حيث عنوانه، بصيغة إعلان أو نداء أو بيان، وكذلك من حيث شكله الذي روعيت فيه تقنيات إعلامية تحافظ على الوثيقة وحاملها، بحيث احتوتها صفحة واحدة يسهل إخفاءها أو بلعها في حالة الإيقاع بحاملها، وبذلك يكون البيان قد حافظ على حامله.

لذلك جاء في مفردات محدودة تسهل قراءتها وتستوعب دلالاتها، وتظهر تلك الأبعاد في العبارات الواردة فيه على النحو الآتي:

1- "نشر هذا الإعلان".
2- "برمجنا السياسي".
3- "جعل القضية الجزائرية حقيقة واقعية في العالم كله".
3- "ندعوك لتبارك هذه الوثيقة".

البعد السابع عشر: بعد المصالحة الوطنية: ورد في (10) نقاط:

إن المصالحة هي أهم انجاز بالنسبة للحركة الوطنية التي استطاعت تحقيقها عبر مسيرتها النضالية التي اعتمدت على مبدأ الأخوة والمؤاخاة بين أبناء الشعب الجزائري حيث استطاعت تذويب كل الحواجز الطبقية والفئوية وجعلت الولاء للوطن والعمل من أجل حريته هو المعيار لجمع الأسرة الثورية الكبرى التي تبنى على الوحدة ونبذ كل مظاهر التفرقة والتشتيت بين أبناء القضية الواحدة، انطلاقا من ذلك وضع البيان لهذا البعد النقاط الآتية:

1- "تجاوز الخلافات الحزبية".
2- "الانخراط بصفة فردية".
3- الانتماء للوطن".
4- "الوطن فوق الجميع".

وذلك انطلاقا من النقاط الآتية:

1- "خلق جميع الظروف الثورية للقيام بعملية تحريرية".
2- "إن الشعب الجزائري في أوضاعه الداخلية متحدا حول قضية الاستقلال والعمل".
3- "إخراج الحركة الوطنية من المأزق الذي أوقعها فيه صراع الأشخاص".
4- "المصلحة الوطنية فوق كل الاعتبارات".
5- "جبهة التحرير الوطني هي جبهتك".
6- "نتيح الفرصة لجميع المواطنين الجزائريين".

من خلال تلك الأبعاد المذكورة سالفاً الحضارية والرمزية والسياسية التي ذكرناها في هذه الدراسة، يتضح أن البيان يكتسي طابعاً خاصاً، كوثيقة تاريخية ثورية مميزة قلما وجدت نظيرها، فهي بما ورد فيها عوضت الزعيم القائد الذي افتقدته الثورة في بدايتها، اقتداء بالثورات العالمية أو تلك الجوارية؛ لكن البيان حقق ما لم يكن في الحسبان بحيث حول القيادة من الزعامة الفردية كما هو متعارف عليه إلى القيادة الجماعية الشعبية، فمنح السلطة الرقابية والتشريعية والعدلية للشعب. وبذلك أكتسى طابع الانفرادية والنموذجية كوثيقة تاريخية.

كما أن انتقاء المفردات واختيار المصطلحات، التي صيغت بها أدبيات البيان جعلته وثيقة سلم، وأرضية عمل لتحقيق تقرير المصير، دون المساس بالغير أو ما يظهر الحقد والضغينة لما ارتكب في حق الشعب طيلة أكثر من قرن وربع من المظالم والإرهاب المنظم والتدمير الشامل لكل الجوانب الحياتية للإنسان الجزائري في تاريخه وأرضه ولغته ودينه ومصيره؛ وقد تسامي واضعو البيان عن ذلك، وخيروا (الكولون) في نوعية المواطنة التي يرغبون، مع الحفاظ على ما تقره القوانين الدولية والأعراف الإنسانية والتعاليم الدينية.

أما بالنسبة للبناء الوطني الثوري، فإن البيان قدم للمجتمع الجزائري البديل الناجع ووحد الشعب على التضحية والفداء، وجعل الوطن فوق كل الاعتبارات مهما كانت نوعيتها من أجل حرية الجزائر ووحدتها واستعادة سيادتها، وأوجد له المجال الجامع والعلاج الناجع والحل النافع للنداء القابل الوادع؛ وبذلك يبقى البيان الأرضية السلمية للمستقبل، الصالحة للتصالح والمصالحة والبناء والتعمير والحفاظ على الحاضر والمستقبل للتواصل بين الماضي والآتي.

لأن إعادة بناء الدولة الديمقراطية الاجتماعية في إطار المبادئ الإسلامية، تبقى دائماً مسؤولية الأجيال بما تحققه من عدالة اجتماعية وتنمية بشرية تعتمد على نكران الذات ونبذ الاتكال وصنع منظومة تسهر على تكوين وتأهيل الأجيال التي تتفاعل مع الشمولية مع الاحتفاظ بالخصوصية والمحافظة على الذاكرة التاريخية،

والشيء نفسه بالنسبة لتحقيق الوحدة المغاربية كمطمح للأسلاف وتطلع للأجيال المستقبلية، ولذلك يبقى البيان دائماً فكرة حيّة للأجيال المستقبلية.

الهوامش:

[i] نص بيان أول نوفمبر1954.

[2] يحي جلال: العالم العربي الحديث منذ الحرب العالمية الثانية، ص142-145.

[3] يحي جلال: المرجع السابق، ص598-608.

[4] الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

[5] زغيدي محمد لحسن: مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائري.

[6] رغيدي محمد لحسن: جيل نوفمبر تكوينه وثقافته، جريدة البصائر مقال الباحث حول جيل نوفمبر.

[7] L'Echo d'Alger le 31/10/1954.

[8] رغيدي محمد لحسن: مجلة الذاكرة، العدد الأول.

[9] للمزيد ينظر: رغيدي محمد لحسن: شخصيات نموذجية في المقاومة، والإصلاح والحركة الوطنية والثورة التحريرية

[10] هو المناضل دريش إلياس

[11] هؤلاء هم الذين حضروا ووفروا شروط نجاح الاجتماع وكانوا يشكلون خلية لتفكير منذ سنة 1952.

[12] محمد بوضياف، الجريدة، عدد خاص نوفمبر 1974.

[13] لقاء 10 أكتوبر 1954.

[14] عيسى كشيدة: مهندسو الثورة، ص105.

[15] هما بيان أو لنوفمبر ونداء جيش التحرير.

[16] لحول حسين من قادة اللجنة المركزية لحركة الإنتصار للحريات الديمقراطية، مع يوسف بن خدة، بعد الإنشقاق الذي حصل الحزب سنة 1953.

[17] عنوان محل الخياطة للمناضل عيسى كشيدة.

[18] سي الطيب الاسم الحركي لمحمد بوضياف.

[19] عيسى كشيدة: المصدر السابق، ص05.

[20] محمد لحسن زغيدي: مؤتمر الصومام، مرجع سابق، ص67.

[21] ترجع ملكية آلتي السحب والرقن إلى المناضل عبان رمضان، الذي حصل عليهما حينما كان أمين عام لبلدية شلغوم العيد، والتي كان وقتها مناضلاً بالحزب حيث قام بإقرار عدم صلاحيتها (reformait) عتاد

كتابة مكتبة (طابعة وآلة رونيو) ثم قام بشرائهما لنفسه، وحملهم إلى بيته بمسقط رأسه، وكانه كان يخبئهما لليوم الذي تحتاجها الحركة الوطنية، لكون نشاط الحركة السري يتوقف على المناشير التي تعبئ المناضلين وتفضح نوايا الكولون المحتلين، ويتوقف ذلك على مثل تلك الآلتين، وكان من مناضلي الحركة الوطنية من يعرف ذلك، وتم الاتصال بصاحبها السيد عبان رمضان بالسجن والذي أعطى الموافقة على استعمالها، وتم الاتصال بالعائلة بواسطة السيد زعموم علي، الذي أوفد السيدين: حنان فرنان وأحمد آث رمضان إلى بيت عبان رمضان ، لإحضار الآلتين إلى بيت علي زعموم بقرية إغيل إمولا، وتم رقن البيان وسحبه في 27 أكتوبر 1954، ثم بعدها أرجع الآلتين إلى بيت صاحبها بعد انتهاء المهمة. لقاء مع السيد أيت أحمد وأعلي – عن السيد علي زعموم وزوجة – عبان رمضان – تم اللقاء بتيزي وزو مع الباحث في 2010/05/14 – مع العلم أن السيد وأعلي كان كاتبا بالولاية الثالثة في عهد قائدها موح ولحاج.

[22] عيسى كشيدة: مصدر السابق، ص105.

[23] شهادة مجموعة من المجاهدين المنطقة الثالثة والرابعة الولاية الثالث، ص12.

[24] محمد عباس: محاضرة بنادي المجاهد حول الشهيد محمد العيشاوي، تنظيم جمعية مشعل الشهيد، وقد شارك فيها صاحب الدراسة بمداخلة حول نفس الموضوع.

[25] الاعلان العالمي لحقوق الإنسان: ويتكون من ديباجة و30 مادة، إصدار: المرصد الوطني لحقوق الإنسان، الجزائر.

[26] المصدر نفسه.

[27] عيساني علي: الجانب التشريعي للثورة الجزائرية، مجلة أول نوفمبر، العدد 174، جويلية 2010، ص16.

دور الجزائر ما بعد الاستقلال في تحرير إفريقيا ومقومات دبلوماسيتها الإفريقية

أ.د/ بكاي منصف
قسم التاريخ جامعة الجزائر 2

مقدمة :

كان للجزائر دور مميز على الصعيد الدولي في دعم حركات التحرر الإفريقية من جهة، وإرساء دعائم النظام الاقتصادي الدولي الجديد من جهة أخرى، إلا أنها لم تحظ بالعناية الكافية من قبل الباحثين والمؤلفين ولاسيما العرب منهم. وعلى هذا الأساس، نلاحظ أن ما كتب عنها يأتينا من اللغة الإنجليزية أو الفرنسية والتي نعتبرها قليلة نظرا للدور الكبير الذي لعبته الجزائر ودبلوماسيتها في مسألة تحرير القارة سياسيا واقتصاديا وعسكريا.

وبالرغم من تمكن إفريقيا من استرجاع السيادة في نهاية الخمسينيات من القرن العشرين وموجة التحرر التي عرفتها القارة في بداية الستينيات إلا أن بعض الأقطار الإفريقية ظلت خاضعة للاستعمار الاستيطاني الأوربي منها أنغولا وموزمبيق وغينيا بيساو والرأس الأخضر وساوتومي وبرانسيب وروديسيا الجنوبية (زمبابوي اليوم) وجنوب غرب إفريقيا (ناميبيا) وجنوب إفريقيا.

إن المتصفح لمختلف الوثائق الخاصة بجوانب السياسة الخارجية للجزائر في مختلف مراحل تطورها ابتداء من مرحلة ثورة التحرير، يستنتج أهم مبادئ السياسة الجزائرية التي اتسمت بالطابع النضالي، الأمر الذي يجعلنا نستعمل مصطلح "دبلوماسية المواجهة".

وقد تميزت هذه الدبلوماسية بأسلوب مباشر وهجومي استعمل المنظمات الدولية ومختلف لجانها، وكذا وسائل الإعلام كوسائل ناجعة لبلوغ الأهداف، إضافة إلى الاعتماد على شخصيات وطنية أوكلت إليها مهمة تطوير هذه

الدبلوماسية الثورية بعد الثورة المجيدة. وعليه، كان هؤلاء السياسيون النواة الأولى لفريق من الدبلوماسيين الجزائريين الذين أسندت إليهم مهمة تجسيد مبادئ هذه الدبلوماسية على أرض الواقع، وكذا مواكبة الأحداث التي كانت تميز العلاقات الدولية في ذلك الوقت.

ومن هذا المنطلق، سنحلل تحليلا دقيقا دور الجزائر ودبلوماسيتها في تحرير إفريقيا. فما هي جذور السياسة الإفريقية للجزائر؟ وهل حظي العمل الدبلوماسي بمكانة مرموقة خلال وبعد الثورة ؟ وما هو الدور الذي لعبته الجزائر ودبلوماسيتها في إطار منظمتي الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الإفريقية (الاتحاد الإفريقي اليوم) حول دعم حركات التحرر في المستعمرات البرتغالية وكذا في روديسيا الجنوبية (زمبابوي اليوم)، ناميبيا وجنوب إفريقيا التي كانت تحت سيطرة أقليات أوربية ؟

ما هي الميكانزمات السياسية التي اعتمدتها الجزائر في بلورة فكرة إقامة نظام اقتصادي دولي جديد ؟ وهل كانت المبادرة الجزائرية في مسألة إصلاح النظام الاقتصادي العالمي بمثابة ميلاد مصطلح جديد اتفق على تسميته في ما بعد بـ"الدبلوماسية الاقتصادية".

I - جذور السياسة الإفريقية للجزائر:

لم تغفل الثورة الجزائرية منذ اندلاعها في الفاتح من نوفمبر سنة 1954م الفضاء الدبلوماسي. وعلى هذا الأساس، تأسس الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني الذي كان يضم **محمد خيضر، حسين آيت أحمد وأحمد بن بلة**. وفي أفريل سنة 1955م، شارك وفد عن جبهة التحرير الوطني ضم كلا من **حسين آيت أحمد** و**امحمد يزيد** في مؤتمر باندنغ[1] الذي ندد بالاستعمار الفرنسي، وكذا تمكن الوفد من عرض القضية الجزائرية على هذا المؤتمر. وعليه، يمكننا القول أن جبهة التحرير الوطني تمكنت من الدخول في العائلة الأفرو- أسيوية. كما يجمع الكثير من العارفين بشؤون الجزائر أن مشاركة جبهة التحرير الوطني يعد بمثابة ميلاد دبلوماسية الثورة حيث سجلت الجبهة بحضورها القوي لهذا المؤتمر أول انتصار دبلوماسي لها.

وفي هذا السياق، تبنى مؤتمر باندنغ قرارات سياسية حاسمة اعتبرت مكاسب مهمة للثورة الجزائرية على الصعيد الدبلوماسي ومنها القرار الخاص بمساندة الجزائر في كفاحها من أجل تقرير مصيرها واسترجاع استقلالها من جهة، مما دفع بحوالي 14 بلدا مشاركا في المؤتمر إلى إرسال عريضة مؤرخة في 26 جويلية سنة 1955م إلى الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة هامر شولد للمطالبة بتسجيل القضية الجزائرية في جدول أعمال الدورة العادية العاشرة للأمم المتحدة من جهة أخرى.

وموازاة مع افتتاح الدورة في سبتمبر، كانت الثورة تحقق انتصارات عسكرية باهرة لاسيما هجمات الشمال القسنطيني يوم 20 أوت 1955م إلى جانب الانتصار الدبلوماسي الكبير في هيئة الأمم المتحدة بعدما سجلت القضية الجزائرية في جدول الأعمال.

وللتعريف أكثر بالقضية الجزائرية، حظي الجانب السياسي لاسيما الدبلوماسي منه بقدر كبير من الأهمية في برنامج وفلسفة جبهة التحرير الوطني. وعلى هذا الأساس، تأسست الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في 19 سبتمبر سنة 1958م، وأصبحت الممثل الرسمي للشعب الجزائري. وكانت أهداف الحكومة المؤقتة تصب كلها في اتجاه واحد هو استرجاع السيادة الوطنية، ومن جملة هذه الأهداف ما يلي:

1 - تشكيل هيئة دبلوماسية تمثل البلاد في المحافل الدولية.
2 – إقامة علاقات دبلوماسية مع مختلف الدول لكسب أكبر تأييد للقضية الجزائرية.
3 – العمل على حمل فرنسا على التفاوض، وذلك باستعمال الضغوطات السياسية والدبلوماسية والعسكرية.

وعلى هذا الأساس، برزت وزارة الخارجية التي كانت تنسق العمل الدبلوماسي مع التمثيليات التابعة للحكومة المؤقتة قصد التعريف بالقضية الجزائرية العادلة من جهة، والمشاركة في مختلف اجتماعات الدول الإفريقية المستقلة أو مؤتمرات الشعوب الإفريقية التي أيدت القضية الجزائرية من جهة أخرى.

ويمكن القول أنه ابتداء من سنة 1958م برزت مشاركة الدبلوماسية الجزائرية في مختلف المؤتمرات الإفريقية، وكان ممثلها في هذه المؤتمرات السيد أحمد يزيد، إلى جانب كل من أحمد بومنجل وفرانز فانون. ولعل أبرز مشاركة كانت في مؤتمر أكرا من 15 إلى 22 أفريل سنة 1958م وبمبادرة من الرئيس الغاني نكروما. حضرته ثماني دول إفريقية مستقلة هي: غانا، ومصر، اثيوبيا، ليبيريا وليبيا، المغرب والسودان وتونس. إن حضور خمس دول عربية في هذا المؤتمر هو الذي مكن من إدراج القضية الجزائرية ضمن أولويات جدول أعماله. وقد تبنى هذا المؤتمر لائحة مهمة تضمنت دعم حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره واسترجاع سيادته. كما نصت اللائحة على ضرورة بذل الدول المشاركة أقصى الجهود لمساعدة الشعب الجزائري ليتمكن من استرجاع حقوقه المغتصبة، وإرسال وفد لزيارة مختلف العواصم العالمية لعرض القضية الجزائرية والدفاع عن جبهة التحرير الوطني باعتبارها الممثل الوحيد والشرعي للشعب الجزائري. كما تقرر تشكيل مجموعة إفريقية في إطار المجموعة الأفرو- أسيوية بهيئة الأمم المتحدة للتنسيق حول مسألة دعم القضية الجزائرية[2].

أما المؤتمر الثاني، فقد انعقد بمنروفيا من الرابع إلى الثامن أوت سنة 1959م ضم إضافة إلى الثماني دول السابقة، دولة غينيا التي استرجعت سيادتها يوم 2 أكتوبر سنة 1958م وقد شارك فيه وفد الحكومة المؤقتة بصفته عضوا دائما. وعلى هذا الاساس، يمكننا القول أن الدبلوماسية الجزائرية قد حققت نجاحا ديبلوماسيا باهرا خصوصا إذا ما علمنا أن العلم الجزائري رفرف عاليا بمقر المؤتمر. كما أخذ المؤتمر حيزا كبيرا من أشغاله للتباحث في القضية الجزائرية.

وفي هذا السياق، تدخل السيد امحمد يزيد وزير الثقافة ورئيس وفد الحكومة المؤقتة في المؤتمر بطرح انشغالات الوفد وما يتوجب فعله فيما يخص القضية الجزائرية[3] وكان رد فعل المؤتمر تبني لائحة سياسية تضمنت توصيات كان أهمها:

- تحضير مناقشة جادة حول القضية الجزائرية خلال دورة الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة.

- مواصلة الدعم الدبلوماسي للقضية الجزائرية.
- الدعم المادي للقضية الجزائرية، وترك للحكومات مهمة تحديد حجم وطبيعة ذلك الدعم.
- الإعلان عن جعل 1 نوفمبر "**يوم الجزائر**"[4].

وكنتيجة لانعقاد هذا المؤتمر، اعترفت جمهورية غينيا بالحكومة المؤقتة. وتبعا لهذا الاعتراف زار وفد عن الحكومة المؤقتة مدينة كوناكري برئاسة أحمد يزيد يوم 9 أوت وأجرى محادثات مع السلطات الغينية.

أما المؤتمر الثالث فقد انعقد بأديس أبابا العاصمة الأثيوبية من 14 إلى 24 جوان سنة 1960، حضرته 13 دولة[5] إضافة إلى مندوبين بصفتهم ملاحظون عن كل من: أنغولا وكينيا وأوغندا وروديسيا الشمالية ورواندا وبورندي وجنوب غرب إفريقيا وزمبابوي لاحقا وجنوب إفريقيا. أما فيما يخص الوفد الجزائري، فقد تقرر أن يكون عضوا مشاركا وممثلا من قبل السادة أحمد يزيد رئيسا للوفد، فرانز فانون، عمر أوصديق وأحمد بومنجل[6]. تناول المؤتمر القضية الجزائرية بالموازاة مع تبني الجنرال ديغول لمبادرة سياسية تجلت في طلبه من القيادة الثورية التفاوض لحل القضية الجزائرية يوم 14 جوان سنة 1960.

وفي هذا السياق، رحب المؤتمرون بفكرة التفاوض لحل القضية الجزائرية وتبنوا لائحة تضمنت النقاط التالية:

- إنشاء صندوق ممول بموارد مالية تسجل على عاتق ميزانيات مختلف الدول الإفريقية المستقلة.
- دعم الجانب الإعلامي عن طريق الصحافة والراديو لكشف الجرائم التي اقترفتها فرنسا بالجزائر.

ولعل أهم اقتراح تبناه المؤتمر هو ذلك المتعلق بضرورة انسحاب القوات الإفريقية التي أقحمتها فرنسا في حربها ضد الجزائر[7].

أخيرا، انعقد مؤتمر ليوبولد فيل بدعوة من باتريس لومبا من 25 إلى 31 أوت سنة 1960م[8]. وهيمنت على أشغاله القضية الكنغولية بينما نالت القضية الجزائرية دراسة نقطة واحدة تمثلت في التنديد بالتجارب النووية الفرنسية في الصحراء الجزائرية[9].

وبالرغم من أن جبهة التحرير الوطني لم تحقق الكثير في هذا المؤتمر إلا أنها سجلت نتائج جد مرضية تمثلت في اعتراف دول إفريقية جديدة بالحكومة المؤقتة ومشاركة المندوبين الجزائريين كعضوين دائمين.

أما بالنسبة لمؤتمرات الشعوب الإفريقية التي كانت تضم الأحزاب الوطنية الإفريقية، فيكفي الإشارة هنا إلى المشاركة الفعالة لوفد الحكومة المؤقتة في مؤتمري أكرا وتونس. فمؤتمر أكرا، كان أول مؤتمر انعقد من 5 إلى 13 ديسمبر سنة 1958م. مثل الوفد الجزائري السادة بومنجل، فانون ومصطفاي، وثمن المؤتمر الكفاح المسلح الذي يخوضه الشعب الجزائري، كما نالت القضية الجزائرية حيزا كبيرا من أشغال هذا المؤتمر الذي انبثقت عنه لائحة تندد بالاستعمار الفرنسي وأكدت على أحقية الشعب الجزائري في استرجاع الاستقلال[10].

كم تطرق المؤتمر أيضا إلى مسألة الاعتراف بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية. وعلى هذا الأساس، أوصى بضرورة الاعتراف بالحكومة المؤقتة من قبل غانا وغينيا وليبريا وإثيوبيا.

أما مؤتمر تونس فقد انعقد من 25 إلى 30 جانفي سنة 1960م. وبما أن تونس دولة شقيقة وجارة للجزائر، وتبعا لتطورات الأحداث في الجزائر فإن مندوبي المؤتمر قد تأثروا بدون شك بما كان يحدث في الجزائر. وعليه، صرح بومنجل في خطابه بما يلي: "**على بعد مائة كلم، تجري حرب فرضت على شعب رفع السلاح منذ خمسين عاما لانتزاع حقه في العيش الكريم واسترجاع الاستقلال**"[11].

لذلك، تبنى المؤتمر جل الاقتراحات التي تقدم بها السيد بومنجل خلال خطابه لعل أهمها:

- توصية المؤتمر لكل الحكومات الإفريقية التي لم تعترف بعد بالحكومة المؤقتة الإسراع بالاعتراف بها.
- تسجيل مساهمة مالية لصالح جبهة التحرير عند إعداد ميزانيات الدول الإفريقية المستقلة.
- انسحاب القوات الإفريقية المقحمة في الجزائر.
- تشكيل قوة إفريقية من المتطوعين لمساعدة الثورة الجزائرية[12].

لقد فرضت الدبلوماسية الجزائرية وجودها في المؤتمرات التي تلت مؤتمر أكرا منها مؤتمر منروفيا 1959 ومؤتمر أديس أبابا في جوان 1960م، ومؤتمر تونس للشعوب الإفريقية في جانفي سنة 1960م وحققت نجاحات دبلوماسية كبيرة لاسيما وأن العلم الجزائري أصبح يرفرف عاليا بمقرات المؤتمرات، كما تواصل الدعم الدبلوماسي والمادي للقضية الجزائرية. ويكفينا الإشارة هنا إلى النجاحات السياسية والدبلوماسية الهامة التي تمثلت في اعتراف 36 دولة عربية وإفريقية بالحكومة المؤقتة غداة استرجاع الاستقلال.

2 - أسس السياسة الإفريقية للجزائر وتطورها:

كانت القارة السمراء بمثابة حقل لنشاط دبلوماسي مكثف للسياسة الخارجية للجزائر بحيث سمحت لها ان تلعب دورا بارزا على الساحة الدولية. وعليه، كانت إفريقيا محورا من المحاور الأساسية للدبلوماسية الجزائرية بعد استرجاع السيادة والتي اكسبتها مكانة الريادة أو الزعامة على دول العالم الثالث نظرا لما لها من وزن على الساحة الدولية. وفي هذا الإطار، اكتسبت الجزائر بفضل نضالها التحرري شرعية تاريخية سمحت لها بأن تلعب دورا بارزا على الساحة الإفريقية. وعلى هذا الأساس، يمكننا القول أن السياسة الخارجية الجزائرية ورثت بعد استرجاع الاستقلال هذه الشرعية ووظفتها في مجال تحرير الشعوب الإفريقية التي لم تسترجع سيادتها لاسيما تلك التي كانت تحت السيطرة البرتغالية منها أنغولا

والموزمبيق وغينيا بيساو وجزر الرأس الأخضر وساوتومي وبرانسيب بما فيها تلك التي كانت تخضع لهيمنة الاقليات البيضاء مثل جنوب إفريقيا وروديسيا الجنوبية (زمبابوي اليوم) وناميبيا.

ورثت الجزائر غداة استرجاع الاستقلال في مجال السياسة الخارجية تجربة اكتسبتها إبان الكفاح المسلح مما يجعلنا نطلق على هذا النمط من السياسة الخارجية **بالسياسة الإفريقية** للجزائر التي برزت جليا في مختلف مواثيق الثورة بداية **ببيان أول نوفمبر ثم مؤتمر الصومام ومؤتمرات القاهرة ومؤتمر طرابلس ثم الميثاق الوطني** 1976 **ودستور** 1976م) التي أشارت صراحة إلى تبني الجزائر مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها وحقها في السيطرة على موادها الأولية.

ومهما يكن الأمر، فقد بذلت الدبلوماسية الجزائرية مجهودات جبارة في سبيل الدعوة إلى تطبيق مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها بل كانت ترى أن هذا المبدأ هو القاعدة الأساسية التي يرتكز عليها القانون الدولي بغية تصفية الاستعمار. وعلى هذا الأساس، نصت المادة 86 من الميثاق الوطني على أن الجزائر تؤيد المبادئ والأهداف الواردة في ميثاقي الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الإفريقية القاضية بحق الشعوب في تقرير مصيرها وبالتحديد المادة 1 و55 من ميثاق الأمم المتحدة والمادة 2 و3 من ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية[13].

وفي هذا السياق، لعبت الدبلوماسية الجزائرية دورا بارزا في تكريس مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها تطبيقا لأحد المبادئ المكرسة في ميثاق الأمم المتحدة والمنصوص عليه في المادة الأولى، الفقرة الثانية منها "... **حرية مبدأ التساوي في حقوق الشعوب وحقهم في تقرير المصير، واتخاذ سائر التدابير الملائمة لتوطيد السلم في العالم**"[14].

ومن أسس السياسة الإفريقية للجزائر، التجاوب مع الفقرة الرابعة من المادة 2 من ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية التي نصت على "**القضاء على جميع صور الاستعمار في إفريقيا**"[15].

أن التجربة الجزائرية في مسألة الكفاح المسلح ضد الاستعمار الفرنسي، قد جعلها توظف هذه التجربة في مساندة حركات التحرر في إفريقيا، وهذا ما أشار إليه صراحة دستور سنة 1976م والميثاق الوطني سنة 1976م[16].

ويعتبر دعم الجزائر لحركات التحرر الإفريقية امتداد طبيعي للكفاح المسلح الذي خاضته ضد الإمبريالية الفرنسية. وظهرت مواقف الجزائر جليا عندما فتحت أبوبها لحركات التحرر والحركات المناهضة للعنصرية. وعلى هذا الأساس، كانت الدبلوماسية الجزائرية تعتمد على مبدأ اختيار الحركات الأكثر تمثيلا وشعبية مثل الحزب الإفريقي من أجل استقلال غينيا والرأس الأخضر بزعامة أميلكار كابرال، وجبهة تحرير موزمبيق والجبهة الشعبية لتحرير أنغولا والاتحاد الشعبي الإفريقي لزمبابوي الذي تأسس سنة 1961م بزعامة جوشوا نكومو، والاتحاد الوطني الإفريقي لزمبابوي الذي تأسس سنة 1963 بزعامة سيتولي وروبرت موغابي والمنظمة الشعبية لجنوب غرب إفريقيا (سوابو) SWAPO التي تأسست سنة 1959م بزعامة سام نجوما، إضافة إلى حزب المؤتمر الوطني الإفريقي ANC في جنوب إفريقيا وحركة تحرير ساوتومي وبرانسيب Liberation Movment of MLSTP Sao Tomé and Principe بزعامة كل من مانويل بنتودا كوستا وميغال تروفوادا.

كما كان لهذه الأحزاب تمثيليات دائمة بالجزائر، إضافة إلى استفادة مقاتليها من التدريب العسكري في الاراضي الجزائرية، وكذا الدعمين السياسي والمالي. وكان للجزائر جهاز أو قسم خاصا تابع لجبهة التحرير الوطني برئاسة السيد **جلول ملايكة** أوكلت إليه مهمة التنسيق مع حركات التحرر الإفريقية، وكان مقره **فيلا بومعراف** الذي كان يتوافد عليه زعماء الحركات التحررية لتنشيط المؤتمرات الصحفية أو الإدلاء بتصريحات سياسية. وعليه، وصف الزعيم **أملكار كابرال** الجزائر ب"**مكة الأحرار**"[17].

وكانت المنظمات الدولية مثل هيئة الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الإفريقية فضاء مكن الدبلوماسية الجزائرية من فرض وجودها بتدعيم حركات التحرر

الإفريقية عن طريق تدويل قضاياها العادلة واستصدار لوائح سياسية نددت بالاستعمار البرتغالي وممارسة الأقليات البيضاء **للأبارثايد** في ناميبا وجنوب إفريقيا، إضافة إلى تجنيد وتسخير الطاقات الدولية لدعم الكفاح المسلح في القارة السمراء ووضع نهاية للاستعمار الأوربي في إفريقيا. وبرز ذلك جليا من خلال المشاركة الفعالة في **لجنة تصفية الاستعمار** التابعة لمنظمة الوحدة الإفريقية التي كانت الجزائر من بين مؤسسيها ومتبرعة بمبلغ سبعين ألف جنيه استرليني[18].

3 – دور الجزائر ودبلوماسيتها في تحرير المستعمرات البرتغالية:

أ – المنطلقات التاريخية:

بعد موجة التحرر التي عرفتها القارة السمراء في الستينيات من القرن العشرين، بقيت أجزاء منها تخضع للهيمنة البرتغالية مثل أنغولا والموزمبيق وغينيا بيساو وجزر الرأس الأخضر وساوتومي وبرا نسيب.

I – أنغولا:

تعرضت أنغولا للاستعمار البرتغالي لمدة خمسة قرون حيث اعتمد البرتغاليون على الإمكانيات الزراعية التي كانت تزخر بها أنغولا لاسيما الذرى والسرغو والبن في مطلع السبعينات من القرن العشرين.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا البلد كان يحتل المرتبة الرابعة عالميا من حيث انتاج البن والماس. كما شجع البرتغاليون أقلية من النخبة كانت تعرف بالمندمجين Assimilados أقل من 10% من السكان ويتمركزون بلواندا والشريط الساحلي المطل على المحيط الأطلسي. وقسموا السكان إلى فئتين: من جهة، أغلبية اعتبرهم الاستعمار البرتغالي (أنديجينا) وهم من أصل إفريقي توجب حكمهم بنظم تقليدية، ومن جهة أخرى ، أقلية بيضاء وبعض الأفارقة الذين اندمجوا مع النظم الإدارية الاستعمارية واستفادوا من التعليم[19]. لكن هذه السياسة أفرزت برجوازية محلية ستلعب دورا بارزا في تزعم مختلف حركات التحرر في البلاد بالرغم من تضييق الخناق عليها من قبل دكتاتورية سلزار في لشبونة.

وفي هذا السياق، ظهرت أول حركة وطنية تحررية سنة 1956م عندما تأسست الحركة الشعبية لتحرير أنغولا MPLA ذات التوجه الماركسي لينيني. وكانت هذه الحركة تجند أتباعها من بين سكان المناطق الحضرية وقبيلة كيمبمدو Kimbundu التي كانت تضم 35% من مجموع سكان أنغولا وتستقر في منطقة لواندا[20]، ومن أبرز مؤسسيها **أغوستينو نيتو**[21] **وإدواردو ماندلان**. أما التيار الثاني، فقد اعتمد على سكان الريف وينقسم إلى تيارين:

- الجبهة الوطنية لتحرير أنغولا FNLA بزعامة روبرتو هولدن Roberto Holden وكانت تتشكل من قبيلة باكونغوس Bakongos التي تضم حوالي 15% من سكان المستعمرة.

- أما التيار الثاني، فيتعلق بالاتحاد الوطني للاستقلال التام لأنغولا UNITA الذي تأسس سنة 1966م بزعامة **جوناس سافمبي**[22] ويضم أهالي قبيلة أوفنبندو Ovimbundu التي تضم 40% من مجموع سكان المستعمرة.

إن مراحل تحرير المستعمرات البرتغالية في إفريقيا تذكر حالات مشابهة مرت بها الجزائر والهند الصينية. وعليه، تميزت انطلاقة الكفاح المسلح في أنغولا على غرار ما حدث بالجزائر، بإقدام الثوار على مهاجمة الثكنات العسكرية في وقت واحد أي مهاجمة المرافق والثكنات العسكرية البرتغالية ليلة الرابع والخامس من شهر فبراير سنة 1961م، وعمليات مماثلة في شمال وشمال غرب البلاد[23]. وكانت المبادرة من الجبهة الشعبية لتحرير أنغولا MPLA بزعامة أغوستينو نيتو Agostinho Neto وماريو دا أوندراد.

كما أجبرت الحركة الوطنية التحررية في أنغولا السلطات الاستعمارية البرتغالية على خوض حرب استنزاف. وعليه، جندت السلطات الإمبريالية البرتغالية الآلاف من العسكريين وسخرت موارد مالية ضخمة على حساب ميزانيتها الوطنية[24] لمواجهة حركات التحرر وأجنحتها العسكرية التي استطاعت تحقيق انتصارات باهرة في الميدان خصوصا إذا ما علمنا أنها كانت تملك قواعد

عسكرية في الدول الإفريقية المجاورة، وتحظى بدعم سياسي وعسكري ودبلوماسي من قبل الدول الإفريقية من بينها الجزائر.

2 – الموزمبيق:

كانت مستعمرة برتغالية منذ 1508، واستعملت كخزان لتزويد المزارع البرازيلية بالعبيد. وفي سنة 1962، اتحدت ثلاثة أحزاب لتؤسس جبهة تحرير موزمبيق FRELIMO بزعامة ايدواردو مندلانd'Eduardo Mondlane. وفي سنة 1964، أعلنت الكفاح المسلح ضد الاحتلال البرتغالي في البلاد. وبسبب اغتيال مندلان في ظروف غامضة سنة 1968، أصبح ساموارا ماشل زعيما للجبهة سنة 1970 وتمكن من السيطرة على أجزاء كبيرة من شمال البلاد، إضافة إلى مقاطعة سوفالا[25].

إن حركات التحرر في المستعمرات البرتغالية قد أجبرت السلطات الإمبريالية البرتغالية على تشجيع الاستيطان ليبلغ عدد الكولون 550000 سنة 1973م، إضافة إلى مواصلة الاستغلال الفاحش لإمكانات أنغولا والموزمبيق لاسيما إنتاج البن والقطن. كما شجع البرتغاليون الاستثمارات الأجنبية في مجال التعدين وبناء السدود كسد كابورا باسا في الزمبيزي.

ومن الملفت للانتباه، أن ضربات جبهة تحرير موزمبيق باتت تهدد أكبر مشروع للتنمية في المستعمرة، إذ تعلق الأمر بسد كابورا باسا الذي كان يعد من أكبر السدود في العالم، الأمر الذي أجبر البرتغال على تجهيز حملة عسكرية كبيرة ضمت 35 ألف عسكري ومائة طائرة من نوع هليكوبتر تحت قيادة الجنرال أرياغا، ولكن نظرا للتكاليف المالية الباهظة، أقدمت السلطات البرتغالية على تقليص عدد المقاتلين في هذه العملية لأن الثوار اعتمدوا على حرب العصابات انطلاقا من القواعد العسكرية المتواجدة في الدول الإفريقية المجاورة[26].

3- غينيا بيساو والرأس الأخضر

ارتبطت الحركة الوطنية التحررية في غينيا بيساو والرأس الأخضر **بالحزب الإفريقي لتحرير غينيا بيساو والرأس الأخضر** (**P.A.I.G.C.**) الذي رأى النور سنة 1956م بزعامة **أميلكار كابرال Amilcar Cabral** وكان برنامج هذا الحزب يتمحور حول ضرورة استرجاع السيادة في كل من غينيا بيساو والرأس الأخضر، السعي لتحقيق الوحدة الثقافية والسياسية والسوسيو-اقتصادية لكل القبائل الإثنية وإقامة نظام سياسي اشتراكي.

لقد اعتمد الحزب الإفريقي لتحرير غينيا بيساو والرأس الأخضر على سكان الريف لاسيما قبائل البالنتي Balanté ولكنه واجه معارضة من زعماء بعض قبائل الفولاني الذين كانوا موالين للاستعمار البرتغالي. وابتداء من سنة 1963م، كثف الحزب الإفريقي لتحرير غينيا بيساو والرأس الأخضر من نشاطه العسكري في جنوب البلاد معتمدا على الدعم المقدم من قبل غينيا كوناكري التي سمحت له بإقامة قواعد عسكرية على أراضيها. كما استفاد الحزب كثيرا من المساعدات المادية والعسكرية المقدمة من الجزائر والدول الاشتراكية[27].

ومما هو جدير بالذكر، فإن الوقت كان في غير صالح البرتغال التي اضطرت إلى خوض حرب استنزاف. وعليه، جندت السلطات الإمبريالية البرتغالية حوالي مائتي ألف عسكري وبدأت تنفق ابتداء من سنة 1971م نصف ميزانيتها الوطنية لمواجهة حركات التحرر وأجنحتها العسكرية التي استطاعت تحقيق انتصارات باهرة في الميدان، وباتت تهدد التواجد الإمبريالي البرتغالي في البلاد.

وبالموازاة مع هذه التطورات العسكرية، تمكن الحزب الإفريقي لتحرير غينيا بيساو والرأس الأخضر من تحرير بعض المناطق ، الأمر الذي أدى بالجنرال سبينولا Spinola الذي كان قائدا للقوات البرتغالية في غينيا بيساو والرأس الأخضر إلى الاعتراف بأن الحل العسكري في مسألة الحرب في غينيا بيساو بات أمرا مستحيلا[28].

4- ساوتومي وبرانسيب: هي عبارة عن أرخبيل يتكون من جزيرتين هما ساوتومي Sao tomé التي تبلغ مساحتها 859كلم مربع وجزيرة برانسيب 142كلم مربع ومجموعة من الجزر الصغيرة في المحيط الأطلسي على بعد 220كلم شمال غرب الغابون وكانت مستعمرة برتغالية منذ سنة 1521م ثم أصبحت مقاطعة في ما وراء البحر ابتداء من سنة 1951م[29] وتابعة للبرتغال التي استغلت مواردها الاقتصادية والبشرية أبشع استغلال بما في ذلك تطبيق نظام السخرة في حق الأهالي الذين انتفضوا ضد الكولون سنة 1953 م ، الأمر الذي أدى إلى وقوع مجزرة في حقهم نفذتها السلطات الإمبريالية البرتغالية في موقعة باتيبا راح ضحيتها أكثر من مائة قتيل. وقد تركت هذه المجزرة أسوء الأثر في نفوس الأهالي لاسيما الطلبة الذين كانوا يزاولون دراساتهم في لشبونة. وعليه، قام الطالبان **مانويل بنتودا كوستا وميغال تروفوادا** بتأسيس حركة تحرير ساوتومي وبرانسيب.

ب - دور الجزائر في تحرير المستعمرات البرتغالية:

تنوع دور الجزائر في دعم الحركات التحررية في المستعمرات البرتغالية، حيث تلقى الكثير من المقاتلين والزعماء تدريبا عسكريا في الجزائر منهم مقاتلين من الرأس الأخضر وأنغولا والموزمبيق[30].

ولعل من أبرزهم سامورا ماشل الذي تلقى تكوينا عسكريا في الجزائر سنة 1963م ليعود إلى بلاده وينضم إلى المائتين وخمسين مقاتلا الذين أعلنوا الكفاح المسلح ضد البرتغال يوم 25 سبتمبر سنة 1964م. وبمناسبة يوم إفريقيا الذي صادف تاريخ 17 سبتمبر 1963م، صرح الرئيس الجزائري أحمد بن بلة بأن ألف مقاتل إفريقي سيستفيدون من التدريب العسكري في الجزائر[31].

- فتح مكاتب بالجزائر لحركات التحرر الوطنية منها الحزب الإفريقي من أجل استقلال غينيا والرأس الأخضر PAIGC، وجبهة تحرير موزمبيق FRELIMO، والجبهة الشعبية لتحرير أنغولا MPLA، وحركة تحرير ساوتومي وبرانسيب MLSTP Liberation Movment of Sao Tomé and Principe.

وتعد سنة 1968 منعرجا حاسما لدور الدبلوماسية الجزائرية في تحرير إفريقيا، وتجلى ذلك في انعقاد سلسلة من الاجتماعات الإفريقية التي توجت بانعقاد مؤتمر منظمة الوحدة الإفريقية. وعلى هذا الأساس، انعقدت الدورة 13 للجنة تحرير إفريقيا التابعة لمنظمة الوحدة الإفريقية يوم 15 جويلية بخطاب ألقاه الرئيس الراحل هواري بومدين ضمنه ضرورة مواصلة الكفاح ضد الاستعمار الاجنبي لاسيما البرتغالي الذي يهيمن على أنغولا والموزمبيق وجزر الرأس الأخضر وغينيا بيساو وساوتومي وبرانسيب. ويبدو أن تأثير الجزائر كان وراء استصدار قرارات جوهرية لاسيما تلك المتعلقة برفع ميزانية منظمة الوحدة الإفريقية بنسبة 10 في المائة، إضافة إلى تكثيف دعم **الحزب الإفريقي من أجل استقلال غينيا والرأس الأخضر**[32].

كما أن الجزائر فضلت تأييد الجبهة الشعبية لتحرير أنغولا لأن الجبهة الوطنية لم تكن أكثر تمثيل للشعب الأنغولي بل اقتصر تمثيلها على قبيلة الباكونغو، إضافة إلى الشكوك التي كانت تحوم حول علاقتها بالولايات المتحدة الأمريكية.

- كذلك المطالبة بمقاطعة الدول الاستعمارية اقتصاديا وبرز ذلك جليا من خلال ما تم في مواجهة البرتغال أبان استعمارها لأنغولا والموزمبيق وغينيا بيساو والرأس الأخضر وساوتومي وبرانسيب.

- التأكيد على المساهمة الفعالة في طرد البرتغال من منظمة الصحة العالمية[33].

وعرفانا لدور الجزائر الكبير في نصرة قضية ساوتومي وبرانسيب عسكريا ودبلوماسيا، جرت المفاوضات حول استرجاع سيادة هذا الجزء من القارة السمراء بالجزائر في 26 نوفمبر سنة 1974م، كللت بالإعلان عن استرجاع السيادة يوم 12 جويلية سنة 1975م. وعليه، أصبح **بنتودا كوستا** رئيسا للبلاد و**تروفوادا** وزيرا أولا.

- الدور الفعال للدبلوماسية الجزائرية في اعتراف هيئة الأمم المتحدة باستقلال غينيا بيساو في نهاية سنة 1973م.

ونظرا للدور الذي لعبته الجزائر في دعم الحزب الإفريقي من أجل استقلال غينيا والرأس الأخضر، اختار قادة هذا الحزب إجراء الجولة الثانية من المفاوضات مع البرتغال في الجزائر ، والتي انتهت باسترجاع السيادة في غينيا بيساو والرأس الأخضر[34].

ويمكن القول هنا أنه إضافة إلى ما ذكر فإن معاناة البرتغال كانت كبيرة في مسألة القضاء على حركات التحرر التي ظهرت في مستعمراتها خصوصا إذا ما علمنا أن نصف ميزانية الدولة كانت تنفق أو تخصص للقضاء على كل أشكال الكفاح المسلح الذي تبنته الحركات الوطنية التحررية لاسيما في الموزمبيق.

ومع حلول سنة 1974م، أصبح ثلث التراب الموزمبيقي محررا، وبعد الثورة البرتغالية التي أطاحت بديكتاتورية سالزار يوم 25 أفريل سنة 1974م، توجه سامورا ماشل إلى لوزاكا والتقى بوزير الخارجية البرتغالي ماريو سواريس للتباحث في مسألة استرجاع سيادة الموزمبيق. وعلى ضوء تلك المفاوضات، وفي السابع من شهر مارس 1974، تم التوقيع على اتفاق لوزاكا الذي نص على وقف فوري لإطلاق النار. وفي منتصف ليلة الرابع عشر من شهر جوان 1975م، تم إنزال العلم البرتغالي ورفع العلم الموزمبيقي ليتم الإعلان الرسمي عن استرجاع السيادة في الموزمبيق.

4 - روديسيا الجنوبية (زمبابوي اليوم)، جنوب غرب إفريقيا (ناميبيا اليوم) وجنوب إفريقيا.

أ – المنطلقات التاريخية:

I - روديسيا الجنوبية (زمبابوي اليوم):

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، برزت مجموعة من الشباب الذين كان لهم دور كبير في قيادة الحركة الوطنية التحررية في روديسيا الجنوبية (زمبابوي اليوم)، فظهر على مسرح الأحداث السياسية حزب المؤتمر الوطني الإفريقي سنة 1957م بقيادة النقابي جوشوا نكومو لكن السلطات العنصرية في روديسيا الجنوبية أقدمت

على حله. ثم قام نكومو بتأسيس الحزب الديمقراطي الوطني الذي تمحور برنامجه حول التنديد بسياسة الاضطهاد الممارسة في حق الأهالي الأفارقة ومقاطعة دستور 1961م[35].

ومع بداية الستينيات ظهر تحول جديد في الحركة الوطنية التحررية بروديسيا الجنوبية (ناميبيا اليوم) نتيجة لحصولها على الدعمين المادي والمعنوي من قبل دول المواجهة كتنجانيقا وزمبيا وملاوي، إضافة إلى الدول الإفريقية التي استرجعت سيادتها. وعلى هذا الأساس أسس جوشوا نكومو الإتحاد الشعبي الإفريقي لزمبابوي،ZAPU يوم 9 ديسمير سنة 1961م بجناحه العسكري المعروف ب الجيش الشعبي الثوري لزمبابوي Zimbabwe People's Revolutionary Army (ZIPRA). ونظرا لتعرض الحزب لنكسات وانشقاقات في صفوفه نتيجة الخلافات بين قادته وتفشي المحسوبية والقبلية ، ظهر حزب منافس ، إذ هو الإتحاد الوطني الإفريقي لزمبابوي ZANU بقيادة كل من القس سيتولي وروبرت موغابي[36] وجناحه العسكري جيش التحرير الوطني الإفريقي لزمبابوي (ZANLA Zimbabwe African National Liberation Army)[36].

وقد اسنفاد كلا الحزبين بجناحيهما العسكريين من التدريب العسكري لدى بعض الدول الإفريقية منها الجزائر وزمبياو تنزانيا وملاوي. كما شن الجناحان حرب العصابات بضرب المرافق الحيوية منها السكك الحديدية والمتاجر والجسور والمخازن انطلاقا من قواعدهما في كل من زمبيا والموزمبيق وتنزانيا.

2 - جنوب غرب إفريقيا (ناميبيا اليوم)

خضعت هذه الدولة للسيطرة الألمانية من سنة 1884 إلى غاية سنة 1918م، ثم أصبحت تحت انتداب جنوب إفريقيا كمكافأة لها على المساعدات العسكرية التي قدمتها لبريطانيا في شرق إفريقيا إبان الحرب الإمبريالية الأولى. ونظرا لاستمرار السيطرة وتطبيق سياسة التمييز العنصري من قبل نظام بريتوريا، يمكننا القول أن جذور الحركة الوطنية التحررية في جنوب غرب إفريقيا (ناميبيا اليوم) تعود إلى الخمسينيات من القرن العشرين عندما تأسست جمعية الهيريرو سنة

1955م ولكن زعماء ارتأوا بعد ذلك إعطاءها طابعا وطنيا يسمح للمنتمين إلى قبائل أخرى بالانخراط في صفوفها ، الأمر الذي جعلها تتحول إلى الإتحاد الوطني الإفريقي لجنوب غرب إفريقيا (South West African National Union – SWANU). كما ظهر حزب آخر في نهاية الخمسينيات ، وهو منظمة سوابو SWAPO التي كانت في البداية عبارة عن جمعية تضم شعب أوفمبو Ovambo[37] وتعرف بمنظمة شعب الأوفمبولاند التي تأسست سنة 1957م بفضل الزعيم هرمان جاتويفو لكنها لم تلبث أن تحولت إلى منظمة سوابو أي المنظمة الشعبية لجنوب غرب إفريقيا SWAPO[38] التي تأسست يوم 19 أفريل سنة 1959م بزعامة سام نجوما الذي طالب الأمم المتحدة بضرورة استرجاع السيادة في هذا الإقليم ولكن بدون جدوى. لذلك، أعلن هذا الحزب الكفاح المسلح وأسس الجيش الشعبي لتحرير ناميبيا People's Liberation Army of Namibia.

3- جنوب إفريقيا:

ارتبطت الحركة الوطنية في جنوب إفريقيا بحزب المؤتمر الوطني الإفريقي African National Congress الذي تأسس سنة 1912م واعتمد على برنامج سياسي غلب عليه طابع النضال السلمي. وبعد الحرب العالمية الثانية، ظهر جيل جديد من المناضلين على رأس قيادة الحزب أمثال والتر سوزولو Sisulu، أوليفر تامبو Tambo ونيلسون مانديلا Mandela.

وفي سنة 1949م، تبنى الحزب برنامجا سياسيا جديدا تحت شعار "**الاستقلال الوطني عوض العدالة**". وعلى هذا الأساس، بدأ النضال الفعلي ضد الأبارتايد ابتداء من سنة 1952م بتنظيم الإضرابات والاحتجاجات على سياسة التمييز العنصري المطبقة من قبل نظام جنوب إفريقيا العنصري[39].

إن القوانين التعسفية الصادرة عن نظام جنوب إفريقيا العنصري في حق الأهالي الأفارقة قد جعلهم يتكتلون أكثر باعتماد الاحتجاجات والمظاهرات، الأمر الذي قاد النظام العنصري إلى ارتكاب مجزرة يوم 21 مارس سنة 1960م بمدينة شاربفيل Sharpeville التي تبعد عن مدينة جوهانسبرغ بحوالي خمسين

كيلومترا، راح ضحيتها 60 قتيلا وجرح المئات من الأهالي الأفارقة[40] وعليه، أقدمت سلطات بريتوريا العنصرية على حظر حزب المؤتمر الوطني الإفريقي وحزب المؤتمر البانافريكاني وسجن بعض زعمائه لكن حزب المؤتمر الوطني الإفريقي رد على هذه الإجراءات بتأسيس جمعية سرية تدعى Umkonto we sizwe التي نفذت سلسلة من العمليات تمثلت في تفجير مائتي قنبلة، ويبدو أن هذه العمليات كانت تهدف ضرب المنشئات الاقتصادية في البلاد دون التعرض إلى المدنيين حفاظا على مواصلة تأييد بعض البيض والملونين المنخرطين في حزب المؤتمر الوطني الإفريقي[41].

إن ردود فعل السلطات العنصرية في جنوب إفريقيا تجلت في إصدار قانون التخريب Sabotage Act الذي نص على سجن كل متورط في أعمال تخريبية لمدة تتراوح من خمس سنوات إلى السجن المؤبد[42] وبالموازاة مع هذه الإجراءات ، أقدمت السلطات العنصرية يوم 2 جوان 1964م على إصدار أحكام بالمؤبد في حق أبرز زعماء حزب المؤتمر الوطني الإفريقي أمثال والتر سوزولو، غوفان مبيكي ونلسون مانديلا الذين اقتيدوا إلى سجن روبن أيلاند Robben island بمقاطعة الكاب[43].

وبالرغم من مواصلة سلطات بريتوريا تطبيق سياسة التمييز العنصري وتضييق الخناق على الحركة الوطنية التحررية في جنوب إفريقيا، إلا أن حزب المؤتمر الوطني الإفريقي واصل النضال، وكان ينفذ عمليات عسكرية انطلاقا من قواعده في الموزمبيق وزمبابوي. كما استفاد كثيرا من الدعم العسكري والدبلوماسي التي مافتئت الجزائر تقدمه له.

ب – دور الجزائر في تحرير روديسيا الجنوبية (زمبابوي اليوم)، جنوب غرب إفريقيا (ناميبيا اليوم) وجنوب إفريقيا:

حظيت القضية الرودسية (زمبابوي لاحقا) بدعم كبير من قبل الدبلوماسية الجزائرية لاسيما في لجنة تصفية الاستعمار التي تأسست بموجب اللائحة رقم 1654 والصادرة بتاريخ 27 نوفمبر سنة 1961م. وعليه، وبمجرد إعلان اين

سميث Ian Smith استقلال النظام العنصري في روديسيا الجنوبية يوم 11 نوفمبر سنة 1965م، تحركت الدبلوماسية الجزائرية وأعلنت رفقة تسع دول إفريقية قطع علاقاتها الدبلوماسية مع بريطانيا. كما كلفت منظمة الوحدة الإفريقية الجزائر، السنغال وزمبيا للدفاع عن المواقف الإفريقية إزاء القضية الروديسية في هيئة الأمم المتحدة لاسيما بمجلس الأمن. وكانت الجزائر عضوا في اللجنة التي شكلها مجلس الأمن لمراقبة تطبيق العقوبات الاقتصادية المفروضة على النظام العنصري في ساليسبوري[44].

كانت الجزائر تفضل تأييد الإتحاد الشعبي إلى غاية سنة 1976 بحكم أنه يمثل الأغلبية ولكنها كانت تصر على ضرورة توحيد الجهود عن طريق تأسيس ائتلاف أو وحدة بين الإتحادين، الأمر الذي أدى إلى تحقيق هذا الهدف عندما اتفق الزعيمان على إنشاء جبهة موحدة تمثلت في الجبهة الشعبية PF التي استطاعت أن تحقق فوزا كاسحا في الاستفتاء الذي قاد إلى استرجاع السيادة سنة 1980[45].

- ومن الأساليب العسكرية التي اعتمدتها الجزائر في مسألة دعم الحركة الوطنية الزمبابوية هو أنها أخذت على عاتقها تدريب المقاتلين الزمبابويين في الجزائر ، علاوة على إرسال خبراء عسكريين في الميدان[46].

ومن الأساليب السياسية والدبلوماسية التي اعتمدتها الجزائر لمساعدة نامبيا في التخلص من هيمنة نظام جنوب إفريقيا العنصري ما يلي:

- وقوف الدبلوماسية الجزائرية وراء استصدار الكثير من اللوائح.

- مساعدة هذا الجزء من القارة السمراء في المحافل الدولية لاسيما في محكمة العدل الدولية التي أعطت رأيا استشاريا حول قضية نامبيا سنة 1971م، وأوصت بأن استمرار وجود جنوب إفريقيا في نامبيا غير قانوني[47].

وفي سنة 1973م، وبفضل الدور الكبير الذي لعبته الدبلوماسية الجزائرية، صادقت الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة على اللائحة رقم 3111 التي نصت

على الاعتراف بمنظمة سوابو برئاسة سام نجوما كممثل شرعي ووحيد لشعب ناميبيا[48].

- الدور الفعال للدبلوماسية الجزائرية في تبني الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة للائحة رقم 435 التي صادقت عليها بالإجماع والقاضية بوضع برنامج عمل يسمح باستقلال ناميبيا، إضافة إلى انسحاب قوات جنوب إفريقيا تدريجيا من البلاد والمقدرة بعشرة آلاف مقاتل، والتي وافق عليه نظام جنوب إفريقيا العنصري سنة 1988م[49].

وتحت ضغط الهيئة الأممية وبفضل جهود الدبلوماسية الجزائرية، ألغى النظام العنصري في جنوب إفريقيا التمييز العنصري في ناميبيا في جويلية 1979. وفي سنة 1989م عاد سام نجوما إلى البلاد بعد 30 سنة قضاها في المنفى ليقود منظمة سوابو نحو الفوز بالانتخابات التي جرت تحت مراقبة الأمم المتحدة، وليصبح أول رئيس للبلاد يوم 21 مارس سنة 1990م.

كما حظيت قضية جنوب إفريقيا بدعم كبير من قبل الجزائر ودبلوماسيتها التي أولت اهتماما كبيرا لمسألة تدعيم الحركة الوطنية التحررية في جنوب إفريقيا الممثلة بالمؤتمر الوطني الإفريقي ANC والمؤتمر البانافركاني PAC. وعليه، كانت الجزائر ترى أن استرجاع السيادة في إفريقيا يبقى منقوصا ما لم تسترجع جنوب إفريقيا سيادتها.

وقبيل استرجاع الجزائر لسيادتها، زار الزعيم نلسون مانديلا الجزائر سنة 1962م، وذكر في كتابه Longwalk to freedom أنه بعد زيارة مصر وتونس والمغرب، التقى ببعض قادة الثورة في الحدود المغربية- الجزائرية الذين أعطوه فكرة عن نضال الشعب الجزائري في سبيل استرجاع السيادة. وكان منديلا يؤكد أن مصير جنوب إفريقيا شبيه بمصير الجزائر لأن في البلدين أقليتين أوربيتين تتحكمان في المسائل السياسية والاقتصادية. كما التقى نلسن منديلا بالرئيس أحمد بن بلة بعد خروجه من السجن، والذي تعهد له بمساعدة جنوب إفريقيا ماليا وعسكريا[50].

وتذكر المصادر أن الزعيم منديلا تلقى تدريبا عسكريا بالجزائر وأحيطت زيارته بالسرية التامة، وذلك بناء على أوامر صادرة عن الرئيس الراحل هواري بومدين، ولأسباب أمنية[51].

كما سعت الدبلوماسية الجزائرية إلى البحث عن الميكانزمات السياسية اللازمة لفرض عقوبات على نظام جنوب إفريقيا العنصري وعزله على الساحة السياسية الدولية. وعلى هذا الأساس، تمكنت الدبلوماسية الجزائرية الممثلة بوزير خارجيتها السيد عبد العزيز بوتفليقة الذي ترأس الدورة 29 للجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة من طرد نظام جنوب إفريقيا العنصري من الجمعية العامة في نوفمبر سنة 1974م[52].

ويمكن القول هنا أن ذلك كان حدثا هاما على مستوى العلاقات الدولية خصوصا إذا علمنا أن الجزائر بذلت في هذه السنة مجهودات جبارة للسماح للرئيس ياسر عرفات بإلقاء خطابه الشهير أمام الجمعية العامة الأمم المتحدة.

لقد ظلت الجزائر تؤكد قي العديد من المناسبات أن اكتمال سيادتها لا يتأتى إلا بتخليص شعبي جنوب إفريقيا وجنوب غرب إفريقيا (ناميبيا اليوم) من النظام العنصري الذي كان يضرب عرض الحائط قرارات منظمتي الوحدة الإفريقية والأمم المتحدة، مؤكدة في ذلك على:

- المقاطعة الدبلوماسية والقنصلية لنظام جنوب إفريقيا العنصري نظرا لاستمراره في احتلال جنوب غرب إفريقيا (ناميبيا) وتطبيق سياسة التمييز العنصري.

- كذلك المساهمة الفعالة في طرد نظام جنوب إفريقيا العنصري من منظمة العمل الدولية وتعليق عضويته من اللجنة الدولية الأولمبية[53].

- والمساهمة في طرد هذا نظام من منظمة الغذاء العالمي ومنظمة الصحة العالمية ومن اللجنة الاقتصادية من أجل إفريقيا **C. E.A**[54].

كما سعت الجزائر لدى الحلف الأطلسي بتوقيف بيع الاسلحة لنظام جنوب إفريقيا العنصري، وتجسد ذلك من خلال زيارتي وزير الخارجية السيد عبد العزيز بوتفليقة إلى مقر الحلف سنتي 1970م و1971م[55].

ونتيجة لعزل نظام برتوريا العنصري دوليا لاسيما في المحافل الدولية، شهدت الثمانينيات اتصالات بين رجال الأعمال البيض وقيادة حزب المؤتمر الوطني الإفريقي. وعليه، توجه وفد من رجال الأعمال البيض إلى لوزاكا والتقى بوفد من حزب المؤتمر الوطني الإفريقي، ليتم الاتفاق على بعث المفاوضات بين الطرفين. وفي فبراير سنة 1990م، تم الإفراج عن الزعيم نيلسون مانديلا وقررت حكومة ديكليرك السماح للأحزاب السياسية بما في ذالك حزب المؤتمر الوطني الإفريقي والحزب الشيوعي بممارسة النشاط السياسي. وفي جوان سنة 1991م، أعلنت حكومة فرديريك ديكليرك Frederik dr Clerk عن إلغاء التمييز العنصري، لتبدأ المفاوضات بين الحكومة والأحزاب السياسية الإفريقية التي قادت إلى تنظيم انتخابات في 27 أفريل 1994م فاز بها حزب المؤتمر الوطني الإفريقي، وانتخاب الزعيم نيلسن منديلا رئيسا للبلاد من طرف البرلمان.

5 - دور الجزائر في تحرير إفريقيا اقتصاديا:

كان للدبلوماسية الجزائرية مكانة مرموقة في المحافل الدولية، ولعل انتخاب الجزائر في أكثر من مناسبة لعضوية مجلس الآمن، ورئاستها الدورية لمختلف المنظمات الإقليمية واللجان الدائمة في هيئة الأمم المتحدة ليعتبر انعكاسا للسمعة والثقة التي تتمتع بها الجزائر على الساحة الدولية، وذلك بفضل العمل الدؤوب الذي مافتئ يبذله الطاقم الدبلوماسي وعلى رأسه السيد عبد العزيز بوتفليقة من أجل خدمة القضايا العادلة. وعلى هذا الأساس، طالبت الجزائر بضرورة تغيير العلاقات الاقتصادية الدولية باعتبارها كانت مبنية على أسس غير عادلة تزيد الأغنياء غنى وتحول دون تمكن الدول النامية بصفة عامة والدول الإفريقية بصفة خاصة من تحقيق التقدم والتطور.

وعليه تحركت الآلة الدبلوماسية الجزائرية قصد تكريس هذه المبادئ في مختلف المؤتمرات والتجمعات الدولية والإقليمية. كما استضافت الجزائر على أرضها عددا من المؤتمرات السياسية والندوات الاقتصادية الدولية، كانت جميعها منابر لطرح القضايا العادلة وإيصال صوت الدول النامية لاسيما الإفريقية منها إلى العالم.

ولعل أهم هذه المؤتمرات على الإطلاق هو مؤتمر عدم الانحياز الذي احتضنته الجزائر في سبتمبر 1973 والذي عرف نجاحا كبيرا وشهد مشاركة قياسية للدول. وتميز هذا المؤتمر عن غيره من المؤتمرات السابقة، لكونه تطرق بعمق للقضايا المصيرية لدول العالم الثالث بصفة عامة والدول الإفريقية بصفة خاصة، كما وضع الدول الغربية أمام مسؤولياتها التاريخية من خلال مطالبتها بوضع حد للاستغلال الفاحش لثروات هذه الدول[56].

إن أهم ما تميز به مؤتمر عدم الانحياز المنعقد بالجزائر، هو بدون شك ذلك التلاحم والتحالف القوي للشعوب التي كانت تتطلع للتقدم والرقي، وهو تحالف من أجل الحفاظ على المصالح المشروعة والعادلة، ومن أجل إقامة نظام اقتصادي دولي جديد يخدم المجتمع الدولي ويضمن استقرار العلاقات بين أعضائه. وعلى هذا الأساس، يمكننا القول أن هذا المؤتمر كان تحولا كبيرا في مسيرة نضال دول العالم الثالث في ظل العلاقات الدولية، وكذا في منهجية العمل والمواقف تجاه القضايا المصيرية.

ومن أهم نتائج المؤتمر، دعم الدول المشاركة للمبادرة الجزائرية الجريئة بطلب عقد دورة طارئة للأمم المتحدة، حيث سارعت الدبلوماسية الجزائرية إلى استغلال هذه الفرصة للقيام بهذه المبادرة لدراسة موضوع المواد الأولية، قضايا التنمية ونظم التعامل الاقتصادي الدولي في الأمم المتحدة، علاوة عل تبليغ صوت العالم الثالث، وأن الرأي العام الدولي كان مستعداً لتفهم ودعم هذه الخطوة بعد أزمة البترول ومضاعفاتها على الساحة الدولية.

ونتيجة للأزمة الاقتصادية الرأسمالية من منتصف سنة 1973م إلى غاية نهاية سنة 1974م بسبب التضخم واستخدام البترول كسلاح في الحرب العربية - الإسرائيلية وظهور مواجهة بين بلدان العالم الثالث والدول الغربية حول أسعار المواد الأولية، تقدمت الجزائر التي كانت تترأس حركة عدم الانحياز في تلك الفترة بطلب للأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة السيد كورت فالدهايم بعقد دورة استثنائية للجمعية العامة لمناقشة قضية المواد الأولية، وقضايا التنمية وتقديم مساعدات للدول الفقيرة وإعادة النظر في نظام المبادلات التجارية الذي كان في غير صالح الدول المستقلة حديثا[57].

وتم عقد هذه الدورة في ربيع سنة 1974م، وتميزت بخطاب هام ألقاه الرئيس الراحل هواري بومدين أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة تضمن الخطوط العريضة لمشروع إقامة نظام اقتصادي دولي جديد[58] وعليه، قدمت الجزائر برنامج هذه المبادرة عن طريق وزير الخارجية السيد عبد العزيز بوتفليقة الذي لقي صدا كبيرا من قبل دول العالم الثالث بصفة عامة والدول الإفريقية بصفة خاصة. وبعد مناقشة حادة بين دول العالم الثالث من جهة، والدول الغربية من جهة أخرى، تم التوصل إلى إقرار وثيقتين مهمتين هما:

I – إعلان خاص بإقامة نظام اقتصادي دولي جديد صدر بشأنه القرار أو اللائحة الأممية رقم (S.VI) 3201.

2 – إعلان برنامج عمل من أجل إقامة نظام اقتصادي دولي جديد والذي صدر بشأنه القرار أو اللائحة رقم (S.VI) 3202[59].

كانت الدبلوماسية الجزائرية تهدف من وراء استصدار هاتين اللائحتين، إلى إرساء نظام اقتصادي عالمي جديد لتقليص الفوارق بين الدول المتقدمة والدول السائرة في طريق النمو وضرورة تحكم الدول النامية لاسيما الإفريقية منها في مواردها الطبيعية.

أخيرا، يمكننا القول أن دور الدبلوماسية الجزائرية في بلورة النظام الاقتصادي العالمي الجديد والدفاع عنه في المحافل الدولية هو نابع من التجارب السابقة في مسألة تحدي القوى الكبرى والتي لها علاقة بالقضايا الاقتصادية كتلك المتعلقة بتأميم المحروقات سنة 1971م والمواجهة مع الشركات الاحتكارية التي حاولت بإجراءاتها التعسفية كبح جماح الدول النامية منها الحظر على البترول الجزائري في الأسواق العالمية.

وعليه، بادرت الدبلوماسية الجزائرية إلى وضع القواعد للنظام الاقتصادي العالمي الجديد في هيأة الأمم المتحدة ابتداء من الدورة الاستثنائية للجمعية العامة للأمم المتحدة. وعليه، حققت الجزائر نصرا دبلوماسيا باهرا عندما تبنت الجمعية العامة برنامج عمل هذا النظام في 1 ماي سنة 1974م والإعلان عن ميثاق الحقوق والواجبات الاقتصادية للدول يوم 12 ديسمبر سنة 1974م.

إن هذه المبادرة واجهت عراقيل من قبل الدول الغربية التي كانت تسعى دائما إلى المحافظة على النظم الاقتصادية التقليدية التي كان يغلب عليها طابع الاستغلال الفاحش لموارد الدول الإفريقية من جهة، وعدم تجاوب بعض الدول الإفريقية من جهة أخرى بسبب خضوع قراراتها لتوجيه من الدول الغربية، وعليه، يمكننا القول أيضا أن بعض الدول الإفريقية ظلت تسبح في فلك نظام اقتصادي استعماري، وهذا ما يفسر سيطرة الشركات الاحتكارية الغربية على مظاهر الحياة الاقتصادية ابتداء من الحاويات بالموانئ إلى توزيع الكاكاو، فالاستحواذ على صفقات البناء.

وفي هذا السياق، ظلت اقتصاديات هذه الدول مرتبطة ارتباطا كليا بالدول الغربية عن طريق هيمنة الشركات الفرنسية على كل كبيرة وصغيرة، وحتى الجانب المالي كان بيد المؤسسات المالية الغربية. أما إذا انتقلنا إلى المجال العسكري، فكان للدول الغربية لاسيما فرنسا قواعد عسكرية في غرب إفريقيا لحماية الأنظمة الموالية لها، والحفاظ على مصالحها من جهة أخرى.

وبالرغم من ذلك ، واصلت الجزائر الدفاع عن مواقفها سنين طويلة على مستوى المحافل الدولية منها مجموعة الـ 77 المكلفة بالدفاع عن مصالح الدول النامية وضمن هيئة الأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها مثل المنظمة العالمية للتجارة.

وبناء على ما تقدم، يمكن طرح الاستنتاجات التالية:

I – إن الدارس لموضوع حركات التحرر في الأجزاء الإفريقية المنوه عنها أعلاه، يلاحظ أن أهم عامل مشترك جمع بينها هو بدون شك أنها خضعت لاستعمار استيطاني على غرار ما تعرضت له الجزائر في شمال إفريقيا.

2– إن المقاييس التي اعتمدتها الجزائر في مسألة اختيار الحركات التحررية الوطنية التي توجب مساندتها في المستعمرات البرتغالية أو تلك التي كانت تحت هيمنة أقليات بيضاء أوربية قد اعتمدت على مدى شعبية هذه الحركات. وعلى هذا الأساس، يمكننا القول أن الحركات الوطنية التحررية التي ساندتها الجزائر هي الحركات التي تمكنت من وضع نهاية للتواجد الاستعماري البرتغالي وسيطرة الأقليات الأوربية، إذ تعلق الأمر ب الحزب الإفريقي من أجل استقلال غينيا والرأس الأخضر PAIGC، وجبهة تحرير موزمبيق FRELIMO، والجبهة الشعبية لتحرير أنغولا MPLA، وحركة تحرير ساوتومي وبرانسيب Liberation Movment MLSTP of Sao Toméand Principe وحزب المؤتمر الوطني الإفريقي African National Congress - ANC –، والإتحاد الشعبي الإفريقي لزمبابوي ZAPU والإتحاد الوطني الإفريقي لزمبابوي ZANU والمنظمة الشعبية لجنوب غرب إفريقيا (سوابو) SWAPO.

3 – إن تمكن الجزائر من طرد نظام جنوب إفريقيا العنصري من الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة قد حقق هدفين رئيسيين في مسألة المساهمة الجزائرية في دعم الحركة الوطنية التحررية في جنوب إفريقيا إذ يتعلق أولهما بتكثيف الكفاح ضد نظام جنوب إفريقيا العنصري، وثانيهما عزل جنوب إفريقيا دوليا.

4 - بالرغم من استخدام الدول الغربية لحق الفيتو والتردد في تجسيد سياسة مقاطعة النظام العنصري في جنوب إفريقيا والبرتغال إلا أن الدبلوماسية الجزائرية واصلت دعمها للحركات الوطنية التحررية في المحافل الدولية لعزل نظام جنوب إفريقيا العنصري والبرتغال. وعليه، يمكننا القول أن إسهامات الجزائر في هذا السياق قد حققت الأهداف السياسية والاقتصادية لأن العقوبات المفروضة على النظام العنصري في بريتوريا والبرتغال قد أثرت سلبا عليهما ، الأمر الذي أدى إلى إضعافهما، ومن ثمة إعادة النظر في سياستهما وقبول التفاوض مع الحركات التحررية التي استطاعت استرجاع السيادة.

5 – وفي المجال الاقتصادي كانت الجزائر رائدة في مجال المطالبة بإصلاح النظام الاقتصادي العالمي، وإقامة نظام اقتصادي دولي جديد أكثر إنصافا للدول النامية بصفة عامة، والدول الإفريقية بصفة خاصة. فاستعادة الجزائر ملكيتها لثرواتها المعدنية، وتأميمها للمحروقات قد أكسب الكثير من شعوب القارة السمراء حق بسط سيادتهم، على مجمل مواردهم الطبيعية.

6 - إن تبني الجزائر لمبادرة إقامة نظام اقتصادي عالمي جديد كان مبنيا على أساس مواصلة الكفاح ضد الإمبريالية التي كانت تسعى دوما إلى المحافظة على ميكانزمات النظام الإمبريالي العالمي بل أن ذلك كان من أولوياتها أو أهدافها. وعليه، بنت الإمبريالية إستراتجيتها على أساس معارضة فكرة إقامة نظام اقتصادي عالمي جديد يتمحور حول المبادئ والمواقف التي صادقت عليها الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة خلال دورتها الاستثنائية الرابعة قي أفريل سنة 1974م، والتي خصصت لدراسة مسألتي المواد الأولية والتنمية.

وأي ما كان الأمر، فإن هذه المبادرة الجزائرية قد أخذت بعين الاعتبار فكرة محاربة الإمبريالية من جهة، وسعت إلى إحلال تعايش سلمي من جهة أخرى، ومن ثمة تدعيم السلم والتعاون لفائدة كل الإنسانية باختيار الحوار البناء كأسلوب من أنجع الأساليب لتحقيق الأهداف المرجوة.

7 – أضحت الجزائر مدرسة يقتدى بها في مسالة تحرير باطن الأرض واسترجاع السيادة الوطنية على ثروات الدول التي كانت تحت هيمنة الشركات الاحتكارية الأجنبية.

وعلى ضوء ما تقدم ، يمكن القول أنه آن الأوان للقارة السمراء أن تتبنى المشاريع الوحدوية والالتفاف حول الإتحاد الإفريقي، وتأييد بكل قوة المشاريع السياسية والسوسيو- اقتصادية الهادفة إلى رص الصفوف والتكتل في إطار وحدة جهوية أو إقليمية على غرار ما يحدث اليوم في العالم من تكتلات، إضافة إلى تشجيع بكل قوة مبادرة النيباد التي نرى فيها الأمل الذي يحذو كل الأفارقة للتطلع إلى مستقبل واعد، وقدرة على مواكبة العولمة وتحدي الألفية الثالثة.

الهوامش:

1 – Chikh , Slimane /L'Algérie porte de l'Afrique . Casbah Editions , Alger, 1999 , p 23.

2 – المجاهد رقم 23 والمؤرخ في 5 ماي 1956 م . أنظر كذلك حول الموضوع : مريم صغير : البعد الإفريقي للقضية الجزائرية 1955 – 1962 م . دار السبيل للنشر والتوزيع ، الجزائر، 2009 م .

3 – النص الكامل لمداخلة السيد احمد يزيد في جريدة المجاهد رقم 48 المؤرخة في 17 أوت سنة 1959 .

4 – النص الكامل للائحة في جريدة المجاهد رقم 48 المؤرخة في 17 أوت سنة 1959 .

5 – شاركت في هذا المؤتمر الدول التالية : إثيوبيا ، الكونغو (ليوبولد فيل) ، غانا ، غينيا ، ليبيريا ، المغرب ، مصر ، السودان ، ليبيا ، تونس ، الطوغو، وفد الحكومة المؤقتة وملاحظ من تنجانيقا .

6- النص الكامل للائحة في المجاهد رقم 69 (8 سبتمبر 1960)

7 – نفسه.

8 -Chikh, Slimane. op.cit , p 136 .

9 – Ibid.

10 – Ibid. p 137

11 – النص الكامل بالمجاهد رقم 69 (5 فبراير 1960).

12 – نفس المصدر.

13 – الميثاق الوطني. ص 107. المادة 92 من دستور 1976 م.

14 – ميثاق هيئة الأمم المتحدة.

15 – ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية .

16 - -Ghozali, Nassereddine et Benouanich Moncef. Politique Exterieure de l'Algérie à travers de charte Nationale et la constitution, Revue Algérienne Sientifique, Juridique, Economique et Politique XV, n°3(1978), 453-78.
(17) Chikh , Slimane. op.cit , p 185. et Deffarge , CI et Troeller , G. « Alger capital des révolutionnaires en éxile» in Monde diplomatique. Aout 1972.
18 - Grimaud,Nicole. La politique éxterieure de l'Algérie.Editions Karthala, paris,1984. p 272.
19 - Klen, Michel. Le défi Sud-Africain . France Europe Editions , Nice, 2004. pp 210-211.
20 – Ibid.
21 – **إغوستينو نيتو**: ولد قي قرية شاشيكان على بعد 60 كلم من مدينة لواندا . طبيب في تكوينه عندما تحصل على منحة لمزاولة دراسته في لشبونة سنة 1947. احتك في الخمسينيات بالكثير من الزعماء الوطنيين قي الأقطار الإفريقية التي كانت تحت السيطرة البرتغالية أمثال أملكار كابرال ، ادواردو ماندلان ومارسيلينو دوسنتوس، الأمر الذي أكسبه تجربة وظفها في خدمة الجبهة الشعبية لتحرير أنغولا التي كانت رائدة الكفاح في هذا الجزء من إفريقيا . كان من بين مؤسسي الجبهة الشعبية لتحرير أنغولا سنة 1956 م وأول رئيس لأنغولا. وللمزيد من التفاصيل ، أنظر:
Palmowski, J. Oxford Dictionary of Twentieth Century World History. Oxford University Press, Oxford, 1997. pp. 20-21.
22 – رجل سياسة أنغولي ، درس بلشبونة في أواخر الخمسينات من القرن العشرين . انخرط في جبهة التحرير الوطني لأنغولا التي كان يتزعمها روبرتو هولدن لكنه سرعان ما انسحب من الجبهة ليؤسس حزبا سنة 1966 م عرف ب الإتحاد الوطني للاستقلال التام لأنغولا UNITA . وعندما استرجعت أنغولا سيادتها سنة 1975 م ، قرر سافمبي التمرد وقيادة معارضة مسلحة ضد الحكومة التي كانت تابعة للجبهة الشعبية لتحرير أنغولا المدعوة من قبل الإتحاد السوفييتي وكوبا إلى غاية 1991 م عندما تقرر وقف إطلاق النار. وفي السنة الموالية ، فازت الجبهة الشعبية لتحرير أنغولا بالإنتخابات لكن جوناس سافيمبي دخل مجددا في المعارضة المسلحة حتى لقي حتفه . نفس المرجع .
23 - Cornevin, M. Histoire de l'Afrique contemporaine. Payot, Paris, 1978. p 276 et Ferro, Marc . Histoire des colonisations . Editions du Seuil , Paris , 1994 . pp 428 – 431.
24 – Fage, J.D. A History of Africa . Hutchinson and co , London , 1978 . p 486. for more details , see Davidson, B. L'Angola au cœur des tempêtes. Maspero,Paris, 1972.
25 – Cornevin , op.cit. 275 .
26 - – Fage, J.D . op.cit. p 85. For more details see Newitt, M. *Portuga lin Africa:The last Hundred Years*, C. Hurst& Co., Londres, 1981.
27 – Ibid.
28 - J. C. Andreini, J. C et M. C. Lambert, M. C *La Guinée-Bissau, d'Amilcar Cabral à la reconstruction nationale*, L'Harmattan, Paris, 2000
29 - Palmowski, J. op.cit.. pp. 538 – 539.
30 - Cornevin, M. Histoire de l'Afrique contemporaine. Payot, Paris, 1978. p 275.
31 - Grimaud,Nicole. op.cit.pp 272-273.
32 - Chikh , Slimane. op.cit , p 176.

33 – Ibid . p 184 .

34 – أنظر الثورة الإفريقية Révolution Africaine رقم 535 ، 536 538 و539 المؤرخ في 21 – 27 جوان 1974 م ، ورقم 545 المؤرخ في 2 – 8 أوت 1974 م حول مختلف مراحل هذه المفاوضات.)

35 - Klen, Michel. op.cit. pp 219 – 220.

36 - Palmowski, J. op.cit.. pp. 677 – 678 .

37 – يقطنون المنطقة على الحدود مع أنغولا ، بلغ عددهم حوالي مليون ونصف نسمة في بداية القرن 21 م . يهتمون بالزراعة وتربية الماشية .

38 – Lugan , Bernard . Histoire de l'Afrique du sud .Librairie Perrin , Paris , 1986 . p 247. Pour plus de details , C. Bader, C . ***La Namibie***, Karthala, Paris, 1997.

39 - Lugan , B . 217 – 218 .

40 - Cornevin, M. op.cit. p 266 .

41 - Lugan , Bernard . op.cit. p 219 .

42 - Cornevin, M. op.cit. p 266 .

43 – Ibid . p 267 .

44 – عواطف ، عبد الرحمان . "قضية روديسيا في الأمم المتحدة" . مجلة السياسة الدولية . عدد 21 ، 1970 ، ص 119. وللمزيد من التفاصيل ، أنظر

Cadoux, Charles . « L'organisation des Nations Unis et le problème de l'Afrique Australe » in A.F.D.J. 1977 . pp 127- 174.

45 – Révolution Africaine. no 696 du 22-28 Juin 1977).

46 - Grimaud, Nicole. op.cit.p 241 ..

47 – مصطفى سلامة حسين . المنظمات الدولية ، الدار الجامعية ، بيروت ، 1989 . ص 196 .

48 - Klen . op.cit . p 57

49 – Ibid . p 59 .

50 – South Africa – Algeria – Western Sahara Relations . Publication issued by the South African Embassy in Algeria on the 15 th freedom Day Celebrations, 2009 .4 – 6.

51 – Ibid .

52 – محضر جلسة 12 نوفمبر1974 المخصصة لطرد **نظام جنوب إفريقيا** من الدورة 29 للجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة برئاسة **السيد عبد العزيز بوتفليقة** . في Chikh , Slimane. op.cit , pp 302 – 308.

53 – نفس المرجع ، ص 184 .

54 – نفس المرجع

55 - Grimaud,N. op.cit. p 281.

56 - Chikh , Slimane . op.cit. pp 33 – 35 .

57 – Ibid.

58 - Balta, P. et Rulleau, CI. La stratégie de Boumediene. Sindbad, éd, Paris, 1978.pp 221-329.

59 – اللائحة رقم 3201 (S.VI) واللائحة رقم 3202 (VI) المؤرختين في 1 ماي سنة 1974 م والمتضمنتين إعلان وبرنامج عمل لإقامة نظام اقتصادي عالمي جديد والمصادق عليهما من قبل الدورة الخاصة للجمعية العامة للأمم المتحدة وبمبادرة الجزائرالتي كانت تترأس حركة عدم الانحياز. وللمزيد من التفاصيل،

أنظر المجلة العامة للقانون الدولي(R.G.D.I.P) سنة 1975 م ، رقم 2 . وللمزيد من التفاصيل ، أنظر – **اللائحة** : رقم 32 81 (XXIX) حول ميثاق الحقوق والواجبات الاقتصادية للدول والتي تدخل في إطار النظام الاقتصادي العالمي الجديد التي أرست دعائمه الجزائر سنة 1074 م , نص اللائحة منشور في المجلة العامة للقانون الدولي (R.G.D.I.P) سنة 1975 م ، رقم 2 ص 307.

الصحراء الجزائرية بين رغبة الفرنسيين في الاحتفاظ بها وإصرار الجزائريين على عدم التنازل عنها

د. بشير سعدوني
قسم التاريخ جامعة الجزائر 2

مقدمة :

الصحراء الجزائرية فضاء رحب تقدر مساحته بحوالي مليوني كيلومتر مربع، أي 84٪ من مساحة الجزائر[1]، يحتوي باطنه على ثروات متنوعة (محروقات، معادن ثمينة وأخرى نادرة، مياه جوفية ...).

أمَّا سطحه ففيه ثروة زراعية متنوعة (نخيل، حلفاء، مناطق صالحة للزراعة المتنوعة...)، إضافة إلى الحيوانات المتعددة من جمال. وغزلان وغيرها.

كما أن الصحراء فضاء استراتيجي هام في حالة الحرب والسلم، وأداة وصل بين شمال إفريقيا وجنوبها، وقد استخدمته فرنسا لإجراء سلسلة من التجارب النووية بين سنتي 1961 و1966.

لهذه الأسباب وغيرها كانت محل خلاف وتجاذب بل وصراع حاد بين الجزائريين والفرنسيين منذ اندلاع الثورة إلى توقيع اتفاقية ايفيان في 18/ 03/ 1962 . فالجزائريون يصرون على انه جزء لا يتجزأ من الجزائر لا يمكن التنازل عنه، مهما كانت التضحيات، والفرنسيون يصرون على الاحتفاظ به الأمر الذي كثيرًا ما عطل سير المفاوضات الفرنسية الجزائرية، وأمدّ في عمر الثورة، وبالتالي كلفّ الجزائريين المزيد من الضحايا والمعاناة.

موقف الفرنسيين :

ما أن احتلت فرنسا الجزائر سنة 1830 حتى بدأ مسؤولوها يهيئون الأذهان ويقومون بالأفعال لتجسيد ضمها لفرنسا وابتلاعها نهائيًا بمختلف الوسائل والأساليب ومنها القانونية، فراحوا يصدرون القوانين تباعًا لخدمة هذا الغرض، اعتقادًا منهم أنهم بذلك يصبغون الشرعية على تصرفاتهم، ويجعلون الجزائريين

أمام أمر واقع مفاده "الجزائر فرنسية" وفي هذا النطاق جاء الأمر الصادر بتاريخ 22 يوليو (جويلية) 1834 كأول إجراء قانوني ينصّ على أن الجزائر من الأملاك الفرنسية في شمال إفريقيا[2].

ثم تلا ذلك صدور قوانين أخرى عديدة منها قانون 14 جويلية 1865[3]، وقانون 20/ 09/ 1947[4] المعروف بدستور الجزائر، وكل هذه القوانين، في جوهرها، تنفي وجود الدولة الجزائرية قبل الغزو الفرنسي، وتقنن إلحاق الجزائر بفرنسا إلحاقًا نهائيًا وشرعيًا، حسب زعمهم، ناسين أن الدولة الجزائرية كانت قائمة منذ القديم، منذ الدولة النوميدية[5]، بل قبلها بكثير وأن فرنسا حين احتلت الجزائر وجدت هذه الأخيرة تتمتع بجميع حدودها الوطنية، وحكومتها وإدارتها وسياستها الخارجية ودفاعها الوطني[6].

و لتأكيد ذلك يمكن الإشارة إلى بعض المعاهدات التي أبرمتها الجزائر مع العديد من دول العالم، ومنها فرنسا، طبعًا، ففي عام 1679 تعاقدت مع هولندا، وفي عام 1682 وقعت معاهدة صداقة مع بريطانيا العظمى، كما كانت الجزائر من أوائل الدول التي اعترفت باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1783، وقد وقعت معها ثلاث معاهدات في سنة 1795، 1815، 1816، كما أن القنصل الأمريكي في الجزائر كتب عام 1826 يقول" أن الداي يمارس كامل حقوق السيادة والسلطة عقب انتخابه مباشرة"[7].

أما مع فرنسا فقد أبرمت الجزائر سبعًا وخمسين (57) معاهدة خلال الفترة الممتدة بين 1619-1830 إضافة إلى أنه كانت بين الدولتين بعثات دبلوماسية[8].

و قد خاضت الدولة الجزائرية عدة حروب خلال الفترة الممتدة بين القرن السادس عشر وبداية القرن التاسع عشر مع العديد من الدول الأوروبية كانجلترا وفرنسا وهولندا واسبانيا والدنمارك والبرتغال، وكانت لها مع هذه الدول معاهدات سلام[9].

لهذا، ورغم ذلك، فما إن اندلعت ثورة نوفمبر 1954 حتى راح المسؤولون الفرنسيون يعلنون أن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا، وأن الفرنسيين هم الذين اكتشفوها وأوجدوها من العدم، فهي لم تكن شيئًا قبل حلولهم بها، ومن هؤلاء كريستيان بين(CHRISTIEN PINO[10]) الذي صرّح سنة 1957 من على منبر هيئة الأمم المتحدة أمام مختلف دول العالم قائلا " إن وجود فرنسا بالجزائر يكتسي صبغة شرعية، وهو زيادة على ذلك مطابق للقوانين العالمية، إن فرنسا لم تغز الجزائر، بكل ما في لفظ الغزو من معنى، إنها لم تفعل إلاّ أنها احتلت، بصفة قانونية، رقعة من الأرض لم تكن خاضعة لأي سلطان "[11].

هذا الافتراء حاول تأكيده كثير من الفرنسيين، سياسيين وعسكريين وإعلاميين، منهم الجنرال ديغول DEGAULLE حيث صرّح سنة 1958 قائلاً : "لم تكن هناك سيادة جزائرية...إن القرطاجيين والرومان والوندال والبيزنطيين والعرب والسوريون، والأتراك تغلغلوا واحدًا بعد الأخر دون أن تكون هناك دولة جزائرية "[12].

و بناءً على تلك المزاعم راحت فرنسا تشن الحملات الإعلامية والدبلوماسية ضد كل من يخالف ادعاءاتها بكون الجزائر فرنسية معلنةً أنه :" بين الجزائر وفرنسا الأم لا يمكن أن يكون هناك أي انفصال، وينبغي أن يكون هذا واضحًا لجميع الناس وفي جميع الأمكنة والأزمنة : في الجزائر، وفي فرنسا، ولكن أيضًا في الخارج "[13].

ولم تكتف بذلك بل أنها أبدت سخطها وغضبها حتى على أقرب المقربين منها، وكمثال على ذلك ما حدث خلال الجلسة التي عقدها برلمان الاتحاد الأوروبي بستراسبورغ في 19/6/1959 لبحث الأمن الأوروبي، حيث أثار بيترلاخشيسن النائب الاشتراكي الديمقراطي في ألمانيا الغربية قضية الجزائر، فاحتج الأعضاء الفرنسيون مبدين تمسكهم بدعواهم التقليدية من أن هذه المسألة من شؤون فرنسا الداخلية "[14].

كما اعتبرت أي دعم للجزائريين ماديًا أو معنويًا تدخلاً سافرًا في شؤون فرنسا الداخلية، وهذه الأخيرة لن تتسامح مع من يتدخل في شؤونها، أو يمس

أمنها القومي ووحدتها الترابية، لهذا هددت كل من يتعاطف مع الثورة الجزائرية، بل أنها لم تكتف بالتهديد بل رفعت في العديد من المرات " العصا الغليظة " على حد تعبير كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية بين 1973 – 1977 على العديد من الدول المجاورة كتونس[15] والمغرب[16] وليبيا[17] لإرهابها، بل امتد اعتداؤها فمس حتى بعض الدول البعيدة عن الجزائر كمصر[18] .

و طبعًا، كانت تسعى من وراء هذه الادعاءات إلى إرهاب مسؤولي وشعوب هذه الدول لإجبارهم على التخلي عن الوقوف إلى جانب الجزائريين، بل ومساعدتها على حصارهم لدفع الجزائريين إلى التسلم بالأمر الواقع رغمًا عنهم ما دام لا يوجد البديل.

و طبعًا كانت فرنسا لا تفرق، في كل ذلك، بين شمال الجزائر وجنوبها، فهي في نظرها وحدة متكاملة وهو ما عبر عنه فرانسوا ميتيرون بقوله :

" الجزائر هي فرنسا، من فلاندر إلى الكونغو، هناك قانون واحد، ومجلس نيابي واحد، وبذلك فهي بذلك أمة واحدة، هذا هو دستورنا، وتلك هي إرادتنا[19] .

كما أن الكثير من القوانين الفرنسية وضّحت هذه الوحدة والتلاحم المزعوم من ذلك قانون 1884 الذي نصّ على أن الصحراء جزء من الجزائر، تتبع الولاية العامة بالجزائر في كل شؤونها السياسية والإدارية والاقتصادية، ولها ممثلوها في المجلس الجزائري[20].

كما أن قرار مجلس الدولة لسنة 1923 صريح في الاعتراف بجزائرية سكان الجنوب كذلك المجلس الجزائري لسنة 1953 (الذي كان يتركب في أغلبيته من عملاء فرنسا) صوّت على نصّ يعتبر بأن مقاطعات الجنوب جزء لا يتجزأ من الجزائر[21].

لكن فرنسا اضطرت الئ تغيير مواقفها السابقة، وهذا أمام اشتداد قوة الثورة، واتساع رقعة المؤيدين لها داخليًا وخارجيًا، وفشل كل المساعي الفرنسية

للقضاء عليها وقمعها، خاصة بعد سقوط الجمهورية الفرنسية الرابعة[22] وقيام الجمهورية الفرنسية الخامسة واعتلاء الجنرال ديغول هرم السلطة، وقيامه بالعديد من الإجراءات للقضاء عليها: كإتباع سياسة الأرض المحروقة، وتعميم وسائل التعذيب والإكثار من المحتشدات، وإنشاء القوة الثالثة وغلق الحدود الشرقية والغربية بالأسلاك الشائكة المكهربة إلى جانب الإغراءات الاقتصادية والاجتماعية المتمثلة في مشروع قسنطينة أو مشروع ديغول[23]، وهكذا وجد قادة فرنسا أنفسهم مجبرين على تغيير سياستهم بالجزائر .

و قد طرأ هذا التغيير في البداية بالنسبة لشمال الجزائر، إذ بدأت التلميحات ثم التصريحات بإمكانية الاستجابة لمطالب سكانها بشأن حق تقرير المصير دون الصحراء، وقد تجسد ذلك خاصة في الخطاب الذي ألقاه الجنرال ديغول DE GAULLE يوم 16 سبتمبر 1959 والذي خير فيه الجزائريين " في محافظاتهم ألاثنتي عشر : بين ثلاثة حلول : الانفصال، الإدماج، الاشتراك[24] .

أي أنّ ديغول يستثني الصحراء في نطاق الاستفتاء ويقصر إجراءه على المناطق الشمالية، أمّا الصحراء فإن تعليماته تنصّ على : " أن اعتبار الصحراء جزائرية خرافة قانونية لا أساس تاريخي لها "[25] خاصة أن البترول قد اكتشف بها ابتداء من سنة 1956 فأسال لعاب المسؤولين الفرنسيين، ودفعهم إلى التشبث بها أكثر، وعدم التخلي عنها مهما كان الثمن، والطريق الأسلم، الضامن لذلك هو فصلها عن شمال البلاد .

و الواقع أنّ إجراءات الفصل بدأها الفرنسيون قبل تولي ديغول السلطة بفرنسا، حيث اتخذت عدة إجراءات لتنفيذ ذلك الفصل منها مصادقة البرلمان الفرنسي يوم 10 جانفي 1957 على تكوين " المنظمة المشتركة للنواحي الصحراوية "[26] L'organisation Commune Des Régions Sahariennes

حيث نصّ القانون الخاص لهذه المؤسسة على أن الغرض من ذلك هو استثمار الصحراء، والتوسع الاقتصادي، ورفع المستوى الاجتماعي للمناطق الصحراوية التابعة للجمهورية الفرنسية ..."[27].

و في نفس السنة تمّ إنشاء الوزارة المتعلقة بالصحراء كهيئة إدارية جديدة وصية على الجنوب[28]، كما تم تقسيم الصحراء إلى عمالتين، الساورة والواحات وصدور قرار بإلحاقها مباشرة بفرنسا[29] .

غير أن سياسة فرنسا للاحتفاظ بالصحراء فشلت أمام إصرار الجزائريين على عدم التنازل عنها مهما كان الثمن، كما فشلت قبلها محاولات فرنسا الاحتفاظ بالجزائر ككل، وحين تأكد ديغول من هذا الأمر راح يناور لكسب ما يمكن كسبه من خيرات الصحراء السطحية والباطنية فاعترف لكبير مفاوضية السيد لويس جوكس Luis Jukes بأنّ " الصحراء الجزائرية حيلة قانونية ووطنية ليس لها أساس تاريخي "[30].

و عليه، فالمطلوب من المفاوض الفرنسي أن يناور ويتشدد ليحصل على مكاسب في الصحراء الجزائرية بعد استقلال هذه الأخيرة "[31] .

و فعلاً، لم يجد الرئيس الفرنسي بدّا من التسليم بفشل مشروعه الذي أعلن عنه يوم 16 سبتمبر 1959 فصرح يوم 5 سبتمبر 1961 قائلاً : " ليس هناك أي جزائري لا يعتقد أن الصحراء يجب أن تكون من الجزائر "[32]، وفي نفس الوقت اعترف بأن استمرار الحرب في الجزائر كارثة بالنسبة لفرنسا في جميع الميادين، وإذا لم يوضع لها حلٌّ عاجل ستؤدي إلى تشتت الأمة الفرنسية، حيث قال: " ومن جهة أخرى تحققت من أننا بمواصلة صراع خيالي، إلى ما لا نهاية، نعرض روح جيشنا ذاته، ومن خلاله وحدتنا الوطنية بنفسها للخطر "[33] .

بعدها، بدأت المفاوضات الجادة بين الطرفين الجزائري والفرنسي، انتهت بتسليم ديغول بوحدة الجزائر وسيادتها حيث صرحّ يوم 3/ 7/ 1962 قائلاً : " إنّ رئيس الجمهورية الفرنسية يعلن أن فرنسا تعترف رسميًا باستقلال الجزائر "[34] .

موقف جبهة التحرير الوطني :

إنّ المتتبع لأدبيات جبهة التحرير الوطني ونصوصها ومواثيقها منذ اندلاع الثورة إلى إعلان الاستقلال، يلاحظ أن الجبهة ظلت ثابتة على موقفها المصر على

اعتبار الجزائر وحدة لا تتجزأ، لا فرق بين شرقها وغربها، ولا بين شمالها وجنوبها، وبالتالي عدم استعدادها، ليس للتنازل على شبر واحد من الأرض الجزائرية فقط، بل عدم استعدادها لمناقشة أي فكرة، من أي جهة كانت يشتم منها التشكيك في السعي لبتر أي جزء من أجزائها مهما كان ضئيلا، فما بالك بالصحراء التي تشكل 84 % من مساحتها، نلمس ذلك في عدة ميادين وهي :

I. ميدان القرارات الرسمية :

فبيان أول نوفمبر أعلن صراحة، وبكل وضوح، ومنذ البداية أن الهدف من الثورة هو " الاستقلال الوطني "[35] وأيضًا " إن فتح مفاوضات على أساس الاعتراف بالسيادة الجزائرية وحدة لا تتجزأ "[36] أي استقلال الجزائر بحدودها الطبيعية التاريخية التي كانت موجودة إبان صدور البيان والتي تتضمن الصحراء بكاملها، وبذلك قطع الطريق أمام أي مساومة أو مزايدة فيما يخص الوحدة الترابية للجزائر.

هذا الأمر أكدته من جديد الوثيقة الصادرة عن مؤتمر الصومام 20 أوت 1956 التي حددت شروط وقف القتال ومن بينها الاعتراف بالأمة الجزائرية ووحدتها التي لا تتجزأ "[37] وقد لقيت قراراته رضى واستحسان مختلف التيارات السياسية والقوى الشعبية الوطنية، فانضم المترددون والمتشككون للثورة مما يبين إيمان جميع الجزائريين بأن الاستقلال الكامل هو الغاية التي توحد الجميع، وطبعًا كان أبناء الصحراء مساهمين في هذه القناعة وفي صياغة ما جاء في وثيقة الصومام.

و بعد حوالي سنة عقدت لجنة التنسيق والتنفيذ (C C E) اجتماعًا في تونس من 25 إلى 27 أكتوبر 1957 تطرقت فيه إلى الشروط المسبقة للتفاوض مع فرنسا فحددتها بـ : " الاعتراف المسبق باستقلال الجزائر الذي هو حق شرعي وطبيعي وأساسي لمطامح الشعب الجزائري "[38].

المجلس الوطني للثورة الجزائرية (C N R A) لم يهمل الوحدة الترابية للجزائر في كل دوراته، بل أولاها جانبًا هامًا من مختلف قراراته، باعتبارها محورًا أساسيًا من محاور الثورة .

نلاحظ ذلك، مثلاً، خلال الدورة المنعقدة بطرابلس ما بين 16/ 12/ 1959 إلى 18/ 01/ 1960، حيث أدان وبشدة " التجربة النووية التي ستقوم بها الحكومة الفرنسية في الصحراء "[39] هذه الإدانة جاءت لأن المجلس يرى بأن فرنسا تعتدي على أرض ليست أرضها، وشعب ليس شعبها، فالصحراء جزائرية، وضحايا التفجيرات جزائريون لهذا: "وجه نداء إلى كافة الشعوب، إلى جميع الحكومات المناهضة للاستعمار لتقوي دعمها لكفاح الشعب الجزائري"[40] حتى يتمكن من استرداد حقه المغتصب، ويتخلص من ممارسات فرنسا في الصحراء وفي الشمال .

هذا المجلس أكد من جديد ضرورة المحافظة على " الوحدة الترابية للقطر الجزائري، بما في ذلك الصحراء "[41] خلال دورته المنعقدة بطرابلس ما بين 9 إلى 27 أوت 1961 .

ما يستشف من القرارات الرسمية الصادرة عن هيئات الثورة الجزائرية، وبدون استثناء، إنها منسجمة تمامًا، بل متطابقة فيما يخص الإصرار على ضمان الوحدة الشعبية والترابية للجزائر.

2. في الميدان العملي :

لم تكتف الثورة بالتأكيد على جزائرية الصحراء بإصدار القرارات، بل قرنت ذلك بالإجراءات الميدانية العملية، وقد شمل نشاطها الميدان الداخلي والخارجي.

داخليًا :

قامت بما يلي :

- فتح جبهة عسكرية في الصحراء

كثفت القيادة الجزائرية العمليات العسكرية في الجنوب فهاجم المجاهدون أنابيب ناقلات النفط وأحدثوا بها أضرارًا متعددة، كما قاموا بعدة عمليات لحرمان فرنسا من هذه الثروة الهامة منها عملية 11 جانفي 1957 التي مست قافلة بترولية قادمة من حاسي مسعود إلى جانب عملية وقعت بعين صالح سنة 1960 تحت قيادة مصباح وهو من عين صالح، وأخرى بقيادة محمد بوصبع وهو من تمنراست وغيرها [42].

و قد تعددت المعارك في الصحراء وتنوعت بعد قيام القيادة الجزائرية بارسال كتائب من المجاهدين إليها من الولاية الأولى والثانية والثالثة والخامسة والقاعدة الشرقية، تحت إشراف مسؤولين محنكين من أمثال الرائد عبد العزيز بوتفليقة وبمساعدة عبد الله بلهوشات ومحمد شريف مساعدية وأحمد دراية[43] .

- تجنيد الشعب للتعبير عن رفضه المطلق لفصل الصحراء، وقد تجسد هذا الرفض في عدة أوجه منها المظاهرات، خاصة تلك التي حدثت في الجنوب كمظاهرة غرداية في سبتمبر 1960، وتقرت سنة 1961، وورقلة يوم 27/ 02/ 1962 وقد عبر من خلالها سكان الصحراء عن تمسكهم بجزائريتهم، وإصرارهم على الوحدة الوطنية، ورفضهم لأي مساس بهذه الوحدة[44] .

هذا إلى جانب الإضراب العام الذي شل الحياة في كل ربوع الجزائر يوم 5 جويلية 1961 بمناسبة اليوم الوطني ضد التقسيم[45]. وقد امتد صداه إلى البلدان الشقيقة والصديقة[46]، فأعربت عن دعمها للجزائريين ومؤازرتها لهم ضد مناورات المستعمر وحلفائه.

- تعبئة وتجنيد الفعاليات والشخصيات المحلية والدينية التي حاولت السلطات الفرنسية استمالتها بالإغراء تارة، والتهديد تارة أخرى لتأييدها في مسعاها الهادف الى بتر الصحراء وفصلها عن الشمال، من ذلك أنها كلفت أحد أذنابها المسمى "حمزة بو بكر " لبذل المستحيل لإقناع أعيان الصحراء لإعلان ما يسمى " الجمهورية الصحراوية المستقلة " فرفضوا القضية من أساسها، ومن هؤلاء الاعيان الشيخ ابراهيم بن عمر بيوض حيث جاء في مذكراته أنه أجاب حمزة

بوبكر قائلاً : " إننا جزائريون، ومصيرنا هو مصير الجزائر، وكفى، لا نبغي بذلك بديلاً مهما كان الثمن "[47]، وهي نفس الإجابة، تقريبًا، التي تلقاها من معظم الأعيان الصحراويين. ومع ذلك فقد واصل الفرنسيون مساعيهم لمحاولة بتر الصحراء عن الجزائر، فأمر الجنرال ديغول بإحضار الباي أخاموك إلى فرنسا، وحين حضر خصه ديغول باستقبال، ثم كلف ميشال دوبري MICHEL DEBRA بعرض فكرة تعيينه ملكًا على جمهورية الصحراء التي تعتزم فرنسا إقامتها فأجابه قائلاً : " ربما قد لا أطلب استقلال الجزائر، ولكن الذي اطلبه هو عدم الاستقلال عن الجزائر" [48] . هذا التشبث بالانتساب للوطن ، والرفض المطلق لأي مساس بوحدته الترابية والشعبية هو الذي لمسه الفرنسيون لدى كل الجزائريين الأمر الذي أدى بهم، في الأخير، إلى التسليم بجزائرية الصحراء .

لم تكتف جبهة التحرير الوطني بالنشاط الداخلي، بل قامت أيضًا، بنشاط خارجي متعدد الأوجه تمثل خاصة فيما يلي :

– تحسيس الدول الشقيقة والصديقة بقضية الصحراء الجزائرية طالبة الدعم والمساندة، وفي هذا المضمار وجهت الحكومة المؤقتة نداء لشعوب وحكومات هذه البلدان لتعرب عن مساندتها للشعب الجزائري من أجل استقلاله ووحدته الترابية، حيث صرح كريم بلقاسم عند نزوله بمطار تونس خلال زيارته لها في شهر جوان 1961 قائلاً : " وفي هذه اللحظة الخطيرة لا يسعني إلاّ أن أوجه نداء حارا إلى جميع إخواننا، وخاصة شعوب إفريقيا لتعزيز تأييدها للقضية العادلة التي يكافح من اجلها الشعب الجزائري "[49]، فاستجابت هذه الدول للنداء، وأعلنت تأييدها للجزائريين مستنكرة عملية التقسيم، والمساس بالوحدة الترابية والشعبية للجزائر.

– القيام بنشاط مكثف في المحافل والهيئات الدولية والإقليمية، ومنها هيئة الأمم المتحدة التي تصدى فيها أحمد الشقيري خطيب العرب في هذه الهيئة إلى مزاعم فرنسا في الصحراء، مفندا هذه المزاعم بالحجج الدامغة مؤكدًا " أن أسطورة الصحراء الفرنسية لن تكون موجودة إلاّ في صحراء الأسطورة الاستعمارية، وما

أخصبها في خيال الاستعمار الفرنسي العقيم "[50] وهو ما أدّى بهذه الهيئة إلى إصدار لائحة جاء فيها دعوة " الحكومة الفرنسية والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية لاستئناف التفاوض من اجل تطبيق حق الشعب الجزائري في تقرير المصير والاستقلال، وذلك في نطاق احترام وحدة وسلامة الوطن الجزائري"[51].

3. في ميدان الإعلام والصحافة:

دافعت الجبهة عن جزائرية الصحراء عبر مختلف وسائل إعلامها المسموعة والمكتوبة منها صحيفة المجاهد، اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني، التي نشرت عدة مقالات سواء باللغة العربية أو الفرنسية، من ذلك مقال صدر في عدد المجاهد (باللغة العربية) ليوم 5/6/1961 بينت فيه أن الثورة الجزائرية منذ قامت حددت لنفسها أهدافًا ومبادئ، في مقدمتها مبدأ مقدس لا يمكن النيل منه، وهو مبدأ وحدة الشعب الجزائري، ووحدة التراب الوطني الذي لا يقبل أي نوع من أنواع التجزئة والتقسيم .

هذه الوحدة، كما جاء في المقال، حقيقة تاريخية لن تستطيع المناورات الاستعمارية النيل منها، كما أنّ الشعب الجزائري لن يقبل أبدًا أن تتعرض وحدته الوطنية للخطر، انه مصر على المحافظة على كل شبر من ارض الجزائر.

و لتأكيد هذه الوحدة استشهدت بعدة أدلة منها أن سكان الجنوب لا يختلفون عن سكان الشمال في شيء، وقد جمع بينهم الأصل الواحد، واللغة الواحدة، والتاريخ الواحد. إضافة إلى أن الدولة الجزائرية، منذ القرن 16 إلى بداية الاحتلال، تشرف على مجموعة القطر الجزائري بحدوده الوطنية، كما أن المقاطعات الصحراوية لتقرت وورقلة وعين الصفراء وزاوية أولاد سيدي الشيخ كلها تابعة للدولة الجزائرية، وغداة الاحتلال الفرنسي للجزائر هب سكان الجنوب إلى جانب سكان الشمال للتصدي له ومقاومته.

وفي مقال أخر بتاريخ 19/ 6/ 1961 شددت جبهة التحرير الوطني اللهجة، بالنسبة لقضية الصحراء، معبرة عن استحالة احتفاظ فرنسا بها فخاطبت ديغول قائلة :

" انك تستطيع أن تحقق معجزة خارقة، وهي أن تبتلع رمال الصحراء، ولكن هناك معجزة أخرى ستعجز عنها وهي أن تفتك الصحراء للجزائر بأي طريقة من الطرق . تستطيع أن تحمل على ظهرك كل جثث الجزائريين الذين استشهدوا من اجل حرية وطنهم، ولكنك لا تستطيع أن تشتتهم إلى فرق وشيع وطوائف ودويلات".

وهناك العديد من المقالات الأخرى المنشورة في مختلف صحف الثورة كالمقاومة الجزائرية، والمجاهد، وغيرهما، والمذاعة عبر إذاعات الثورة التي تبث في الدول العربية الشقيقة كتونس وليبيا والقاهرة ودمشق وبغداد، وكلها تؤكد استحالة تخلي الجزائريين عن حبة رمل واحدة من تراب الجزائر، ولو استمرت الثورة الجزائرية إلى ما لا نهاية .

وهكذا يتبين أن الصراع الذي وقع بين الجزائريين والفرنسيين حول شرعية ملكية الصحراء، انتهى في الأخير باقرار الجميع أنها أرض جزائرية، وهو ما تضمنته اتفاقيات ايفيان الموقعة بين الطرفين يوم 18/ 03/ 1962 .

الهوامش:

[1] تبلغ مساحة الصحراء 1987600 كلم²، أنظر : عبد القادر حليمي، جغرافيا الجزائر – طبيعية، بشرية، اقتصادية . ط01، المطبعة العربية، الجزائر 1968 ص 56.

[2] مرسوم 22 جويلية 1834 أعلن أن الجزائر من الأملاك الفرنسية في شمال إفريقيا، أنظر Robert Estoublon , Adolphe LEFEBURE code de l'Algérie , Adolphe Jourdan , Librairie ED Alger 1986 , p 6 et 7.

[3] قانون 14 جويلية 1865 أو ما يعرف بقانون " سيناتوس كونسيلت " نصّ على أن الجزائريين رعايا فرنسيين، ولكنهم يخضعون لأحكام الشرع الإسلامي، ولكن إن أراد احدهم الحصول على الجنسية الفرنسية فإنها تمنح له، وفي هذه الحالة يصبح خاضعًا للقوانين الفرنسية

Marcel Egretoud , Réalité de la nation algérienne , 02em Edition , ed sociales , paris 1960 , p78.

[4] قانون 1947/9/20 نصّ على أن الجزائر جزء متمم للجمهورية الفرنسية، أنظر محمد حسنين، الاستعمار الفرنسي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص241.

[5] الزبير سيف الإسلام، تاريخ الصحافة في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971، ص 132 – 133.

[6] المقاومة الجزائرية، ع 08، 11 مارس 1957، ص02.

[7] أحمد الشقيري، قصة الثورة الجزائرية، دار العودة، بيروت، (د . ت) ص 73.

[8] المجاهد، ع 97، 05 جوان 1961، ص 03

[9] نفسه ع 98، 1961/6/19.

[10] كريستوف بينو CHRISTIEN PINO

[11] الأهرام 1959/6/19.

[12] المقاومة الجزائرية، ع 08، 1957/03/11، ص 08.

[13] LE MONDE 14 -15 novembre 1954.

كذلك مولود قاسم نايت بلقاسم، ردود الفعل الأولية، داخلاً وخارجًا على غرة نوفمبر، دار البعث، الجزائر، 1984، ص 107 .

[14] الأهرام 1959/6/19.

[15] وقعت عدة اعتداءات فرنسية على تونس منها الاعتداء على قرية ساقية سيدي يوسف يوم 8 فبراير 1958، حيث قامت 25 طائرة حربية بغارة جوية عنيفة عليها استغرقت ساعة كاملة أبادت عشرات الأبرياء، حيث بلغ عدد القتلى 79 بينهم 11 امرأة و20 طفلاً، إضافة إلى 130 جريحًا .

انظر :

El moudjahid N 18 , p 320

كذلك: PIERRE Rassi ; La Tunisie de Bourguiba éd,kahia 1967 p 75

[16] الجنيدي خليفة وآخرون، حوار حول الثورة، ج I : المركز الوطني للتوثيق والصحافة والإعلام، الجزائر، 1986 ص 486 .

[17] تعرضت الأراضي الليبية لعدة اعتداءات فرنسية من بينها الاعتداء الذي وقع على قرية ايسين يوم 3 أكتوبر 1957 وقد خلف جرح جنديين ليبيين وقتل أحد المدنيين وإلحاق أضرار مادية بالقرية، أنظر جريدة طرابلس الغرب ع 228 ليوم 1957/10/6 .

[18] شنت فرنسا اعتداء سافرًا على مصر بمعية بريطانيا وإسرائيل يوم الجمعة 2 نوفمبر 1956 فيما عرف بالعدوان الثلاثي خلف اعدادًا ضخمة من الضحايا والخراب محاولة منها لارهاب مصر.

أنظر المقاومة الجزائرية ليوم 3/12/ 1956 ع 3.

[19]وزارة الإعلام والثقافة، النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني 1954 – 1962، الجزائر 1979 ص 159.

[20] المجاهد، ع 97، 5 جوان 1961، ص 3.

[21] نفسه ع 98، 1961/6/19.

[22] ظهرت الجمهورية الفرنسية الرابعة سنة 1945 لتخرج فرنسا من أزمتها الناتجة عن الحرب العالمية الثانية لكنها فشلت في ذلك، فقامت بدلها الجمهورية الفرنسية الخامسة اثر حركة 13 ماي 1958 التي قامت بها المعمرون والجيش الفرنسي في الجزائر . انظر، الجنيدي خليفة، مرجع سابق ص 523.

[23] مشروع قسنطينة، عبارة عن مخطط اقتصادي واجتماعي يهدف إلى تحسين الوضع المعيشي للجزائريين، أعلن عنه الجنرال ديغول خلال خطاب ألقاه يوم 3 أكتوبر 1958 بقسنطينة . Charle De Gaulle Mémoire d'espoir T1 le Renouveau 1958 – 1962 Paris 1970 p 48.

[24] Yavier Yacon les étapes De la décolonisation Françaises 2eme édition , P.U.F 1975 P 109

[25] الشعب الأسيوي 6 مارس 1976 ص 8.

[26] نفسه بتاريخ 6 ديسمبر 1976 ص 8.

[27] نفسه

[28] محمد العربي الزبيري، ديغول والصحراء، فصل الصحراء في السياسة الاستعمارية الفرنسية، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، (سلسلة الملتقيات) الجزائر 1998 ص 192.

[29] نفسه

[30] الشعب الأسيوي 6 مارس 1976 ص 8.

[31] جاء في مذكرات ديغول مايلي:

"إن موقفنا تجاه قضية الصحراء إنما هو ذاك الذي يضمن مصالحنا، ويأخذ الواقع بعين الاعتبار، إن مصالحنا تتمثل في الآتي: حرية استغلال البترول والغاز اللذين من اكتشفناهما، وحرية التصرف في المطارات والطرقات" . Charles de Gaulle , op . cit P 130

[32] ibid P 157

[33] ibid. P 79

[34] وزارة الإعلام والثقافة، النصوص الأساسية، مصدر سابق، ص165

[35] أنظر بيان أول نوفمبر، إعداد المتحف الوطني للمجاهد، وزارة المجاهدين، طبع ANEP، الرويبة 2002.

[36] نفسه

[37] النصوص الأساسية، مصدر سابق، ص28.

[38] نفسه ص 131

[39] نفسه ص 146

[40] نفسه ص 146

[41] نفسه ص 147

[42] مجموعة من الباحثين، فصل الصحراء في السياسة الاستعمارية الفرنسية، دراسات وبحوث الملتقى الوطني حول فصل الصحراء عن الجزائر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، (سلسلة الملتقيات) الجزائر 1998 ص 325 .

[43] جريدة اليوم، ع 1748، 31 أكتوبر 2004، ص 8 .

[44] فصل الصحراء، مرجع سابق ص 328

[45] المجاهد ع 100، 1961/7/17

[46] الجندي خليفة وآخرون، حوار حول الثورة، مرجع سابق ص 428

[47] إبراهيم بيوض، أعمالي في الثورة، القرارة، غرداية، نشر جمعية التراث 1990 ص 34.

[48] عبد السلام بوشارب، الهقار أبجاد وأبجاد، نشر المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1995 ص 143

[49] المجاهد ع 99، 1961/7/3 ص 5

[50] الشفيري، مصدر سابق، ص 139

[51] المجاهد، ع 111، 1961/11/25 ص 2.

ثورة مايس العراقية
بين اجتثاث فكرها العروبي وساسة بريطانيا المتصهينين

د. عبد الرحمان أولاد سيدي الشيخ
قسم التاريخ جامعة الجزائر2

تعرضت ثورة مايس* في العراق لعملية تشويهية مدروسة، طالت أهم رجالاتها وعلى رأسهم رشيد عالي الكيلاني، والضباط الأحرار بزعامة صلاح الدين الصباغ، الذين لقبوا بالمربع الذهبي "أي ذهب الألمان"، غدرا وبهتانا من قبل الإنجليز، كما حاولت الدوائر السياسية البريطانية المتصهينة اجتثاث فكرها القومي العربي، وتلفيق إيديولوجيات مختلفة بها كالنازية والشيوعية ... وعملت المستحيل للقضاء على هذا المد العربي التحرري الذي كان من الممكن أن يفجر منطقة الشرق الأوسط برمته ضد الاستعمار الغربي، من أجل تحقيق حلم قادة الحركة الصهيونية في إقامة وطنٍ قومي لهم بفلسطين عام 1948، وهذا ما جعل الثورة بين سندان التلفيق الإيديولوجي المفتعل، ومطرقة الضغط السياسي والعسكري لـ"تشرشل" وزمرته المتصهينة، التي كانت تعي جيدا بأن كل ثورة يمكنها أن تنسج علاقات دولية براغماتية لتحقيق أهدافها.

1- الحرب الإيديولوجية:

فثورة رشيد عالي الكيلاني، التي اعتبرها البعض عربيةً قوميةً خالصةً، ونعتها البعض الآخر بأنها اشتراكية، أو محورية الدعم والأفكار، ... والقائمة الطويلة، سنحاول من خلال هذا البحث المتواضع، الوقوف عند الأفكار أو المنطلقات الإيديولوجية لهذه التجربة "الكيلانية" وذلك من خلال الشواهد والبراهين المستقاة من بحوثٍ ودراساتٍ جادةٍ، و سوف نخوض هذه العملية، وفق منهجيةٍ ترجح عدة طرائق وأساليب، وتعتمد مقدمات للحديث، وتجارب سابقة للموضوع، وتحليل وتمحيص للمادة الخام التي تتوفر لدينا، حتى نصل في الأخير إلى تقديم حوصلة موضوعية أكاديمية.

شهد العراق، حركةً انقلابية تبنت الاشتراكية، وهي:"حركة صدقي بكر"، التي تمخض عنها انتشار الفكر الاشتراكي، ولو بصورة غير ملحوظة، مما جعل البعض يطلق نفس الوصف الإيديولوجي على الحركة الكيلانية فيما بعد، ويبرز هذا بجلاءٍ، فيما قاله أبو خلدون ساطع الحصري: "في هذه الفترة قام الجيش بانقلابٍ للقضاء على فساد المجتمع العراقي وتأخره ووصول الاشتراكيين إلى الحكم، وقامت الدعوة للأخذ بالمبادئ الاشتراكية، كما اشتدت المطالبة بتبني سياسة الحياد في العلاقات الدولية، والاستفادة من تنافس الدول الكبرى لضمان أهداف العراق الوطنية والقومية وكسر احتكار تزويد جيشه من جانبٍ واحدٍ، وانتهت الفترة باصطدام مسلحٍ بين العراق والدول الغربية الكبرى التي كانت لها السيطرة عليها بريطانيا"[1].

كما يستدل البعض بما جاء في مذكرات الكيلاني من عبارات تحمل نفحةً اشتراكية واضحةً، كعبارة رفع مستوى الشعب ورفاهيته ...إلخ، إضافةً إلى أن أحد الكتاب المصريين، أشار إلى أن رشيد عالي الكيلاني، أخبره أنه يؤمن بالاشتراكية، وكان ينوي تجسيدها في بلاده لو كتب لحركته النجاح، ورسم له برنامجه الذي كان سوف يطبقه كإنشاء السدود المائية، وتوزيع الأراضي على الفلاحين في شكل ملكياتٍ صغيرة ، لتكون تعاونيات تشرف عليها الدولة، ومد الفلاحين بالآلات والسماد والآلات الكبيرة والصغيرة والحبوب، كما أنه سيباشر مشروعا كبيرا للتصنيع في العراق، مستعينا بالسدود وطاقتها الكهربائية وموارد البلاد كالفحم والبترول[2]، إضافة إلى ما أورده المؤرخ الإنجليزي لونغرنغ: "بأن رشيد عالي الكيلاني أرغم أصحاب الأراضي على توفير السكن لمزارعيهم، وشجع على تكوين النقابات العمالية لتكون بمثابة اللسان الناطق بهمومهم ومشاكلهم"[3].

أما محمد مظفر الأدهمي، فقد قام هو الآخر بصبغ هذه الحركة بطابع اشتراكي بقوله إنّ: "... الدور البارز والمتميز الذي لعبته حركة الإحياء العربي في سوريا، والتي عرفت فيما بعد باسم حركة البعث العربي، ثم حزب البعث الاشتراكي، لقد نظم قادة الإحياء العربي حملة التطوع للمساهمة في الثورة القومية

والقتال ضد الغزو البريطاني، فكانت تلك الحركة التنظيم الوحيد الذي ساهم فعلا في الدفاع عن الثورة من خارج القطر العراقي ... وعملوا على تشكيل حركة نصرة العراق لدفع المواطنين في سوريا إل التطوع والمشاركة الفعلية في الثورة والقتال ... ولم يكن هذا البيان مجرد نداء عابر كتب من أجل حشد همم العرب وإثارة حماسهم، بل جسد المبادئ التي كانت تؤمن بها (حركة الإحياء العربي) ... إن في هذا الطرح الخاص بهدف نصرة العراق، ما يوحي أن حركة الإحياء العربي، أو البعثيين الأوائل الذين أرادوا من خلاله تجسيد أهدافهم في الوحدة والحرية والاشتراكية، رغم أن هذه الأهداف لم يعلن عنها إلا عند تأسيس "حركة البعث العربي" سنة 1943، فقد حدد هدف حركة نصرة العراق ب،"نصر العراق لأن فيه نصر الوحدة العربية" وهذا يعني أنَّ هدف الحركة أشمل وأعمق من مجرد نصرة ثورة عربيةٍ في قطرٍ عربيٍ معينٍ ... نصرته تعني هدفا مصيريا واحدا، هو (الوحدة العربية) ... وتحريره ... البداية لنشر (الحرية) ... ولها أبعادٌ اجتماعية توضح مفهوم (الاشتراكية) ... ابتدأ البعثيون الأوائل بترجمة تعاليم حركتهم عمليا وذلك بالتطوع والمشاركة في المقاومة العربية في العراق ضد الغزو البريطاني"[4].

إنَّ هذه القرائن والأدلة، غير كافيةٍ لحسم الموقف، فهي إذا ما حللت تجعلنا لا نجزم بالقول أن الثورة الكيلانية ذات زاد عقائدي اشتراكي، لأن كل الإجراءات، التي اتخذها الكيلاني لا تدل على أنه طبق فيه المنهج المذكور، فالمجتمع العربي كادح وميسور الحال، وقد يكون تطبيق مظاهر تقسيم الملكيات الكبرى على الفلاحين ومساعداتهم، لكي يكسب الجماهير، أو ينتقم من الإقطاعيين الذين غالبا ما يكونوا من أصحاب الوصي عبد الإله الذي كان يجاري السياسة البريطانية، وقد يتقول برأي ما إعجابا بتجربته، أو نظرا لمعاشرته لمجتمع يتنفس الأفكار الاشتراكية سواء على المستوى الإعلامي أو الرسمي كما حدث للكيلاني أثناء تواجده بمصر، وكان بإمكانه، وهو رجل قانون أن يعبر صراحةً بأن حركته تبنَّت الاشتراكية أو أنَّ أفرادها تأثروا بالفكر الاشتراكي، وكأن كل شي في الوطن العربي لابد أن يزكم بأفكار خارجية، حتى يعي بأنه في ورطة، لابد أن يغير مساره، فالخصال التي ذكرت موجودة في السجل التاريخي العربي قبل أن تلد

الأفكار التي عرفت بالاشتراكية، ما عدا التقنيات التي جاءت بها الاشتراكية كالنقابة وغيرها[5].

وفي السياق ذاته، وجدنا أن السبعاوي، وزير الاقتصاد في الحكومة الكيلانية، حاول إبعاد الشوائب والالتباس، فسطر كتابا بعنوان "الاشتراكية العربية"، إضافة إلى أنه ألقى محاضرة عن الوعي القومي بنادي المثنى سنة 1935، لأن السبعاوي قومي وليس ماركسي، وقد وضع ذلك تمييزا صارخا بين العقيدتين في مفهوم الإطار العراقي فقد قال: "أن هدف القومية هو خدمة الجماعة، وليست القومية، كما يزعم أتباع الأفكار الماركسية في العراق، نزوة حمقاء من نزوات القوميين، وموقفٌ متغطرسٌ خال من الإنسانية، وعقيدة غير ذات أساس علمي ... ولا علاقة للقومية بالفاشية السائدة بأوروبا، إن رسالة القومية في المشرق هي التحرير، إنها تعبير عن عاطفة جميلة ترفض الذل وترفض استغلال البشر، وهي في الغرب مشوبة بميل نحو الاستعمار ونحو التحكم في الآخرين، إنها في المشرق دفاعية، وهي في الغرب أمست عدوانية ... إنَّ القوميين العرب ليسوا معادين للقوميات الأخرى التي يضمها الكيان العراقي، كما يتهمهم خصومهم دون إنصاف ففي الماضي شاركهم في الوطن نفسه إخوانهم الأكراد والأتراك بمودة وانسجام، وهم اليوم يشاركونهم كذلك في لعنات التأخر والنفوذ الأجنبي... والماركسيون يفسرون خطأ جميع الأحداث التاريخية، بما في ذلك الظاهرة القومية، بمسببات اقتصادية محضة إنهم يتجاهلون العوامل الوطنية، لكن أوضاعا اقتصادية متشابهة في أمم مختلفة قد أنتجت في التاريخ نتائج مختلفة ... أما القوميون، من الجهة الأخرى فيصنفون الجماعات الإنسانية وفق القومية، فالعقيدة المثلى من الناحية النظرية هي تلك التي تهدف إلى خدمة اكبر عدد ممكن من البشر، لكن القوميين لا يستطيعون أن يرموا خدمة الجنس البشري بأسره بأي طريقة عملية ومعقولة، فهم لذلك يريدون أن يخدموا وحدة أضيق:الجماعة القومية ولكن كيف السبيل لتحقيق ذلك؟ إن الجماعة القومية تواجه مجتمعات أقوى وأكثر تقدما ومن الممكن خدمتها على خير وجه بإحداث نهضة عامة تنظمها كذلك وتزيد رخاءها المادي بحيث تصبح بقوة المجتمعات الأخرى وبتقدمها"[6].

من خلال هذه الأفكار التي كان يعتنقها السبعاوي [7] ونادي المثنى وكذا رواد الحركة الكيلانية، يتضح لنا بجلاء أن هذه الحركة، كانت قوميةً عربيةً في منطلقاتها وأهدافها، وهذا عكس ما روجه الشيوعيون العراقيون الذين وصفوا الحركة ورجالاتها بالفاشستيين الرجعيين، أو يونس السبعاوي وعصابته العسكرية، رغم أنهم ساندوا القوميين في الحرب العراقية الإنجليزية عام 1941، ثمّ انقلبوا عليهم بعد الغزو الألماني لروسيا، واليوم يعتبرون هذه الحرب حرب تحرر وطني، عاكسين وبأمانة، على ما نفترض، الانقلاب التام في وجهة النظر السوفياتية[8].

إضافة إلى كل هذا، فإنه بعد الانقلاب "الاشتراكي"-إن صح التعبير- ، الذي قام به بكر صدقي وجماعته، سلك هؤلاء مسلكا عدائيا تجاه القومية والمنتسبين إليها[9]، كما دلت الكتابات التاريخية بأن الاشتراكية أصبحت ميزة تلك الفترة، فمجموعة من الشباب العراقي الاشتراكي كانوا يعتقدون بأن الذي لا يتبنى إيديولوجيةً اشتراكيةً، رجعياً أو متأخراً، كما أن هذه الظاهرة طغت على مقالات الصحف، التي ألصقت بالقومية كلمة الاشتراكية، فجاء في مقال نشرته مجلة المثنى: "إن الاشتراكية القومية التي ترمي إلى رفع الفروق والحواجز الاجتماعية بين أفراد الأمة الواحدة والوطن الواحد، وتستهدف القضاء على أرستقراطية الطبقات وتحارب الاستغلال بشتى أنواعه وتدعو إلى العدل والمساواة في الحقوق والواجبات لتتفق والمبادئ القومية"[10].

لكن عبارة الاشتراكية لم تكن مستساغة من قبل الشعب منذ منتصف الثلاثينيات تقريبا، وجماعة الأهالي مثلا، ذات الاتجاه الاشتراكي المعتدل، تعرضت لعديد من الاتهامات، منها الشيوعية التي ترادف الإلحاد لدى العشائر والقبائل والقوى المحافظة[11].

ومن هنا نستشف بأن مفهوم الاشتراكية وكذا اعتناق مبادئها، في ذلك الوقت، قد يفهم بنوع من الحيف، وقد يشوه الحقيقة التي تطمح الحركة إلى تجسيدها في الميدان في آخر المطاف، لأن الوعي الجماهيري يختلف عن وعي النخب السياسة، وهذا ما نلاحظه فيما بعد بحيث أن المحيط فرض على الحكومة ثقله، وذلك ما نقف عنده في الرسالة التي أبرقتها الحكومة في 2 ماي 1942 إلى

الإتحاد السوفياتي، تبلغه فيها بأن العراق قرر تأسيس العلاقات معه، شريطة أن يعترف باستقلال الدول العربية وأن لا يسمح بتسرب الشيوعية ومبادئها إلى العراق[12].

أما السياسة الخارجية السوفياتية في الشرق الأوسط فكانت متغيرة وغير ثابتة، مما جعل الإتحاد السوفياتي لا يحاول نشر إيديولوجيته بقدر ما يدافع عن نفسه فقام ينسج علاقات مع العراق، لكنه بمجرد أن هاجمه هتلر اتهم الكيلاني بأنه "مجور فاشستي" و"خائن" وأصبح العراق غير مدرج ضمن الاهتمام السوفياتي، وبعد الحرب العالمية الثانية أصبح الفتي زعيما قوميا[13] والحركة الكيلانية ثورة تحررية[14].

ولابد أن نشير في هذا الصدد بأن الكيلاني قد نسج علاقاته مع الإتحاد السوفياتي لأنه اعتبر هذا التقارب ورقة رابحة بيد العرب حسب ما أشار عليه مبعوثه إلى برلين حداد لكي تستجيب ألمانيا للمطالب العربية خوفا من تحالف عربي سوفياتي يبعدها عن المنطقة كلية وقد وافق الجميع على ذلك من أجل تسهيل مرور شحنات الأسلحة التي يشتريها العراق من ألمانيا عبر إيران دون اعتراض من الإتحاد السوفياتي [15].

والجدير بالذكر أنه عندما روجت مسألة المساعدات المادية (الأموال) الإيطالية الألمانية لحكومة الكيلاني، اتهم الإنجليز وعلى رأسهم سفيرهم في العراق السير كورنواليس، الكيلاني والعقداء الأربعة في المنشور الذي وجهه إلى أهالي بغداد في: 1مارس 1914، "بالمرتشين المحورين وبأن حكومة الكيلاني مرتشية وغير نزيهة وهمها الأول والأخير، المال وحده" [16].

إن تلفيق بعض الاتهامات بالحركة الكيلانية، وذلك من خلال الاستقراءات الفوقية أو السطحية، يعد بمثابة حكم مسبق، لأنه اعتمد على بعض التصرفات التي قام بها الكيلاني وحكومته أو بعض رفقائه، دون التمعن في أبعادها أو منطقها البراغماتي خاصة وأن العالم كان يعيش حربا عالمية تستوجب على الكل النظرة المصلحية، بعيدا عن الأدلجة أو التعاون المبني على النفوذية أو الإتباعية، فمثلا الكيلاني نسج علاقاته مع المحور والسوفيات كي يخدم مصلحة بلاده لا أكثر ولا

أقل، ولعل المطالب التي وجهها لكلا الطرفين تصب في هذا الاتجاه، ولهذا نصل إلى أبعاد مسألة تبني حركة الكيلاني للأفكار النازية، السوفياتية، فنجد إنجلترا تحرص دوما على تقييد حرية "نادي المثنى"، ذي التوجه القومي، وتطلق الحرية لليساريين أثناء الحرب[17] الأمر الذي يؤدي بنا إلى استنتاج بأن بريطانيا تعي جيدا بأن رجال الحركة الكيلانية شيء، واليساريين شيء آخر، وبالتالي تخوفها من القوميين ليس إلا، ومن هنا فإن البعد الاشتراكي غير وارد في منطق الحركة الكيلانية، إن الكيلاني كان يناور على كافة الأصعدة لمصلحة العراق والعرب، وهنا يكمن السر في السيل الكبير من الاتهامات الجزافية.

أما علاقاته مع المحور فكانت خاضعة لمعطيات عديدة، وتحكمت فيها عدة اعتبارات منها التعامل مع العدو الأول للاستعمار البريطاني، واستعمال هذه الورقة كوسيلة ضغط عليه، إضافة إلى إبراز المطالب العربية لدى دول المحور، والاستفادة منها خاصة وأن إمكانيات العراق العسكرية يومئذ لا يمكن مقارنتها بقدرات بريطانيا العظمى، وأن طلب المساعدة من قوى المحور لا يقلل من وطنية الانتفاضة إطلاقا [18]، خاصة وأن المباحثات التي عقدها مندوبو الثورة مع المحور أكدت بأن العراق والعرب لا يطمحون إلى استبدال نفوذ أجنبي بآخر وإنما استقلال الأقطار العربية ووحدتها وإبعاد الخطر الصهيوني عن فلسطين[19].

ودائما وبخصوص أدلجة الثورة، أو إعطائها غطاء فكري خارجي، حتى يصبح المنبه الخارجي هو أساس العملية التحريرية ومسيرة التغيير، وحتى يكرس منطق المعين العربي الخالي من أي محرك للعقل العربي، والصيرورة التاريخية العربية وديناميكيتها ندرج قول الدكتور سعدون حمادي الذي ضمنه في كتابه "نحن والشيوعية"، الذي يبعد فيه المؤثر الشيوعي في التاريخ السياسي الحديث للبلاد العربية قائلا: "إن التاريخ السياسي الحديث للبلاد العربية، يدل بشكل واضح على أن الحركة الشيوعية [20] لم تكن قوة مؤثرة وفعالة في الأحداث والتغييرات التي حدثت ... جاء الكفاح المسلح ضد الاستعمار الغربي في سورية ولبنان والعراق من أحل السيادة الذي تمثل في ثورة 1920 و1941، وما تبعها من انتفاضات في العراق ... كانت حصة الشيوعية ... تصل إلى حد الرمزية أو المعدومة بالمرة، بل

عكس ذلك وقفت الحركة الشيوعية في بعض الفترات ضد النضال الوطني وبصف الاستعمار كما حدث بالعراق أثناء الحرب الأخيرة"[21].

بناءً على ما تقدم يمكن القول أن العراقيين تشبتوا بقوميتهم العربية بكل أبعادها، إضافة إلى تخوفهم من المذاهب التي رأوا فيها نوعا من الإلحاد كما أن الحكومة العراقية سلكت المنطق البراغماتي في علاقاتها مع الإنجليز والسوفيات أو المحوريين، وهذا ما يجعلنا نقول أيضا أن الثورة الكيلانية كانت: "عراقية المنبت، قومية الاتجاه، عربية الطابع"، وأنه ليس ثمة شك أن هذه الانتفاضة التي قامت في نيسان مايس 1941، كانت وطنية الأهداف وذات أبعاد قومية [22]، ولعل قول أحد قادة الثورة العسكريين يبرهن على المشارب الفكرية للثورة،حيث يقول : "أنا لا أؤمن بديمقراطية الإنجليز، ولا بنازية، الألمان، ولا ببلشفية الروس أنا عربي مسلم، لا أرضى دون ذلك بديلاً من مزاعم وفلسفات"[23]، هذا القول يقف كدلالة تاريخية تخرج الثورة من مظاهر الانتساب الإيديولوجي التي تفشت في تلك لفترة ما بين الدول الكبرى، وبالتالي محاولاتها الدؤوبة لزرعها في مناطق نفوذها، أو لتجعل منها مطية مستقبلية لما يصعد معتنقي أفكارها إلى دفة الحكم، وكذا المؤرخون أنفسهم الذين يحاولون قدر المستطاع إخضاع الموضوع المدروس لأفكارهم وإيديولوجياتهم.

على العموم فإن التاريخ السياسي قد خضع لمجموعة من التقلبات والانقلابات، الشيء الذي كرس عدم بناء تقاليد واضحة المعالم في المجال السياسي لمدة طويلة، وهذا ما انعكس على الأحزاب والحركات الثورية في عدم تمتعها بمشروع أو برنامج واضح يبين اتجاهاتها الإيديولوجية ومناهجها المرتقب أن تطبقها على كافة الأصعدة، الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، مما كرس طابع الغموض على الحقبة المدروسة التي شهدت الانقلابات والصراعات بين العديد من الأطراف، والتي كانت تختلف من حيث أهدافها، فمنها من يهدف إلى محاربة الاستعمار الإنجليزي، وأخرى موالية للإنجليز، وأخرى تراهن على العشائر والقبائل، إضافة إلى دور وضغط وتحريك الإنجليز للعديد من هذه الأطراف.

إن كل الأحداث والبراهين التي قدمت من قبل تشير بأن الحركة الكيلانية، والتي انطلقت سياسية، وانتهت بتجربة انتفاضة عسكرية، لها أبعاد قومية عربية إسلامية محضة بعيدة عن كل الإيديولوجيات المنتشرة آنذاك، وتطمح إلى تحرير العراق من الاستعمار الإنجليزي، مع تجربة بسيطة قام بها الكيلاني لما شغل منصب رئيس الوزراء لمرات عديدة، انطلقت من واقع المجتمع العراقي وهمومه، وهذا ما أدى بأحد الاختصاصيين في السياسة والتغيرات الاجتماعية، الأستاذ مانفرد هالبرن، الى وصف الحركات والتي حدثت في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا آنذاك، يقول: "بأن الحركات والثورات التي قامت بالشرق الأوسط قبل 1952 لم تكن مشربة بروح التغيير الاجتماعي، وأن حركة الجيش المصري سنة 1952 تعد البداية لنهاية الأنظمة العسكرية التقليدية في العالم العربي" [24].

2- الثورة والتيار البريطاني المتصهين:

المهم في كل هذا أن الثورة زرعت فكرا جديدا، وضخت دما ثوريا في المنطقة، تبلور في الروح التحررية التي طبعت الفكر العربي في هذه الفترة، والمنطق الثوري المبني على الكفاح المسلح ضد القوى الاستعمارية العاتية للظفر بالاستقلال، وأن المسيرة الكفاحية لا يمكن أن تجهض، بمجرد فشل محاولة ما، فالاستمرارية الثورية هي الاستمرارية التي تحقق الحرية في آخر المطاف، والعمل على إجهاض المؤامرة البريطانية على العراق الذي أصبح مركز الثقل بالنسبة للحركة القومية العربية، وهذا رغم تقييده بالمعاهدة التي وقعت سنة 1930، وكذا تحطيم الأغلال الاستعمارية، خاصة وأن القضاء على الثورة الكيلانية يعد عاملا هاما في بناء صرح الكيان الصهيوني في مرحلة الأربعينيات، وأن الدوائر البريطانية المتصهينة قد عملت المستحيل لتحقيق حلم اليهود بإيجاد وطن قومي لهم يجمع شتاتهم، فهذا هارولد ولسون (Harlod Wilson) [25] في كتابه عربة إسرائيل (The Chariot of Israel Britain, America and State of Israel) الذي أخذ عنوانه من التوراة، من إصحاح الملوك رقم 2، إشارة إلى مسيرة بني إسرائيل شعب الله المختار، يسرد علينا عدة أمور منها: أن اليهود كانوا يحلمون ولكن الساسة البريطانيين هم الذين حولوا الحلم إلى حقيقة، وأول هؤلاء وأهمهم آرثر جيمس بلفور وزير الخارجية،

الذي وعد اليهود في 2 نوفمبر عام 1917 بإقامة وطن لهم في فلسطين، وترجع اهتمامات بلفور باليهود وتاريخهم إلى الطفولة أيضا، لأن الكاتب هارولد يقول في مقدمة كتابه عن نفسه: "إن إعجابي بالإسرائيليين يرجع إلى أيام الدراسة ... عندما كنت طفلا صغيرا فبلفور كانت نشأته الاسكتلندية إضافة إلى أمه المتمسكة بالتوراة، وإعجابه الكبير بالفلسفة اليهودية جزءا هاما في حياته الشيء الذي جعله يقول ذات يوم: "أن الدين المسيحي والحضارة العالمية يدينان بالكثير لليهودية ومن العار أن هذه الديون لم تسدد بعد" ولهذا عرض بلفور على حاييم وايزمان أوغندة قبل إصداره "الوعد"، لكن وايزمان المعروف بشدة دهائه قال بسرعة: (ماذا لو عرضت عليكم باريس بدل لندن ؟) فرد بلفور: لكن لدينا لندن، فقال وايزمان: هذا صحيح ... لكن القدس كانت معنا دائما عندما كانت لندن مستنقعا".

إضافة إلى بلفور فهناك ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني لذي ساهم بفعالية في تحقيق الحلم اليهودي، ودفع الموضوع إلى البرلمان البريطاني ليصبح "قضية قومية بريطانية" وفي عام 1921 عندما كان وزيرا للمستعمرات زار فلسطين وزرع شجرة وقال في كلمة أمام مؤتمر صهيوني: "شخصيا ... قلبي يمتلئ بالعطف على الصهيونية، وهذا العطف موجود منذ زمن طويل، منذ 12 سنة عندما كنت على اتصال بيهود مانشستر، وأعتقد أن إنشاء وطن قومي لليهود سيكون بركة العالم، بركة لبريطانيا العظمى، وأعتقد بقوة أنه سيكون بركة لجميع سكان هذه البلاد (!) بدون تمييز بعرق أو دين، (أي بركة للفلسطينيين والعرب والمسلمين !) وهذه البركة الأخيرة تعتمد عليكم ووعدنا لكم مزدوج، لقد وعدنا بمساعدة الصهيونية ووعدنا السكان اليهود ألا يعانوا بعد اليوم، وكل خطوة ستتخذونها يجب أن تكون ذات فائدة أخلاقية ومادية لجميع الفلسطينيين (!) وإذا فعلتم ذلك فإن فلسطين ستصبح سعيدة مزدهرة وستتحول إلى جنة، وستقول الكتب كما ورد في التوراة أنها أرض الحليب والعسل!".

إن اعتناق تشرشل للفكر الصهيوني زاد من وتيرة عملية اغتصاب أرض فلسطين، وتنفيذ حلقات التآمر لزرع حاجز بشري يفصل جغرافيا بين أجزاء الوطن العربي (مشرقا ومغربا) وفق تقرير كامبل بانرمان لسنة 1907، وشاركه في

ذلك الرئيس الأمريكي هاري ترومان في تحقيق أحلام اليهود في العالم، ولهذا قال حاييم وإيزمان ذات يوم: "رجال مثل بلفور وتشرشل كانوا متدينين بعمق ويؤمنون بالتوراة وبفضلهم أمكن تحقيق حلم عودة اليهود إلى فلسطين"[26].

ولهذا نجد ونستون تشرشل مصمما على تشكيل فيلقٍ يهوديٍ يكون ملحقا بالجيش البريطاني وذلك رغم معارضة الجنرال ويفل قائد القوات البريطانية في الشرق الأوسط، هذا الفيلق رفقة منظمات صهيونية أخرى (أرغون) ساندوا الإنجليز في الحرب، ووضعوا رجالاتهم تحت تصرفهم فكلفوا بمهام خاصة، ففي ماي 1941 وبعد إعلان الثورة في العراق، وصل راتسل رئيس منظمة أرغون الصهيونية مع بعض الأعضاء إلى بغداد للقيام بأعمال التخريب، وهم متنكرين بثياب الأعراب، لنسف مستودعات البترول، واختطاف مفتي القدس، والمعروف أن بريطانيا أرجت في خططها تأليف مثل هذه الفيالق المحلية لضرب أية انتفاضة في مهدها، وهذا ما فعلته ضد انتفاضة 1941 العراقية، باستعمالها للفيلق الأردني بقيادة كلوب باشا، بحيث استطاعت بواسطته رفقة قواتها احتلال الرطبة في 15 ماي 1941، مع العلم أن بعض القوات الأردنية رفضت حمل السلاح ضد العراقيين [27].

ومن هذا نستشف أن القضاء على ثورة العراق يدخل في إستراتيجية بريطانيا القاضية بجعل حقبة الأربعينيات ميلادا لدولة إسرائيل ومن هنا كسرت كل من يقف ضد هذا المشروع ولعل الكيلاني ورفقائه كانوا ضحية هذا المخطط البريطاني، ولأن العراق كان يرى الحرب العالمية الثانية بمثابة فرصة لابد أن لا تمر دون أن تستفيد منها الأقطار العربية [28].

كما أن العراق أصبح قبلة القوميين الثوريين آنذاك: بحيث أصبح يرمي إلى تدعيم الوعي القومي الجماعي الذي يخدم الفائدة الجماعية للوطن العربي ككل، وذلك بإقران مصلحة العراق مع المصلحة الغربية، ولهذا لقب العراق "ببيد مونت العرب" لتحقيق الوحدة العربية [29]، ولهذا فاتصالات الكيلاني وجماعته مع بريطانيا أو المحور كانت تراعي المصلحة العربية القومية، فقد نادى العراق: باستقلال الأقطار العربية، وإلغاء أنظمة الانتداب والحماية سواء كانت فرنسية أو بريطانية،

ووضع حدا للامتيازات والتحفظات التي تقيد استقلال مصر والسودان، وعدم التدخل لعرقلة الوحدة السياسية التي تتطلع إليها الشعوب العربية، إضافة إلى التوقف عن تنفيذ سياسة خلق الوطن القومي لليهود في فلسطين [30]، ولكن بريطانيا رفضت الطلب الذي تقدم به الكيلاني والمتمثل في إعطائه وعد يتضمن استقلال فلسطين وسوريا، وعملت مقابل ذلك على إسقاطه ومحاصرته[31]، وذلك ما تجسد في قول تشرشل: "قد تكون ثورة الكيلاني مثلا سيئا يحتذي به الوطنيون في دول أخرى"، وقد اعترفت العديد من لدوائر الدبلوماسية وخاصة الأمريكية تعد أصعب وأعصب فترة تمر بها بريطانيا في الشرق الأوسط، ومن هنا باتت بريطانيا تخشى انتشار عدوى هذا التيار القومي لأنها كانت تعرف جيدا مدى خطورته، وسارعت لخنقه في مهده [32].

إن دحر بريطانيا لثورة نيسان مايس 1941 بالحديد والنار مستعملة أذنابها من عراقيين وعرب ويهود، ومستخدمة ضغط حلفائها على الكيلاني وحكومته وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية، يجعلنا نقف عند حقيقة بواعث هذا الإصرار على قمع حركة 1941 الثورية وهي محاولة بريطانيا في كسر شوكة هذه الروح في البلاد العربية الأخرى، إضافة إلى تحطيم عرى الإتحاد العربي لأن الكيلاني كان متعلقا بربط مصلحة العراق بالبلاد العربية وتبنيه لقضاياها، زيادة على أن الحركة الثورية بالعراق أصبحت عنوانا لملامح التحدي ضد الاستعمار وعلق عليها العرب آمالا كبرى، فهذا محمد أنور السادات في كتابه "صفحات مجهولة"، أحد قادة الثورة 1952، بمصر يقول: "كانت ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق هي المتنفس الحقيقي الوحيد لنا هنا مصر ... كنا في شبابنا وحماستنا نريد أن نصنع ما صنعه رشيد عالي الكيلاني ... وننقض على الإنجليز ونعلنها عليهم في أزمتهم ثورة مسلحة ... وكانت هذه البداية من رشيد عالي هي المفتاح الذي رأيناه يفتح لنا الطريق" [33].

أدركت بريطانيا من خلال إيديولوجية وأهداف الحركة الثورية الكيلانية بأن ثمة خطرا عليها وعلى مستعمراتها العربية في الشرق الأوسط، لذا حرضت أذنابها بالعراق بالانقضاض على هذه الانتفاضة لأنها تهدد مصالحهم، وبالتالي

فهي عدو مشترك وبالرغم من الاختلاف بين الجنرال ويفل وتشرشل، وكذا المعارك الضارية في ساحات القتال بينها وبين المحور، وبالتالي خطورة التفرغ للقضاء على حركة الكيلاني الذي قد يعرض بريطانيا لضربة محورية قاضية، وفي خضم هذا المخاض العسير وارتفاع حرارة الجدال حول الكيفية التي تعالج بها هذه المسألة التي جاءت في صميم الحرب العالمية الثانية، فإن رأي تشرشل هو الذي رجح الكفة، وهذا بالرغم من تحذيرات الجنرال ويفل، وكرس التدخل العسكري للقضاء على ثورة العراق.

وهذا كله يثبت مدى خطورة اتساع رقعة الثورة العراقية خارج العراق، الذي أصبح هاجس تشرشل الوحيد، لأنه يعي بأن حدوث الأمر هذا يعني الثورة العربية الكبرى، وبالتالي توقيع وثيقة وفاة النفوذ البريطاني بالمنطقة، ولهذا فالأولوية هي القضاء على هذه الانتفاضة كي تقبر كل مناهلها الفكرية والسياسية والعسكرية قبل انتشارها، إذن فأسلوب المغامرة الذي خاضه ونستون تشرشل في هذا الوقت العصيب، يجعلنا نقول بأن بريطانيا كانت تدرك جيدا مدى أهمية هذه الثورة على الصعيدين العراقي والعربي، وكذا على المستوى الدولي في قلب الأوضاع عليها ،لأنها في حرب إضافة إلى خطورة انتشار زادها العقائدي وأهدافها على مصالحها في منطقة الشرق الأوسط، ولهذا فالثورة الكيلانية جاءت في وقت هام أيقظ الحس القومي العربي وزرع فيه بذور العودة إلى العمل المسلح، وحقنه بروح التحدي ونبذ الذل والإستكانة، وهو الشيء الذي زعزع أركان الساسة البريطانيين، ونشط دوائر بريطانيا المختصة لرسم خطط عديدة تمحق بها الكيلاني والفكر القومي الثوري، ولهذا كان عام 1941 عصيبا بالنسبة لبريطانيا حسب الدوائر الأمريكية المختصة[34].

إنَّ ثورة رشيد عالي الكيلاني تصنف ضمن عناوين الكفاح المسلح التحرري المعاصر ضد التواجد الاستعماري ومناوراته الرامية إلى إحكام القبضة على المنطقة كلها، وقيام الثورة سنة 1941، لم يكن مجرد صدفة بل نتاج زخم من الأحداث المتواصلة منذ نهاية العشرينيات وفترة الثلاثينيات وهو وليد ظروف متميزة على الصعيدين الإقليمية والدولي، فهددت هذه الثورة بجدية الاستعمار البريطاني مما

جعلها نموذجا متفردا لحركة التحرر العربية المعاصرة التي أخذت نصيبها من التسوية والتلفيق في الدراسات التاريخية العربية والأجنبية، وهوجمت وقتئذ بكل الوسائل الإعلامية والنفسية والعسكرية من قبل بريطانيا والصهاينة والولايات المتحدة ... لاجتثاث فكرتها القويمة العربية التحررية الطامحة إلى تحقيق استقلال الوطن العربي وعلى رأسه فلسطين.

الهوامش :

*– مايس : يقصد به شهر ماي في العراق.

1/ طه الهاشمي، مذكرات طه الهاشمي 1919-1943، تحقيق وتقديم أبوخلدون ساطع الحصري، دار الطليعة، بيروت، 1967، ط1، ص21.

2/ إسماعيل ياغي،حركة رشيد عالي الكيلاني، دراسة في تطور الحركة الوطنية العراقية، دار الطليعة، بيروت، 1973، ص124.

3/ Stephen Hemsley, Longrigg, Iraq 1900-1950, APOLOTICOL Social and Economic History, London, 1953, P283.

4/ نقلاً عن: حفري ورنر، العراق وسوريا 1941 (دراسة أسترالية)، ترجمة وتقديم محمد مظفر الأدهمي، مطابع دار الحرية للطباعة (مركز البحوث والمعلومات)، بغداد، 1986، ص ص49-51 و53.

5/ وجهة نظرنا الخاصة بعد تحليلنا للمادة التاريخية المتعلقة بتلك القضية.

6/ نقلاً عن:بحيري مروان، الحياة الفكرية في المشرق العربي 1890-1939، ترجمة عطا عبد الوهاب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1993، ص ص192-193.

7/ للإطلاع أكثر على دور يونس السبعاوي ومحمد شنشل أنظر: علاء جاسم محمد، الحربي، إنتفاضة 2 مايس 1941، جريدة الجمهورية، بغداد، العدد: 8182، 1992/05/02، 10.

8/ فاضل البراك، دور لجيش العراقي في حكومة الدفاع الوطني والحرب مع بريطانيا، سنة 1941، الدار العربية، بغداد، 1979، ص ص236-240.

9/ الهاشمي: المرجع السابق، ص23.

10/ المرجع نفسه، ص24.

11/ ياغي، المرجع السابق، ص124.

12/ خالد عبد المنعم العاني، موسوعة العراق الحديث، تقديم خير الله الطلفاح، الدار العربية للموسوعات، بغداد 1977، ط1، ج1، ص339.

13/ ياغي، المرجع السابق، ص ص271 و273.

14/ للإطلاع عل وجهة نظر الشيوعيين العراقيين وموقف الإتحاد السوفياتي تجاه الثورة الكيلانية، أنظر البراك، المرجع السابق، ص ص236-240.

15/ جفري، المرجع السابق، ص ص169-170.

16/ عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الإقتصادي العربي، دار الطليعة، بيروت، 1969، ص54.

17/ صلاح العقاد، المشرف العربي المعاصر، المكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، 1970، ص249.

18/ الدوري، المرجع السابق، ص54.

19/ للإطلاع على إتصالات المحور مع الكيلاني، أنظر محمد مطفر الأدهمي، الأبعاد القومية لثورة مايس 1941 في العراق، الموسوعة الصغيرة رقم 65، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1980، ص ص21-50، أنظر أيضا جفرى، المرجع السابق، ص ص119-142 (التفاصيل الكاملة)، وكذا زويز، لوكازهير، ألمانيا الهتليرية والمشرق العربي، ترجمة عبد الرحيم مصطفى، القاهرة، 1971، وأيضا فريتز غروبا، رجال ومراكز قوى في الشرق، ترجمة فاروق الحريري، مطبعة عصام، بغداد 1979.

20/ يرجع تمتع الشيوعيين العراقيين بالحرية أفضل من أعضاء نادي المثني القومي العربي، إلى التحالف السوفياتي-البريطاني، والذي أدى بأحد الشيوعيين هو: جورج منصور إلى طلب حماية أعضاء الحزب الشيوعي العراقي سنة 1941، من السفير البريطاني كورنواليس، وللمزيد أنظر العقاد، المرجع السابق، ص249.

21/ نقلا عن: جبر دندل، الشيوعية منشأ ومسلكا، دار الشهاب، الجزائر، 1990، ص150.

22/ محمد كمال، الدسوقي، "ثورة رشيد عالي الكيلاني والقومية العربية"، السياسة الدولية، القاهرة، ع1970/07/21، ص ص32-33.

23/ صلاح الدين الصباغ، فرسان العروبة في العراق، دمشق، 1956، ص18.

24/ ياغي، المرجع السابق، ص ص124-125.

25/ صاحب كتاب عربه إسرائيل () شغل منصب رئيس وزراء بريطانيا بين 1964-1970 وكذا ما بين 1974-1976، وكان شغوف بحب إسرائيل والصهيونية، وقد ظهر ذلك بشكل خاص عام 1948 عند إعلان قيام الكيان الصهيوني وكذلك أثناء حرب جوان 1967، وهو على شاكلة تشرشل وبلفور ولويد جورج، وهاري ترومان، في إخلاصه الكامل لتحقيق حلم قادة الصهيونية في فلسطين، أنظر ورج لتشوسكي، الشرق الأوسط والشؤون العالمية، تعريب جعفر خياط، دار الكشاف، بغداد 1959، ص ص117، وما تلاها، ص121 و123، 124، 130.

26/ مازن حمادة، أرض الحليب والعسل ... من هددها وكيف ؟ عرض لكتاب (عربة إسرائيل) لصاحبه هارولد ولسون، مجلة العربي، الكويت، ع278، جانفي1982، ص ص105-108.

27/ زهير ماردينى، فلسطين والحاج أمين الحسيني، دار إقرأ، بيروت، 1986، ص55 و127 و149.

28/ الهاشمي، المرجع السابق، ص36.

29/ محمد أنيس ورجب حراز، الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة، 1967، ص ص437-499.

30/ العقاد، المرجع السابق، ص277.

31/ عبد الرزاق الحسيني، الأسرار الخفية في حوادث السنة 1941 التحرري، صيدا، 1971، ص ص62-64.

32/ للمزيد من التفاصيل حول قمع بريطانيا للثورة، أنظر إبراهيم الحلو، القومية العربية في معركة فلسطين والعراق، منشورات النوري للطباعة والنشر، (ب،ت)، ص ص113-114.

33/ محمد أنور السادات، أسرار الثورة المصرية بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية، تقديم جمال عبد الناصر، سلسلة كتب قومية 311، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1956، ص ص86-87.

34/ Cordell Hull, The Memoty of Cordell Hull, London, 1948, Vol2, PP335-329.

دور الحضارة العربية الإسلامية في تطوير الحركة العلمية في غرب إفريقيا

أة. سعاد مصطفاوي
قسم التاريخ جامعة الجزائر 2

مقدمة:

إن المتتبع لتاريخ السودان الغربي أو كما يحلو للبعض تسميته بغرب إفريقيا في نهاية القرون الوسطى وبداية العصر الحديث ن يلاحظ أن الدين الإسلامي قد استطاع في فترة وجيزة أن يستحوذ على قلوب الأفارقة الذين تركوا الوثنية واعتنقوا الإسلام.

وكان من نتائج انتشار الحضارة العربية الإسلامية ،انبثاق ممالك إسلامية لا سيما مملكتي مالي وسنغاي، وبروز دولة الفولاني بزعامة عثمان بن فودي[1]، في شمال نيجيريا ودولة ساموري توري في شمال ساحل العاج.

والجدير بالذكر أن هذه الممالك والدول قد اتخذت من النظم العربية الإسلامية نموذجا في الحكم، ومن ثمة ازدهار الحياة العلمية وتكثيف التبادل العلمي والثقافي بين غرب إفريقيا والعالم الإسلامي، الأمر الذي ساعد على انبثاق حضارة واضحة المعالم في هذا الجزء من القارة السمراء.

ونظرا لتقهقر الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ابتداء من نهاية القرن السادس عشر ميلادي بسبب عوامل سياسية وسوسيو-اقتصادية لها علاقة مباشرة بالحروب الطاحنة بين الأفارقة أنفسهم والتهديدات الخارجية التي تجلت في حملة السلطان المغربي المنصور الذهبي على غرب إفريقيا، وظهور البرتغاليين على مسرح الأحداث بفتح مراكز تجارية على طول الشريط الساحلي المطل على المحيط الأطلسي وتشجيع تجارة الرقيق، إلا أن بعض الزعماء الأفارقة أرادوا إحياء الممالك الإفريقية في غرب إفريقيا بالاعتماد على ميكانيزمات سياسية وثقافية ودينية تتجلى في مواصلة رسالة نشر الحضارة العربية الإسلامية والقضاء على

استفحال الوثنية في أجزاء من غرب إفريقيا لا سيما نيجيريا. ولعل أهم حركة جهادية في بداية القرن التاسع عشر هي تلك التي قادها عثمان بن الفودي الذي وحد شمال نيجيريا تحت رايته وأرسى دعائم دولة اعتمدت على النظم العربية الإسلامية في مسألة الحكم، وعلى هذا الأساس ارتأينا في بحثنا هذا تسليط الأضواء على حقبة زمنية برز من خلالها زعماء أفارقة قرروا مواصلة تبليغ الرسالة في غرب إفريقيان وكان من أبرزهم الشيخ عثمان بن الفودي.

وأيا ما كان الأمر، فسنحاول من خلال هذا المقال التطرق إلى تطور الحركة العلمية في غرب إفريقيا مع إبراز الدور الذي لعبته الحضارة العربية الإسلامية في عصرنة المجتمع الإفريقي لاسيما في فترة إحياء الممالك الإسلامية في بداية القرن التاسع عشر والدور الذي لعبه عثمان بن فودي في نشر الإسلام في بعض المناطق النيجيرية التي تمسكت بوثنيتها. وعلى هذا الأساس، فإن تبني الشيخ عثمان بن فودي للنظم العربية الإسلامية في مسألة تسيير دولته في ما يعرف بشمال نيجيريا، كان يهدف إلى العمل على تطوير المجتمع من خلال بعث حركة علمية تواكب التحولات التي كان يشهدها السودان الغربي باستفحال تجارة الرقيق وظهور الخطر البريطاني الذي أضحى يهدد غرب إفريقيا بصفة عامة ونيجيريا بصفة خاصة.

ومن هذا المنطلق، سنحلل تحليلا دقيقا وعلميا دور الحضارة العربية الإسلامية في تطوير الحركة العلمية في غرب إفريقيا مع التركيز على فترة إحياء الممالك الإسلامية، وعليه ولإعطاء هذا الموضوع حقه تتبادر إلى الذهن مجموعة من التساؤلات نراها ضرورية لتفسير الأحداث و استخلاص النتائج. **فما هو الدور الذي لعبته الحضارة الإسلامية في تطوير الحركة العلمية في غرب إفريقيا؟ وهل ساهمت حركة الكتابة والتأليف في تطوير الحركة العلمية في غرب إفريقيا؟ وما هي الميكانيزمات التي اعتمدها الشيخ عثمان بن فودي في بعث الحركة العلمية في دولة الفولاني؟ وما هي أثار هذه الحركة على مستقبل غرب إفريقيا؟**

وانطلاقا من هذه التساؤلات سنحاول في هذه الدراسة استخلاص النتائج، وذلك قدر المستطاع إلى إزالة الكثير من الغموض الذي يكتنف تاريخ إفريقيا بشكل عام وغربها بشكل خاص.

I- الحركة العلمية في غرب إفريقيا:

I-I- حركة الكتابة والتأليف:

ازدهرت الحركة العلمية واشتهرت منطقة إفريقيا، جنوب الصحراء بكثرة علمائها وفقهائها وأئمتها، واحتفظت بمكانتها العلمية والثقافية -حتى في أوقات ضعفها السياسي- كمراكز كبرى للثقافة والعلم.

وإضافة لدراسة القرآن الكريم والشريعة الإسلامية، ازدهرت أيضا العلوم التي شملت جميع أمور الحياة كمناهج النحو والعلوم الفلسفية والرياضيات والمنطق وعلم النفس والهندسة والفلك والأدب والطب والتاريخ والرحلات وفن الكتابة (الخط) والتراجم.

تأسست في غرب إفريقيا مراكز إشعاع ثقافي إسلامي كبيرة، ومن أبرز المدن التي ارتبط اسمها بالعلم نجد تمبكت وجاو وجنى وصنعى وصكوتو وحمد الله، حيث استقدم حكامها وشيوخها كأحمدو لوبو والشيخ عثمان بن فودي ومحمد بيلو العلماء من شتى الأنحاء ووفروا لهم كل أسباب العيش طلبا للعلم. وكان العلماء يحضرون كتجار وحاملي علم فنشروا علمهم الغزير وثقافتهم الإسلامية الواسعة فازدهرت الحياة الثقافية في كافة المنطقة.

عرفت مدينة تمبكت[2] حركة علمية زاخرة واشتهرت بكثرة العلماء والفقهاء والأئمة الذين كانوا يعاملون معاملة كلها احترام وتقدير وتعظيم[3]، فازدهرت الحركة العلمية وأقبل الناس على اقتناء الكتب رغم ارتفاع تكاليفها خصوصا إذا ما علمنا أن هذه الكتب تتناول كل فروع العلوم الإسلامية[4].

وفي هذا السياق، تطورت حركة التعليم في غرب إفريقيا بفضل المدارس التي أنشئت في تمبكتو وسوكوتو وتوافد عليها الطلاب والأساتذة، كما شهدت لأول مرة اتساع التعليم الجامعي، ومن ثمة ساهم الأساتذة الوافدين من بلدان المغرب

العربي في تنشيط التعليم وتعميقه، وشرع هؤلاء العلماء في الإنتاج، فكتبوا شروحا لعدد من المؤلفات الهامة التي كتبت خارج السودان[5].

وما يمكن قوله في هذا المجال، أن العلماء قد عكفوا على تعليم اللغة العربية فتعلموها لغة وأدبا، وألفوا بها كتبا كثيرة في شتى الفنون، وأنتج العلماء مؤلفات، كثيرة كما ألفوا كتبا ورسائل عالجوا فيها الكثير من المشكلات الدينية والاجتماعية والسياسية، مثل مؤلفات الشيخ محمد بلو ككتاب الطب النبوي، والقول السنا، وكتاب محمود تكر قرى الأحبة في بيان سر الأسماء.

لقد حوت جميع هذه الكتب معلومات وافية في الطب، وطرق علاج بعض الأمراض، وكانت أيضا لبعض العلماء ميول أدبية ساعدتهم على التأليف في مجال الشعور النثر.

ويذكر أن عددا من معاهد العلم قد نشأت في كنف الخلافة الصكتية وانتشرت في معظم ولايات الدولة وأجزائها المترامية، وأول هذه المعاهد وأهمها معهد صكت، أو معهد الشيخ عثمان الذي كان من أكبر المعاهد الدينية، والذي تفرغت منه عدة فروع لا في صكت وحدها بل في جميع أنحاء الدولة، إلا أن نشاط هذا المعهد بدأ يتضاءل بعد وفاة محمد بلو عام 1837، رغم الجهود الكبيرة التي بذلها ابنه علي الكبير عام 1842.

كما أنشئت معاهد أخرى في صكت نفسها أهمها معهد غداد بن ليم الذي أسس في عهد الشيخ عثمان وكان من أكثر المعاهد نشاطا في نشر العلم، وقد كان مؤسس هذا المعهد عالما متفننا كرس جهده في تطوير هذا المعهد، وبعد وفاته خلفه ابنه عبد القادر في التدريس في هذا المعهد.

وقد ظهرت في هذه الفترة عددا من المعاهد التي كانت تدل على الرقي الفكري مثل معهد الشيخ عبد الله بن فودي في غوند، بالإضافة إلى معهد الحنبليين في كاتيسنا، ومعهد جوما في زاريا، ومعهد حسن غرن في أداماوا، ومعهد المعلم دندو في بيدا.

ساعدت هذه الأجواء العلميّة والدينيّة على إيجاد لفيفٍ من العلماء والفقهاء في هذه البلاد الذين أسهموا في نشر الإسلام وبثّ ثقافته، ومن بين هؤلاء العلماء

الذين برزوا في مراحل مختلفة من الزمن والذين كان لهم الدور الكبير في ميدان العلم والتأليف نذكر محمد بن عبد الكريم المغيلي، الذي ترك العديد من المؤلفات التي كان لها بالغ الأثر في الحياة العلمية والثقافية في غرب إفريقيا، منها البدر المنير في علم التفسير، **مصباح الأرواح في أصول الفلاح، شرح مختصر الخليل، مفتاح النظر في علم الحديث، شرح جمل الخونجي في المنطق**، ففي نفس السياق قام المغيلي بمراسلة السيوطي وانتصر لأراء أرسطو في المنطق، فتأثر بآرائه الكثير من علماء إفريقيا وساروا على منهجه ونشروا مؤلفاته التي تدرس إلى اليوم[6].

كما نذكر من علماء المنطقة، أحمد بابا التنبكي[7]، كما شهد الغرب الإفريقي عددا لبأس به من العلماء لازالت آثارهم العلمية إلى اليوم مثل:

I- القاضي محمّد بن أحمد التّادخي من علماء كسينا، لقي المغيلي وزكريا الأنصاري وعبد الحق السنباطي واللقاني وغيرهم، توفي سنة (930هـ).

2- الشّيخ عبد الله ثقة الفلاني الكشناوي: رحل إلى أغْدز، وفان، وتكده في طلب العلم، ثمّ رجع إلى كسينا، وتصدّى للتدريس بها، له منظومة في المواعظ والحكم في نحو ألف وخمسمائة بيت أسماها (عَطيّة الْمُعطي)، ويقال: إنّه أوّل مَن حفظ كتب السنة في هذه البلاد.

3- الشيخ العاقب بن عبد الله المسوفي، الذي تتلمذ على يد الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، له دور بارز في الحياة العلمية في غرب إفريقيا، وذلك لما تميز به من إنتاج فكري تجاوز حدود الغرب الإفريقي، ومن آثاره العلمية: أجوبة الفقير من أسئلة الأمير، وهي مجموعة فتاوى استفتاه فيها الأسكيا محمد الكبير، وكذلك تعليق على قول الخليل، وقد ذكر الشيخ أحمد بابا التمبكتي كل مؤلفاته في كتابه نيل الابتهاج لتطوير الديباج[8].

4 - الشّيخ جبريل بن عمر: شيَخ شيوخ زمانه وهو الرّجل الذي أثّر في الشّيخ عبد الله بن فودي، وكان له دور وجهد بارز في محاربة البدع والفساد في بلاد (الهوسا). يقول عنه الفودي في كتابه: "**إيداع النسوخ فيما أخذت عن الشيوخ**": "وله شهريه في العلماء شرقا وغربا تغني عن ذكر شمائله، أخذت عنه كتب أصول

الفقه، وجمع الجوامع وشروطها، وقرأت عليه بعض تواليفه"[9]. ثم جاء الشيخ عثمان بن فودي الذي يعتبر امتدادا طبيعيا لهذه الحركة العلمية الدينية، التي تعتبر في نظره السلاح الحقيقي في وجه النهوض من الخروج من الجهل من جهة والتصدي للغزاة الأوروبيين من جهة أخرى.

2-الحركة العلمية في دولة الفولاني ودور الشيخ عثمان بن فودي فيها:

تطورت الثقافة العربية الإسلامية وازدهرت في زمان الشيخ عثمان بن فودي وصار الشيخ إماما للمسلمين ومجددا لأمور الدين فظهرت مجموعة كبيرة من المؤلفات للشيخ وأتباعه لتوجيه الرعية وحل مشاكلها وإرشادها في أمور الدين، كتبت هذه المؤلفات بالعربية ولغة الفلاني ولغة الهوسا خدمة للمسلمين.

وقد أورد البروفيسور ميري لاست في كتابه خلافة سكتو، أورد 88 كتابا للشيخ عثمان دان فودي في مختلف العلوم الشرعية والعربية و قضايا المجتمع، ثم 98 كتابا للأمير محمد بيلو[10]، بن عثمان دان فودي الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه الشيخ عثمان بن فودي، ومؤلفات أخيه عبد الله دان فودي التي بلغت 77 كتابا وقد تزيد كثيرا عن هذا العدد (كان يلقب بعربي السودان).

كانت كتبه بلغة عربية مبينة، تضاهي لغة أعظم الكتاب شعرا ونثرا ونحوا وصرفا وعروضا وفقها وحديثا وفي التوحيد، وخير دليل على هذا الإنتاج الغزير لهؤلاء العلماء وغيرهم في ميدان الثقافة العربية الإسلامية، الأعداد الكبيرة من المخطوطات التي جمعها المرحوم الأستاذ بشير عثمان من القرى والمدن و قد أودعها دار الوثائق بسكتو بعد أن نظمها وجعل لها نظم فهرست حديثة طبقا لما هو موجود في أكبر المكتبات ودور الوثائق في العالم، ولكن يلاحظ بعد سقوط الدولة السكتية بدخول المستعمر أصاب الثقافة العربية الإسلامية ضعف شديد وانهيار نتيجة للحرب المنظمة التي شنها الاستعمار ضدها، و ذلك بغرض فرض لغته بالقوة، وكتابة لغة الهوسا بالحرف اللاتيني بعد أن كانت مكتوبة بالحرف العربي.

ثم تحول التعامل في دواوين الدولة إلى اللغة الانجليزية، وحصرت العلوم الإسلامية في نطاق ضيق، وقد استمر هذا الوضع في نيجيريا حتى الاستقلال.

ويرى الشيخ عثمان دان فودي أن أهم طرق الإصلاح تعتمد على ضرورة إبلاغ دعوته لجميع الناس، وتعتبر الكتابة أهم الطرق التي تحقق هذا الهدف، لذلك لم يدخر الشيخ عثمان جهدا في التأليف وباللغتين العربية والفولانية وغيرهما مما يستطيع إليها سبيلا.

فقد بلغت مؤلفات الشيخ عثمان ما يفوق الألف بين الكتب والمقالات في مختلف المجالات السياسية، الاجتماعية والثقافية خلال فترة دامت الأربعين سنة حسب ما يذكره ابنه محمد بللو في كتابه "إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور"[11].

كما يذكر بللو أن مؤلفات والده يمكن أن تقسم إلى ثلاثة أقسام:

أ- **مؤلفاته خلال الفترة بين 1774 إلى 1804**، وقد عالجت قضايا الإيمان و الكفر في الغالب، وإحياء السنة النبوية، ومحاربة البدع، وحقوق المرأة المسلمة، وحملت مؤلفاته حول هذه القضايا العناوين التالية:

* إحياء السنة وإخماد البدعة
* بيان البدعة الشيطانية التي أحدثها الناس في أبواب الملة المحمدية
* تنبيه الإخوان على جواز اتخاذ المجلس من أجل تعليم النساء الفرائض الدينية

ب- **مؤلفاته خلال الفترة من1804-1810**: وتناولت أعماله في هذه المرحلة موضوعات ومسائل فكرية عقائدية مثل دواعي الهجرة و الجهاد، ظهور المهدي المنتظر، مبادئ العدالة الاجتماعية... ومن تلك الكتب:

* بيان وجوب الهجرة
* النبأ الهادي إلى أخبار الإمام المهدي
* أصول العدل لأوليات الأمور وأهل الفضل

ج-**مؤلفات المرحلة بين1810-1817**: التي عالج من خلالها الأصول الفكرية للمؤسسات الإسلامية التي تقوم عليها الدولة المبنية على قواعد الشريعة في ضوء القرآن والسنة وممارسات الصحابة، كما بررت هذه المؤلفات قيام الجهاد في تلك المنطقة من إفريقيا والأهداف التي يرمي إليها وأهم تلك المؤلفات:

* كتاب الفرق
* نجم الإخوان
* سرج الإخوان
* نصيحة أهل الزمان [12]

وما يمكن ملاحظته من خلال فترات وعناوين هذه الكتب أن الشيخ عثمان أراد أن يتبع من خلالها منهج القرآن الكريم في النزول و سيرة النبي الكريم في بناء دولته، حيث كان هدف القرآن في أول الأمر هو تبيان الفرق بين الإيمان والكفر خاصة في السور المكية، ثم أن محمدا عليه الصلاة والسلام بدأ بناء دولته بالهجرة، ثم الدعوة إلى المؤاخاة، و تبيان أحكام الدين، كما أرسل عددا من الرسل إلى الحكام والملوك لشرح الرسالة، وهو نفس الشيء الذي قام به الشيخ عندما أرسل عددا من الرسل لمختلف الأقاليم الغربية في إفريقيا، وبعد ذلك جاء الأمر بالجهاد في سبيل إرساء قواعد الدين ومحاربة الشرك وإقامة الدولة الإسلامية.

3- الحركة الشعرية:

لم يتخل الشعر عن مكانته في منطقة غرب إفريقيا، بل لعب نفس الدور الذي لعبه الشعر في الجاهلية وأثناء دعوة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وكذا المراحل المختلفة للدولة الإسلامية، فلعب الشعر دور الداعي للجهاد، المؤيد للدعوة، والآمر بالمعروف، الناهي عن المنكر، وكان علماء المنطقة من السباقين لاستعمال الشعر في مختلف مجالات الحياة الدينية، الثقافية والسياسية منها لما له من وقع في نفسية الفرد الإفريقي، وكان نظم الشعر يسير بنفس الطريقة التي كان ينظم بها وقت الجاهلية. وكانت القصيدة تبدأ بالوقوف على الأطلال ثم يصف مراحل الحياة، لينتقل بعد ذلك للزهد ثم يخلص إلى مدح ممدوحه.

وخير مثال لذلك شعر الأمير محمد البخاري بن عثمان دان فودي يمدح عمه الشيخ عبد الله دان فودي قائلا:

أصحوت أم هاجت هواك منازل عفى معارفها البلى وهواطـــل

دار عهدت بها الحلول وكـل من أهوى معي والعيش غض باجل
ولقد وقفت برسمها مستخيـرا عن أهلها والدمع مني ســـائل
لله درك هل وقوفك نـــــافع برسومها أم هل لدمعك طائـل
فده الديار وذكر أخدان الهوى وخرائد في مشيها تتمـــــايل

ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى الزهد قائل:

وأسلك طريق أولي الهداية و اغتنم فرصا تمر وأنت عنها غـــافل
وأزهد عن الدنيا فإن نعيمـــــها أضغاث أحلام وظل زائـــل
وأبغ السيادة بالعلوم فما استـــوى في المجد ذو العلم ومن هو جاهل
صرف بقايا العمر في تحصيلـــها فالعلم أفضل ما حياه الآمـــل
واركب جواد المجد فيه فما استوى نيل المجد ونيل من يتكـــاسل
وتنحى عن أهل الدعاة وكل من شغلته تجارة ومحـــــــافل
وأصحب أولي العزم الهداة فإنهم للمقتدين كـــواكب لا تأفل

ثم ينتقل الشاعر إلى ممدوحه قائلا:

لقد حباك الدهر شيخـــــا ماله في العلم في تلك الأراضي ماثل
أعني إمام العصـــــر عبد الله من ساد الشيوخ النيل من هو شابل
شيخ العلـــــوم خديمها تباعها خدن التقى الخبر النبيل الكـامل
علم الهدى سعد الزمان عمـــاده حان رفيق بالأنام حلاحـــل
ذو شدة في دينه متواضـــــع ذو هبة بر أمين عـــــامل
علامة القرآن حاوي السبق في علم الحديث وفي البلاغة كـــافل

ويعتبر المدح من أبرز أنواع الشعر، لما له رواج كبير و اهتمام بالغ مثل مدح الرسول، لأن زعماء الدولة كان همهم الأول إعلاء شأن الدين، وإظهار مبادئه العظيمة بين الناس، وتغيير سلوك المجتمع إلى التعاليم الإسلامية التي تسمو بالبشرية وتنفيها.

وتجدر الإشارة إلى أن الشعراء كانوا من مختلف طبقات المتعلمين، وهم في مواقع الدولة المختلفة، مثل الوعاظ، والقضاة، والوزراء، وقادة الجيش، والمدرسين، وأئمة المساجد، ورجال المهن...

وكان شعراء المدح يختلفون عن الشعراء العرب في الشرق الذين يمدحون الأمراء والخلفاء للتكسب بالشعراء. أما شعراء سكتو فإن مكانتهم الاجتماعية لا تسمح لهم بذلك لأن منهم الوزراء وكبار العلماء ورجال الدولة.

وما وصل إلينا من شعر المدح في تلك الفترة قليل وهو ينحصر في الآتي:

I) مدح الرسول صلى الله عليه و سلم.
2) مدح الأمراء و الوزراء.
3) مدح الأولياء.
4) مدح قادة الجيش الذين يحققون الانتصارات للإسلام.

وأياما كان الأمر، فإن الغرض من المدح هو إظهار ما يتحلى به الممدوح من الصفات العظيمة والمحامد والمكارم ليتأثر بذلك الآخرون، ولا يمدحون للتكسب، كما أشرنا إلى ذلك سابقا، مثل ما كان يفعل المتنبي والحطيئة والفرزدق وجرير وبشار وغيرهم، وقد وضع مؤرخو الأدب الشعراء النيجريين في تلك الفترة في ثلاث مجموعات.

المجموعة الأولى التي وصلت إلينا أشعارها هي:

I) الشيخ عثمان دان فودي.
2) الشيخ عبد الله دان فودي.
3) الشيخ سلطان بيلو بن عثمان دان فودي.
4) السيدة أسماء بنت عثمان دان فودي.
5) السيدة مريم بنت عثمان دان فودي.
6) الشيخ عبد القادر بن المصطفى.

هذه المجموعة هي صاحبة الريادة في الأدب والشعر في دولة صكة[13].

4-الدور الثقافي للمحاضر:

لا يمكن الحديث عن النشاط الثقافي في منطقة ما دون الحديث عن المحاضر التي تعتبر الرافد الأساسي للمنطقة، وإذا تحدثنا في السابق عن الدور الثقافي والعلمي من خلال دول مستقلة ذاتيا نوعا ما، فإننا سنحاول في هذا الباب من المبحث أن نتطرق لنشاط المحاضر في هذا المجال في موريتانيا التي كانت تحت نير المستعمر الفرنسي، ومن خلال ما سيأتي في البحث نلاحظ ذلك الدور الكبير الذي لعبته المحاضر في موريتانيا في سبيل نشر الدين الإسلامي والحفاظ عليه، وكذلك تعليم اللغة العربية، وباقي الميادين المعرفية، ومن بين أهم هذه المحاضر نذكر محضرة (أو حضرة) الشيخ محمد فاضل في منطقة الحوض، مدرسة الشيخ ماء العينين في إدرار ومنطقة شمال موريتانيا ومحضرة الشيخ سعد أبية، وكذلك محضرة الشيخ سيديا ياب في منطقة الجنوب والجنوب الغربي الموريتاني وكذلك محضرة الشيخ التراد بن العباس في منطقة الحوض الشرقي، وقد شكلت المحاضر التي أقامها أقطاب القادرية الأوعية التي يتلقى فيها أبناء الطريقة خاصة والشعب الموريتاني عامة علومهم ومعارفهم.

ولقد حاول الشيوخ بفضل نشاطهم المتواصل أن يؤسسوا مجموعة كبيرة من المحاضر في كل أنحاء التراب الموريتاني، وأن يجمعوا في هذه المحاضر مجموعة من العلماء ذوي الاختصاصات العلمية المتعددة. وكان حضورها فعالا في الإنتاج الثقافي في البلاد، خاصة في القرن الـ 19، فكان أشياخها فقهاء بارزون وأصحاب محاضر كبيرة كما كان إنتاجها الفكري والفقهي والأدبي عم البلاد سواء عن طريق مؤلفاتها أو عن طريق محاضرهم الكثيرة الانتشار[14].

ومن أهم الأعلام الذين بذلوا جهودا مضنية في سبيل العلم نذكر الشيخ محمد فاضل ونظرا لغزارته العلمية وسعة ثقافته، فقد استطاع أن يؤسس لعطاء ثقافي وعلمي من خلال تشكيل محضرة الشيخ محمد فاضل ومحاضر أبناءه من بعده التي بقيت تعمل بتوجيهاته[15]. وقد عمل على نشر علمه لباقي مناطق موريتانيا،

فقد أرسل أبنائه الثلاثة في كافة أنحاء موريتانيا وحتى خارجها، ليعلموا الناس دينهم ابتغاء الدار الآخرة.

وقد كان للشيخ محمد فاضل مؤلفات قيمة، وقد تعددت المحاضر بعد وفاة الشيخ محمد فاضل بتعدد بنيه وأحفاده، وإن تفاوتت بشكل ما بين أحجامها وعطاءاتها، ولعل من أهم هذه المحاضر، المتأخرة زمنيا، تلك التي أسسها الشيخ التراد بن العباس بعد استقراره في منطقة اكوينيت في الفترة (1933/ 1945)[16] وتخرج منها علماء ما يزال بعضهم حيا متشبعًا بآراء المدرسة الترادية.

ازدهرت هذه المؤسسات وازدهر معها العطاء الثقافي في موريتانيا حتى ظهر من بين أهلها فطاحله علماء وأدباء لا يقلون شأنا عن مشايخ التنوير في الشرق العربي[17]. وقدم هؤلاء العلماء مجموعة كبيرة من التأليف والمصنفات التي تنم عن سعة إطلاع أصحابها.كما كانت هذه المؤلفات هي الأوعية العلمية التي اضطلعت برسالة التعليم في موريتانيا، مما ساعد هذه المحاضر على وضع الأسس العلمية التي اعتمدت عليها البلاد كما عرفت ازدهارا عظيما في عهد الشيخ سيدي الكبير وابنه محمد الذي ساهم مساهمة فعالة في جعلها تستمر في بث إشعاعها الثقافي والتعليمي بوصفها واحدة من أشهر محاضر القادرية في بلاد شنقيط، الأمر الذي مكنه من إتباع طريقة حديثة في التدريس بمحضرته مثل إلقاء الدروس حسب جدول زمني محدد ومرسوم وجعل الدروس تشمل جوانب مختلفة من العلوم كتدريس المنطق، إلى جانب الأدب والفقه والمعارف الشرعية الأخرى وفي هذا السياق، كان يعقد اجتماعات دورية مع الأستاذة والوجهاء ليتدارس معهم المشاكل المطروحة وأخذ يجلب الكتب النادرة من المغرب والسنغال مما جعل مكتبة المحضرة تأخذ نفسا جديدا مع قائمة الكتب النادرة والنفيسة التي جلبها لها ووفرت لطلاب محضرته فرصة الإطلاع على بعض نفائس الكتب التي سمعوا بها إلا أنه لم يكن بمقدورهم الحصول عليها لغلائها وبعدهم عن أماكن توفرها، وقد استعاد من اقتنائه لتلك الكتب ليس فقط بما يتعلق بالعلوم الشرعية والأدب بل أنه تمكن من خلالها من الإطلاع على أحوال العالم في ذلك الوقت السياسية والاجتماعية والثقافية.

أما فيما يخص محضرة الشيخ ماء العينين، فإنه بعد أن قضى المرحلة الأولى في تحصيل العلوم وتلقى التربية الروحية على يد والده الذي أذن له شيخه ووالده بالرحيل إلى منطقة جديدة بعيدا عن منطقة والده، دخل الشيخ في المرحلة الثانية، وهي مرحلة العطاء العلمي والروحي، وتمثل مرحلة العطاء العلمي وتظهر في كثرة تأليفه العلمية وما تتلمذ عليه من الجموع الغفيرة من البشر بمدرسة بالسمارة حيث أصبحت كعبة للطلاب وسوقا للعلم والأدب رائجة حتى فاق عدد تلاميذ عشرة آلاف.

وكان لاسمارة مميزات خاصة في قلب الصحراء الغربية حيث كانت ربطا روحيا وفكريا تنشر فيه المعارف الدينية واللغوية، ومركزا للجهاد، ونظرا لما بمحضرة الشيخ ماء العينين من مكانة عظيمة في موريتانيا أطلق عليها اسم مدرسة. وانطلاقا من حرص الشيخ على الهوية العربية والدين الإسلامي باعتباره الوحدة العقائدية التي يلتف حولها المسلمون، فجر الشيخ فكرة الجهاد، ومثلت اسمارة الوجه الأكثر نصاعة وأوضح وأكثر أهمية من حيث أنها خرجت مريديها على فكرة كراهية الاستعمار الأجنبي وكما كانت اسمارة جامعة علمية ومكتبة كان لها إشعاعها الرائدة في هذه الصحراء المترامية الأطراف ورغم وقوعها تحت قبضة الاستعمار سنة 1910 وفقدها بذلك الكثير من ذخائرها العلمية وكنوزها الدينية غير أن ذلك لم يفقدها قوتها الثقافية وإشعاعها الديني بل أصبحت تشع به على الكثير من المناطق الشمالية التي استقطبت الكثير من الزعماء في رفع الإشعاع الثقافي ضد الغزو الفكري الاستعماري.

بالرجوع إلى ما سبق، يخلص الدارس إلى الاستنتاجات التالية:

I- شهدت منطقة غرب إفريقيا تطورا شاملا تميز بتبني أهلها أفكارا جديدة ونشاطات لم يعرفوها من قبل، فاعتنق غالبيتهم الدين الإصلاحي وأجاد علماؤها اللغة العربية وأسهموا في الكتابة والإبداع، كما تراجعت التقاليد الوثنية وتقلص محيط الاستسلام لمظاهر الطبيعة.

2- انبثقت نظم جديدة في الحكم مستوحاه من النظم العربية الإسلامية، كما حج بعض ملوك غرب إفريقيا وجلبوا معهم الكثير من التقاليد في الاستشارة والوزارة والبلاط.

3- يبرز دور الحضارة العربية الإسلامية في تطوير الحركة العلمية في غرب إفريقيا في إسهامات العلماء والفقهاء في تطوير العملية التعليمية، وكذا تأليف الكتب و تشييد المساجد وبناء المدارس وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن هؤلاء العلماء كان لهم دورا رائجا في نشر العلم والثقافة العربية الإسلامية، إضافة إلى تقلدهم مناصب في الدولة أهمها المناصب القضائية في عهد ملوك مالي ن سنغاي وشمال نيجيريا في فترة حكم عثمان بن فودي.

4- انعكست الآثار الإيجابية للحياة العلمية على الجانب الاقتصادي بصفة عامة وعلى التجارة بصفة خاصة، خصوصا إذا علمنا أن النشاط التجاري ساهم بقدر كبير في ازدهار الحواضر والنشاط العلمي. وعليه، فالرخاء الاقتصادي كان وراء تقهقر ظاهرة الفقر، وساعد على الإنفاق في بناء المساجد و المعاهد.

5- إن غرب إفريقيا كانت مركز إشعاع أفرزت حضارة هي امتداد للحضارة العربية الإسلامية في شمال إفريقيا بحيث ساهمت في نشر الإسلام والتعريف به في باقي بلدان القارة الإفريقية، ولعل الحواضر والمراكز العلمية والمدن التاريخية شاهدة على ذلك.

6- كانت شعوب غرب إفريقيا بفضل الروابط والعلاقة مع شمال الصحراء تبني حضارة تضاهي بها الحضارات المجاورة بفضل العلوم والمراكز العلمية التي كانت منتشرة، حتى أن تجارة الكتب كانت رائجة أكثر من تجارة الذهب.

7- بالرغم من دخول منطقة غرب إفريقيا مرحلة الانحطاط خلال القرنين17/ 18م إلا أن نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر شهدت حركة إحياء العلم قام بها علماء وزعماء في العديد من مناطق غرب إفريقيا لا سيما تلك التي ظلت على وثنيتها، وكان من أبرزهم عثمان بن فودي[17].

8- تشاء الأقدار أن تتوقف مسيرة المجتمعات الإفريقية في مواصلة بناء كياناتها الوطنية شبيهة بتلك التي تبنتها أوروبا بعد الثورة الفرنسية سنة 1789م بسبب رواج تجارة الرقيق والتوغل الأوروبي في إفريقيا بحيث ساهم هذان العاملان في

اختفاء هذه الإمبراطوريات والممالك ،إضافة إلى الحروب الطاحنة فيما بينها والتي كان يغذيها أعوان الإمبريالية من جهة، والغزو الأوروبي من جهة أخرى. وعليه يذكر الرئيس الكيني الأسبق جومو كينيتا في مؤلفاته: أن الأنظمة السياسية الإفريقية كانت أكثر ديمقراطية من النظم السياسية الأوروبية قبل التواجد الأوروبي في إفريقيا[18].

الهوامش :

1- هو عثمان بن محمد بن صالح بن هارون بن محمد بن رجب بن فودي، وكلمة فودي تعني الفقيه في لغة الهوسا وهم سكان المناطق الشمالية في نيجيريا الحالية.وقد ولد الشيخ عثمان في سوكوتو سنة1754م وتنحدر عائلته من قبائل الفولاني الذين هاجروا إلى نيجيريا في السابق قادمين من منطقة أعالي نهر السنغال في جمهورية السنغال الحالية،و كانت عائلة الشيخ عثمان قد توارثت العلم و الثقافة منذ مدة قبل ولادته، وهذا ما أتاح له فرصة التعلم على والده مبادئ علوم العربية أصول افقه وحفظ القرآن الكريم،كما تتلمذ على يد الشيخ جبريل بن عمر الذي يعتبر مكن اكبر علماء السودان الوسط .وتمتد مرحلة العمل على نشر الدعوة من سنة1785 إلى غاية1803م.حيث تكاثر أنصار الشيخ بن فودي بعد استقراره قي مدينة سوكوتو التي أسسها وجعلها عاصمة لحركته .تزعم الشيخ عثمان بن فودي حركته الجهادية و انتصر على خصومه أمراء بلاد الهوسا وكون فيها دولته الإسلامية تحت إمارته،وقد استمرت فترة جهاده من سنة1803 على سنة1810 ن تلقب الشيخ عثمان بلقب أمير المؤمنين في دولته الفترة بين1810 غلى1817 حيث وافته المنية.و للشيخ عثمان حاليا في الجامعات النيجيرية وعند الخواص مجموعة كبيرة من الرسائل في مواضيع شتى ومن أهم تلك المواضيع نذكر:

أ-رسالة في أصول الولاية

ب-رسالة في إحياء السنة وبيان البدع

ت-رسالة في الجهاد

للمزيد من التفاصيل أنظر:زبادية،عبد القادر:دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب و المسلمين.ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،2010،ص78-81

2-تأسست مدينة تمبكت والى القرن الحادي عشر، وقد أسسها الطوارق(إيغمراشن) حينما اتخذوا من مكانها مشتى لهم في حدود دلك التاريخ،ويقال أن اسمها اتخذ من اسم العجوز التي كان الطوارق قد عهدوا إليها بالبقاء في ذلك المكان، حينما يغادرونه في رحلتهم الصيفية، وكانت تحرس لهم بيوتهم ومخازنهم، ثم تحول المكان لسوق ن وفي أيام كنكان موسى ملك مالي (القرن الرابع عشر) بني له فيها قصر ضخم، كما أسس أول مساجدها المسمى (دنقربير)، فبدأت حركة الهجرة للمنطقة وزاد سكانها فأصبحت المدينة تجمع بين التجارة و العلم وقد بلغت مرحلة الأوج في الفترة الممتدة بين 1496و1591 حيث اتخذت المدينة شكل المدن العصرية في نمط هندستها الذي يشبه البناء المغربي-الأندلسي. انظر عبد القادر زبادية :الحضارة العربية و التأثير الحضاري في إفريقيا جنوب الصحراء ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1988،ص61وللمزيد من التفاصيل انظر , Robert Cornevin. Histoire del'Afrique,Payot,Paris,p356t

3- ومما تجدر الإشارة إليه أن مدينة تمبكت كانت محطة للقوافل التجارية في غرب إفريقيا ن كما كان يقصدها الطلاب ، وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن مدينة تمبكتو تبوأت مركز الريادة في مسألة انتشار العلم و الثقافة و العمران و التجارة.

للمزيد من التفاصيل أنظر:

Robert Cornevin ,op.cit.p356

4-البكري أبو عبد الله بن عبد العزيز،المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب، القاهرة،دار الكتاب الإسلامي،د.ت. ص 287- 288.

5- عبد القادر زبادية، الحضارة العربية و التأثير الأوروبي في غرب إفريقيا الغربية جنوب الصحراء،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر؟،1989،ص 62-63

6 - الشيخ بوعمران، معجم مشاهير المغاربة،الجزائر1995،ص505

7- يذكر الشيخ أحمد بابا التمبكتي أن مكتبته كانت تضم حوالي ألف وستمائة مجلد وهي أصغر مكتبة في أسرته، ويصف لنا عن الشيخ محمد بن ابي بكر التنبكتي المعروف ببغيع من خلال كتابه نيل الابتهاج حالة العلم في وقته فيذكر:"...أضف إلى ذلك محبة العلم ومحبة أهله وكان له صبر عظيم مع طلبة العلم كان يعير كتبه النادرة و الثمينة في كل المجالات دون أن يطلب ردها ابتغاء لمرضاة الله وأحيانا ما كان يطلب من الطالب كتابا فيعطيه له دون أن يعرف من هو"، ومن دلائل أهمية العلم في المنطقة هو ما ذكره الوزان أن الكتب و المخطوطات كانت تباع وكانت تجارة رابحة حيث أن ربحها أكثر من ربح السلع التجارية الأخرى.

أنظر، جون هانويك، تراث المخطوطات الإسلامية لتنمبكتو،تر سوزي أباضة، مجلة أفريقية –عربية، مركز البحوث العربية، القاهرة، العدد06 ، 2003

8- مطير سعد غيث أحمد، الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي،دار المدار الإسلامي،لبنان،2005،ط1. ،ص273

9- أحمد محمد الكانمي، الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا،الزهراء للإعلام، القاهرة،ط1، 1987. ، ص28

10 - هو محمد بيلو بن عثمان بن فودي ، درس على أبيه بالدرجة الأولى ، كما درس أيضا على يد آخرين في بلده. وقد عرف بسعة الإطلاع على علوم عصره وخاصة الفقهية و اللغوية . وفي سنوات الجهاد الذي قام به والده الشيخ عثمان كان بلو بمثابة الساعد الأيمن له،خلف والده في الحكم سنة1817م ودام حكمه واحد وعشرين سنة، كما زار عدد من العلماء و راسلوه منهم أحمد البكاي الكنتي وكذلك الحاج عمر الفوتي الذي كانت له صداقة متينة مع محمد بيلو،باعتباره سلطانا إسلاميا وعالما كبيرا، ومن التصانيف الهامة التي تركها بيلو كتابان هامان هما:

- إنفاق الميسور في بلاد التكرور

- مجموعة الرسائل. أنظر عبد القادر زبادية: دراسة عن أفريقيا جنوب الصحراء في مآثر و مؤلفات العرب و المسلمين ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،2010. ص86

11- عثمان برايما باري ،جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، دار الأمين للطباعة والنشر، جمهورية مصر العربية،ط1،2000 ، ص119

12- شوقي الجمل، الحضارة الإسلامية العربية في غرب إفريقيا، مجلة المناهل، عدد 7، نوفمبر 1976م، ص 145.

13- آدم إبراهيم أحمد،**الثقافة العربية الإسلامية في دولة صكة الإسلامية،منشورات جامعة إفريقيا العالمية**،المؤتمر الدولي حول الإسلام في إفريقيا،27/26نوفمبر2006،ص347-350

14- محمد الأمين التوسيط في معجم بلاد شنقيط، القاهرة،دت ، ص 75، 76.

15- عمر أحمد سعيد:انتشار الإسلام في إفريقيا بين السيف و القلم، القاهرة 2000، ص330

16- إبراهيم علي طرخان، مملكة مالي الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرةن1973، ص 148، 149

17- Smith,S.Atlas de l'Afrique . Edition Autrement, Paris.2005,p79

18 - Kenyata , Jomo.Facing Mount Kenya. Présence Africaine, Paris,1960

إحصائيات الطلبة المتخرجين من قسم التاريخ بين سنتي (1979 .2011):

السيد: غليم سليمان

المكلف بمصلحة الشهادات بقسم التاريخ.

السنوات	الجزائريون		الأجانب		المجموع	الملاحظات
	ذكور	إناث	ذكور	إناث		
1979	14	28	//	//	42	معهد العلوم الاجتماعية دائرة الدراسات التاريخية من سنة 1979 إلى 1983
1980	17	20	//	//	37	
1981	20	32	//	//	52	
1982	15	25	//	//	40	
1983	14	21	//	//	35	
1984	31	43	01	//	75	معهد التاريخ من سنة 1984 إلى 1999
1985	28	31	//	01	60	
1986	27	38	//	//	65	
1987	36	43	01	//	80	
1988	25	30	//	01	56	
1989	47	52	01	01	101	
1990	71	68	01	//	140	
1991	115	117	02	//	234	
1992	120	114	01	//	235	

معهد التاريخ من سنة 1984 إلى 1999	169	//	02	79	88	1993
	200	01	//	109	90	1994
	196	//	02	108	86	1995
	226	//	//	156	70	1996
	209	//	//	119	90	1997
	165	//	//	105	60	1998
	196	//	//	137	59	1999
قسم التاريخ من سنة 2000 إلى 2011	295	//	//	229	66	2000
	440	//	//	270	170	2001
	157	//	//	102	55	2002
	131	//	//	87	44	2003
	271	//	//	172	99	2004
	532	//	//	402	130	2005
	475	//	//	260	215	2006
	326	//	//	176	150	2007
	664	//	//	454	210	2008
	432	//	//	262	170	2009
	790	//	//	427	369	2010
	798	//	//	447	340	2011
	7919	04	11	4763	3141	العدد الإجمالي